روضة المحبين

ونزهة المشتاقين

تأليف

الإمام شمس الدين محمد بن أبي بكر

ابن قيم الجوزية

ت ٧٥١ هـ

تحقيق

أبي عدي أحمد سعد

الناشر

دار البيان العربي



رَوضَةُ المُحِبِّين

وَنُزهَةُ المُشتاقِين

اسم الكتاب : روضة المحبين
اسم المؤلف : الإمام ابن قيم الجوزية
اسم المحقق : أبو عدي أحمد سعد
مقاس الكتاب : ١٧ X ٢٤
عدد الصفحات : ٣٥٢ صفحة
عدد الأجزاء : جزء واحد
رقم الإيداع : ١٠٠٣٩ / ٢٠٠٦ م



دار البيان العربي
الأزهر - درب الأتراك ت: ٥١١٨٠٩٧

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المحقق

الحمد لله ولى الحمد والتوفيق، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله الداعى إلى أقوم طريق، اللهم صل وسلم عليه وعلى آله وأصحابه الهداة المهتدين.

أما بعـــد:

فإن كتاب «روضة المحبين ونزهة المشتاقين» طبع لأول مرة بمطبعة السعادة بمصر سنة ١٣٧٥هـ، ومن المدهش فى هذا الكتاب أنه قد ألفه ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ وهو فى حال سفره بعيداً عن وطنه ومكتبته، فإنه قال فى مقدمته: «والمرغوب إلى من يقف على هذا الكتاب أن يعذر صاحبه، فإنه علقه فى حال بعده عن وطنه، وغيبته عن كتبه».

ويتلخص عملنا فى هذا الكتاب:

١- ترجمة المصنف.

٢- تخريج الأحاديث والحكم عليها من حيث الصحة والضعف.

٣- ترجمة الأعلام.

٤- توضيح الغامض من الكلمات التى وردت فى صلب الكتاب.

وكتب

أبو عدى أحمد سعد

بنها ـ ٢٦ محرم ـ ١٤٢٧ هـ

التعريف بالمصنف

١- اسمه ونسبه :

هو : أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أبى بكر بن أيوب بن سعد بن جرير بن مكى زين الدين الزُّرعى ثم الدمشقى الحنبلى، الشهير بابن قيم الجوزية .

٢- مكان ولادته وتاريخ ذلك :

تتفق كتب التراجم على أن تاريخ ولادته سنة ٦٩١هـ، فى السابع من شهر صفر من السنة المذكورة .

أما محل ولادته فكان مدينة « دمشق » .

٣- شيوخه :

إن شيوخه الذين أثروا فى تكوينه الفكرى، ونضوجه العلمى، منهم :

(أ) ابن عبد الدائم المقدسى، توفى سنة ٧١٨ هـ.

(ب) شيخ الإسلام ابن تيمية، توفى سنة ٧٣٨ هـ.

(جـ) البدر بن جماعة الكنانى الشافعى، توفى سنة ٧٣٣هـ.

(د) المزى صاحب « تهذيب الكمال » توفى سنة ٧٤٣ هـ.

٤- تلامذته :

تلامذته علماء لهم مكانتهم العلمية، وشهرتهم، ومن هؤلاء :

(أ) الحافظ عماد الدين ابن كثير، توفى سنة ٧٧٤ هـ.

(ب) الحافظ عبدالرحمن أبو الفرج بن رجب الحنبلى، توفى سنة ٧٩٥ هـ.

(جـ) ابن عبد الهادى صاحب كتاب « الصارم المنكى فى الرد على السبكى » توفى سنة ٧٤٤ هـ.

٥- ثناء أهل العلم عليه :

قال ابن كثير : (سمع الحديث، واشتغل بالعلم، وبرع فى علوم متعددة لا سيما علم التفسير والحديث والأصلين. . .) .

وقال ابن حجر : (كان جرىء الجنان، واسع العلم عارفًا بالخلاف، ومذاهب السلف) .

وقال الشوكانى : (برع فى شتى العلوم، وفاق الأقران، واشتهر فى الآفاق، وتبحر فى معرفة مذاهب السلف) .

٦- مصنفاته:

بلغت مصنفاته حوالى (٩٨) كتابًا منها:

١- أحكام أهل الذمة.

٢- اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية.

٣- بدائع الفوائد.

٤- تحفة المودود فى أحكام المولود.

٥- الطب النبوى.

٦- مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة.

٧- هداية الحيارى فى أجوبة اليهود والنصارى.

٧- وفاته:

تتفق كتب التراجم على أن وفاته - رحمه الله تعالى - كانت ليلة الخميس ثالث عشر رجب وقت أذان العشاء سنة ٧٥١ هـ، وتفيد كتب التراجم أنه صُلى عليه من الغد بعد صلاة الظهر بالجامع الأموى، ثم بجامع جراح، وقد ازدحم الناس على تشييع جنازته، ثم دفنه فى مقبرة: باب الصغير.

وكتب حامدًا ومصليًا

أبو عدى أحمد سعد

بنها/ ٢٦ محرم/ ١٤٢٧ هـ



بسم الله الرحمن الرحيم

رب يسر يا كريم

الحمد لله الذى جعل المحبة إلى الظفر[١] بالمحبوب سبيلاً، ونصب طاعته، والخضوعَ له على صدق المحبة دليلاً، وحرّك بها النفوس إلى أنواع الكمالات إيثاراً لطلبها وتحصيلاً، وأودعها العالم العلوى والسفلى لإخراج كماله من القوة إلى الفعل إيجاداً وإمداداً وقبولاً، وأثار بها الهمم السامية والعزمات العالية إلى أشرف غاياتها تخصيصاً لها وتأهيلا، فسبحان من صرَّف عليها القلوب كما يشاء ولما يشاء بقدرته، واستخرج بها ما خلق له كل حى بحكمته، وصرَّفها أنواعاً وأقساماً بين بريته، وفصَّلها تفصيلاً، فجعل كل محبوب لمحبه نصيباً، مخطئاً كان فى محبته أو مصيباً، وجعله بحبه منعَّماً أو قتيلا. فقسمها بين: محب الرحمن، ومحب الأوثان، ومحب النيران، ومحب الصلبان، ومحب الأوطان، ومحب الإخوان، ومحب النِّسوان، ومحب الصبيان، ومحب الأثمان[٢]، ومحب الإيمان، ومحب الألحان، ومحب القرآن.

وفضَّل أهل محبته ومحبة كتابه ورسوله على سائر المحبين تفضيلاً، فبالمحبة وللمحبة وُجدت الأرض والسموات، وعليها فُطرت[٣] المخلوقات، ولها تحرَّكت الأفلاك الدائرات، وبها وصلت الحركات إلى غاياتها، واتَّصلت بداياتها بنهاياتها، وبها ظفرت النفوس بمطالبها، وحصلت على نيل مآربها[٤]، وتخلصت من معاطبها[٥]، واتَّخذت إلى ربها سبيلاً، وكان لها دون غيره مأمولاً وَسُولاً[٦]، وبها نالت الحياة الطيبة وذاقت طعم

---

(١) الظفر : يقال : أظفره بعدوه : مكنه منه، والظفر : الفوز

(٢) الأثمـان : أى محبى الدراهم والدنانير، انظر «مختار الصحاح» (٨٦) والمعجم الوجيز (٨٨) ولسان العرب / مادة / ثمن.

(٣) فطرت : خلقت، فالفطرة بالكسر : الخلقة، مختار الصحاح (٥٠٦) والمعجم الوجيز (٤٧٥).

(٤) مآربها : مفردها : إرْبة، ومأربة، وهى : الحاجة، وقد أرب الرجل إذا احتاج إلى الشيء وطلبه، لسان العرب (١/ ٣٠٨).

(٥) معاطبها : العطب : الهلاك مختار الصحاح (٤٣٩).

(٦) سولاً : يقال : سولت له نفسه أمراً : زينته له، مختار الصحاح (٣٣٣).

الإيمان لما رضيت بالله ربًا وبالإسلام دينًا وبمحمد ﷺ رسولاً، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة مقرٍّ بربوبيته، شاهدٍ بوحدانيته، منقادٍ إليه لمحبته، مذعنٍ له[١] بطاعته، معترفٍ بنعمته، فارٍّ إليه من ذنبه وخطيئته، مؤمِّلٍ لعفوه ورحمته، طامعٍ في مغفرته، بريءٍ إليه من حوله وقوته، لا يبتغي سواه ربًا ولا يتخذ من دونه وليًا ولا وكيلاً، عائذٍ به، ملتجٍ إليه[٢]، لا يروم[٣] عن عبوديته انتقالاً ولا تحويلاً، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، وخيرته من خلقه، وأمينه عَلَى وحيه، وسفيره بينه وبين عباده، أقرب الخلق إليه وسيلة، وأعظمهم عنده جاهًا، وأسمعهم لديه شفاعة، وأحبهم إليه، وأكرمهم عليه، أرسله للإيمان مناديًا، وإلى الجنة داعيًا، وإلى صراطه المستقيم هاديًا، وفي مرضاته ومَحَابِّه ساعيًا، وبكل معروفٍ آمرًا، وعن كل منكرٍ ناهيًا، رفع له ذكره، وشرح له صدره، ووضع عنه وزره، وجعل الذلة والصَّغار عَلَى من خالف أمره، وأقسم بحياته في كتابه المبين، وقرن اسمه باسمه ؛ فإذا ذُكِر اللهُ ذُكِر معه، كما في الخطب والتشهُّد والتأذين، فلا يصح لأحدٍ خطبةٌ ولا تشهدٌ، ولا أذان حتى يشهد أنه عبده ورسوله شهادة اليقين:

أغرُّ[٤] عليه للنبوة خاتمٌ ... من الله ميمونٌ يلوح ويُشْهَدُ
وضمَّ الإله اسْمَ النبيِّ إلى اسمه ... إذ قال في الخمس المؤَذن أشهدُ
وشق له من اسمه ليجلَّه ... فذو العرش محمودٌ وهذا محمدُ

أرسله على حين فترةٍ من الرسل، فهدى به إلى أقوم الطرق وأوضح السبل، وافترض على العباد محبته وطاعته، وتوقيرَهُ والقيامَ بحقوقه، وسدَّ إلى الجنة جميع الطرق فلم يفتح لأحدٍ إلا من طريقه. فلا مطمع في الفوز بجزيل الثواب، والنجاةِ من وبيل العقاب[٥]، إلا لمن كان خلفه من السالكين، ولا يؤمنُ عبدٌ حتى يكون أحبَّ إليه من نفسه وولده ووالده والناس أجمعين[٦]، فصلَّى الله وملائكته وأنبياؤُه ورسله وجميع عباده المؤْمنين عليه، كما وحّد اللهَ وعرَّف أمته به ودعا إليه، صلاةً لا تروم عنه انتقالاً ولا تحويلاً، وعَلَى آله الطيبين، وصحبه الطاهرين، وسلَّم تسليمًا كثيرًا.

---

(١) مذعن: يقال: أذعن بالحق: أقر به، وانقاد وسَلِسَ.

(٢) ملتج: مسند إليه.

(٣) يرومٍ: يتحول ويطلب، فالمرام: المطلب، المعجم الوجيز (٣٨٣).

(٤) أغرٍّ: يقال: رجل أغر، أى كريم الأفعال واضحها، لسان العرب (٥/ ١٤).

(٥) وبيل: شديد، مختار الصحاح (٧٠٧).

(٦) اقتباس من قوله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين» رواه البخارى (١٥) ومسلم (١/ ٧٠/ ٦٧).

أما بعد : فإن الله جلّ ثناؤه، وتقدّست أسماؤه، جعل هذه القلوب أوعيةً، فخيرُها أوعاها للخير والرشاد، وشرُّها أوعاها للغَىّ[١] والفساد، وسلّط عليها الهوى، وامتحنها بمخالفته لتنال بمخالفته جنة المأوى، ويستحقَّ من لا يَصْلُحُ للجنة بمتابعته ناراً تلظى[٢]، وجعله مركب النفس الأمارة بالسوء وقوّتَها وغذاها، وداءَ النفس المطمئنة ومخالفتَه دواها، ثم أوجب سبحانه وتعالى على العبد فى هذه المدة القصيرة التى هى بالإضافة إلى الآخرة كساعةٍ من نهار[٣]، أو كبللٍ ينال الإصبع حين يدخلها فى بحرٍ من البحار[٤]، عصيانَ النفس الأمارة ومجانبة هواها، وردعَها عن شهواتها التى فى نيلها رداها، ومنعَها من الركون إلى لذاتها، ومطالبة ما استدعته العيون الطامحة بلحظاتها[٥]، لتنال نصيبها من كرامته وثوابه موفَّرًا كاملاً، وتلتذَّ آجلاً بأضعاف ما تركته لله عاجلاً، وأمرها بالصيام عن محارمه ليكون فطرها عنده يوم لقائه، وأخبرها أن معظم نهار الصيام قد ذهب، وأن عيد اللقاء قد اقترب؛ فلا يطول عليها الأمد باستبطائه، كما قيل :

فما هى إلا ساعةٌ ثم تنقضى ... ويذهب هذا كله ويزول

هيأها لأمرٍ عظيم، وأعدَّها لخطبٍ[٦] جسيم، وادَّخر لها ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر عَلَى قلب بشرٍ من النعيم المقيم، واقتضت حكمته البالغةُ أنها لا تصل إليه إلا من طريق المكاره والنصَب[٧]، ولا تعبُرُ إليه إلا عَلَى جسر المشقة والتعب، فحجبه بالمكروهات صيانةً له عن الأنفس الدنيّات[٨]، المؤْثِرَة للرذائل والسفليات[٩]، وشمَّرت إليه النفوس العلويات، والهمم العليَّات، امتطت[١٠] فى السير إليه ظهور العزمات[١١]، فسارت فى ظهورها إلى أشرف الغايات.

وركبٌ سرَوْا والليل مُرْخٍ رِوَاقَه ... عَلَى كل مغبرٍّ الموارد قائمِ[١٢]

---

(١) الغى : الضلال والخيبة، مختار الصحاح (٤٨٥).

(٢) تلظى : تلتهب، مختار الصحاح (٥٩٩).

(٣) اقتباس من قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ ﴾ (يونس : ٤٥).

(٤) البحار : جمع بحر، وسمى بذلك لعمقه واتساعه.

(٥) اللحظ : بالفتح مؤخر العين، مختار الصحاح (٥٩٣).

(٦) الخطب : الحال والشأن، المعجم الوجيز (٣٠٣).

(٧) النصب : يقال : نصب نصبًا : أعيا وتعب، المعجم الوجيز (٦١٧).

(٨) الدنيات : الخسيسة الحقيرة.

(٩) السفليات : السفلة بكسر الفاء : السُّقَّاط من الناس، مختار الصحاح (٣٠٣).

(١٠) امتطت : المطية من الدواب : ما يمتطى، أى : يتخذ مطية.

(١١) العزمات : جمع عزم، وهو الجد.

(١٢) الموارد : جمع مورد، وهو : المنهل : أى : الطريق إلى الماء، المعجم الوجيز (٦٦٥).

حدَوْا(١) عزماتِ ضاعت الأرض بينها ... فـصـار سُـراهم فى ظهـور العـزائمِ
أرتهـم نجـومُ الليـل مـا يطلبـونـه ... عَلَى عـاتق الشّعرى وهـام النعـائمِ(٢)
فـأمُّـوا حـمًـى لا ينبـغى لسـواهم ... ومـا أخـذتهـم فـيـه لومـةُ لائـمِ

أجابوا مناديَ الحبيب لما أذَّن لهم حيَّ على الفلاح، وبذلوا نفوسهم فى مرضاته بذل المحب بالرضا والسماح، وواصلوا السير إليه بالغدوِّ والرَّواح. فحمِدوا عند الوصول مسراهم، وإنما يَحْمَدُ القوم السُّرى(٣) عند الصباح، تعبوا قليلاً فاستراحوا طويلاً، وتركوا حقيراً واعتاضوا عظيمًا(٤)، وضعوا اللذة العاجلة والعاقبة الحميدة فى ميزان العقل فظهر لهم التفاوُت، فرأوا من أعظم السَّفه بيعَ الحياة الطيبة الدائمة فى النعيم المقيم بلذة ساعةٍ تذهب شهوتها، وتبقى شقوتها، هذا وإنّ مِن أيام اللذات لو صفت للعبد من أوّل عمره إلى آخره لكانت كسحابة صيف تتقشّع(٥) عن قليل، وخيال طيفٍ ما استتم الزيارة حتى آذن بالرحيل، قال الله تعالى: ﴿ **أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ (٢٠٥) ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ (٢٠٦) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ** ﴾ (الشعراء: ٢٠٥ - ٢٠٧) ومن ظفر بمأموله من ثواب الله، فكأنه لم يُوتَر(٦) من دهره بما كان يحاذره ويخشاه، وكان عمر بن الخطاب ﷺ يتمثل بهذا البيت من الشعر:

كـأنك لم تُوتَرْ من الدهر مـرةً ... إذا أنت أدركت الذى أنت طالبـه

فصل: وهذا ثمرة العقل الذى به عُرف الله سبحانه وتعالى وأسماؤُه وصفات كماله ونعوتُ جلاله، وبه آمن المُؤْمِنُون بكتبه ورسله ولقائه وملائكته، وبه عُرفت آيات ربوبيته وأدلةُ وحدانيته ومعجزات رسله، وبه امْتُثِلَتْ أوامره واجْتُنِبَتْ نواهيه، وهو الذى تَلَمَّح العواقب فراقبها، وعمل بمقتضى مصالحها، وقاوم الهوى فردَّ جيشه مفلولاً(٧)، وساعد الصبر حتى ظفر به بعد أن كان بسهامه مقتولاً، وحثَّ عَلَى الفضائل، ونهى عن الرذائل،

---

(١) حدو: حداء الإبل: سوقها وحثها على السير بنوع من الغناء.

(٢) النعـائم: جمع نعامة، والنعامة: طائر كبير الجسم، طويل العنق، قصير الجناحين، شديد العدو، وفيه من خلقة الطير والجمل، المعجم الوجيز (٦٣٤).

(٣) السرى: سير عامة الليل، المعجم الوجيز (٣١٠).

(٤) اعتاضوا عظيماً: أى: تفرقوا.

(٥) تتقشع: يقال: انقشع عن الشيء: غشيه ثم انجلى عنه، المعجم الوجيز (٥٠٣).

(٦) يوتر: الوِتر ـ بالكسر: النقصان، مختار الصحاح (٧٠٧).

(٧) مفلولاً: الفل: المنهزم، وجمعه فلول، المعجم الوجيز.

وفتق المعاني(١) وأدرك الغوامض، وشدَّ أزْرَ العزم فاستوى عَلَى سُوقه، وقوَّى أزْرَ الحزم حتى حظى من الله بتوفيقه، فاستجلب ما يَزين، ونفى ما يَشين، فإذا نَزل وسلطانه أسر جنود الهوى فحصرها في حبس: من ترك لله شيئًا عوَّضه الله خيرًا منه، ونهض بصاحبه إلى منازل الملوك، إذا صيَّر الهوى الملكَ بمنزلة العبد المملوك، فهي شجرةٌ عرقُها الفكر في العواقب، وساقُها الصبر، وأغصانُهَا العلم، وورقها حسن الْخُلُق، وثمرها الحكمة، ومادَّتها توفيق مَنْ أزِمَّة الأمور بيديه، وابتداؤها منه وانتهاؤها إليه.

وإذا كان هذا وصفَه، فقبيح أن يُدال(٢) عليه عدوُّه فيعزله عن مملكته؛ ويحطه عن رتبته، ويستنزله عن درجته، فيصبح أسيرًا بعد أن كان أميرًا، ومحكومًا بعد أن كان حاكمًا، وتابعًا بعد أن كان متبوعًا، ومن صبرَ على حكمه أرتعه(٣) في رياض الأماني والمنى، ومن خرج عن حكمه أورده حياض الهلاك والردى(٤).

قال عليٌّ بن أبي طالب رضي الله عنه: لقد سبق إلى جنات عدن أقوامٌ ما كانوا بأكثر الناس صلاة ولا صيامًا ولا حجًّا ولا اعتمارًا، لكنهم عقلوا عن الله مواعظه فوجلت منه قلوبهم، واطمأنت إليه نفوسهم، وخشعت له جوارحهم، ففاقوا الناس بطيب المنزلة وعلوِّ الدرجة عند الناس في الدنيا، وعند الله في الآخرة.

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ليس العاقل الذي يعرف الخير من الشر، ولكنه الذي يعرف خير الشرين.

وقالت عائشة رضي الله عنها: قد أفلح من جعل الله له عقلاً.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ولد لكسرى مولودٌ فأحضر بعض المؤدِّبين ووضع الصَّبي بين يديه وقال: ما خير ما أوتي هذا المولود؟ قال: عقلٌ يولد معه، قال: فإن لم يكن؟ قال: فأدبٌ حسنٌ يعيش به في الناس، قال: فإن لم يكن؟ قال: فصاعقةٌ تحرقه.

وقال بعض أهل العلم: لما أهبط الله، تبارك وتعالى، آدم إلى الأرض أتاه جبريل، عليه السلام، بثلاثة أشياء: الدين، والخُلق، والعقل، فقال: إن الله يخيِّرك بين هذه الثلاثة، فقال: يا جبريل، ما رأيت أحسن من هؤلاء إلا في الجنة، ومدَّ يده إلى العقل فضمَّه إلى نفسه،

---

(١) فتق المعاني: شقها، وفتق الكلام: انطلق به لسانه.

(٢) يدال: يقال: دال عليه: غلبه وقهره.

(٣) أرتعه: رتعت الماشية: رعت كيف شاءت في خصب وسعة. المعجم الوجيز (٣٥٤).

(٤) الردى: الموت.

فقال للآخرين: اصعدا، فقالا: أُمرنا أن نكون مع العقل حيث كان، فصارت الثلاثة إلى آدم، عليه السلام. وهذه الثلاثة أعظم كرامةٍ أكرم الله بها عبده، وأجلُّ عطيَّةٍ أعطاه إياها. وجعل لها ثلاثة أعداء: الهوى، والشيطان، والنفس الأمَّارة. والحرب بينهما دُوَلٌ وسِجال[١]: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ (آل عمران: ١٢٦).

وقال وهب بن منبِّه[٢]: قرأْت فى بعض ما أنزل الله تعالى: إن الشيطان لم يكابد[٣] شيئًا أشدَّ عليه من مُؤْمنٍ عاقل، وإنه ليسوق مائة جاهلٍ فيستجرُّهم حتى يركب رقابهم فينقادون له حيث شاء، ويكابد المؤْمن العاقل فيُصْعِب عليه حتى ينال منه شيئًا من حاجته، قال: وإزالة الجبل صخرةً صخرةً أهون على الشيطان من مكابدة المؤمن العاقل، فإذا لم يقدر عليه تحوَّل إلى الجاهل فيستأْسره، ويتمكن من قياده حتى يُسْلِمه إلى الفضائح التى يتعجل بها فى الدنيا الجَلْدَ والرجم والقطعَ والصلب والفضيحة، وفى الآخرة العار والنار والشَّنار[٤]. وإن الرجلين ليستويان فى البِرِّ ويكون بينهما فى الفضل كما بين المشرق والمغرب بالعقل، وما عُبِدَ اللهُ بشيءٍ أفضل من العقل.

وقال معاذ بن جبل رضي الله عنه[٥]: لو أن العاقل أصبح وأمسى وله ذنوبٌ بعدد الرمل كان وشيكًا بالنجاة والتخلص منها، ولو أن الجاهل أصبح وأمسى وله من الحسنات وأَعمال البرِّ عدد الرمل لكان وشيكًا أن لا يسلم له منها مثقال ذرَّة. قيل: وكيف ذلك؟ قال: إن العاقل إذا زلَّ تدارك ذلك بالتوبة والعقل الذى رُزقه، والجاهل بمنزلة الذى يبنى ويهدم، فيأْتيه من جهله ما يفسد صالح عمله.

وقال الحسن: لا يَتِمُّ دين الرجل حتى يتمَّ عقله، وما أودع الله امرأ عقلاً إلا استنقذه به يومًا.

وقال بعض الحكماء: من لم يكن عقله أغلب الأشياء عليه كان حتفه وهلاكه فى أحب الأشياء إليه.

---

(١) سجال: أى: يهزمون مرة ويغلبون مرة.

(٢) وهب بن منبه: علامة إخبارى، ولد سنة أربع وثلاثين للهجرة، سمع من ابن عباس، وأبى هريرة، وأبى سعيد الخدرى، وغيرهم، ولى قضاء صنعاء، مات سنة عشر ومائة.

(٣) يكابد: الكبد بالفتح: المشقة والعناء، المعجم الوجيز (٥٣٥).

(٤) الشنار: الأمر المشهور بالشنعة والقبح، المعجم الوجيز (٣٥٣).

(٥) معاذ بن جبل: صحابى جليل، قال عنه تلميذه أبو إسحاق السبيعى: كان إذا رؤى ذُكر الله تعالى، توفى سنة ٧٥هـ، ترجمته فى «تهذيب التهذيب» (٨/ ١٠٩).

وقال يوسف بن أسباط[١]: العقل سراج ما بطن، وزينة ما ظهر، وسائس[٢] الجسد، وملاك أمر العبد، ولا تصلح الحياة إلا به، ولا تدور الأمور إلا عليه.

وقيل لعبد الله بن المبارك[٣]: ما أفضل ما أُعطى الرجل بعد الإسلام؟ قال: غريزة عقل، قيل: فإن لم يكن؟ قال: أدبٌ حسن، قيل: فإن لم يكن؟ قال: أخٌ صالحٌ يستشيره، قيل: فإن لم يكن؟ قال: صمت طويل، قيل: فإن لم يكن؟ قال: موت عاجل.

وفى ذلك قيل:

ما وهب الله لامرئٍ هبةً	أحسن من عقله ومن أدبهْ
هما جمال الفتى فإن فُقدا	ففقدُه للحياة أجملُ بهْ

فصل: وإذا كانت الدولة للعقل سالمهُ الهوى، وكان من خدمه وأتباعه، كما أن الدولة إذا كانت للهوى صار العقل أسيرًا فى يديه، محكومًا عليه. ولما كان العبد لا ينفكُّ عن الهوى ما دام حيًّا ـ فإن هواه لازمٌ له ـ كان له الأمر بخروجه عن الهوى بالكليَّة كالممتنع، ولكن المقدور له والمأمور به أن يصرف هواه عن مراتع الهَلَكَةِ إلى مواطن الأمن والسلامة، مثاله: أن الله سبحانه وتعالى لم يأمره بصرف قلبه عن هوى النساء جملة، بل أمره بصرف ذلك الهوى إلى نكاح ما طاب له منهنَّ من واحدة إلى أربع، ومن الإماء ما شاء، فانصرف مجرى الهوى من محلٍّ إلى محلٍّ، وكانت الريح دَبورًا[٤] فاستحالت صَبًا[٥]، وكذلك الظفر والغلبة والقهر، لم يأمر بالخروج عنه، بل أمر بصرفه إلى الظفر والقهر والغلبة للباطل وحزبه، وشرع له من أنواع المغالبات بالسباق وغيره مما يُمرِّنه ويَعُدُّه للظفر، وكذلك هوى الكبر والفخر والخُيَلاء مأذونٌ فيه، بل مستحبٌّ فى محاربة أعداء الله، وقد رأى النبى ﷺ أبا دُجانة سِمَاك بن خَرَشة الأنصارى يتبختر بين الصفين فقال: «إنها لَمِشْيَةٌ يبغضها اللهُ إلا فى مثل هذا الموطن»[٦]. وقال: «إن من الخُيَلاء ما يحبها الله ومنها ما يبغض الله، فالتى

---

(١) يوسف بن أسباط: أحد الزهاد، له حكم ومواعظ وأقوال صالحة، ترجمته فى «السير» (٩/ ١٦٨).

(٢) سائس: ساس الناس سياسة: تولى رياستهم وقيادتهم، المعجم الوجيز (٣٣٨).

(٣) عبد الله بن المبارك: شيخ الإسلام، أحد الأعلام الأتقياء الأسخياء، ولد سنة ثمان عشرة ومائة، وتوفى سنة إحدى وثمانين ومائة، انظر ترجمته فى تاريخ بغداد (١٠/ ١٦٧).

(٤) دبوراً: الدبور بالفتح: ريح تهب من قبل المغرب، وهى التى تقابل ريح الصبا التى تهب من المشرق، مختار الصحاح (١٩٧) المعجم الوجيز (٣٣٠).

(٥) صبا: الصبا: ريح مهبها من مشرق الشمس إذا استوى الليل والنهار، المعجم الوجيز (٣٥٩).

(٦) ضعيف: رواه الطبرانى فى «الكبير» (٦٥٠٨) والبيهقى فى «الدلائل» (٣/ ٣٣٣) والذهبى فى =

يحبها اختيال الرجل فى الحرب وعند الصدقة ...»[١]. وذكر الحديث. فما حرَّم الله على عباده شيئًا إلا عوَّضهم خيراً منه، كما حَرَّم عليهم الاستقسام بالأزلام[٢]، وعوَّضهم منه دعاء الاستخارة[٣]، وحرَّم عليهم الربا وعوضهم منه التجارة الرابحة، وحرم عليهم القمار وأعاضهم منه أكل المال بالمسابقة النافعة فى الدين بالخيل والإبل والسهام، وحرَّم عليهم الحرير وأعاضهم منه أنواع الملابس الفاخرة من الصوف والكتان والقطن، وحرَّم عليهم الزنى واللواط وأعاضهم منهما بالنكاح والتسرى بصنوف النساء الحسان، وحرَّم عليهم شرب المسكر وأعاضهم عنه بالأشربة اللذيذة النافعة للروح والبدن، وحرَّم عليهم سماع آلات اللهو من المعازف والمثانى[٤]، وأعاضهم عنها بسماع القرآن والسبع المثانى، وحرَّم عليهم الخبائث من المطعومات، وأعاضهم عنها بالمطاعم الطيبات. ومن تلمَّحَ هذا وتأمله هان عليه ترك الهوى المردى، واعتاض عنه بالنافع المجدى، وعرف حكمة الله ورحمته وتمامَ نعمته عَلَى عباده فيما أَمرهم به ونهاهم عنه وفيما أَباحه لهم، وأنه لم يأمرهم بما أمرهم به حاجةً منه إليهم، ولا نهاهم عنه بخلاً منه تعالى عليهم، بل أمرهم بما أَمرهم إحسانًا منه ورحمة، ونهاهم عما نهاهم عنه صيانة لهم وحِمْيَة[٥].

فلذلك وضعنا هذا الكتاب وضع عَقد الصلح بين الهوى والعقل، وإذا تمَّ عقد الصلح بينهما سهل على العبد محاربة النفس والشيطان.

والله سبحانه المستعان، وعليه التكلان، فما كان فيه من صوابٍ فمن الله فهو الموفق له والمعين عليه، وما كان فيه من خطإٍ فمنى ومن الشيطان، واللهُ ورسولُه من ذلك بريئان.

وقد جعلته تسعةً وعشرين بابًا:

= «السير» (١/ ٣٤٤) وقال الهيثمى فى «مجمع الزوائد» (٦/ ١٠٨) «رواه الطبرانى وفيه من لم أعرفه».

(١) حسن: رواه أحمد (٥/ ٤٤٥، ٤٤٦) وأبو داود (٣٦٥٩) والنسائى (٣/ ٣٣) والبيهقى فى «الكبرى» (٧/ ٣٠٨) والحديث حسنه الألبانى -رحمه الله تعالى- فى «الإرواء» (١٩٩٩).

(٢) الأزلام: جمع زلم وهو: السهم الذى لا ريش عليه، وكان أهل الجاهلية يستقسمون بالأزلام، وكانوا يكتبون عليها الأمر أو النهى ويضعونها فى وعاء، فإذا أراد أحدهم أمراً أدخل يده فيه، وأخرج سهماً، فإن خرج ما فيه الأمر مضى لقصده، وإن خرج ما فيه النهى كف، المعجم الوجيز (٣٩١).

(٣) حديث صحيح: يسمى حديث الاستخارة: رواه البخارى (٦٣٨٣) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

(٤) المثانى: جمع مثنى: أوتار العود التى يعزف بها.

(٥) حمية: الحمية بالكسر: منعه ما يضره، المعجم الوجيز (١٧٣).

---

(١) غبط : الغبطة : أن يتمنى المرء مثل ما للمغبوط من النعمة من غير أن يتمنى زوالها عنها، المعجم الوجيز (٤٤٥) .
(٢) مناه : هو ما يتمناه الإنسان، المعجم الوجيز (٥٩٣) .
(٣) تبرم : سئمه وضجر به، المعجم الوجيز (٤٧) .

(روضة المحبين، ونزهة المشتاقين)

والمرغوب إلى من يقف عَلَى هذا الكتاب أن يعذر صاحبه، فإنه علّقه فى حال بعده عن وطنه، وغيبته عن كتبه، فما عسى أن يبلغ خاطرُه المكدود، وسعيه المجهود، مع بضاعته المزجاة[1]، التى حقيقٌ بحاملها أن يقال فيه : « تسمع بالمُعَيْدِىّ خيرٌ من أن تراه » وها هو قد نصب نفسه هدَفًا لسهام الراشقين، وغَرَضًا لأسنَّة الطاعنين، فلقاريه غُنْمه، وعَلَى مؤلفه غُرْمه، وهذه بضاعته تعرض عليك، ومَوليَّته[2] تهدى إليك، فإن صادفت كفؤًا كريمًا لها لن تعدم منه إمساكًا بمعروف أو تسريحًا بإحسان، وإن صادفت غيره فالله تعالى المستعان، وعليه التكلان . وقد رضى من مهرها بدعوة خالصة، إن وافقت قبولاً واستحسانًا، وبَرَدٌ جميل إن كان حظها احتقارًا واستهجانًا، والمنصف يهب خطأ المخطئ لإصابته، وسيئاته لحسناته، فهذه سُنَّة الله فى عباده جزاءً وثوابًا، ومَن ذا الذى يكون قوله كله سديدًا وعمله كله صوابًا؟ وهل ذلك إلا المعصوم الذى لا ينطق عن الهوى، ونطقه

---

(١) المزجاة : القليلة اليسيرة .
(٢) موليته : الأمة التى يشتريها سيدها، فيصير له ولاية عليها .

وحيٌ يوحى، فما صح عنه فهو نقلٌ مصدَّق عن قائلٍ معصوم، وما جاء عن غيره فثبوت الأمرين فيه معدوم، فإن صحَّ النقل لم يكن القائل معصومًا، وإن لم يصحَّ لم يكن وصوله إليه معلومًا.

فصل: وهذا الكتاب يَصلُح لسائر طبقات الناس، فإنه يصلُح عونًا عَلَى الدين وعَلَى الدنيا، ومرقاة للذة العاجلة ولذة العقبى، وفيه من ذكر أقسام المحبة وأحكامها ومتعلقاتها، وصحيحها وفاسدها، وآفاتها وغوائلها(٣)، وأسبابها وموانعها، وما يناسب ذلك من نُكَتٍ تفسيرية(٤)، وأَحاديثَ نبوية، ومسائلَ فقهية، وآثارٍ سَلَفية، وشواهدَ شعرية، ووقائعَ كونية، ما يكونُ مُمْتِعًا لقارِيه، مُرَوِّحًا(٥) للناظرِ فيه، فإن شاء أوسعه جدًّا وأعطاه ترغيبًا وترهيبًا، وإن شاء أَخذ من هزله ومُلحه(٦) نصيبًا، فتارةً يضحكه وتارةً يبكيه، وطوراً يبعده من أَسباب اللذة الفانية، وطوراً يرغّبه فيها ويدنيه. فإن شئتَ وجدته واعظًا ناصحًا، وإن شئت وجدته بنصيبك من اللذة والشهوة ووصل الحبيب مسامحًا.

* * *

وهذا حين الشروع فى الأبواب والله سبحانه الفاتح من الخير كل باب، وهو المسئول سبحانه أن يجعله خالصًا لوجهه الكريم، مدنيًا من رضاه والفوز بجنات النعيم، والله متولى سريرة العبد وكسبه، وهو سبحانه عند لسان كل قائلٍ وقلبه.

﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (التوبة: ١٠٥).

---

(١) غوائلها: جمع غائلة وهى: الحقد والضغن، المعجم الوجيز (٤٥٣).

(٢) نكت تفسيرية: يقال: نكت فى قوله: أتى فيه بُطرف ولطائف، المعجم الوجيز (٦٣٣).

(٣) مروحًا: أى: مطيبًا ما فيه لمن قرأه.

(٤) ملحة: الملحة بالضم: ما استحسن من الأحاديث، والجمع ملح، المعجم الوجيز (٥٨٩).

الباب الأول:

فـــى أسمـاء المحبـــة

لما كان الفهم لهذا المسمى أشدَّ، وهو بقلوبهم أعلق، كانت أَسماؤُه لديهم أكثر. وهذا عادتهم فى كل ما اشتدَّ الفهم له، أو كَثُر خُطُورُه على قلوبهم، تعظيمًا له، أو اهتمامًا به، أو محبةً له.

فالأوّل: كالأسد والسيف.

والثانى: كالداهية.

والثالث: كالخمر.

وقد اجتمعت هذه المعانى الثلاثةُ فى الحب، فوضعوا له قريبًا من ستين اسمًا وهى: الْمَحَبَّة، وَالعَلاقة، وَالهَوَى، وَالصَّبْوة، وَالصَّبابة، وَالشَّغَف، وَالمِقَة، وَالْوَجْد، وَالكلَف، وَالتَّتَيُّم، وَالعشق، وَالجَوى، وَالدَّنَف، وَالشَّجْو، وَالشَّوق، وَالخِلابة، والبلابل، وَالتَّباريح، وَالسَّدَمُ، وَالغَمَرَات، وَالوَهَل، وَالشَّجَن، وَاللاعِج، والاكتِئاب، وَالوَصَب، وَالحُزْن، والكَمَد، واللَّذْع، والحُرَق، والسُّهْد، والأَرَق، واللَّهْف، والحنين، والاستكانة، والتَّبالة، واللَّوْعة، والفُتون، والجُنون، واللَّمَم، وَالخَبْلُ، وَالرَّسِيس، والداء المُخامِر، والودّ، وَالخُلَّة، وَالحِلْم، والغَرَام، والهُيام، والتَّدْلِيةُ، وَالْوَلَهُ، والتعبُّد.

وقد ذُكِر له أسماء غير هذه وليست من أسمائه، وإنما هى من مُوجباته وأحكامه فتركنا ذكرها.

الباب الثانى:

فى اشتقاق هذه الأسماء ومعانيها

فأما المحبة فقيل: أصلها «الصفاء» لأن العرب تقول لصفاء بياض الأسنان ونَضارتها: حَبَب الأسنان، وقيل: مأخوذة من الحَباب، وهو ما يعلو الماء عند المطر الشديد، فعلى هذا: المحبة غَليان القلب وثورانُه عند الاهتياج إلى لقاء المحبوب، وقيل: مشتقة من «اللزوم والثبات» ومنه: أحب البعير إذا برك فلم يَقُم، قال الشاعر(١):

حُلْت عليـــه بالفـــلاة ضـــربًا ضـــربَ بعـيـــر السَّـــوْء إذ أحـبَّـا

فكأنّ المحبَّ قد لزم قلبُه محبوبَه فلم يُرم عنه انتقالاً.

وقـيل: بل هى مأخوذة من القَلَق والاضطراب، ومنه سُمّى القُرْط حبًّا لقَلَقه فى الأُذُن واضطرابه، قال الشاعر:

تبيت الحيَّة النضناض(٢) منـه مكان الحِبّ(٣) تستمع السّرارا

وقـيل: بل هى مأخوذة من الحَبِّ جمع: حَبَّةٌ، وهو لُبَاب الشىء وخالصه وأصله، فإن الحَبَّ أصل النبات والشجر.

وقـــيل: بل هى مأخوذةٌ من الحُبّ الذى هو إناء واسعٌ يوضع فيه الشىء فيمتلئ به بحيث لا يَسَع غيرَه، وكذلك قلب المحب ليس فيه سَعَةٌ لغير محبوبه.

وقيل: مأخوذة من الحُبّ، وهو الخشبات الأربع التى يستقر عليها ما يوضع عليها من جَرَّة أو غيرها، فسمى الحب بذلك لأن المحب يتحمل لأجل محبوبه الأثقال، كما تتحمل الخَشَبات ثِقَل ما يوضع عليها.

وقيل: بل هى مأخوذةٌ من حَبَّة القلب وهى سُوَيْدَاؤه، ويقال: ثمرته، فسميت المحبة بذلك لوصولها إلى حبة القلب، وذلك قريب من قولهم: ظَهَرَه إذا أصاب ظَهْرَه، وَرَأَسَه إذا أصاب رأسه، ورآه إذا أصاب رئته، وبَطَنه إذا أصاب بَطْنَه، ولكن فى هذه الأفعال وصل أثرُ الفاعل إلى المفعول، وأما فى المحبة فالأثر إنما وصل إلى المُحِب.

---

(١) هذا البيت لأبى محمد الفقعسى، كذا فى «لسان العرب» (١/ ٣٩٣) ومعنى الفلاة: الصحراء.

(٢) النضناض: تحريك الحية لسانها، والبيت نسبه ابن منظور فى «اللسان» (٧/ ٢٣٨) للراعى.

(٣) الحب: الحبيب، كذا فى «اللسان» (٧/ ٢٣٨).

وبعدُ، ففيه لغتان: حَبَّ وَأَحَبَّ، قال الشاعر:

أُحِبُّ أَبَا مــروان من أجل تمــره ... وأعلم أن الــرق بالمــرء أَرْفَــقُ

ووالله لــولا تمــره مـا حـبـبـتـهُ ... ولا كـان أدنى من عُـبَـيْدٍ وَمُـشْرِقِ

كذلك أنشده الجوهرى[(١)] بالإقواء[(٢)] فجمع بين اللغتين، ولكن فى جانب الفعل واسم الفاعل غلَّبوا الرباعى فقالوا: أَحَبَّه يُحبُّه فهو مُحِب، وفى المفعول غلَّبوا فَعَل فقالوا فى الأكثر: محبوبٌ ولم يقولوا: مُحَبٌّ إلا نادراً، قال الشاعر:

ولقــد نزلتِ فــلا تَظُنِّى غـيــرَه ... منى بمنزلة المُــحَبِّ المُكْــرَمِ

فهذا من أفعل، وأَما حبيب فأكثر استعمالهم له بمعنى المحبوب، قال الشاعر:

وما زرت ليلى أن تكون حـبـيـبـة ... إلىَّ ولا دَينٌ لهـــا أَنَـــا طالبــه

وقد استعملوه بمعنى المحب، قال الشاعر:

ومـا هجـرَتكِ النفسُ أنك عندها ... قليلٌ ولا أَنْ قلَّ منكِ نصـيـبُـهـا

ولكنهم يا أحـسن الناس أُولعـوا ... بقـول إذا ما جئت هذا حـبيـبُـهـا

فهذا يحتمل أن يكون بمعنى المحبوب وأن يكون بمعنى المُحِبِّ، وأما الحِبُّ بكسر الحاء فلغة فى الحُبِّ وغالب استعماله بمعنى المحبوب، قال فى الصحاح: الحُبُّ المحبة وكذلك الحِب بالكسر. والحِبُّ أيضًا الحبيب مثل خِدْنٍ وَخَدِين.

قلت: وهذا نظير ذَبْحٍ بمعنى مذبوح، ونِهْب بمعنى منهوب، ورِشْق بمعنى مرشوق، ومنه السِّب، ويشترك فيه الفاعل والمفعول، قال أبو عبيد: السِّبُّ بالكسر الكثير السِّباب، قال الجوهرى: وسِبُّك الذى يُسَابُّك، قال حسان:

لا تَسُــبَّنَّنى فلســتَ بِسِــبِّــى ... إن سِــبِّى من الرجـــال الكريمُ

والصواب أنه عبد الرحمن بن حسان[(٣)]. وقد يشترك فيه المصدر والمفعول نحو رِزْق، وفى إعطائهم ضمة الحاء للمصدر سرٌّ لطيف، فإن الكسرة أَخفُّ من الضمة، والمحبوب أَخف عَلى قلوبهم من نفس الحُبِّ، فأعطَوُا الحركة الخفيفة للأخف، والثقيلةَ للأثقل، ويقال: أَحَبَّهُ حُبّا ومحبةً، والمحبة أُمٌّ باب هذه الأسماء.

---

(١) الجوهرى: هو: أبو نصر إسماعيل بن حماد التركى الأترارى، صاحب كتاب «الصحاح» توفى سنة (١٩٣هـ).

(٢) الإقواء: عيب من عيوب القافية، أو اختلاف إعراب القافية.

(١) عبد الرحمن بن حسان: هو ابن حسان بن ثابت شاعر النبى ﷺ، أمه: سيرين القبطية أخت مارية القبطية، أم إبراهيم ابن النبى ﷺ، توفى سنة (١٠٤هـ).

فصـــل: وأما كلام الناس فى حدّها فكثير، فقيل: هى الميل الدائم بالقلب الهائم، وقـيل: إيثار المحبوب على جميع المصحوب، وقـيل: موافقة الحبيب فى المشهد والمغيب، وقيل: اتّحاد مُراد المحب ومراد المحبوب، وقيل: إيثار مراد المحبوب على مُراد المحب، وقـيل: إقامة الخدمة مع القيام بالحُرْمة، وقـيل: استقلال الكثير منك لمحبوبك، واستكثار القليل منه إليك، وقيل: استيلاء ذكر المحبوب على قلب المحب. وقيل: حقيقتها أن تَهَب كلَّكَ لمن أحببته فلا يبقى لك منك شىء، وقيل: هى أن تمحو من قلبك ما سوى المحبوب، وقيل: هى الغَيرة للمحبوب أن تُنْتَقَصَ حُرْمته، والغيرة على القلب أن يكون فيه سواه، وقيل: هى الإرادة التى لا تنقص بالجفاء، ولا تزيد بالبرِّ، وقيل: هى حفظ الحدود، فليس بصادق من ادَّعى محبة من لم يحفظ حدودَه، وقيل: هى قيامك لمحبوبك بكل ما يحبه منك. وقيل: هى مُجَانَبَةُ السُّلُوِّ عَلَى كل حال، كما قيل:

ومن كان من طول الهوى ذاق سَلْوَةً ... فـإنِىَ من ليلى لهـا غـيـرُ ذائـقِ
وأكـثـرُ شىءٍ نِلْتُـهُ مـن وصـالهـا ... أمـانىُّ لم تَصْـدُق كَلَمْـعَـةِ بارقِ

وقيل: نارٌ تحرق من القلب ما سوى مراد المحبوب، وقيل: ذكر المحبوب على عدد الأنفاس، كما قيل:

يُرَادُ من القلب نسـيـانكم ... وَتَـأْبَى الطِّبَـاعُ عَلَى النَّاقلِ

وقيل: عمى القلب عن رؤية غير المحبوب، وصَمَمُهُ عن سَمَاع العذل[1] فيه.

وفى الحديث: «حُبُّكَ للشَىْء يُعْمِى وَيُصِمُّ»[2] رواه الإمام أحمد. وقيل: ميلُكَ إلى المحبوب بكلِّيَّتِك، ثم إيثارك له عَلَى نفسك وروحك ومالك، ثم موافقتُك له سرًّا وجهراً، ثم علمُك بتقصيرك فى حبه، وقيل: هى بَذْلُكَ المجهود فيما يرضى الحبيب. وقيل: هى سكونٌ بلا اضطرب، واضطرابٌ بلا سكون، فيضطرب القلب فلا يسكن إلا إلى محبوبه، فيضطرب شوقًا إليه ويسكن عنده. وهذا معنى قول بعضهم: هى حركةُ القلب عَلَى الدوام إلى المحبوب وسكونُهُ عنده، وقيل: هى مصاحبة المحبوب على الدوام كما قيل:

ومن عَـجَب أنـى أحِـنُّ إليـهـمُ ... وأسـأل عنهم من لَقيتُ وهم معى
وتطلبـهُم عـينى وهم فى سـوادها ... ويشـتاقُهم قلبى وهم بين أضلُعى

---

(١) العذل: اللوم، والجمع عُذُل، المعجم الوجيز (٤١١).

(٢) ضعيف: رواه أحمد (٥/ ١٩٤) وأبو داود (٥١٣٠) وضعفه الألبانى فى «الضعيفة» (١٨٦٨).

وقيل: هى أن يكون المحبوب أقربَ إلى المحب من رُوحه كما قيل:

يا مقيمًا فى خاطرى وجَنانى [١] ... وبعيداً عن ناظرى وعِيانى
أنتَ روحى إن كُنتُ لستُ أراها ... فهى أدنى إلىَّ من كلّ دانى

وقيل: هى حضور المحبوب عند المحب دائمًا كما قيل:

خيالُكَ فى عينى وذكركَ فى فمى ... ومثواك [٢] فى قلبى فأين تغيب؟

وقيل: هى أن يستوىَ قرب دار المحبوب وبُعدها عند المحب كما قيل:

يا ثاويًا بين الجوانح [٣] والحَشَى [٤] ... منى وإنْ بَعُدَتْ عَلَىَّ دِيَارُهُ
عطفًا على صبٍّ بحبكِ هائمٍ ... إنْ لَم تَصِلْهُ تَصَدَّعَتْ [٥] أَعْشَارُهُ [٦]
لا يستفيق من الغرام وكلما ... حجبوكَ عنه تهتَّكَتْ أَستارُه

وقيل: هى ثبات القلب على أحكام الغرام واستلذاذُ العذل فيه والملام، كما قيل:

وقف الهوى بى حيث أنتِ فليس لى ... مُتَأَخَّرٌ عنه ولا مُتَقَدَّمُ
وأهنتنِى فأهنتُ نفسى جاهداً ... ما من يهون عليكِ ممن يُكْرَمُ
أشبهتِ أعدائى فصرتُ أُحبهم ... إذ كان حظى منكِ حظى منهمُ
أجدُ الملامةَ فى هواكِ لذيذةً ... حُبا لذكركِ فَلْيَلُمْنِى اللُّوَّمُ

فصل: وأما العَلاقة: وتسمَّى العَلَقَ، بوزن الفَلَق، فهى من أسمائها، قال الجوهرى: والعَلَق أيضًا الهوى، يقال: نظرةٌ من ذى عَلَق، قال الشاعر [٧]:

ولقد أردتُ الصبرَ عنكِ فعاقنى ... عَلَقٌ بقلبى من هواكِ قديمُ

وقد عَلِقَهَا بالكسر وعَلِقَ حبُّها بقلبه، أى هَوِيَهَا وَعَلِق بها عُلوقًا، وسميت عَلاقةً لتعلُّق القلب بالمحبوب، قال الشاعر [٨]:

أَعلاقةً أُمَّ الوُلَيْدِ بعدما ... أفنانُ رأسِكِ كالثَّغَام [٩] المُخْلِسِ [١٠]

---

(١) جنانى: الجنان بالفتح: القلب. (٢) مثواك: مقامك ومنزلك.

(٣) الجوانح: جامع جانحة، وهى: أوائل الضلوع تحت الترائب مما يلى الصدر.

(٤) الحشى: ما فى البطن من كبد وطحال وغيرهما.

(٥) تصدعت: تشققت، المعجم الوجيز (٣٦١).

(٦) أعشاره: جمع عشر، والمعنى أنه إن لم يكن وصل حبيبه انقسم كأنه أعشار صغيرة.

(٧) هذا البيت نسبه ابن منظور فى «لسان العرب» (١٠/ ٣٦٣) لـ: كثير بن عبد الرحمن الخزاعى.

(٨) هذا البيت نسبه ابن منظور لمرار الأسدى.

(٩) الثغام: جمع ثغامة، وهو: نبت أبيض الزهر والثمر يشبه بياض الشيب به، انظر «النهاية» لابن الأثير (١/ ٣٠٨).

(١٠) المخلس: هو من كثر سواد شعره فطغى على بياضه.

فصل: وأما الهوى فهو ميلُ النفس إلى الشيء، وفعله هَوِىَ يَهْوَى هَوًى، مثل عَمِىَ يَعْمَى عمًى، وأما هَوَى يَهْوِى بالفتح فهو السقوط، ومصدرهُ الهُوِىُّ بالضم، ويقال الهوى أيضًا على نفس المحبوب، قال الشاعر:

إن التـى زعمـت فـؤادك مَلَّهـا[١]   خُلقَتْ هواكَ كما خُلقْتَ هوًى لها

ويقال: هذا هوى فلان وفلانةٌ هواه، أى مَهويَّته ومحبوبته، وأكثر ما يستعمل فى الحبِّ المذموم، كما قال الله تعالى: ﴿ **وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ** ﴾ (النازعات: ٤٠، ٤١) ويقال: إنما سمى هوًى لأنه يهوى بصاحبه، وقد يستعمل فى الحب الممدُوح استعمالاً مقيَّدًا، ومنه قول النبى ﷺ: « **لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُم حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِما جِئْتُ به** »[٢]، وفى الصحيحين عن عُروة قال: كانت خَوْلَةُ بنت حكيم من اللائى وهَبْنَ أنفسهن للنبى ﷺ فقالت عائشة رضي الله عنها: أما تستحى المرأة أنْ تَهَبَ نفسها للرجل؟ فلما نزلت: ﴿ **تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ** ﴾ (الأحزاب: ٥١) قلت: يا رسول الله، ما أرى ربَّك إلا يسارع فى هواك[٣]. وفى قصة أسارى بدر قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: فهوِىَ رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر رضي الله عنه ولم يَهْوَ ما قلت... وذكر الحديث[٤].

وفى السنن أنَّ أعرابيًا قال للنبى ﷺ: جئت أسألك عن الهوى، فقال: « **المَرْءُ مع من أحب** »[٥].

فصل: وأما الصَّبوة والصبا فمن أسمائها أيضًا، قال فى الصحاح: والصِّبا من الشوق، يقال منه: تصابا وصبا يَصْبُو صَبْوَةً وَصُبُوًّا، أى: مال إلى الجهل، وأَصْبَتْه الجارية وَصَبِىَ صَبَاء مثل سَمِعَ سَماعًا، أى: لعب مع الصبيان.

قلت: أصل الكلمة من الميل، يقال: صبا إلى كذا، أى: مال إليه.

وسُمِّيَت الصَّبوة بذلك لميل صاحبها إلى المرأة الصبيَّة والجمع «صبايا» مثل مَطِيَّة وَمَطَايا، والتصابى هو تعاطى الصَّبْوة مثل التمايُل وبابه.

والفرق بين الصِّبا وَالصَّبوة والتصابى: أن التصابى هى تعاطى الصِّبا وأن تفعل فعل ذى الصَّبْوة، وأما الصِّبا فهو نفس الميل، وأما الصَّبْوة فالمرَّة من ذلك مثل الغَشْوَة والكَبْوة[٦]،

---

(١) ملها: أعرض عنها وسئمها.

(٢) ضعيف: رواه ابن أبى عاصم فى «السنة» (١٥) وضعفه الألبانى فى «ظلال الجنة».

(٣) صحيح: رواه البخارى (٤٧٨٨) ومسلم (١٤٦٤/ ٤٩).

(٤) صحيح: رواه أحمد (١/ ٣٠) ومسلم (١٧٦٣/ ٥٨) وأبو داود (٣٦٩٠) والترمذى (٣٠٨١).

(٥) صحيح: رواه البخارى (٦١٦٧) ومسلم (٣٦٣٩).

(٦) الغشوة: هى ما غشى القلب من طبع وران. والكبوة: السقوط والزلة.

وقد يقال على الصفة اللازمة مثل القَسْوة، وقد قال يوسف الصِّدِّيق، عليه السلام: ﴿ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ (يوسف: ٢٢).

فصل: وأما الصَّبابة فقال في الصحاح: هي رقة الشوق وحرارته، يقال: رجل صَبٌّ عاشقٌ مشتاق، وقد صَبِبْتَ يَا رجلُ بالكسر، قال الشاعر[1]:

ولستَ تَصَبُّ إلى الظاعنين ... إذا ما صديقُك لم يَصْبَب[2]

قلت: والصَّبابة من المضاعف من صبَّ يَصَبُّ، وَالصِّبا وَالصَّبْوَة من المعتل، وهم كثيراً ما يعاقبون بينهما، فبينهما تناسبٌ لفظي ومعنوي، قال الشاعر:

تَشَكَّى المحبُّونَ الصَّبابةَ لَيْتَني ... تحمَّلت ما يلقَوْنَ من بينهم وحدى

ويقال: رجلٌ صَب وَامْرَأةٌ صَب كما قال: رجلٌ عَدْلٌ وَامْرَأَةٌ عَدْلٌ.

فصل: وأما الشَّغف فمن أسمائها أيضًا، قال الله تعالى: ﴿ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ﴾ (يوسف: ٣٠) قال الجوهري وغيره: والشَّغاف غلاف القلب وهو جلدة دونه كالحجاب، يقال: شَغَفَه الحب، أي بلغ شَغَافَه، وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ﴾ ثم قال: دخل حُبُّهُ تحت الشَّغَاف.

فصل: وأما الشَّعَف، بالعين المهملة، ففي «الصحاح» شَعَفَه الْحُبُّ، أي أحرق قلبه، وقال: أبو زيد: أمرضه، وقد شُعِف بكذا فهو مشعوفٌ، وقرأ الحسن: «قد شعفها حبا» قال: بطنها حُبًّا.

فصل: وأما المِقَةُ فهي فعلة من وَمِق يَمِقُ، وَالمِقَة المحبة والهاء عوضٌ من الواو كالْعِظَة والعِدَة والزِّنَة، فإن أصلها فعل فحذفوا الفاء فعوضوا منها تاء التأنيث جبراً للكلمة وتعويضًا لما سقط منه، والفعل وَمِقَه يَمِقه بالكسر فيهما، أي أحبَّه فهو وامق.

فصل: وأما الْوَجْد فهو الحب الذي يتبعه الحزن، وأكثر ما يُسْتعمل الوَجْدُ في الحزن، يقال منه: وَجَدَ وَجْداً بالفتح، ونحن نذكر هذه المادة وتصاريفها، يقال: وجَدَ مطلوبَه يَجِده وُجوداً، فإن تعلَّق ذلك بالضالَّة سمَّوْه وِجْدَانًا، وَوَجَدَ عليه في الغضب مَوْجِدَةً، ووجَد في الحزن وَجْداً بالفتح، ووجد في المال، أي صار واجداً وَجْداً ووِجْداً بالفتح والضم والكسر وَجِدَةً إذا استغنى، وأما إطلاق اسم الوَجْد عَلَى مجرَّد مطلق المحبة فغير معروف، وإنما يطلق على محبةٍ معها فقدٌ يوجب الحزن.

(١) البيت للكميت بن زيد الأسدي، كما في «اللسان» (١ / ٨ ٥).

(٢) يصب: يقال صب الرجل: إذا عشق.

فصل: وأما الكَلَف فهو من أسماء الحب أيضًا، يقال: كَلِفْتُ بهذا الأمر أى أُولعت به فأنا كَلِفٌ به، قال الشاعر:

فتعلَّمِى أَنْ قد كَلِفْتُ بكُم ثم اصنعى ما شئتِ عن عِلم

وأصل اللفظة من الكُلْفة والمشقَّة، يقال: كلَّفه تكليفًا إذا أمره بما يشُقُّ. قال الله تعالى: ﴿ **لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا** ﴾ (البقرة: ٢٨٦) ومنه تكلَّفت الأمر: تجشَّمته، والكُلْفَةُ ما يُتَكَلَّف من نائبة أو حقٍّ، والمتكلِّف المتعرِّض لِمَا لا يَعنيه، قال الله تعالى: ﴿ **قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ** ﴾ (سورة ص: ٨٦) وقيل: هو مأْخوذٌ من الأثر وهو شيءٌ يعلو الوجه كالسِّمْسِم، والكَلَف أيضًا: لونٌ بين السواد والْحُمرة وهى حُمْرةٌ كدِرَة تعلو الوجه، والاسم الكُلْفَة.

فصل: وأما التتيُّم[1] فهو التعبُّد، قال فى الصحاح: تَيْمُ الله، أى عبد الله، وأصله من قولهم: تيَّمه الحب إذا عبَّده وذلَّله فهو مُتيَّم، ويقال: تامته المرأة، قال لَقيطُ بن زُرارة[2]:

تامَتْ فؤادَك لو يَحْزُنْك ما صنعت إحدى نساءِ بَنِى ذُهْلِ بنِ شَيْبَانَا[3]

فصل: وأما العشق فهو أمرٌ هذه الأسماء وأخبثها، وقلَّ ما وَلِعَت به العرب، وكأنهم ستروا اسمه وكنَّوا عنه بهذه الأسماء فلم يكادوا يُفْصِحون به، ولا تكاد تجده فى شعرهم القديم، وإنما أُولع به المتأخرون، ولم يقع هذا اللفظ فى القرآن ولا فى السُّنَّة إلا فى حديث سُوَيد بن سعيد[4]، وسنتكلم عليه إن شاء الله تعالى، وبعد فقد استعملوه فى كلامهم، قال الشاعر:

وماذا عسى الواشون أن يتحدثوا سوى أن يقولوا إننى لكِ عاشقُ

نعم صدق الواشون أنتِ حبيبةٌ إلىَّ وإن لم تَصْفُ منكِ الخلائقُ

قال فى الصحاح: العِشْق فَرْط الحب، وقد عَشِقها عِشْقًا مثل عَلِمَ عِلمًا، وَعَشَقًا أيضًا عن الفراء[5].

---

(١) التتيم :هو من يستعبده الهوى ويستولى عليه.

(٢) لقيط بن زرارة :هو التميمى، يكنى أبا نهشل، من أشراف بنى زرارة، مات قتيلاً يوم جبلة.

(٣) ذهل بن شيبان :قبيلة من بكر بن وائل، وهم عدنانيون.

(٤) لفظه: «من عشق فعف فمات مات شهيداً» سيأتى تخريجه.

(٥) هو: أبو زكريا يحيى بن زياد بن عبد الله بن منصور الأسدى الكوفى النحوى صاحب التصانيف الماتعة مثل: «معانى القرآن» مات سنة (٢٠٧هـ).

قال رؤْبة[١]:

* ولم يُضِعْها بين فِرْكٍ وَعَشَقْ[٢] *

قال ابن السرَّاج[٣]: إنما حرَّكه ضرورةً، وإنما لم يحركه بالكسر إتباعًا للعين كأنه كره الجمع بين كسرتين فإن هذا عزيزٌ فى الأسماء.

ورجلٌ عِشِّيقٌ مثل فِسِّيق، أى كثير العشق، والتَّعشُّق تكلُّف العشق، قال الفرَّاء: يقولون: امرأَةٌ محب لزوجها وعاشق، وقال ابن سيده[٤]: العشق عجب المحب بالمحبوب يكون فى عفاف الحب ودَعارته[٥]، يعنى فى العفة والفجور، وقيلَ: العِشْقُ الاسم والعَشَق المصدر، وقيل: هو مأخوذ من شجرة يقال لها: عاشقة[٦] تخضرٌ ثم تَدِقٌ وتصفرٌ، قال الزَّجَّاج: واشتقاق العاشق من ذلك، وقال الفرَّاء: عَشِقَ عِشْقًا وعَشَقًا إذا أفرط فى الحب، والعاشق الفاعل، والمعشوق المفعول، والعَشِيقُ يقال لهذا ولهذا، وامرأَةٌ عاشقٌ وعاشقةٌ، قال[٧]:

وَلَذٌ كَطَعْمِ الصَّرْخَدِىٌ طَرَحْتُهُ   عَشِيَّةَ خِمْسِ القوم والْعَينُ عاشقَهْ[٨]

وقال الفرَّاء: العشق نبتٌ لَزِجٌ[٩]، وسُمِّىَ العشق الذى يكون من الإنسان لِلُصوقِه بالقلب، وقال ابن الأعرابى: العَشَقَةُ اللبلابة تخضرٌ وتصفرٌ وتعلق بالذى يليها من الأشجار، فاشتقٌ من ذلك العاشق.

وقد اختلف الناس هل يُطْلَق هذا الاسم فى حقّ الله تعالى؟ فقالت طائفةٌ من الصوفية: لا بأس بإطلاقه، وذكروا فيه أثرًا لا يثبتُ، وفيه: «فإذا فعل ذلك عشقنى وعشقته[١٠]»

---

(١) هو رؤبة بن العجاج التميمى البصرى اللغوى، توفى سنة (١٤٥هـ).

(٢) فرك: الفرك بكسر الفاء: البغض «النهاية» (٣/ ٣٩٥).

(٣) هو: أبو بكر محمد بن السرى بن السراج البغدادى، صاحب المبرد، توفى سنة (٣١٠هـ).

(٤) هو: أبو الحسن على بن إسماعيل المرسى الضرير، إمام فى اللغة، له من التصانيف: «المحكم» توفى سنة (٤٥٩ هـ).

(٥) دعارته: فساده وشره، انظر «لسان العرب» (١٠/ ٣٥١).

(٦) عاشقة: شجرة تخضر ثم تدق وتصفر، وتنطق (عشقة).

(٧) هذا البيت منسوب إلى عبيد بن حصين النميرى، المشهور بالراعى.

(٨) الصرخدى: موضع نسب إليه الشرب «اللسان» (٣/ ٣٥١).

(٩) لزج: كثير التمدد واللصوق.

(١٠) هذا ما يسمى عند الصوفية المبتدعة (العشق الإلهى) وهذا ليس من الإسلام فى شىء، بل هو من قول أصحاب الحلول والاتحاد كابن عربى، وابن الفارض.

وقال جمهور الناس: لا يُطلَق ذلك فى حقه سبحانه وتعالى، فلا يقال: إنه يعشق، ولا يقال: عشقه عبده، ثم اختلفوا فى سبب المنع على ثلاثة أقوال:

أحدها: عدم التوقيف، بخلاف المحبة.

الثانى: أن العشق إفراط المحبة، ولا يمكن ذلك فى حق الرب تعالى، فإن الله تعالى لا يوصف بالإفراط فى الشيء، ولا يبلغ عبدُه ما يستحقه من حبه فضلاً أن يقال: أفرط فى حبه.

الثالث: أنه مأخوذ من التغيُّر، كما يقال للشجرة المذكورة عاشقة، ولا يطلق ذلك على الله سبحانه وتعالى.

فصل: وأما الْجَوَى ففى الصحاح الجوى: الْحُرْقة وشدَّة الوجد من عشق أو حُزْن، تقول منه: جَوِى الرجل بالكسر فهو جَوٍ مثل دَوٍ، ومنه قيل للماء المتغير المُنتن: جَوٍ، قال الشاعر:

ثم كان المزاجُ ماءَ سحابٍ لا جَوٍ آجنٌ ولا مطروقُ[١]

فصل: وأما الدَّنَفُ فلا تكاد تستعمله العرب فى الحب، وإنما وَلِع به المتأخرون، وإنما استعملته العرب فى المرض، قال فى الصحاح: الدَّنَف بالتحريك المرض الملازم، رَجل دنَفٌ أيضًا، يعنى بفتح النون، وامرأةٌ دنف وقومٌ دنَف، يستوى فيه المذكر والمؤنث والتثنية والجمع، فإن قلت: رجل دَنِفٌ بكسر النون، قلت: امرأةٌ دَنِفَةٌ، أنَّثت وثنَّيت وجمعت، وقد دَنِفَ المريضُ بالكسر ثَقُل، وأدْنَفَ بالألف مثلُه، وأدنفه المرضُ يتعدَّى ولا يتعدَّى فهو مُدْنِفٌ وَمُدْنَف.

قلت: وكأنهم استعاروا هذا الاسم للحب اللازم تشبيهًا له به، والله أعلم.

فصل: وأما الشَّجْوُ فهو حبٌّ يتبعه همٌّ وحزن. قال فى الصحاح: الشَّجْوُ: الهمُّ والْحُزن، يقال: شَجَاهُ يَشْجُوه شَجْوًا: إذا أحزنه، وأشْجاه يُشْجيه إشجاءً: إذا أغَصَّه. تقول منهما جميعًا: شَجِيَ بالكسر يَشْجَى شجًى، قال الشاعر[٢]:

لا تنكروا القتل وقد سُبِينا فى حلقكم عظمٌ وقد شَجِينا

أراد حلوقكم.

والشَّجى ما يَنْشَبُ فى الحلق من عظم أو غيره، ورجل شَجٍ، أى حزينٌ، وامرأةٌ شَجِيَةٌ

(١) جو: ماء منتن، آجن: ماء منتن لكنه أقل من الجوى فى النتن.

(٢) البيت نسب إلى المسيب بن زيد مناة، كذا فى «لسان العرب» (١٤/ ٤٣٣).

على فَعِلة، فأُطلق هذا الاسم على الحب للزومه كالشَّجَى الذى يعلق بالحلق ويَنْشَبُ فيه.

فصل: وأما الشوق فهو سفر القلب إلى المحبوب، وقد وقع هذا الاسم فى السنة، ففى «المسند» من حديث عمَّار بن ياسر أنه صلى صلاةً فأوجز فيها، فقيل له: أوجزت يا أبا اليقظان[(١)]، فقال: لقد دعوت فيها بدَعوات سمعتهن من رسول الله ﷺ يدعو بهنَّ: «اللَّهم بعلمك الغيب، وقدرتك على الخلق، أحْيِنى إذا كانت الحياة خيراً لى، وتوفَّنى إذا كانت الوفاة خيراً لى، وأسألك خشيتك فى الغيب والشهادة، وأسألك كلمة الحق فى الغضب والرضا، وأسألك القصد فى الفقر والغنى، وأسألك نعيماً لا ينْفَدُ، وأسألك قرَّة عين لا تنقطع، وأسألك الرضا بعد القضاء، وأسألك بَرْدَ العيش بعد الموت، وأسالك لذَّة النظر إلى وجهك، والشوقَ إلى لقائك، فى غير ضرَّاءَ مُضرة ولا فتنة مضلَّة، اللَّهم زينَّا بزينة الإيمان، واجعلنا هداةً مهتدين»[(٢)]. وجاء فى أثر إسرائيلى: طال شوق الأبرار إلى لقائى، وأنا إلى لقائهم أشوَق[(٣)].

وقد قال الله تعالى: ﴿مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ﴾ (العنكبوت: ٥). قال بعض العارفين: لما علم الله شوق المحبين إلى لقائه ضرب لهم موعداً للقاء تسكن به قلوبهم.

وبعد.. فهذه اللفظة من أسماء الحب، قال فى «الصحاح»: الشوق والاشتياق: نزاع النفس إلى الشىء، يقال: شاقنى الشىء يَشُوقُنى فهو شائق وأنا مَشُوق وشوَّقنى فتشوَّقتُ: إذا هيَّج شوقك، قال الراجز:

يا دارَ ميَّة بالدكاديك[(٤)] البُرَقْ[(٥)] سَقْيًا لقد هيَّجت[(٦)] شوق المُشْتأقْ

يريد المشتاق، قال سيبويه[(٧)]: هَمز ما ليس بمهموز ضرورةً.

---

(١) كنية عمار بن ياسر رضي الله عنه.

(٢) صحيح: رواه النسائى (٣/ ١٥٠) والحاكم (١/ ٥٣٤) والبيهقى فى «الكبرى» (١/ ٣٨٧) وابن حبان (١٩٧١) واللالكائى (٨٤٥) وصححه الألبانى فى «صحيح الجامع» (١٣٠١).

(٣) موضوع: رواه الفتنى فى «تذكرة الموضوعات» (١٩٦).

(٤) الدكاديك: الرمل المتلبد بعضه على بعض.

(٥) البرق: جمع بُراق وهو: الأرض المختلطة بالأحجار والرمال.

(٦) هيجت: أثارت.

(٧) سيبويه: هو: أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر الفارسى البصرى، إمام النحو، صاحب كتاب «الكتاب» مات سنة (١٨٠ هـ).

فصـــل: واختُلفَ فى الفرق بين الشوق والاشتياق أيُّهُما أقوى، فقالت طائفة: الشوق أقوى فإنه صفةٌ لازمة، والاشتياق فيه نوع افتعال كما يدل عليه بناؤه كالاكتساب ونحوه، وقالت فرقة: الاشتياق أقوى لكثرة حروفه، وكلما قوى المعنى وزاد زادوا حروفه، وحكمت فرقةٌ ثالثةٌ بين القولين وقالت: الاشتياق يكون إلى غائب، وأما الشوق فإنه يكون للحاضر والغائب، والصواب أن يقال: الشوق مصدر شاقه يشُوقه إذا دعاه إلى الاشتياق إليه، فالشوق داعية الاشتياق ومبدؤه، والاشتياق مُوجبه وغايته، فإنه يقال: شاقنى فاشتقت، فالاشتياق فعلٌ مطاوع لشاقنى. واختلف أرباب الشوق هل يزول الشوق بالوصال أو يزيد؟ فقالت طائفة: يزول، فإن الشوق سفر القلب إلى المحبوب، فإذا وصل إليه انتهى السفر.

وألقت عصاها واستقرَّ بها النوى ... كما قَرَّ عَيْنًا[1] بالإياب المسافر

قالوا: ولأن الشوق إنما يكون لغائب فلا معنى له مع الحضور، ولهذا إنما يقال للغائب: أنا إليك مشتاق، وأما من لم يزل حاضراً مع المحب فلا يوصف بالشوق إليه.
وقالت طائفة: بل يزيد بالقرب واللقاء، واستدلوا بقول الشاعر:

وأعظم ما يكونُ الشوق يومًا ... إذا دَنَت الْخيَامُ من الخيام

قالوا: ولأن الشوق هو حُرقة المحبة والتهابُ نارها فى قلب المحب، وذلك مما يزيده القرب والمواصلة. والصواب أن الشوق الحادث عند اللقاء والمواصلة غيرُ النوع الذى كان عند الغَيْبة عن المحب، قال ابن الرومى[2]:

أُعانقُها والنفسُ بعدُ مَشُوقةٌ ... إليها وهل بعد العناق تدانى[3]
وألثم[4] فاهًا كى تزولَ صبابتى ... فيشتدُّ ما ألقى من الهيَمان
ولم يك مقدارُ الذى بى من الجَوَى ... ليَشْفيَه ما ترشفُ الشفتان
كأن فؤادى ليس يشفى غَليلَه ... سوى أن يَرَى الروحين تمتزجان

فصـــل: وأما الْخلابة فهى الحبُّ الخادع، وهو الحب الذى وصل إلى الْخلْب، وهو الحجاب الذى بين القلب وسواد البطن، وسمى الحب خلابةً لأنه يخدع ألباب أربابه،

---

(١) قر عينًا: أى امتلأت عيناها من شدة الشوق.
(٢) ابن الرومى: هو أبو محمد عبد الله بن محمد بن عبد الله الرومى النيسابورى الحيرى الضرير، شاعر بنى العباس، توفى سنة (٣٩٣ هـ).
(٣) تدانى: قرب.
(٤) ألثم: أقبِّل.

والْخِلابة: الخديعة باللسان، يقال: خَلَبَهُ يَخْلُبه، بالضم، واختلبه مثلُه، وفى المثل: إذا لم تَغْلِب فاخْلُب، أى فاخدع، والْخَلِبة: الْخَدَّاعة من النساء، قال الشاعر(١):

أودى(٢) الشبابُ وحُبُّ الخالة(٣) الْخَلِبَهْ(٤)
وقد برئتُ فما بالقلب من قَلَبَهْ(٥)

قال ابن السِّكِّيت: رجلٌ خلاب أى: خدَّاعٌ كَذَّاب، ومنه البرق الْخُلَّب الذى لا غيث فيه، كأنه خادع، ومنه قيل لمن يَعِدُ ولا يُنْجِز: إنما أنت برق خُلَّب. والْخُلَّب أيضًا: السحاب الذى لا مطر فيه، ومنه الحديث: «إِذَا بَايَعْتَ فَقُلْ: لا خلابة»(٦) أى لا خديعة. والحب أحقُّ ما يُسَمَّى بهذا الاسم، لأنه يُعمى ويُصِمُّ، ويخدع لُبَّ المحب وقلبه.

فصل: وأما البلابل فجمع بَلْبَلَة، يقال: بلابل الحب وبلابل الشوق، وهى وساوسه وهمُّه، قال فى «الصحاح»: الْبَلْبَلَةُ وَالْبَلْبَال: الهمُّ وَوَسْوَاس الصدر.

فصل: وأما التباريح فيقال: تباريح الحب، وتباريح الشوق، وتباريح الْجَوى. وبرَّح به الحب والشوق: إذا أصابه منه البَرْح، وهو الشدة. قال فى «الصحاح»: لقيت منه بَرْحًا بارحًا، أى شدةً وأذى، قال الشاعر(٧):

أَجِدَّ هذا عَمْرَكَ الله كلما دعاك الْهَوى بَرْحٌ لعينيك بارحُ(٨)

ولقيت منه بنات بَرْح وبنى بَرْح، ولقيت منه البِرَحين والبُرَحين، بكسر الباء وضمها، أى الشدائدَ والدواهى.

فصل: وأما السَّدَم، بالتحريك: فهو الحب الذى يتبعه ندمٌ وحزن. قال فى «الصحاح»: السَّدَم بالتحريك: النَّدَم والْحُزْن وقد سَدِم بالكسر، ورجلٌ نادمٌ سادم ونَدْمَانُ سَدْمَانُ، وهو إتباعٌ، وما له همٌّ ولا سَدَمٌ إلا ذاك.

فصل: وأما الغَمَرَات فهى جمع غَمْرَة، والغَمْرَةُ ما يَغْمُرُ القلب من حبٍّ أو سكرٍ أو غفلة. قال الله تعالى: ﴿قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ⑩ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ﴾ (الذاريات: ١٠، ١١)

---

(١) هو النمر بن تولب العكلى، ترجمته فى «الشعر والشعراء» (١/ ٣٠٩).
(٢) أودى: أملك.
(٣) الخالة: المتكبرة.
(٤) الخلبة: المرأة التى تخلب قلب الرجل بمعسول القول.
(٥) قبله: المرض والعلة.
(٦) صحيح: رواه البخارى (٣١١٧) ومسلم (١٥٣٣/ ٤٨).
(٧) هذا البيت ذكره صاحب «لسان العرب» (٣/ ٤١٠).
(٨) بارح: البَرْحُ: العذاب الشديد، المعجم الوجيز (٤٣).

أى فى غفلة قد غَمَرَتْ قلوبهم، وقال تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ (المؤمنون: ٥٤) ومنه الماء الغَمْر الكثير الذى يغطى من دخل فيه، ومنه غَمَرَات الموت، أى شدائده، وكذلك غمَرَات الحب، وهو ما يغطى قلب المحب فَيَغْمُرُه، ومنه قولهم: رجلٌ غَمْرُ الرِّدَاء، كناية عن السخاء، لأنه يَغْمُرُ العيوب، أى يغطيها فلا يظهر مع السخاء عيب، قال كُثَيِّر:

غَمْرُ الرِّداء إذا تبسم ضاحكًا ... غَلِقت لضَحْكته رقابُ المال [(١)]

وقال القُطَامىُّ [(٢)] يصف سفينة نوح:

إلى الْجُودىِّ [(٣)] حتى صار حِجْرًا [(٤)] ... وكان لذلك الغَمْر انحسارُ

أى لذلك الماء الذى غمر الأرض ومن عليها.

فصل: وأما **الوَهَل** فهو بتحريك الهاء وأصله الفَزَع والرَّوع، يقال: وَهِلَ يُوهَلُ وهو وَهِلٌ وَمُسْتَوْهِلٌ، قال القُطَامىُّ يصف إبلاً:

وترى لجَيْضَتِهِنَّ [(٥)] عند رحيلنا ... وَهَلاً كأنَّ بهنَّ جِنَّةَ أَوْلَقِ [(٦)]

وإنما كان الوَهَل من أسماء الحب لما فيه من الرَّوع، ومنه يقال: جمالٌ رائع.

فإن قيل: ما سبب رَوْعَة الجمال ولأى شىء إذا رأى المحبُّ محبوبَهُ فجأة يرتاع لذلك ويصفر لونه ويُبْهَتُ؟ قال الشاعر:

وما هو إلا أن أراها فجاءةً ... فأُبْهَتُ حتى لا أكاد أُجيبُ

وكثيرٌ من الناس يرى محبوبه فيصفر ويرتعد؟ **قيل**: هذا مما خفى سببه على أكثر المحبين فلا يدرون ما سببه، فقيل سببه أن الجمال سلطانٌ على القلوب، وإذا بدا راع القلوب بسلطانه، كما يرُوعها الملك ونحوُه ممن له سلطانٌ على الأبدان، فسلطان الجمال والمحبة على القلوب، وسلطان الملوك على الأبدان، فإذا كان السلطان الذى على الأبدان يَرُوع إذا بدا، فكيف بالسلطان الذى هو أعظم منه؟ قالوا: وأيضًا فإن الجمال يأسِرُ القلب فيحس القلب بأنه أسيرٌ، ولا بد لتلك الصورة التى بدت له، فيرتاع كما يرتاع الرجل

---

(١) **غمر الرداء**: كناية عن جوده وكرمه وسعة خلقه.

(٢) **القطامى هو**: عَمرو بن شبيم من قبيلة بنى تغلب، والقطامى بفتح القاف وضمها.

(٣) **الجودى**: الجبل الذى استوت عليه سفينة نوح عليه السلام.

(٤) **الحجر**: المعنى هنا كأنه صار حجراً.

(٥) **حيضتهن**: روغانهن وعدولهن.

(٦) **جنة أولق**: خفة ونشاط «اللسان» (١١/ ٧٣٧).

إذا أحسّ بمن يأسره، ولهذا إذا أمن الناظر من ذلك لم تحصل له هذه الروعة، قال الشاعر:

علامة من كان الهوى بفؤاده إذا ما رأى محبوبه يتغير

فصل: وأما الشَّجَن فهو من أسمائه، فإن الشَّجن الحاجة حيث كانت، وحاجة المحب أشد شيء إلى محبوبه، قال الراجز:

* إنى سأبدى لك فيما أُبدى *
* لى شجنان[١] شَجَنٌ بنَجْد[٢] *
* وشجنٌ لى ببلاد السِّنْد *

والجمع: شجون. قال: والنفس شتَّى شُجُونُهَا، ويجمع على أشجان، قال الشاعر:

تَحَمَّل أصْحَابى ولم يجدوا وجدى[٣]

وللناس أشجانٌ ولى شجنٌ وحدى

وقد شَجَنَتْنِى الْحَاجَةُ تَشْجُنُنِى شَجْنًا: إذا حبستك، ووجهٌ آخر أيضًا وهو أن الشَّجَن الْحُزْن والجمع أشجان، وقد شَجِن بالكسر فهو شاجنٌ وأشجنه غيره وشَجَنَه، أى أحزنه، والحب فيه الأمران: هذا وهذا.

فصل: وأما اللاعج فهو اسم فاعل من قولهم: لَعَجَه الضربُ إذا آلمه وأحرق جلده، قال الْهُذَلى[٤]:

* ضربًا أليمًا بسبت يلعج الجلدا[٥] *

ويقال: هو لاعجٌ لحرْقة الفؤاد من الحب.

فصل: وأما الاكتئاب فهو افتعالٌ من الكآبة، وهى سوء الحال والانكسار من الحزن، وقد كئب الرجلُ يَكأبُ كأبة وكآبة كَرَأْفَة ورَآفة، ونشأة ونشاءة فهو كئيبٌ، وامرأةٌ كئيبة وكأباء أيضًا، قال الراجز:

* أوْ أنْ تُرَىْ كأباء لم تَبْرَنْشِقى[٦] *

---

(١) شجنان: الاحزان.
(٢) نجد: قال ياقوت: صقع واسع من وراء عمان.
(٣) وجدى: لوعتى وحزنى.
(٤) الهذلى: هو عامر بن الحليس، شاعر جاهلى.
(٥) يلعج الجلدا: يحرق ويؤلم.
(٦) تبرنشقى: تفرح وتسر، والبيت لجندل بن المثنى الطهرى.

واكتأب الرجلُ مثله، ورَمَادٌ مُكْتَئِب اللون: إذ ضرب إلى السواد كما يكون وجه الكئيب، والكآبة تتولد من حصول الحب وفوت المحبوب فتحدُثُ بينهما حالةٌ سيئة تسمى الكآبة.

فصل: وأما الوَصَبُ فهو ألم الْحُب ومرضه، فإن أصل الوَصَب المرض، وَقد وَصِب الرجلُ يَوْصَب فهو وصبٌ، وَأَوْصَبه اللهُ فهو مُوصَبٌ، وَالمُوَصَّبُ بالتشديد الكثير الأوجاع، وفى الْحديث الصحيح: «لا يُصيبُ المؤمنَ من هَمٌ وَلا وَصَب حَتَّى الشَّوْكَة يُشَاكُهَا إلا كَفَّرَ اللهُ بهَا منْ خَطَايَاهُ»[1] ووصَبَ الشيء يَصِبُ وُصُوبًا إذا دام، تقول: وَصَب الرجلُ على الأمر إذا داوم عليه، قال الله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾ (الصافات: ٩) وقال تعالى: ﴿وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا﴾ (النحل: ٥٢) أى الطاعة دائمة.

فصل: وأما الْحزن فقد عُدَّ من أسماء المحبة، والصواب أنه ليس من أسمائها، وإنما هو حالة تحدث للمحب، وهى ورود المكروه عليه، وهو خلاف المسرة، ولما كان الْحُب لا يخلو من ورود ما لا يسرّ على قلب المحب كان الْحزن من لوازمه، وفى الحديث الصحيح أن النبى ﷺ كان يقول: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بكَ منَ الْهَمِّ وَالْحَزَن، وَالْعَجْز وَالْكَسَل، وَالْجُبْن وَالْبُخْل، وَضَلَع الدَّيْن وَغَلَبَة الرِّجَال»[2] فاستعاذ ﷺ من ثمانية أشياء، كل شيئين منهما قرينان. فالهم والحزن قرينان، فإن ورود المكروه على القلب إن كان لما مضى فهو الْحزن، وإن كان لما يستقبل فهو الهم، والعجز والكسل قرينان فإن تخلُّف العبد عن كماله إن كان من عدم القدرة فهو العجز، وإن كان من عدم الإرادة فهو الكسل، والجبن والبخل قرينان، فإن الرجل يراد منه النفع بماله أو ببدنه، فالجبان لا ينفع ببدنه، والبخيل لا ينفع بماله، وَضَلَع الدَّيْن وَغَلَبَة الرجال قرينان، فإن قهر الناس نوعان: نوعٌ بحقٌ فهو ضَلَع الدَّين، ونوعٌ بباطلٍ فهو غَلَبة الرجال، وقد نفى الله سبحانه وتعالى عن أهل الجنة الخوف والحزن، فلا يحزنون على ما مضى، ولا يخافون مما يأتى، ولا يطيب العيش إلا بذلك، والحب يلزمه الخوف والحزن.

فصل: وأما الكَمَدُ فمن أحكام المحبة فى الْحقيقة وليس من أسمائها، ولكن المتكلمون فى هذا الباب لا يفرّقون بين اسم الشيء ولازمه وحكمه، والكَمَد: الحزن المكتوم، تقول منه: كَمِد الرجل فهو كَمِدٌ وكَميدٌ والكُمْدَةُ تغيُّر اللون وأكْمَدَ القصَّار الثوب إذا لم يُنَقِّه.

---

(١) صحيح: رواه البخارى (٥٦٤١، ٥٦٤٣) ومسلم (٢٥٧٣) والترمذى (٩٦٦)

(٢) صحيح: رواه البخارى (٢٨٢٣) ومسلم (٢٧٠٦) وأحمد (٣/ ١٥٩).

فصـل: وأما اللَّذْع فهو من أحكام المحبة أيضًا، وأصله من لَذْع النار، يقال: لَذَعَتْهُ النَّارُ لَذْعًا: أحرقته، ثم شبهوا لَذْع اللسان بلَذْع النار، فقالوا: لَذَعَهُ بلسانه، أى أحرقه بكلامه، يقال: أعوذ بالله من لَوَاذِعه.

فصل: وأما الْحُرَق: فهى أيضًا من عوارض الْحُب وآثاره، والْحُرْقَة تكون من الْحُب تارةً، ومنه قولهم: مالك حُرْقَةٌ على هذا الأمر، وتكون من الغيظ، ومنه فى الحديث: «تَرَكْتُهُمْ يَتَحَرَّقُونَ عَلَيْكُمْ»(١).

فصل: وأما السُّهْدُ: فهو أيضًا من آثار المحبة ولوازمها، فالسُّهَادُ: الأَرَقُ وقد سَهِدَ الرجل بالكسر يَسْهَد سَهَدًا، والسُّهُدُ بضم السين والهاء: القليل النوم. قال أبو كبير الْهُذَلِيّ:

فَأتت به حُوشَ(٢) الْجَنان(٣) مُبَطَّنًا(٤)
سُهُدًا إذا ما نام ليلُ الْهَوْجَلِ(٥)

وسهّدته أنا فهو مسهَّد.

فصل: وأما الأرق فهو أيضًا من آثار المحبة ولوازمها فإنه السهر، وقد أرِقت بالكسر أى سهرت، وكذلك ائْتَرَقْتُ على افتعلت فأنا أرِقٌ، وَأَرَّقَنِى كذا تأْريقًا، أى سهَّرنى.

فصل: وأما اللَّهْفُ فمن أحكامها وآثارها أيضًا، يقال: لَهِفَ بالكسر يَلْهَف لَهْفًا أى حزن وتحسّر، وكذلك التَّلهف على الشىء، وقولهم: يا لَهْفَ فلان كلمةٌ يُتَحَسَّر بها على ما فات، واللَّهْفَان المتحسِّر، واللَّهيف المضطر.

فصل: وأما الحنين فقال فى الصحاح: الحنين الشوق وتوقان النفس، تقول منه: حَنَّ إِلَيْه يَحِنُّ حَنِينًا فهو حان، والْحَنَانُ الرحمة، تقول منه: حَنَّ عليه يَحِنُّ حَنَانًا، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا ﴾ (مريم: ١٣) وتحنَّنَ عليه تَرَحَّم، والعرب تقول: حَنَانَك يَا رَبّ وحَنَانَيْك بمعنًى واحد، أى رحمتك، قال امْرُؤُ القَيْس(٦):

وَيَمْنَحُها بنو شَمْجى بن جَرْمٍ   مَعِيزَهم حَنَانك ذَا الْحَنَان(٧)

---

(١) ذكره ابن الأثير فى «النهاية فى غريب الحديث» (١/ ٣٥٧).
(٢) حوش: الإبل البرية.   (٣) الجنان: القلب.
(٤) مبطنًا: ضامر البطن.
(٥) الهوجل: الرجل الأهوج، كذا فى «لسان العرب» (١١/ ٦٩٠).
(٦) امرؤ القيس: شاعر جاهلى، ترجمته فى «الشعر والشعراء» (١/ ١٠٥).
(٧) الحنان: الرحمة والمودة.

وقال طَرَفَة:

أبا منذر أفنيتَ فاستبقِ بعضنا
حَنَانَيْكَ بعضُ الشرِّ أهونُ من بعضِ(١)

وفى الحقيقة الْحَنين من آثار الْحُب ومُوجباته، وحنين الناقة صوتها فى نزاعها إلى ولدها. وَحَنَّةُ الرجل امرأته، قال:

وليلة ذات دُجًى سَرَيْتُ ولم تَضِرْنى حَنَّةٌ وَبَيْتُ(٢)

قلت: سُمِّيَت حَنَّةٌ لأن الرجلَ يَحنُّ إليها أين كان.

فصل: **وأما الاستكانة**: فهى أيضًا من لوازم الْحُب وأحكامه، لا من أسمائه المختصة به، وأصلها الخضوع، قال الله تعالى: ﴿ **فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ** ﴾ (المؤمنون: ٧٦) وقال تعالى: ﴿ **فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا** ﴾ (آل عمران: ١٤٦) وأصلها استفعل من الكون، وهذا الاشتقاق والتصريفُ يطابق اللفظ، وأما المعنى فالمستكنُّ ساكنٌ خاشعٌ ضدُّ الطائش، ولكن لا يوافق السكون تصريف اللفظة فإنه إن كان افْتَعَلَ كان ينبغى أن يقال اسْتَكَنَ لأنه ليس فى كلامهم افْتِعَال، والحق أنه اسْتَفْعَلَ من الكون فنقلوا حركة الواو إلى الكاف قبلها فتحركت الواو أصلاً وانفتح ما قبلها تقديراً فقلبت ألفًا كاستقام والكوْن: الحالة التى فيها إنابةٌ وذلّ وخضوع، وهذا يُحْمَد إذا كان لله، ويُذَمُّ إذا كان لغيره، ومنه الحديث: «أعُوذُ بِكَ مِنَ الْحَوْرِ بَعْدَ الْكَوْرِ»(٣) أى الرجوع عن الاستقامة بعد ما كنت عليها.

فصل: وأما التبَّالة فهى فعالة من تَبَلَه إذا أفناه. قال الجوهرى: تَبَلهم الدهر، وأتبلهم إذا أفناهم، قال الأعشى(٤):

أأن رأت رجلاً أعشى أضرّ به رَيْبُ الزمان ودهرٌ مُتْبِلٌ خَبِلُ

أى يذهب بالأهل والولد، وتبله الحب، أى أسقمه وأفسده.

---

(١) البيت لطرفة بن العبد بن سفيان.

(٢) البيت لأبى محمد الفقعسى.

(٣) **صحيح**: رواه أحمد (٥/ ٨٣) ومسلم (١٣٤٣) والترمذى (٣٤٣٩) والنسائى (٤/ ٦٦٨) وابن ماجه (٣٨٨٨) والدارمى (٣٦٧٣) وابن خزيمة (٢٥٣٣) ومعنى «الحور بعد الكور» أى الرجوع من الإيمان إلى الكفر، أو من الطاعة إلى المعصية.

(٤) **الأعشى هو**: سعد بن ضبيعة بن قيس.

قلت: ومنه قول كعب بن زهير بن أبى سُلْمَى:

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول   متيَّمٌ عندها لم يُفْدَ مكبول[١]

فصل: وأما اللَّوْعة فقال فى الصحاح: لَوْعة الحب حُرْقته وقد لاعه الْحُب يَلُوعه والْتَاعَ فُؤادُه أى احترق من الشوق، ومنه قولهم: أَتَانٌ لاعَةُ الفُؤَادِ إِلَى جَحْشِهَا. قال الأصمعى: أى لائعةُ الفؤاد وهى التى كأنها وَلْهَى من الفَزَع.

فصل: وأما الفتون فهو مصدر فَتَنَهُ يَفْتِنُهُ فُتُونًا، قال الله تعالى: ﴿ **وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا** ﴾ (طه: ٤٠) أى امتحنَّاك واختبرناك، والفِتْنَة يقال عَلَى ثلاثة معان:

أحدها: الامتحان والاختبار، ومنه قوله تعالى: ﴿ **إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ** ﴾ (الأعراف: ١٥٥) أى امتحانك واختبارُك، والثانى: الافتتان نفسه، يقال: هذه فِتْنَة فلان، أى افتتانه، ومنه قوله تعالى: ﴿ **وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً** ﴾ (الأنفال: ٢٥) يقال: أصابته الفِتْنَةُ وَفَتَنَتْهُ الدنيا وفتنته المرأةُ وأفتنته. قال الأعشى:

لئن فَتَنَتْنِى لَهْىَ بالأمس أفتنت   سعيداً فأضحى قد قَلَى كل مسلم[٢]

وأنكر الأصمعى أفتنته. والثالث: المفتون به نفسُه يُسَمَّى فتنةً، قال الله تعالى: ﴿ **إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ** ﴾ (التغابن: ١٥) وأما قوله تعالى: ﴿ **ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ** ﴾ (الأنعام: ٢٣) أى لم تكن عاقبة شركهم إلا أن تبرأوا منه وأنكروه، وأما قوله تعالى: ﴿ **يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ (١٣) ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ** ﴾ (الذاريات: ١٣، ١٤) فقيل: المعنى يحرقون، ومنه فتنت الذهب إذا أدخلته النار لتنظرَ ما جَوْدَته، ودينارٌ مفتون، قال الخليل[٣]: والفَتْنُ: الإحراق، قال الله تعالى: ﴿ **يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ** ﴾ وَورقٌ فَتِينٌ، أى فضةٌ مُحْرَقَة، وافْتُتِنَ الرجل وفُتِنَ: إذا أصابته فتنةٌ فذهب مالُه أو عقلهُ، وفَتَنَتْهُ المرأة إذا وَلَّهَتْه، وقوله تعالى: ﴿ **فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ (١٦١) مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ (١٦٢) إِلاَّ مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ** ﴾ (الصافات: ١٦١ - ١٦٣) أى لا تفتنون على عبادته إلا مَنْ سبق فى علم الله أنه يصلى الجحيم فذلك الذى يفتتن بفتنتكم إياه، وأما قوله تعالى: ﴿ **فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ (٥) بِأَييِّكُمُ الْمَفْتُونُ** ﴾ (القلم: ٥، ٦) فقيل: الباء زائدة، وقيل: المفتون مصدر كالمعقول والميسور والمحلوف والمعسور، والصواب أن يُبْصِر مُضَمَّنٌ معنى يَشْعُرُ ويعلم، قال الله

---

(١) البيت لكعب بن زهير بن أبى سلمى، والقصيدة ذكرها ابن هشام فى «السيرة» (٤/ ٩٩، ١٠٠، ١٠١).

(٢) قلى: أبغض وكره.

(٣) الخليل: هو أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدى، مؤسس علم العروض، شيخ النحاة، ديِّنًا ورعًا، له كتاب «العين» فى اللغة، ولد سنة (١٠٠هـ) ومات سنة (١٧٠هـ).

تعـــالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ ﴾ (الأحقاف: ٣٣) فعدَّى فعل الرؤية بالباء، وفى الحديث: «الْمُؤْمِنُ أَخُو الْمُؤْمِنِ يَسَعُهُمَا الْمَاءُ وَالشَّجَرُ وَيَتَعَاوَنَانِ عَلَى الْفُتَّانِ»[١] يروى بفتح الفاء وهو واحدٌ، وبضمها وهو جمعُ فاتنٍ، كتاجرٍ وتُجَّار. والمقصود أن الحُب موضع الفتون فما فُتن من فتن إلا بالمحبة.

فصل: وأما الجنون فمن الحُب ما يكون جنونًا، ومنه قوله:

قالت جُننتَ بمن تهوَى فقلت لها ... العشـــق أعظم مـمـا بالمجانيـن
العشقُ لا يستفيق الدهرَ صاحبُه ... وإنما يُصرَع المجنونُ فى الحين[٢]

وأصل المادة من السَّتر فى جميع تصاريفها، ومنه أَجَنَّه الليل وجَنَّ عليه: إذا ستره، ومنه الجَنين لاستتاره فى بطن أمه، ومنه الجَنّة لاستتارها بالاشجار، ومنه المجن لاستتار الضارب به والمضروب، ومنه الجن لاستتارهم عن العيون بخلاف الإنس فإنهم يُؤْنَسُون أى يُرَون، ومنه الجُنَّة بالضم وهى ما استترت به واتَّقيت، ومنه قوله تعالى: ﴿ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً ﴾ (المجادلة: ١٦) وأجننت الميّت: واريته فى القبر فهو جَنين، والحُب المفرط يستر العقل فلا يَعْقِلُ المحب ما ينفعه ويضره فهو شعبةٌ من الجنون.

فصل: وأما اللَّمَم فهو طَرَف من الجنون، ورجل ملمومٌ، أى به لَمَمٌ، ويقال أيضًا: أصابت فلانًا من الجن لَمَّةٌ وهو المس والشيء القليل، قاله الجوهرى قلت: وأصل اللفظة من المقاربة، ومنه قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ ﴾ (النجم: ٣٢) وهى الصغائر، قال ابن عباس ﷺ: ما رَأَيْتُ أشبه باللَّمم مما قال أبو هريرة ﷺ: إن العين تزنى وزناها النظر، واليد تزنى وزناها البطش، والرِّجْل تزنى وزناها المشى، والفم يزنى وزناه القُبَل[٣]. ومنه ألمَّ بكذا، أى قاربه ودنا منه، وغلامٌ مُلِمّ، أى قارب البلوغ، وفى الحديث: «إنَّ مِمَّا يُنْبِتُ الرَّبِيعُ مَا يَقْتُلُ حَبَطًا أَوْ يُلِمّ»[٤]، أى يقـرب من ذلك. وبالجملة فلا يستبين كونُ اللَّمَم من أسماء الحب وإن كان قد ذكره جماعة إلا أن يقال: إن المحبوب قد ألَمَّ بقلب المحب، أى نزل به، ومنه ألْمِمْ بنا، أى انزل بنا، ومنه قوله:

متى تأتنا تُلمم بنا فى ديارنا ... تجدْ حَطَبًا جَزْلاً ونارًا تأججا[٥]

---

(١) ضعيف: رواه أبو داود (٣٠٧٠) والبيهقى فى «الكبرى» (٦/ ١٥٠).

(٢) الحين: الوقت.

(٣) صحيح: رواه البخارى (٦٣٤٣) ومسلم (٢٦٥٧) وأبو داود (٣١٥٣).

(٤) صحيح: رواه البخارى (٦٤٢٧) ومسلم (١٠٥٣).

(٥) تأججا: التاجج: اضطرام النار واتقادها، وشدة حرها، والبيت يكنى به عن كرمه وجوده، فالنار إنما يوقد عليها الطعام.

فصل: وأما الْخَبْلُ: فمن موجبات العشق وآثاره لا من أسمائه وإن ذُكر من أسمائه فإن أصله الفساد وجمعه خُبُول، والْخَبَل بالتحريك الجن، يقال: به خَبَلٌ، أى شىء من أهل الأرض، وقد خَبَله وخَبَّله واخْتَبَلَه: إذا أفسد عقله أو عضوه، ورجلٌ مُخَبَّلٌ وهو نوع من الجنون والفساد.

فصل: وأما الرَّسيسُ: فقد كثُر فى كلامهم رَسِيسُ الهوى والشوق، ورَسيسُ الحب، فظنّ من أدخله فى أسماء الحب أنه منها وليس كذلك، بل الرَّسيسُ الشىء الثابت، فرَسيسُ الحب ثباتُه ودوامُه، ويمكن أن يكون من رَسِّ الْحُمَى ورَسيسها وهو أوّل مسّها، فشبهوا رَسيسَ الحب بحرارته وحُرْقته برسيس الْحُمَّى، وكان الواجب عَلَى هؤلاء أن يجعلوا الأُوار من أسماء الحب لانه يضاف إليه، قال الشاعر:

إذا وجدتُ أوارَ (١) الحبِّ فى كبدى ... أقبلتُ نحو سقاء القوْم أبْتَردُ (٢)

هبنى بَرَدتُ ببَرْد الماء ظاهرَه ... فمن لنار عَلَى الأحشاء تَتَّقدُ

وقد وقع إضافة الرَّسيس إلى الهوى فى شعر ذى الرُّمة (٣) حيث يقول:

إذا غَيَّر النَّأىُ المحبين لم يَكَدْ ... رَسيسُ الهوى من حُبِّ مَيَّة يبرَح (٤)

وفيه إشكالٌ نَحْوىٌّ ليس هذا موضعَه.

فصل: وأما الداء المُخَامرُ فهو من أوصافه وسُمّى مُخَامرًا لمخالطته القلب والرُّوح يقال خامره قال الجوهرى: والمُخَامَرة المخالطة وخامر الرجل المكان إذا لزمه وقد يكون أُخذَ من قولهم: استخمر فلانٌ فلانًا إذا استعبده، وكان العشق داء مستعبدٌ للعاشق، ومنه حديث مُعاذ: مَن اسْتَخْمَرَ قَوْمًا، أى أخذهم قهرًا وتمَلَّكَ عليهم، فالحبّ داء مخالطٌ مُسْتَعبد.

فصل: وأما الودُّ فهو خالص الحبّ وألْطَفُه وأرَقُّه، وهو من الحبّ بمنزلة الرأفة من الرحمة، قال الجوهرى: وَددْت الرجلَ أَوَدُّه وُدًّا إذا أحببته، والودُّ والوُدّ والوَدّ المَوَدَّة، تقول: بودّى أن يكون كذا، وأما قول الشاعر:

أيها العائد المُسَائلُ عنا ... وبوديكَ أن ترى أكفانى (٥)

فإنما أشبع كسرة الدال ليستقيم له البيت فصارت ياء.

---

(١) أوار: حر ولهيب.

(٢) أتبرد: أطفئ اللهيب ليكون فى القلب برد وسلامة.

(٣) ذو الرمة هو: ذو الرمة العدوانى غيلان بن عقبة.

(٤) النأى: البعد.

يبرح: من الالم، كذا فى «لسان العرب» (٦/ ٩٧).

(٥) البيت كناية عن تمنى موت من يراه.

والوِدُّ الوديد بمعنى المودود والجمع أَوُد مثل قِدْحٍ وأَقْدُح وذئبٍ وأَذْؤُب، وهما يتوادّان وهم أَوِدَّاءٍ، والوَدُود: المحب، ورجالٌ وُدَدَاء يستوى فيه المذكر والمؤنث لكونه وصفًا داخلاً عَلَى وصف للمبالغة. **قلت**: الوَدُود من صفات الله سبحانه وتعالى أَصله من المَوَدَّة، واختُلفَ فيه عَلَى قولين: فقيل: هو وَدودٌ بمعنى وادٌّ كضَرُوبٍ بمعنى ضارب وقَتُولٍ بمعنى قاتلٍ ونؤُومٍ بمعنى نائم، ويشهد لهذا القول أن فعولاً فى صفات الله سبحانه وتعالى فاعلٌ كغفور بمعنى غافر، وشكورٍ بمعنى شاكر، وصبورٍ بمعنى صابر، وقيل: بل هو بمعنى مَوْدُود وهو الحبيب، وبذلك فسره البخارى فى صحيحه، فقال: الوَدود الحبيب[1]، والأَوّل أَظهر لاقترانه بالغفور فى قوله: ﴿**وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ**﴾ (البروج: ١٤) وبالرحيم فى قوله: ﴿**إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ**﴾ (هود: ٩٠) وفيه سرٌّ لطيف وهو أَنه يحب التوّابين وأَنه يحبُّ عبده بعد المغفرة فيغفر له ويحبه كما قال: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ**﴾ (البقرة: ٢٢٢) فالتائب حبيب الله، فالودّ أَصفى الحبّ وأَلطفُه.

فصل: وأما الْخُلَّة فهى توحيد المحبة، فالخليل هو الذى توحد حبُّه لمحبوبه، وهى رتبةٌ لا تقبل المشاركة، ولهذا اختص بها فى العالم الخليلان إبراهيم ومحمدٌ صلوات الله وسلامه عليهما، كما قال الله تعالى: ﴿**وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً**﴾ (النساء: ١٢٥) وصحَّ عن النبى ﷺ أَنه قال: «إِنَّ اللهَ اتَّخَذَنِي خَلِيلاً كَمَا اتخذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً»[2]، وفى الصحيح عنه ﷺ: «لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذاً مِنْ أَهْلِ الأَرْضِ خَلِيلاً لاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍخَلِيلاً، وَلَكِنَّ صَاحِبَكُمْ خَلِيلُ الرَّحْمَنِ»[3] وفى الصحيح أيضًا: «إِنِّي أَبْرَأُ إِلَى كُلِّ خَلِيلٍ مِنْ خُلَّتِه»[4]. ولما كانت الْخُلة مرتبة لا تقبل المشاركة امتحن الله سبحانه إبراهيم الخليل بذبح ولده لما أخذ شعبةً من قلبه، فأَراد سبحانه أن يخلص تلك الشعبة له ولا تكون لغيره، فامتحنه بذبح ولده، والمراد ذَبحه من قلبه، لا ذَبْحُه بالمُدْيَة، فلما أسلما لأمر الله وقدَّم محبة الله تعالى عَلَى محبة الولد، خلَص مقام الخُلّة وفدى الولد بالذَّبْح.

وقيل: إِنما سُمِّيت خُلَّةً لتخلّل المحبة جميع أَجزاء الرُّوح، قال:

قد تخللّت مسلك الرُّوح منى … وبذا سمى الخليل خليلا

---

(١) حسن: رواه البخارى فى «صحيحه» معلقًا عن ابن عباس رضي الله عنهما فى (التفسير ـ باب (٨٥) سورة البروج)

(٢) صحيح: رواه الحاكم (٣/ ٥٥٠) وصححه وأقره الذهبى.

(٣) صحيح: رواه البخارى (٣٦٥٦) ومسلم (٢٣٨٣) والترمذى (٣٦٥٥) والنسائى (٧/ ١٣٣).

(٤) صحيح: رواه مسلم (٢٣٨٣) والترمذى (٣٦٥٥) وابن ماجه (٩٣).

والخُلَّةُ: الخليلُ، يستوى فيه المذكر والمؤنث لأنه فى الأصل مصدر قولك خليلٌ بَيِّنُ الخُلَّة والْخُلُولَة، قال:

ألا أَبْلِغــــا خُلَّتِى جـــــابرًا ... بـأن خـليـلك لـم يُقْـــتَـل[1]

ويجمع عَلَى خِلال مثل قُلَّة وقلال. والْخِلُّ الودّ والصديق، والْخِلال أيضًا مصدر بمعنى المُخَالَّة، ومنه قوله تعالى: ﴿لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلا خِلالٌ﴾ (إبراهيم: ٢١) وقال فى الآية الأخرى: ﴿لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلا خُلَّةٌ﴾ (البقرة: ٢٥٤) قال امرؤ القيس:

* ولست بمَقْلِىِّ الْخِلال ولا قـالى[2] *

والخليل: الصديق، والأنثى: خليلة، والْخِلالة والْخَلالة والْخُلالة بكسر الخاء وفتحها وضمها: الصداقة والمودّة، قال:

وكـــيف تُوَاصلُ من أصـبــحـت ... خـــلالَتُــهُ كــأبى مَــرْحَبِ[3]

وقد ظن بعض من لا علم عنده أن الحبيب أفضل من الخليل، وقال: محمد حبيب الله وإبراهيم خليل الله، وهذا باطلٌ من وجوهٍ كثيرة، منها: أنَّ الْخُلة خاصةٌ، والمحبة عامة، فإن الله يحبُّ التوابين ويحبُّ المتطهرين، وقال فى عباده المؤمنين: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ (المائدة: ٥٤) ومنها: أن النبى ﷺ نفى أن يكون له من أهل الأرض خليل، وأخبر أن أحبَّ النساء إليه عائشة ومن الرجال أبوها[4]، ومنها: أنه قال: «إِنَّ اللهَ اتَّخَذَنِى خَلِيلاً كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً»[5] ومنها أنه قال: «لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذاً مِنْ أَهْلِ الأَرْضِ خَلِيلاً لاَتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلاً وَلَكِنْ أُخُوَّةُ الإِسْلامِ وَمَوَدَّتُهُ»[6].

فصل: وأما الْخِلْمُ: فهو مأخوذ من المُخَالَمَة وهى المصادقة والمودّة، والْخِلْمُ الصديق، والأخلام الأصحاب، قال الكُمَيْت:

إذا ابتسر الحربَ أَخْلامُهَا[7] ... كِشَافًا وهُيِّجت الأفْحُلُ[8]

فصل: وأما الغرام: فهو الحبُّ اللازم، يقال: رجلٌ مُغْرَمٌ بالحبِّ، أى قد لزمه الحب،

---

(١) البيت لأوفى بن مطر المازنى.

(٢) مقلى الخلال: قالى: من قلى، والمعنى كره وأبغض.

(٣) البيت للنابغة الجعدى.

(٤) صحيح: رواه البخارى (٣٦٦٣) ومسلم (٢٣٨٤).

(٥) تقدم تخريجه.

(٦) تقدم تخريجه.

(٧، ٨) ابتسر: يقال: ابتسر الفحل الناقة، أى: لقحها قبل أن تطلب، والفحل: الذكر من كل حيوان، والأفحل جمع فحل «لسان العرب» (١٣/ ٤٣٦).

وأصل المادة من اللزوم، ومنه قولهم رجلٌ مُغْرَمٌ من الغُرْم أو الدَّيْنُ، قال في «الصحاح»: والغَرَام الوَلوع، وقد أُغْرِمَ بالشيء، أي أُولِعَ به، والغريم الذي عليه الدَّيْن، يقال: خذ من غريم السوء ما سَنَحَ، ويكون الغريم أيضًا الذي له الدَّين، قال كُثَيِّر عَزَّة:

قضى كلُّ ذي دَيْنٍ فوَفَّى غَريمَه ... وَعَزَّةُ مَمْطولٌ مُعَنًّى غريمُها[١]

ومن المادة قوله تعالى في جهنم: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ (الفرقان: ٦٥) والغرام: الشر الدائم اللازم والعذاب، قال بشر[٢]:

ويوم النِّسَار ويوم الجِفَا ... رِ كانا عذابًا وكانا غرامًا[٣]

وقال الاعشى:

إن يعاقبْ يكن غرامًا وإن يُعْـ ... ـطِ جزيلاً فإنه لا يبالي[٤]

وقال أبو عبيدة[٥]: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ كان هلاكًا ولزامًا لهم، وللطف المحبة واستعذابهم لها لم يكادوا يطلقون عليها لفظ الغرام وإن لهجَ به المتأخرون.

فصل: وأما الهُيام: قال في الصحاح: هام على وجهه يَهِيمُ هَيْمًا وَهَيَمَانًا ذهب من العشق أو غيره، وقلبٌ مستهام، أي هائم، والهُيام بالضم: أشد العطش، والهُيَامُ كالجنون من العشق، والهُيام: داء يأخذ الإبل فتهيم لا ترعى، يقال: ناقة هَيْمَاء قال: والهِيام، بالكسر: الإبل العطاش الواحد هَيْمَان، وناقةٌ هَيْمى مثل عطشان وعَطْشى، وقومٌ هِيمٌ، أي عطاش، وقد هاموا هُيامًا، وقوله تعالى: ﴿فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ﴾ (الواقعة: ٥٥) هي الإبل العطاش، قلت: جمع أَهْيَم هِيمٌ مثل أحمر وحمر وهو جمع فَعلاء أيضًا كصفراء وصفر.

فصل: وأما التَّدْليهُ: ففي الصحاح: التَّدْليهُ ذهاب العقل من الهوى، يقال: دَلَّهَهُ الحُبُّ، أي حيَّره وأدهشه، ودَلِهَ هو يَدْلَهُ، قال أبو زيد[٦]: الدَّلوهُ: الناقة لا تكاد تَحِنُّ إلى إلفٍ ولا ولد، وقد دَلِهَتْ عن إلْفها وعن ولدها تَدْلَهُ دُلوهًا.

---

(١) غريمها: الغريم: الذي له الدين، أو الذي عليه الدين.

(٢) البيت لبشر بن أبي حازم الأسدي.

(٣) البيت للطرماح بن حكيم، كذا في «لسان العرب» (١٣/ ٤٣٨).

(٤) معنى الغرام: اللهفة.

(٥) أبو عبيدة هو: أبو عبيدة محمد بن المثنى التيمي، صاحب كتاب «مجاز القرآن» ولد سنة (١١٠هـ) ومات سنة (٢٠٩ هـ).

(٦) أبو زيد هو: أبو زيد سعيد بن أوس بن ثابت البصري اللغوي الأنصاري، ابن زيد الأنصاري صاحب النبي ﷺ، من مصنفاته «خلق الإنسان» «كتاب الإبل» توفي سنة (٢١٦ هـ).

فصل: وأمـا الوَلَهُ: فقال في الصحاح: الوَلَهُ: ذهاب العقل والتحيُّرُ من شدة الوجد، ورجل وَالِهٌ وامرأة وَالِهٌ ووَالِهَةٌ. قال الأعشى:

فـأَقْبَلَتْ والهًـا ثَكْلَى عَلَى عَـجَلٍ ... كلٌّ دهاها وكلٌّ عندها اجتمعا(١)

وقد وَلِهَ يوْلَهُ وَلهًا وَوَلَهانًا وتَوَلَّهَ واتَّلَهَ وهو افتعل أُدغم. قال الشاعر(٢):

* وَاتَّـلَـهَ الـغُـــــيـــــور *

والتَّوْلِيهُ أَن يُفَرَّق بين الأم وولدها، وفى الحديث: «لا تَـوَلَّهُ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا»(٣) أى لا تُجْعل والهًا وذلك فى السبّايا. وناقةٌ والِهٌ: إذا اشتدّ وَجدُهَا عَلَى ولدها. والمِيلاهُ التى من عادتها أن يشتدّ وَجْدُهَا على ولدها صارت الواو ياء لكسرة ما قبلها. وماء مُولَهٌ ومُوَلَّهٌ أرسل فى الصحراء فذهب، وقول رُؤْبة:

به تَـمَطَّتْ غَـوْلَ كـلِّ مِـيلَـهَ ... بنا حَـرَاجِيجُ المَـهَارَى النُّفَّـهِ(٤)

أراد البلاد التى تُوَلِّهُ الإنسان، أَى تحيّره.

فصل: وأما التعبُّد فهو غاية الحب وغاية الذل، يقال: عبّده الحبُّ، أى ذلّله. وطريقٌ معبَّدٌ بالأقدام، أى مُذَلَّلٌ، وكذلك المحب قد ذلَّلَه الحب ووطَّأَه، ولا تصلُح هذه المرتبة لأحد غير الله عَزَّ وجَلَّ، ولا يغفر الله سبحانه لمن أشرك به فى عبادته، ويغفر ما دون ذلك لمن شاء(٥)، فمحبة العبودية هى أشرف أنواع المحبة، وهى خالص حق الله عَلَى عباده، فى الصحيح عن مُعاذ أنه قال: كنت سائرًا مع رسول الله ﷺ فقال: «يا مُعاذ» فقلت: لَبَّيْكَ يا رسول الله وسَعْدَيْك، قال: ثم سار ساعةً ثم قال: «يامعاذ» قلت: لَبَّيْكَ رسول الله وسَعْدَيك، ثم سار ساعةً فقال: يا معاذُ، قلت: لَبَّيْكَ رسولَ الله وسَعْدَيك، قال: «أتدرى ما حَقُّ الله على عباده»؟ قلت: اللهُ ورسوله أعلم، قال: «حقُّه عليهم أن يعبدوه لا يشركوا به شيئًا، أَتدرى ما حقُّ العباد عَلَى الله إِذا فعلوا ذلك؟ أن لا يعذبهم بالنار»(٦). وقد ذكر الله

---

(١) ثكلى: الثكل: الموت والهلاك، انظر «اللسان» (١٣/ ٥٦١).

(٢) البيت لمليح الهذلى، وهذا عجز بيت صدره:

إذا مـا حـال دون كـلام سـعـدى ... تـالى الدار واتـلـه الغـيـور

(٣) **ضعيف**: رواه البخارى فى «التاريخ الكبير» (٣٠٣٥) والبيهقى فى «الكبرى» (٨/ ٥) وضعفه الألبانى فى «الضعيفة» (٦٣٨٠).

(٤) **قمطت**: سارت طويلاً، **الغول**: بعد الصحراء لأنه يغتال من يمر به، **والميلة**: أرض تحير الإنسان، **ومراجيح**: جمع مرجوح وهى: الناقة الطويلة، **المهارى**: إبل نسبت إلى مهرات بن حيدان، أحد الفرس، **النقة**: الناقة الذليلة، انظر «اللسان» (١١/ ٥٠٨).

(٥) يشير إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ (النساء: ٤٨).

(٦) **صحيح**: رواه البخارى (٥٩٦٧) ومسلم (٣٠/ ٤٨).

سبحانه رسوله بالعبودية فى أشرف مقاماته، وهى مقام التحدّى، ومقام الإسراء، ومقام الدعوة، فقال فى التحدى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾ (البقرة: ٢٣) وقال فى مقام الإسراء: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ (الإسراء: ١) وقال فى مقام الدعوة: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ (الجن: ١٩) وإذا تدافع أولو العزم الشفاعةَ الكبرى يوم القيامة يقول المسيح لهم: اذهبوا إلى محمد، عبد غفَرَ الله له ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر[1]، فنال ذلك المقام بكمال العبودية لله وكمال مغفرة الله له، فأشرف صفات العبد صفة العبودية، وأحَبُّ أسمائه إلى الله اسم العبودية، كما ثبت عن النبى ﷺ أنه قال: «أَحَبُّ الأَسماءِ إِلَى اللهِ عَبْدُ اللهِ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ، وأَصْدَقُهَا حَارِثٌ وَهَمَّام، وأَقْبَحُهَا حَرْبٌ ومُرَّة»[2]. وإنما كان حارث وهمام أصدقَها لأن كل أحد لا بدّ له من همّ وإرادة وعزم ينشأ عنه حرثه وفعله، وكلُّ أحد حارثٌ وهَمام، وإنما كان أقبَحَهَا حربٌ ومُرَة لما فى مسمى هذين الاسمين من الكراهة ونفور العقل عنهما، وبالله التوفيق.

---

(١) صحيح: رواه البخارى (٤٤٧٦) ومسلم (١٩٣).

(٢) مرسل صحيح الإسناد: رواه أحمد (٤ / ٣٤٥) وأبو داود (٤٩٥٠) والنسائى (٣ / ٥٦٨) والبخارى فى «الأدب المفرد» (٨١٤) وصححه الألبانى فى «الصحيحة» (٩٠٤).

الباب الثالث:

فى نسبة هذه الأسماء بعضها إلى بعض
هل هى بالترادف أو التباين

فالأسماء الدالة على مسمى واحد نوعان:

أحدهما: أن يَدُلَّ عليه باعتبار الذات فقط، فهذا النوع هو المترادفُ ترادفًا محضًا، وهذا كالحِنْطة، والقمح، والبُرّ، والاسم، والكُنية، واللَّقَب، إذا لم يكن فيه مدحٌ ولا ذم، وإنما أُتى به لمجرد التعريف.

والنوع الثانى: أن يدلَّ على ذاتٍ واحدة باعتبار تبايُنِ صفاتها كأسماء الرب تعالى، وأسماء كلامه، وأسماءِ نبيه، وأسماءِ اليوم الآخر، فهذا النوع مُترادفٌ بالنسبة إلى الذات، متباينٌ بالنسبة إلى الصفات، فالرب والرحمن والعزيز والقدير والمَلِكُ يدلّ على ذاتٍ واحدة باعتبار صفاتٍ متعددة، وكذلك البشير والنذير والحاشر والعاقب والماحى[١]، وكذلك يوم القيامة ويوم البعث ويوم الجَمْع ويوم التَّغابُن ويوم الآزِفَة ونحوها، وكذلك القرآن والفرقان والكتاب والهُدى ونحوها، وكذلك أسماء السيف فإنّ تعدُّدها بحسب أوصافٍ وإضافاتٍ مختلفة، كالمهنَّد والعَضْب والصَّارم ونحوها.

وقد عرَفتَ تبايُنَ الأوصاف فى أسماء المحبة، وقد أنكر كثيرٌ من الناس الترادُف فى اللغة، وكأنهم أرادوا هذا المعنى وأنه ما من اسمين لمسمى واحدٍ إلا وبينهما فرقٌ فى صفةٍ أو نسبةٍ أو إضافة، سواء عُلمت لنا أو لم تُعْلَم، وهذا الذى قالوه صحيحٌ باعتبار الواضعِ الواحد، ولكن قد يَقَعُ الترادُف باعتبار واضعَيْن مختلفَيْن يسمى أحدهما المسمى باسم، ويسميه الواضع الآخر باسم غيره، ويشتهر الوضعان عند القبيلة الواحدة، وهذا كثير، ومن ههنا يقع الاشتراك أيضًا، فالأصل فى اللغة هو التبايُن وهو أكثر اللغة، والله أعلم.

---

(١) الماحى: اسم من أسماء النبى ﷺ، ومعناه: الذى يمحو الله به الكفر، وقد ورد فى ذلك حديث رواه البخارى (٣٥٣٢) ومسلم (٢٣٥٤).

الباب الرابع:

فى أن العالم العلوى والسفلى إنما وجد بالمحبة ولأجلها وأن حركات الأفلاك والشمس والقمر والنجوم وحركات الملائكة والحيوانات وحركة كل متحرك إنما وجدت بسبب الحب

وهذا بابٌ شريفٌ من أشرف أبواب الكتاب، وقبل تقريره لا بدَّ من بيان مقدمة وهى أن الحركات ثلاث: حركةٌ إرادية، وحركةٌ طبيعية، وحركةٌ قَسْرية، وبيان الحصر أن مبدأ الحركة إما أن يكون من المتحرك أو من غيره، فإن كان من المتحرّك فإما أن يقارنها شعورُه وعلمُه بها أوْ لا، فإن قارنها الشعور والعلم فهى الإرادية، وإن لم يقارنها الشعور والعلم فهى الطبيعية، وإن كانت من غيره فهى القَسْرية، وإن شئت أن تقول: المتحرّك إما أن يتحرّك بإرادته أوْ لا، فإن تحرّك بإرادته فحركته إرادية، وإن تحرَّك بغير إرادته فإما أن تكون حركته إلى نحو مركزه أوْ لا، فإن تحرَّك إلى جهة مركزه فحركتُه طبيعية، وإن تحرَّك إلى غير جهة مركزه فحركتُه قَسْرية، إذا ثبت هذا فالحركة الإرادية تابعةٌ لإرادة المتحرّك، والمراد إما أن يكون مرادًا لنفسه أو لغيره، ولا بد أن ينتهىَ المراد لغيره إلى مراد لنفسه دفعًا للدَّور والتسلسل. والإرادة إما أن تكون لجلب منفعة ولذة إما للمتحرّك وإما لغيره، أو دفع ألم ومضرَّة إما عن المتحرّك أو عن غيره، والعاقل لا يَجْلِبُ لغيره منفعة ولا يدفع عنه مضرةً إلا لما له فى ذلك من اللذة ودفع الألم، فصارت حركته الإرادية تابعةً لمحبته، بل هذا حكم كل حيّ متحرّك.

وأما الحركة الطبيعية فهى حركة الشىء إلى مستقرِّه ومركزه، وتلك تابعةٌ للحركة التى اقتضت خروجَه عن مركزه، وهى القَسرية التى إنما تكون بقسر قاسرٍ أخرجَه عن مركزه، إما باختياره كحركة الحجر إلى أسفل إذا رُمى به إلى جهة فوق، وإما بغير اختيار مُحَرِّكه كتحريك الرياح للأجسام إلى جهة مَهَابِّها، وهذه الحركة تابعةٌ للقاسر، وحركة القاسر ليست منه بل مبدؤها من غيره، فإن الملائكة مُوَكَّلَةٌ بالعالم العُلوى؛ والسفلى تدبِّره بأمر الله عَزَّ وجَلَّ كما قال الله تعالى: ﴿ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ﴾ (النازعات: ٥) وقال: ﴿ فَالْمُقَسِّمَاتِ

أَمْرًا﴾ (الذاريات: ٤) وقال تعالى: **﴿وَالْمُرْسَلاتِ عُرْفًا (١) فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا (٢) وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا (٣) فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا (٤) فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا﴾** (المرسلات: ١ : ٥) وقال: **﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا (١) وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا (٢) وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا (٣) فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا (٤) فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾** (النازعات: ١ - ٥) وقد وكَّل الله سبحانه بالأفلاك والشمس والقمر ملائكةً تحرّكها، ووكّل بالرياح ملائكةً تصرفها بأمره وهم خزنتها، قال الله تعالى: **﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾** (الحاقة: ٦) وقال غير واحد من السلف: عتت على الخزان فلم يقدروا علَى ضبطها (ذكره البخارى فى صحيحه)(١)، ووكل بالقطر ملائكة، وبالسحاب ملائكة تسوقه إلى حيث أمرت به وقد ثبت فى الصحيح عن النبى ﷺ أنه قال: «بَيْنَا رَجُلٌ بِفَلاةٍ مِنَ الأَرْضِ إِذْ سَمِعَ صَوْتًا فِى سَحَابَةٍ يَقُولُ: اسْقِ حَدِيقَةَ فَلانٍ فَتَتَبَّعَ السَّحَابَةَ حَتَّى انتَهَتْ إِلَى حَدِيقَةٍ فَأَفْرَغَتْ مَاءَهَا فِيهَا، فَنَظَرَ فَإِذَا رَجُلٌ فِى الحَدِيقَةِ يُحَوِّلُ المَاءَ بِمِسْحَاةٍ، فَقَالَ لَهُ: مَا اسْمُكَ يَا عَبْدَ اللهِ؟ فَقَال: فَلانٌ، الاسمُ الَّذِى سَمِعَه فِى السَّحَابَةِ، فَقَالَ: إِنِّى سَمِعْتُ قَائلاً يَقُولُ فِى هَذِه السَّحَابَةِ: اسْقِ حَدِيقَةَ فَلانٍ فَمَا تَصْنَعُ فِى هَذه الْحَدِيقَةِ؟ فَقَالَ: إِنِّى أَنْظُرُ مَا يَخْرُجُ مِنْهَا فَأَجْعَلُهُ ثَلاثَةَ أَثْلاثٍ: ثُلُثٌ أَتَصَدَّقُ بِهِ، وَثُلُثٌ أَنْفِقُهُ عَلَى عِيَالِى، وَثُلُثٌ أَرُدُّهُ فِيهَا»(٢).

ووكّل الله سبحانه بالجبال ملائكة، وثبت عن النبى ﷺ أنه جاءه ملك الجبال يسلّم عليه ويستأذنه فى هلاك قومه إن أحبّ، فقال: «بَلْ أَسْتَأْنِى لَهُمْ لَعَلَّ اللهَ أَنْ يُخْرِجَ مِنْ أَصلابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ لا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا»(٣). ووكلّ بالرّحِم ملَكًا يقول: يا ربّ نطفة؟ يا ربّ علقة؟ يا ربّ مضغة؟ يا ربّ ذكرٌ أم أُنثى؟ فما الرزق؟ فما الأجل؟ وشقىٌّ أم سعيد(٤)؟ ووكّل بكل عبدٍ أربعةً من الملائكة فىً هذه الدنيا: حافظان عن يمينه وعن شماله يكتبان أعماله، ومُعَقِّباتٌ من بين يديه ومن خلفه أقلُّهم اثنان يحفظونه من أمر الله(٥).

---

(١) صحيح: رواه البخارى فى كتاب أحاديث الأنبياء - باب (٦) عن سفيان بن عيينة (٦/ ٣٧٦) معلقًا بصيغة الجزم، وقد عزاه ابن حجر لابن عباس موصولاً عند الطبرانى بإسناد صحيح، ومعنى الفلاة: الأرض الواسعة، المسحاة: الآلة التى يجرف بها الماء.

(٢) صحيح: رواه أحمد (٣/ ٣٩٦) ومسلم (٣٩٨٤).

(٣) صحيح: رواه البخارى (٣٢٣١) ومسلم (١٧٩٥).

(٤) صحيح: رواه البخارى (٣٣٣٣) ومسلم (٢٦٤٦).

(٥) هذا هو قول الله عز وجل: **﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾** (الرعد: ١١).

ووكّل بالموت ملائكة، ووكّل بمُساءلة الموتى ملائكةً يثبتونه ويَؤُزُّونه[١] إلى الطاعات أزًّا، ووكّل بالنار ملائكةً يبنونها ويوقدونها، ويصنعون أغلالها وسلاسلها ويقومون بأمرها، ووكّل بالجنة ملائكةً، يبنونها ويفرشونها، ويصنعون أرائكها[٢] وسُرُرَها[٣] وصحافها[٤] ونمارقها[٥] وزَرابيَّها[٦]، فأمْرُ العالَم العُلوى والسُّفلى والجنة والنار بتدبير الملائكة بإذن ربهم تبارك وتعالى وأمره ﴿لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ (الأنبياء: ٢٧) ﴿لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ (التحريم: ٦) فأخبر أنهم لا يعصونه فى أمره، وأنهم قادرون عَلَى تنفيذ أوامره ليس بهم عجزٌ عنها، بخلاف من يترك ما أُمر به عجزًا فلا يعصى اللهَ ما أمره، وإن لم يفعل ما أمره به، وكذلك البحار قد وُكلت بها ملائكةٌ تسجرها[٧]، وتمنعها أن تفيض عَلَى الأرض فتغرق أهلَها، وكذلك أعمال بنى آدم خيرُها وشرُّها قد وُكلت بها ملائكةٌ تحصيها وتحفظها وتكتبها، ولهذا كان الإيمان بالملائكة أحدَ أركان الإيمان الذى لا يَتمّ إلا به. وهى خمس: الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر.

وإذا عُرِفَ ذلك عُرِف أن كل حرَكة فى العالم فسببُها الملائكة، وحركتُهم طاعةُ الله بأمره، وإرادته، فيرجع الأمر كله إلى تنفيذ مراد الرب تعالى شرعًا وقَدَرًا، والملائكةُ هم المنفِّذون ذلك بأمره، ولذلك سُمُّوا ملائكةً من الألوكة وهى الرسالة، فهم رسل الله فى تنفيذ أوامره.

والمقصود: أن حركات الأفلاك وما حوتْه تابعةٌ للحركة الإرادية المستلزمة للمحبة فالمحبة والإرادة أصلُ كل فعل ومبدؤه، فلا يكون الفعل إلا عن محبة وإرادة، حتى دفعه للأمور التى يبغضها ويكرهها، فإنما يدفعها بإرادته ومحبته لأضدادها واللّذة التى يجدها بالدفع كما يقال: شفَى غيظه، وشفَى صدره، والشفاء والعافية يكون للمحبوب وإن كان

---

(١) يؤزونه: الأز هو: التهييج على العمل والحض عليه.
(٢) أرائكها: الأرائك: السرر والمقاعد التى يجلس عليها.
(٣) سررها: السرير: المضجع.
(٤) صحافها: الصحاف: الطبق أو الإناء المعد للأكل.
(٥) نمارق: النمرقة: الوسادة التى يتكئ عليها.
(٦) زرابى: البساط الذى يجلس عليه كالسجادة والموكيت.
(٧) تسجرها: يقال: سجر السور أى: أشعله، والمعنى هنا تملؤها.

كريهًا، مثل شرب الدواء الذى يُدْفَع به ألمُ المرض، فإنه وإن كان مكروهًا من وجهٍ فهو محبوبٌ لما فيه من زوال المكروه وحصول المحبوب، وكذلك فعلُ الأشياء المخالفة للهوى، فإنها وإن كانت مكروهةً فإنما تُفْعَل لمحبةٍ وإرادة، وإن لم تكن محبوبةً لنفسها فإنها مستلزِمَةٌ للمحبوب لنفسه، فلا يترك الحىُّ ما يُحِبه ويهواه، إلا لما يُحِبُّه ويهواه، ولكن يترك أضعفَهما محبةً لأقواهما محبة، ولذلك كانت المحبة والإرادة أَصلاً للبغض والكراهة، فإن البغيض المكروه ينافى وجودَ المحبوب، والفعلُ إما أَن يتناول وجودَ المحبوب أو دفعَ المكروه المستلزِمِ لوجود المحبوب، فعاد الفعل كله إلى وجود المحبوب.

والحركة الاختيارية أَصلُها الإرادة، والقسريةُ والطبيعيةُ تابِعتان لها، فعاد الأمر إلى الحركة الإرادية، فجميع حركات العالم العلوى والسفلى تابعة للإرادة والمحبة، وبها تحرّك العالَم ولأجلها، فهى العلة الفاعليّة والغائيّة، بل هى التى بها ولأجلها وُجد العالم، فما تحرّك فى العالَم العُلوى والسفلى حركةٌ إلا والإرادةُ والمحبة سببها وغايتُها، بل حقيقة المحبة حركة نفس المحبّ إلى محبوبه، فالمحبة حركةٌ بلا سكون. وكمالُ المحبة هو العبوديةُ، والذلّ، والخضوعُ، والطاعة للمحبوب، وهو الحق الذى به وله خُلقَت السموات والأرض والدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾ (الحجر: ٨٥) وقال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً﴾ (سورة ص: ٢٧) وقال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾ (المؤمنون: ١١٦).

والحق الذى خُلِق به ولأجله الخلقُ هو عبادة الله وحده التى هى كمال محبته والخضوع والذُّل له، ولوازم عبوديته من الأمر والنهى والثواب والعقاب، ولأجل ذلك أرسل الرسل، وأنزل الكتب، وخلق الجنَّة والنار. والسمواتُ والأرضُ إنما قامت بالعدل الذى هو صراط الله الذى هو عليه وهو أحبُّ الأشياء إلى الله تعالى، قال الله تعالى حاكيًا عن نبيّه شعيب، عليه السلام: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (هود: ٥٦) فهو على صراطٍ مستقيم فى شَرْعه وقَدَره، وهو العدل الذى به ظهر الخلق والأمر والثواب والعقاب، وهو الحق الذى به وله خُلقت السَّمواتُ والأرضُ وما بينهما ولهذا قال المؤمنون فى عبادتهم: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ﴾ (آل عمران: ١٩١) فنزَّهوا ربهم سبحانه أن يكون خلق السَّموات عَبَثًا لغير حكمةٍ ولا غايةٍ محمودة، وهو

سبحانه يُحْمَد لهذه الغايات المحمودة كما يُحْمَد لذاته وأوصافه، فالغايات المحمودة فى أفعاله هى الحكمة التى يحبها ويرضاها، وخَلَق ما يكره لاستلزامه مايحبه وتَرَتُّب المحبوب له عليه ولذلك يترك سبحانه فعل بعض ما يحبّه لما يترتب عليه من فوات محبوب له أعظمَ منه، أو حصول مكروه أكرهَ إليه من ذلك المحبوب، وهذا كما ثَبَّطَ(١) قلوب أعدائه عن الإيمان به وطاعته، لانه يكره طاعاتهم ويُفَوِّت بها ما هو أحبُّ إليه منها من جهادهم وما يترتب عليه من المُوَالاة فيه والمعاداة، وبذل أوليائه نفوسَهم فيه، وإيثار محبته ورضاه على نفوسهم، ولاجل هذا خلق الموت والحياة وجعل ما على الارض زينة لها، قال تعالى: ﴿ الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ (الملك: ٢) وقال: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ (الكهف: ٧).

وقال تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ (هود: ٧) فاخبر سبحانه عن خلق العالم والموت والحياة وتزيين الارض بما عليها انه للابتلاء والامتحان ليختبر خلقه أيهم أحسن عملاً، فيكون عمله موافقًا لمحابِّ الرب تعالى، فيوافق الغاية التى خُلق هو لها وخُلق لاجلها العالم، وهى عبوديته المتضمنة لمحبته وَطاعته، وهى العملُ الاحسنُ وهو مَوَاقِعُ محبته ورضاه، وقدَّر سبحانه مقاديرَ تخالفها بحكمته فى تقديرها، وامتحن خلقه بين أمره وقَدَره ليبلوَهم أيُّهم أحسنُ عملاً.

فانقسم الخلق فى هذا الابتلاء فريقين: فريقًا داروا مع أوامره ومحابِّه، ووقفوا حيث وقف بهم الامر، وتحرّكوا حيث حرّكهم الامر، واستعملوا الامر فى القَدَر، وركبوا سفينةَ الامر فى بحر القَدَر، وحَكّموا الامر على القَدَر، ونازعوا القَدَر بالقَدَر امتثالاً لامره واتباعًا لمرضاته، فهؤلاء هم الناجون.

والفريق الثانى عارضوا بين الأمر والقَدَر، وبين ما يحبه ويرضاه، وبين ما قدَّره وقضاه، ثم افترقوا أربع فِرَق:

فرقةٌ كذَّبت بالقَدَر محافظةً عَلَى الامر، فابطلت الامر من حيث حافظت عَلى القَدَر، فإن الإيمان بالقَدَر أصل الإيمان بالامر، وهو نظام التوحيد، فمن كذَّب بالقَدَر نَقَضَ تكذيبُه إيمانَه.

---

(١) ثبط: يقال ثبطه عن الشيء: عوقه وبطأ به، المعجم الوجيز (٨٣).

وفرقةٌ ردّت الأمر بالقَدَر وهؤلاء من أكفر الخلق[١]، وهم الذين حكى الله قولهم فى القرآن إذ قالوا: ﴿**لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلا آبَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ**﴾ (الأنعام: ١٤٨) وقالوا أيضًا: ﴿**لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلا آبَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ**﴾ (النحل: ٣٥) وقالوا أيضًا: ﴿**لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم**﴾ (الزخرف: ٢٠) وقالوا أيضًا: ﴿**أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ**﴾ (يس: ٤٧).

فجعلهم الله سبحانه وتعالى بذلك مكذّبين خارصين[٢] ليس لهم علم، وأَخبر أنهم فى ضلال مبين.

وفرقةٌ دارت مع القَدَر، فسارت بسَيْره، ونزلت بنزوله، ودانت به، ولم تبالِ وافقَ الأمرَ أو خالفه، بل دينُها القَدَر، فالحلالُ ما حلّ بيدها قَدَرًا، والحرام ما حُرِمَتْهُ قَدَرًا، وهم مع من غلبَ قَدراً من مسلمٍ أوكافرٍ، برّا كان أو فاجراً، وخواصُّ هؤلاء وعُبَّادُهم لما شَهِدوا الحقيقة الكونية القَدَرية صاروا مع الكفار المسلَّطين بالقَدَر، وهم خُفراؤهم[٣]، فهؤلاء أيضًا كفَّار.

وفرقةٌ وقفت مع القَدَر مع اعترافها بأنه خلافُ الأمر، ولم تَدِن به ولكنها استرسلت معه، ولم تُحَكّم عليه الأمر وعَجزَت عن دفع القدر بالقَدَر اتباعًا للأمر، فهؤلاء مفرِّطون، وهم بين عاجزٍ وعاصٍ لله، وهؤلاء الفِرَقُ كلهم مُؤْتَمُّونَ بشيخهم إبليس، فإنه أَوّلُ من قدّم القدَر على الأمر وعارضه به، وقال: ﴿**رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ**﴾ (الحجر: ٣٩) وقال: ﴿**فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ**﴾ (الأعراف: ١٦) فردّ أَمر الله بقدَره، واحتجّ على ربه بالقَدَر، وانقسم أَتباعه أربعَ فِرَق كما رأَيت، فإبليس وجنوده أُرسلوا بالقدر إرسالاً كونيًّا، فالقدَرُ دينهم، قال الله تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا**﴾ (مريم: ٨٣) فدينُهم القَدَر، ومصيرُهم سقر، فبعث الله الرسل بالأمر وأمرهم أن يحاربوا به أهلَ القدر، وشرَع لهم من أمره سُفُنًا وأمرهم أَن يركبوا فيها هم وأَتباعُهم فى بحر القَدَر، وخصّ بالنجاةِ من ركبها كما خَصّ بالنجاة أصحاب

---

(١) هم القدرية الذين يقولون: إن الله عز وجل غير خالق لأعمال الناس، وأن الناس هم الذين يخلقون أعمالهم، الفرق بين الفرق (١١٤) للبغدادى.

(٢) خارصين: الخرص بالفتح: الكذب، المعجم الوجيز (١٩١) خرص: حزر، فقوله مختلف متناقض، هو المعنى هنا.

(٣) خفراؤهم: الخفير هو: الحارس المجير.

السفينة، وجعل ذلك آيةً للعالمين. فأصحابُ الأمر حربٌ لأصحاب القَدَر حتى يردُّوهم إلى الأمر، وأصحاب القدَر يحاربون أصحابَ الأمر حتى يخرجوهم منه، فالرسلُ دينُهم الأمرُ مع إيمانهم بالقدَر وتحكيم الأمر عليه، وإبليسُ وأتباعُه دينهُم القَدَر ودفعُ الأمر به، فتأمَّل هذه المسألة فى القدر والأمر وانقسام العالم فيها إلى هذه الأقسام الخمسة، وبالله التوفيق (١).

فحركاتُ العالَم العُلوى والسفلى وما فيهما موافقة للأمر، إما الأمر الدينى الذى يحبه الله ويرضاه، وإما الأمر الكونى الذى قدَّره وقضاه، وهو سبحانه لم يقدِّره سدًى ولا قضاه عبثًا، بل لما فيه من الحكمة والغايات الحميدة، وما يترتب عليه من أمور يحب غاياتها وإن كره أسبابها ومبادئها، فإنه سبحانه وتعالى يحب المغفرة وإن كره معاصىَ عباده، ويحب السَّتْر وإن كره ما يَسْتر عبدَه عليه، ويحب العتْق وإن كره السبب الذى يُعتق عليه من النار، ويحب العفوَ كما فى الحديث: «اللَّهُمَّ إِنَّكَ عَفُوٌّ تُحِبُّ الْعَفْوَ فَاعْفُ عَنِّى» (٢)، وإن كره مايعفو عنه من الأوزار (٣)، ويحب التَّوابين وتوبتَهم، وإن كره معاصيَهم التى يتوبون إليه منها، ويحب الجهاد وأهلَه، بل هم أحبُّ خلقه إليه، وإن كره أفعال من يجاهدونه، وهذا بابٌ واسع قد فُتح لك فادخل منه يُطلعك على رياضٍ من المعرفة مُونقَة (٤) مات مَنْ فاتته بحسرتها، وبالله التوفيق.

وهذا موضعٌ يضيق عنه عدَّة أسفار (٥) واللبيب يدخل إليه من بابه، وسرُّ هذا الباب أنه سبحانه كاملٌ فى أسمائه وصفاته، فله الكمالُ المطلق من جميع الوجوه الذى لا نقص فيه بوجهٍ ما، وهو يحب أسماءه وصفاته، ويحب ظهور آثارها فى خلقه، فإن ذلك من لوازم كماله، فإنه سبحانه وِتْرٌ يحبُّ الوِتر، جميلٌ يحبّ الجمال (٦)، عليمٌ يحبّ العلماء، جوادٌ يحب الأجواد، قوى، والمؤمنُ القوىُّ أَحَبُّ إليه من المؤمن الضعيف، حَيِى يحبّ أهل الحياء، وفىٌّ يحبّ أهل الوفاء، شكورٌ يحبّ الشاكرين، صادقٌ يحبّ الصادقين، محسنٌ يحب المحسنين.

---

(١) انظر كتاب: «شفاء العليل» للمصنف، فقد كفى وشفى فى موضوع القضاء والقدر.

(٢) صحيح: رواه أحمد (٦/ ١٨٣) والترمذى (٣٥١٣) وابن ماجه (٣٨٥٠) والحاكم (١/ ٥٣٠) وصححه الألبانى فى «المشكاة» (٢٠٩١).

(٣) الأوزار: مفردها وزر، والمعنى: الأحمال والأثقال، والمقصود منها هنا المعاصى والذنوب.

(٤) مونقة: نضرة.

(٥) أسفار: جمع سفر بالكسر، وهو: الكتاب.

(٦) جاء عن أبى سعيد الخدرى عنه ﷺ أنه قال: «إن الله جميل يحب الجمال» رواه مسلم (٩١).

فإذا كان يحبّ العفو والمغفرةَ والحِلْمَ والصفحَ والسَّتْرَ لم يكن بد من تقديره للأسباب التى تَظهر آثارُ هذه الصفات فيها، ويَسْتَدِلُّ بها عبادُه عَلَى كمال أسمائه وصفاته، ويكون ذلك أَدْعى لهم إلى محبته وحمدِه وتمجيدِه والثناء عليه بما هو أهلُه، فتحصُل الغاية التى خَلَقَ لها الخلق، وإن فاتت من بعضهم فذلك الفواتُ سببٌ لكمالها وظهورها، فتضمن ذلك الفواتُ المكروهُ له أمرًا هو أحبُّ إليه من عدَمه، فتأمل هذا الموضع حقَّ التأمل، وهذا ينكشف يوم القيامة للخليقة بأجمعهم حين يجمعهم فى صعيدٍ واحد، ويُوصِل إلى كل نفسٍ ما ينبغى إيصالُه إليها من الخير والشرّ، واللذّةِ والألم، حتى مثقالِ الذّرة، ويوصل كل نفس إلى غاياتِها التى تشهد هى أنها أَوْلى بها، فحينئذ يَنْطق الكونُ بأُجمعه بحمده تبارك وتعالى قالاً وحالاً[1]، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿**وَتَرَى الْمَلائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ (الزمر: ٧٥) فحذف فاعل القول لأنه غيرُ معين، بل كل أحدٍ يَحْمَدُ عَلَى ذلك الحُكم الذى حكم فيه، فَيَحْمَدُه أَهل السموات وأهلُ الأرض، والأبرارُ والفجارُ، والإنسُ والجنُّ حتى أهلُ النار. قال الحسن[2] أو غيره: لقد دخلوا النار وإن حَمْدَه لفى قلوبهم ما وجدوا عليه سبيلاً، وهذا والله أعلمُ هو السرُّ الذى حذف لأجله الفاعل فى قوله: ﴿**قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا**﴾ (الزمر: ٧٢) وقوله: ﴿**وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ**﴾ (التحريم: ١٠) كأن الكون كلَّه نطق بذلك وقاله لهم، والله تعالى أعلم بالصواب.

---

(١) قالاً وحالاً: المعنى كل من فى الكون جميعًا.

(٢) الحسن البصرى هو: أبو سعيد الحسن بن أبى الحسن البصرى، ولد لسنتين بقيتا من خلافة عمر ابن الخطاب رضي الله عنه، إمام زاهد ورع، توفى سنة (١١٠ هـ).

الباب الخامس:

فى دواعى المحبة ومتعلقها

الداعى قد يُراد به الشعورُ الذى تتبَعُه الإرادةُ والميل، فذلك قائمٌ بالمحبّ وقد يُراد به السببُ الذى لأجله وُجدت المحبةُ وتعلّقت به، وذلك قائمٌ بالمحبوب ونحن نريد بالداعى مجموعَ الأمرين، وهو: ما قام بالمحبوب من الصفات التى تدعو إلى محبّته، وما قام بالمحب من الشعور بها، والموافقَة التى بين المحب والمحبوب، وهى الرابطة بينهما وتسمّى بين المخلوق والمخلوق مناسبةً وملاءمة.

فههنا أُمور: وصفُ المحبوب وجمالُه، وشعورُ المحب به، والمناسبةُ وهى العلاقة والملاءمة التى بين المحب والمحبوب، فمتى قويت الثلاثة وكَمُلَت، قويت المحبة واستحكمت، ونقصان المحبة وضعفُها بحسب ضعف هذه الثلاثة أو نَقْصها، فمتى كان المحبوبُ فى غاية الجمال، وشعورُ المحب بجماله أتمَّ شعور، والمناسبةُ التى بين الرُّوحين قويةٌ، فذلك الحبُّ اللازم الدائم، وقد يكون الجمال فى نفسه ناقصًا لكن هو فى عين المحب كامل، فتكون قوّة محبته بحسب ذلك الجمال عنده، فإن حُبُّك للشىء يُعمى ويُصِمّ[١]، فلا يرى المحبُ أحدًا أحسنَ من محبوبه، كما يُحْكَى أنَّ عَزّة[٢] دخلت على الحجّاج[٣] فقال لها: يا عَزَّة، والله ما أنت كما قال فيك كُثَيِّر، فقالت: أيها الأمير، لم يَرَنِ بالعين التى رأيتَنى بها، ولا ريب أن المحبوب أحلى فى عين محبه وأكبرُ فى صدره من غيره، وقد أفصح بهذا القائلُ فى قوله:

فــوالله مـــا أدرى أزِيدَتْ مـــلاحـــة
وحُسْنًا على النِّسوان أم ليس لى عَقْلُ[٤]

وقد يكون الجمالُ مُوَفَّرًا لكنه ناقصٌ الشعور به فَتَضْعُفَ محبتُه لذلك، فلو كُشفَ له

---

(١) ضعيف: رواه أحمد (٥/ ١٩٤) وأبو داود (٥١٣٠).

(٢) عزة: هى معشوقة ومحبوبة كُثَيِّر، الشاعر الشهير.

(٣) الحجاج: هو: أبو محمد الحجاج بن يوسف الثقفى، توفى سنة (٩٥ هـ) وقد كفّره بعض الناس، ودافع عنه البعض الآخر، ومجال ذلك رسالة الدكتوراه «الحجاج المفترى عليه» ط دار السلام - القاهرة.

(٤) ملاحة: جمال النسوان: جمع امرأة.

عن حقيقته لأسر قلبَه، ولهذا أُمِرَ النساء بسَتْر وجوههن عن الرجال[١]، فإن ظهور الوجه يُسْفِر عن كمال المحاسن فيقع الافتتان، ولهذا شُرِع للخاطب أن ينظر إلى المخطوبة، فإنه إذا شاهد حسنَها وجمالَها كان ذلك أدعى إلى حصول المحبة والأُلفة بينهما كما أشار إليه النبى ﷺ فى قوله: «إِذا أَرَادَ أَحَدُكُم خِطْبَةَ امْرَأَةٍ فَلْيَنْظُرْ إِلَى مَا يَدْعُوهُ إِلَى نِكَاحِهَا فَإِنَّهُ أَحْرَى أَنْ يُؤْدَمَ بَيْنَهُمَا»[٢] أى يُلاَم ويوافق ويصلُح. ومنه الأدام الذى يَصْلُح به الخبز، وإذا وُجِد ذلك كلُّه وانْتَفتِ المناسبة والعَلاقة التى بينهما لم تَسْتحكم المحبة؛ وربما لم تقع ألبتةَ، فإن التناسُبَ الذى بين الأرواح من أقوى أسباب المحبة.

* فكلُّ امرئٍ يصبو إلى من يناسبُهْ *

وهذه المناسبة نوعان: أصليةٌ من أصل الخلفة، وعارضةٌ بسبب المجاورة أو الاشتراك فى أمرٍ من الأمور، فإن من ناسب قصدُك قصدَه حصل التوافُقُ بين رُوحك ورُوحه، فإذا اختلف القصدُ زال التوافُق، فأما التناسُب الأصلى: فهو اتفاق أَخلاق وتشاكُل أرواح وشوق كلّ نفس إلى مُشاكلها، فإن شبه الشيء ينجذب إليه بالطبع، فتكون الروحان متشاكلتين فى أصل الخلقة، فتنجذب كلٌّ منهما إلى الأُخرى بالطبع، وقد يقع الانجذاب والميلُ بالخاصِّية، وهذا لا يعلَّل ولا يُعرَف سببُه كانجذاب الحديد إلى الحجر الْمِغْنَاطيس. ولاريب أن وقوعَ هذا القَدْر بين الأرواح أعظم من وقوعه بين الجمادات كما قيل:

محاسنُها هَيُولى[٣] كل حسنٍ ومِغْنَاطيسُ أَفْئِدَةَ الرجال

وهذا الذى حَمَلَ بعضَ الناس على أَنْ قال: إنَ العشقَ لا يقف عَلى الْحُسْن والجمال ولا يلزم من عَدَمِه عَدَمُه، وإنما هو تشاكُل النفوس وتمازُجُها فى الطباع المخلوقة، كما قيل:

وما الْحُبُّ من حُسنٍ ولا من مَلاحةٍ ولكنه شيءٌ به الرُّوحُ تَكْلَف[٤]

قال هذا القائل: فحقيقتُه أنه مِرآة يُبصر فيها المحبُّ طباعَه وَرِقَّته فى صورة محبوبه، ففى الحقيقة لم يحبّ إلا نفسه وطباعَه ومشاكِلَه.

قال بعضهم لمحبوبه: صادفتُ فيكَ جوهر نفسى ومُشَاكَلَتَهَا فى كل أحوالها، فانبعثت نفسى نحوك وانقادت إليك، وإنما هَوِيتُ نفسى. وهذا صحيح من وجه، فإن

---

(١) هذا دليل على أن النقاب واجب فى حق المرأة، راجع لذلك كتاب «عودة الحجاب».

(٢) صحيح: رواه أحمد (٤ / ٢٤٤) والترمذى (١٠٨٧) وابن ماجه (١٨٦٦) والحديث صححه الألبانى رحمه الله تعالى فى «الصحيحة» (٩٦).

(٣) هيولى: الهيولى: مادة الشيء، كالخشب للمنضدة.

(٤) تكلف: الكلف مناه فى البيت: الهيام وتعلق القلب به.

المناسبة علة الضَّمِّ شَرْعًا وقَدَرًا، وشاهِدُ هذا بالاعتبار أن أحبَّ الأغذية إلى الحيوان ما كان أَشْبَهَ بجوهر بدنه وأكثرَ مناسبةً له، وكلما قويت المناسبة بين الغاذى والغذاء كان ميلُ النفس إليه أكثر، وكلما بعدت المناسبة حصلت النَّفْرَةُ عنه، ولا ريب أن هذا قَدْرٌ زائدٌ على مجرَّد الحسن والجمال، ولهذا كانت النفوسُ الشريفة الزكيةُ العلوية تعشق صفاتِ الكمال بالذات، فأَحبُّ شيء إليها العلم والشجاعة والعِفَّةُ والجودُ والإحسان والصبر والثبات لمناسبة هذه الأوصاف لجوهرها، بخلاف النفوس اللئيمةِ الدنيَّة [١] فإنها بِمَعْزِلٍ عن محبَّة هذه الصفات، وكثيرٌ من الناس يحمله على الجود والإحسان فرطُ عشقه ومحبَّته له واللذَّة التى يجدها فى بذله، كما قال المأمون [٢]: لقد حُبِّبَ إليَّ العفوُ حتى خشيتُ أَنْ لا أُوجر عليه. وقيل للإمام أَحمد بن حنبل، رحمه الله تعالى [٣]: تعلمت هذا العلم لله؟ فقال: أما لله فعزيز، ولكن شيء حُبِّب إليَّ ففعلتُه، وقال آخر: إنى لأفرح بالعطاء وأَلْتذ به أكثر وأعظم مما يفرح الآخذ بما يأخذه منى، وفى هذا قيل فى مدح بعض الكرَماء من أبيات:

وتأْخُذُه عند المكارم هَزَّةٌ
كما اهْتَزَّ عند البَارح الغُصْنُ الرَّطْبُ [٤]

وقال شاعر الحماسة:

تراه إذا ما جئته مُتَهَلِّلاً كأنك تعطيه الذى أنت سائلُهْ [٥]

وكثيرٌ من الأجواد يعشق الجود أَعظمَ عشق، فلا يصبِر عنه مع حاجته إلى ما يجود به، ولا يقبل فيه عذلَ عاذل، ولا تأخذه فيه لومةُ لائم، وأما عشاق العلم فأعظمُ شَغَفًا به وعشقًا له من كل عاشقٍ بمعشوقه، وكثيرٌ منهم لا يَشْغَلُهُ عنه أجملُ صورة من البَشر. وقيل لامرأةَ الزُّبَيْرِ بن بكار [٦] أَو غيره: هنيئًا لكِ إذ ليست لك ضَرَّة، فقالت: والله لهذه الكتبُ أَضرُّ عليَّ من عِدَّة ضرائر.

---

(١) الدنية: الدنو: من التسافل، وهم: سفلة الناس.

(٢) المأمون: هو أبو العباس عبد الله بن هارون الرشيد، ولد سنة (١٧٠هـ) من أعماله ترجمة كتب الفلاسفة، مات سنة (١١٨ هـ).

(٣) هو إمام أهل السنة والجماعة بلا منازع، ولد سنة (١٦٤ هـ) وتوفى سنة (٣٤١ هـ).

(٤) البارح: الرياح الحارة الصيفية، الرطب: اللين.

(٥) متهللا: مسرورًا فرحًا، والبيت لأبى تمام.

(٦) الزبير بن بكار: هو نسابة قريش، الزبير بن بكار بن عبد الله بن مصعب القرشى، قاضى مكة، ولد سنة (١٧٣ هـ) من مصنفاته كتاب «أنساب قريش» توفى سنة (٢٥٦هـ).

وحدثنى أخو شيخنا عبد الرحمن بن تيمية عن أبيه[١] قال: كان الجَدُّ إذا دخل الخلاء يقول لى: اقرأ فى هذا الكتاب وارفع صوتك حتى أسمع وأعرف من أصابه مرضٌ من صُداعٍ وحُمَّى وكان الكتاب عند رأسه، فإذا وَجَد إفاقةً قرأ فيه، فإذا غُلب وضعه، فدخل عليه الطبيب يومًا وهو كذلك فقال: إن هذا لا يَحِلّ لك فإنك تُعين على نفسك وتكون سببًا لفوات مطلوبك.

وحدَّثنى شيخنا قال: ابتدأنى مرضٌ فقال لى الطبيب: إن مطالعتك وكلامك فى العلم يزيد المرض، فقلت له: لا أصبر على ذلك وأنا أحاكمك إلى علمك، أليست النفس إذا فرحت وسُرَّت قَويت الطبيعةُ فدفعت المرض؟ فقال: بلى، فقلت له: فإن نفسى تُسَرُّ بالعلم فتقوى به الطبيعة فأجدُ راحة، فقال: هذا خارجٌ عن علاجنا، أو كما قال.

فعشقُ صفات الكمال من أنفع العشق وأعلاه، وإنما يكون بالمناسبة التى بين الرُّوح وتلك الصفات، ولهذا كان أعلى الأرواح وأشرفها أعلاها وأشرفها معشوقًا كما قيل:

أنت القتيلُ بكلِّ من أحْبَبْتَه ... فاخْتَرْ لنفسكَ فى الهوى من تَصْطفى

فإذا كانت المحبَّةُ بالمشاكلة والمناسبة ثبتت وتمكَّنت ولم يُزِلْها إلا مانعٌ أقوى من السبب، وإذا لم تكن بالمشاكلة فإنما هى محبةٌ لغرضٍ من الأغراض تزول عند انقضائه وتضمحلّ[٢]، فمن أحبّك لأمرٍ ولَّى عند انقضائه، فداعى المحبة وباعثُها إن كان غرضًا للمحبِّ لم يكن لمحبته بقاء، وإن كان أمرًا قائمًا بالمحبوب سريعَ الزوال والانتقال زالت محبته بزواله، وإن كان صفةً لازمةً فمحبتُه باقيةٌ ببقاء داعيها ما لم يعارضه معارضٌ يوجب زوالهَا، وهو إما تغيُّر حال فى المحب، أو أذًى من المحبوب، فإن الأذى إما أن يُضْعفَ المحبة أو يزيلها.

قال الشاعر:

خذى العفو منى تستديمى مَوَدَّتى ... ولا تَنْطِقى فى سَوْرتى حين أغضَب

فإنى رأيتُ الحبَّ فى القلب والأذى ... إذا اجتمعا لم يَلْبَث الحبُّ يذهب

وهذا موضعٌ انقسم المحبُّون فيه قسمين: ففرقةٌ قالت: ليس بحبٍّ صحيح ما يزيله

---

(١) هو جد ابن تيمية واسمه: مجد الدين عبد السلام بن عبد الله بن أبى القاسم الخضر بن محمد بن على ابن تيمية الحرانى، صاحب كتاب «الأحكام» ولد سنة (٥٩٠هـ) وتوفى سنة (٦٥٣هـ).

(٢) تضمحل: تتلاشى وتذهب.

الأذى، بل علامَةُ الحب الصحيح أنه لا ينقص بالجفوة ولا يذهبه أذى قالوا: بل المحب يلتذّ بأذى محبوبه له، كما قال أبو الشّيص[١] :

وقف الهوى بى حيث أنت فليس لى ... مُـتَـأخَّـرٌ عنـه ولا مُـتَـقَـدّمُ
وأهَنْتِنى فـأهنتُ نفسـىَ جـاهـداً ... مـا مَنْ يهـون عليك ممـن يُكرَمُ
أشبـهـت أعـدائى فـصرتُ أُحبُّـهم ... إذ كـان حظّى منك حظّىَ منهمُ
أجـدُ المـلامـةَ فـى هواكِ لذيـذةً ... حـبًّـا لذكـرك فَلْيَلُمْنى اللـوَّمُ

فهذا هو الحب على الحقيقة فإنه متضمنٌ لغاية الموافقة، بحيث قد اتخذ مرادَه ومرادَ محبوبه من نفسه، فاهان نفسه موافقة لإهانة محبوبه له، وأحبَّ أعداءه لما أشبههم محبوبُه فى أذاه. وهذا وإن كانت الطباع تأباه لكنه مُوجَبُ الحبّ التام ومقتضاه. وقالت فرقةٌ: بل الأذى مزيلٌ للحب، فإن الطباع مجبولة على كراهة من يؤذيها، كما أن القلوب مجبولةٌ على حبّ من يحسن إليها. وما ذكره أُولئك فدعوى منهم.

والإنصاف أن يقال: يجتمع فى القلب بغضُ أذى الحبيب وكراهتُه، ومحبتُه من وجه آخر، فيحبه ويُبغض أذاه، وهذا هو الواقع، والغالبُ منها يوارى المغلوب ويبقى الحكم له، وقد كشف عن بعض هذا المعنى الشاعرُ فى قوله:

ولو قلـت طأ[٢] فى النار أعلـمُ أنه ... رضًـا لك أو مُـدْنٍ لنا من وصـالـك
لقـدَّمتُ رِجْلى نحـوها فـوطئـتُـهـا ... هدًى منك لى أو ضَلّةً من ضـلالك
وإن ســاءنى أن نلْتنـى بمـســاءة ... فـقـد سـرّنى أنى خَطرتُ ببَـالـك

فهذا قد أنصف حيث أخبر أنه يسوؤه أن يناله محبوبُه بمساءة؛ ويسرّه خطورُه بباله، لا كمن ادَّعى أنه يلتذّ بأذى محبوبه له، فإن هذا خارجٌ عن الطباع، اللَّهم إلا أن يكون ذلك الأذى وسيلةً إلى رضى المحبوب وقُربه، فإنه يلتذّ به إذا لاحظ غايتَه وعاقبتَه، فهذا يقع.

وقد أخبرنى بعض الأطباء قال: إنى أَلْتَذُّ بالدواء الكريه، إذا علمتُ ما يحصلُ به من الشفاء، وأضعه عَلَى لسانى وأَتَرَشَّفُه محبةً له، ومن هذا التذاذُ المحبين بالمشاقّ التى توصلهم إلى وصال محبوبهم وقُربه، وكلما ذكروا روحَ الوصال وأن ما هم فيه طريقٌ موصلٌ إليه، لذّ لهم مقاساتُه، وطاب لهم تحمُّلُه. كما قال الشاعر:

لهـا أحاديـثُ من ذكراك تَشْغَلُهَا ... عـن الشراب وتُلْهيـهـا عـن الـزاد

---

(١) أبو الشـيص: هو محمد بن عبد الله بن رزين، يعد من الشعراء، ذكره ابن قتيبة فى «الشعر والشعراء» (٢/ ٨٤٣) توفى سنة (١٩٧هـ).

(٢) طأ: يقال: وطئ المكان: داسه بقدمه.

لها بوجهك نورٌ تستضيءُ به ... ومن حديثك في أعْقابها حادي[١]

إذا شَكَتْ من كَلالِ[٢] السير أوعِدُها ... رَوْحَ اللقاء فتقوى عند ميعاد

والمقصود أن المحبة تستدعى مشاكلةً ومناسبة، وقد ذكر الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى فى مسنده من حديث عائشة ﵂: أن امرأةً كانت تدخل على قريش فتضحكهم، فقدمت المدينةَ فنزلت على امرأةٍ تُضْحك الناس، فقال النبى ﷺ: «على مَنْ نزلت فلانة؟» فقالت: على فلانةٍ المضحكة، فقال: «الأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ، فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا ائْتَلَفَ، وَمَا تَنَاكَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ»[٣] وأصل الحديث فى الصحيح. وذُكر لبقراط[٤] رجلٌ من أهل النقص يحبه فاغتمّ لذلك وقال: ما أحبنى إلا وقد وافقتُه فى بعض أخلاقه، وأخذ المتنبى[٥] هذا المعنى فقلبه وأجاد فقال:

وإذا أتتك مَذَمَّتى من ناقص ... فهى الشهادةُ لى بأَنى فاضل

وقال بعض الأطباء: العشقُ امتزاجُ الرُّوح بالرُّوح لما بينهما من التناسبِ والتشاكل، فإذا امتزج الماء بالماء امتنع تخليصُ بعضه من بعض، ولذلك تَبْلُغُ المحبةُ بين الشخصين حتى يتأَلَّم أحدُهما بتأَلُّم الآخر، ويَسْقَمَ بسقمه وهو لا يَشْعُر، ويُذكر أن رجلاً كان يحب شخصًا فمرض فدخل عليه أصحابه يعودونه فوجدوا به خفةً فانبسط معهم، وقال: من أين جئتم؟ قالوا: من عند فلانٍ عُدْناه، فقال: أَوَكان عليلاً؟ قالوا: نعم وقد عُوفِيَ، فقال: والله لقد أنكرتُ عِلَّتِي هذه ولم أَعرِف لها سببًا غير أنى توهمت أن ذلك لعلةٍ نالت بعضَ من أُحبّ، ولقد وجدت فى يومى هذا راحةً ففرحْتُ طمعًا أن يكون اللهُ سُبحانه وتعالى شفاه، ثم دعا بدواةٍ فكتب إلى محبوبه:

إنى حَمِمْتُ ولم أشعرُ بحُمَّاكِ ... حتى تحدّثَ عُوَّادى بشكواكِ

فقلتُ ما كانت الْحُمَّى لَتَطْرُقَنِى ... من غير ما سببٍ إلا لِحُمَّاكِ

وخَصلةٍ كنتُ فيها غيرَ مُتَّهَمٍ ... عافانىَ اللهُ منها حين عافاكِ

حتى اتفقت نفسى ونفسك فى ... هذا وذاك وفى هذا وفى ذاكِ

---

(١) حادى: الحادى هو الذى ينشد للإبل ليحثها على السير.

(٢) كلال: من الكل، وهو الإعياء والتعب.

(٣) صحيح: رواه البخارى (٣٣٣٦) ومسلم (٣٦٣٨) ورواه أبو داود (٤٨٣٤) عن أبى هريرة ﵁.

(٤) أبقراط: طبيب يونانى إغريقى، يعرف بأبى الطب، يقال: إنه أول من دوَّن الطب، له ترجمة حافلة فى كتاب «عيون الأنباء فى طبقات الأطباء» (١ / ٣٢٧) لابن أبى أصيبعة.

(٥) المتنبى: هو أبو الطيب أحمد بن حسين الجعفى الكوفى، ولد سنة (٣٠٣هـ) فاق أهل زمانه فى نظم الشعر، مات قتيلاً بالصحراء سنة (٣٥٤هـ).

ويُحْكى أن رجلاً مرض مَن يحبُّهُ فعاده المحبّ فمرض من وقته، فعوفيَ محبوبه فجاء يعوده فلما رآه عوفي من وقته وأنشد :

مَـرِضَ الْحـبَـيـبُ فـعـدْتُـه ... فـمرضتُ من حَذَرى[1] عليــه

وأتـى الْحـبـيـب يعـودُنـى ... فـبـرئـت مـن نظرى إليـه

وأنت إذا تأمّلْتَ الوجودَ لا تكاد تجد اثنين يتحابّان إلا وبينهما مشاكلةٌ أو اتفاقٌ فى فعلٍ أو حالٍ أو مَقْصد، فإذا تباينت المقاصدُ والأوصاف والأفعال والطرائق لم يكن هناك إلا النَّفْرَة والبعدُ بين القلوب، ويكفى فى هذا الحديثُ الصحيح عن رسول الله ﷺ : « مَثَلُ الْمُؤْمنينَ فِى تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ كَمَثَلِ الْجَسَدِ الواحِدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بالْحُمَّى والسَّهَرِ »[2] .

فإن قيل : فهذا الذى ذكرتم يقتضى أنه إذا أحب شخصٌ شخصًا أن يكون الآخر يحبه فيشتركان فى المحبة، والواقعُ يشهد بخلافه، فكم من محبٍّ غير محبوب، بل بسيف البغض مضروب، **قيل** : قد اختلف الناس فى جواب هذا السؤال، **فأما** أبو محمد بن حزم[3] فإنه قال : الذى أذهب إليه أن العشق اتصالٌ بين أجزاء النفوس المقسومة فى هذه الخلقة فى أصل عُنْصُرها الرفيع، لا عَلَى ما حكاه محمد بن داود[4] عن بعض أهل الفلسفة أن الأرواح أُكَرٌ[5] مقسومةٌ، لكن عَلَى سبيل مناسبة قواها فى مَقَرِّ عَالَمها العُلوى ومجاورتها فى هيئة تركيبها .

وقد علمنا أن سرّ التمازج والتبايُن فى المخلوقات إنما هو الاتصال والانفصال، فالشكل إنما يستدعى شكلَه والمثلُ إلى مثله ساكنٌ، وللمجانسة عملٌ محسوسٌ وتأثيرٌ مشاهد، والتنافر فى الأضداد، والموافقةُ فى الأنداد، والنِّزاعُ فيما تشابه موجود بيننا، فكيف بالنفس وعالَمُها العالم الصافى الخفيف، وجوهرُها الجوهرُ الصَعَّاد المعتل، وسِنْخُها[6] المهيأ لقبول الاتفاق والميل والتَّوْق والانحراف والشهوة والنِّفار؟ والله تعالى

---

(١) حذرى : شدة خوفى عليه، والبيتان نسبا للشافعى كما فى ديوانه .

(٢) صحيح : رواه البخارى (٦٠١١) ومسلم (٢٥٨٦) وأحمد (٤ / ٢٦٨) .

(٣) أبو محمد بن حزم : هو : على بن أحمد بن سعيد الأندلسى القرطبى، صاحب المذهب الظاهرى، ولد سنة (٣٨٤ هـ) من مصنفاته « المحلى » « الفصل » توفى سنة (٤٥٦ هـ) .

(٤) محمد بن داود : هو أبو بكر محمد بن داود الظاهرى، كان عالمًا فقيهًا، شاعرًا، توفى سنة (٢٩٧هـ) .

(٥) أكر : جمع أكرة وهى : الحفرة .

(٦) سنخها : أى أصلها .

يقول: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ (الأعراف: ١٨٨) فجعل علَّةَ السُّكون أنها منه، ولو كان علَّةَ الحب حسنُ الصورة الجسدية لوجب أن لا يُستَحْسَنَ الأنقص من الصور، ونحن نجد كثيراً ممن يُؤْثِرُ الأدنى ويعلم فضل غيره ولا يجد مَحيداً لقلبه عنه، ولو كان للموافقة فى الأخلاق لما أحب المرءُ من لا يساعده ولا يوافقه، فعلمنا أنه شيءٌ فى ذات النفس، وربما كانت المحبة لسببٍ من الأسباب، وتلك تفنى بفناء سببها.

قال: ومما يؤكد هذا القول أننا قد علمنا أن المحبة ضُروب: فأفضلُها محبة المتحابِّين فى الله عَزَّ وجَلَّ، إما لاجتهاد فى العمل، وإما لاتفاق فى أصل المذهب، وإما لفضل علمٍ يُمْنَحُه الإنسانُ، ومحبةُ القرابة، ومحبةُ الألفة والاشتراك فى المطالب، ومحبةُ التصاحب والمعرفة، ومحبةٌ لبرٍّ يضعه المرء عند أخيه، ومحبةٌ لطمع فى جاه المحبوب، ومحبةُ المتحابَّيْن لسرٍّ يجتمعان عليه يلزمهما سَتْرُه، ومحبةٌ لبلوغ اللذّة وقضاء الوَطَر[1]، ومحبةُ العشق التى لا علَّة لها إلا ما ذكرنا من اتصال النفوس. وكل هذه الأجناس فمنقضية مع انقضاء عِلَلها، وزائدةٌ بزيادتها، وناقصةٌ بنقصانها، متأكّدةٌ بدُنُوِّها، فاترةٌ ببعدها، حاشا محبة العشق الصحيح المتمكن من النفس. ثم أورد هذا السؤال قال: والجوابُ أن نفس الذى لا يحب من يُحبه مُكْتَنَفَة الجهات ببعض الأعراض الساترة، والحُجب المحيطة بها من الطبائع الأرضية، فلم تُحسَّ بالجزء الذى كان متصلاً بها قبل حلولها حيث هى، ولو تخلّصت لاستويا فى الاتصال والمحبَّة. ونفس المحب متخلّصة عالمةٌ بمكان ما كان يَشْرَكُها فى المجاورة. طالبةٌ له قاصدةٌ إليه باحثة عنه مشتهية لملاقاته، جاذبةٌ له لو أمكنها كالمغْناطيس والحديد، وكالنار فى الحجر.

وأجابت طائفةٌ أخرى أن الأرواح خُلِقَتْ عَلَى هيئة الكُرَة ثُم قُسمت. فأى رُوحين تلاقيتا هناك وتجاورتا تألفتا فى هذا العالَم وتحابتا، وإن تنافرتا هناك تنافرتا هنا، وإن تألفتا من وجه وتنافرتا من وجه كانتا كذلك هاهنا، وهذا الجواب مبنى عَلى الأصل الفاسد الذى أصَّله هؤلاء أن الأرواح موجودةٌ قبل الأجساد، وأنها كانت متعارفةً متجاورةً هناك، تتلاقى وتتعارف وهذا خطأ، بل الصحيح الذى دلّ عليه الشرع والعقل أن الأرواح مخلوقةٌ مع الأجساد، وأن الملَك المُوكَّلَ بنفخ الرُّوح فى الجسد ينفُخ فيه الرُّوحَ إذا مضى على النطفة أربعةُ أشهر ودخلت فى الخامس، وذلك أوَّل حدوث الرُّوح فيه. ومن قال: إنها مخلوقة قبل

---

(١) الوطر: الحاجة فيما مآرب، والجمع: أوطار، يقال: قضى منه وطره: اى: نال منه بغيته، المعجم الوجيز (٦٧٤).

ذلك فقد غلط، وأقبحُ منه قولُ من قال: إنها قديمةٌ، أو تَوَقَّف فى ذلك، بل الصواب فى الجواب أن يقال: إن المحبة، كما تقدّم، قسمان: محبةٌ عَرَضيَّةٌ غَرَضيَّةٌ، فهذه لا يجب الاشتراك فيه بل يقارنها مَقْتُ المحبوب وبغضُه للمحب كثيراً، إلا إذا كان له معه غرضٌ نظيرُ غرضه فإنّه يحبّه لغرضه منه، كما يكون بين الرجل والمرأة اللّذَيْن لكلٍّ منهما غرضٌ مع صاحبه. والقسم الثانى: محبةٌ رُوحانية سببُها المشاكلَة والاتفاق بين الرُّوحين، فهذه لا تكون إلا من الجانِبَيَن ولا بدّ، فلو فتّش المحب المحبةَ الصادقةَ قلبَ المحبوب لوجد عنده من محبته نظيرَ ما عنده أو دونه أو فوقه.

فصل: وإذا كانت المحبةُ من الجانِبَيْن استراح بها كلٌّ واحدٍ من المحبين، وسكَّن ذلك بعضَ ما به وعدّه نوعًا من الوصال، وقالت امرأَةٌ من العرب:

حَجَجتُ ولم أَحْجُج لذنبٍ عمِلته ... ولكن لتُعْدِينى عَلى قاطع الْحَبلِ [1]
ذهبتَ بعقلى فى هواه صغيرةً ... وقد كبرت سنِّى فردَّ به عقلى
وإلا فسوِّ الحبَّ بينى وبينه ... فإنك يا مولاى تُوصَفُ بالعدل

وقال آخر:

فيا ربِّ أشغلها بحبى كما بها ... شَغَلْتَ فؤادى كى يخفَّ الذى بيا

وقالت امرأةٌ تعاتب بَعْلَها: أَسأَل الذى قسم بين العباد معايشهم أن يَقْسِم الحبَّ بينى وبينك، ثم أنشدت:

أَدعو الذى صَرَف الهوى ... منِّى إليكَ ومنكَ عنِّى
أَن يبتليك بما ابتلا ... نى أو يسلَّ [2] الحب منى

وقال آخر:

فيا ربِّ إن لم تَقْسِمِ الحبَّ بيننا ... بشَطْرَين فاجعلنى عَلَى هجرها جَلْدا [3]
وأعقبنىَ السُّلوانَ عنها ورُدَّلى ... فؤادىَ من سَلْمَى أُثِبْكَ به حَمْدا [4]

وقال أبو الهُذَيْل العَلاف [5]: لا يجوز فى دَوْر الفلك ولا فى تركيب الطبائع ولا فى

---

(١) لتعدينى: من الإعانة والعون، الحبل: المقصود به هنا: الوصال.
(٢) يسلِ: ينتزع.
(٣) جلداً: الجَلَد: الصبر والثبات.
(٤) السلوان: النسيان.
(٥) أبو الهذيل العلاف: هو محمد بن الهذيل البصرى العلاف المعتزلى، له أقوال فيها كفر وإلحاد، عاش تسعين سنة، هلك فى سنة (٢٣٥ هـ).

الواجب ولا في الممكن أن يكون محب ليس لمحبوبه إليه ميل، وإلى هذا المذهب ذهب أبو العباس الناشئ حيث يقول:

عـينـاك شـاهدتـان أنـك مـن ... حَـرِّ الهـوى تجـدين مـا أجـدُ
بك مـا بنا لكنْ عَلَى مَضَضٍ ... تَتَجلَّدين ومـا بنا جَلَـدُ

وقال أبو عُيَيْنَة:

تبـيتُ بنا تَهْـذِى وأهذى بذكـرها ... كلانا يقـاسى الليلَ وهُوَ مسهَّـد (١)
ومـا رَقَـدَتْ إلا رأتنى ضجيـعَهـا ... كذاك أراها فى الكرى حين أرْقُدُ (٢)
تُقـرُّ بذنبى حـين أغـفـو ونلتـقى ... وأسألها يقظانَ عنه فَتَجْحَدُ (٣)
كـلانا سـواءٌ فى الهـوى غـير أنها ... تَجَلَّدُ أحيـانًا ومـا لـى تَجلُّـدُ

وقال عُرْوَةُ بن أذَيْنَة (٤):

إن التى زَعَـمَـتْ فـؤادَكَ مَلَّهـا ... خُلقتَ هواك كما خُلقْتَ هَوًى لها (٥)
فبك الذى زَعَمَتْ بهـا فكلاكـما ... أبدى لصاحبه الصَّبَابـةَ كلَّهـا (٦)

فإذا تشاكلت النفوس وتمازجت الأرواح وتفاعلت تفاعلت عنها الأبدان، وطلبت نظير الامتزاج والجوار الذى بين الأرواح، فإن البدن آلة الرُّوح ومَركَبُه، وبهذا ركَّب الله سبحانه شهوة الجماع بين الذكر والأنثى طلبًا للامتزاج والاختلاط بين البدنين، كما هو بين الرُّوحين، ولهذا يسمى جماعًا وخِلاطًا ونكاحًا وإفضاء، لأن كل واحد منهما يُفضى إلى صاحبه فيزول الفضاءُ بينهما.

فإن قيل: فهذا يوجب تأكُّدَ الحبّ بالجماع وقوَّته به والواقعُ خلافه، فإن الجماعَ يُطْفِىء نار المحبة ويُبَرِّد حرارتَها ويسكِّن نفسَ المحب، **قيل**: الناسُ مختلفون فى هذا فمنهم من يكون بعد الجماع أقوى محبةً وأمكنَ وأثبتَ مما قبلَه، ويكون بمنزلة من وُصف له شى ملائمٌ فأحبّه، فلما ذاقه كان له أشدَّ محبة، وإليه أشدَّ اشتياقًا، وقد ثبت فى

---

(١) **تهذى**: تتكلم بكلام غير مفهوم، وهو الخرف. **مسهد**: شدة الأرق الذى يمنع العين من النوم.
(٢) **الكرى**: هو أول النوم، ويسمى النعاس.
(٣) **أغفو**: أنام، **تجحد**: تنكر.
(٤) **عروة بن أذينة**: شاعر من بنى ليث، ذكره ابن قتيبة فى كتابه «الشعر والشعراء» (٢/ ٥٧٩).
(٥) **ملها**: سئمها.
(٦) **الصبابة**: العشق والهيام.

الصحيح عن النبى ﷺ فى حديث عروج الملائكة إلى ربهم أنه سبحانه يسألهم عن عباده – وهو أعلم بهم – فيقولون: إنهم يسبحونك ويحمدونك ويقدّسونك فيقول: وهل رأونى؟ فيقولون: لا، فيقول: فكيف لو رأونى؟ فتقول الملائكة: لو رأوك لكانوا أشدَّ تسبيحًا وتقديسًا وتمجيدًا ثم يقولون: ويسألونك الجنة فيقول: وهل رأوها؟ فيقولون: لا، فيقول: فكيف لو رأوها؟ فتقول الملائكة: لو رأوها لكانوا أشدَّ لها طلبًا... وذكر الحديث[١]. ومعلومٌ أن محبةَ من ذاق الشىء الملائمَ وعدمَ صبرِه عنه أقوى من محبة من لم يَذُقْهُ، بل نفسه مفطومةٌ عنه، والمودَّةُ التى بين الزوجين، والمحبةُ بعد الجماع أعظمُ من التى كانت قبله. والسببُ الطبيعى: أن شهوة القلب ممتزجةٌ بلذَّة العين، فإذا رأت العين اشتهى القلب، فإذا باشر الجسمُ الجسمَ اجتمع شهوةُ القلب ولذَّة العين ولذة المباشرة، فإذا فارق هذه الحال كان نزَاعُ نفسه إليها أشدَّ، وشوقه إليها أعظم كما قيل:

وأكثرُ ما يكون الشوقُ يومًا … إذا دنت الديارُ من الديار

ولذلك يتضاعف الألم والحسرة على من رأى محبوبه أو باشره ثم حِيلَ[٢] بينه وبينه، فتضاعُفُ ألمه وحسرته فى مقابلة مضاعفة لذّة من عاوده، وهذا فى جانب المرأة أقوى، فإنها إذا ذاقت عُسَيْلَةَ[٣] الرجل، ولا سيما أوَّل عُسَيْلَة، لم تكد تصبر عنه بعد ذلك، قال أيمن بن خُرَيم[٤]:

يميت العتابَ خلاطُ النساء … ويُحيى اجتنابُ الخلاط العتابا

وتزوَّج زهير بن مسكين الفهرى جارية ولم يكن عنده ما يرضيها به، فلما أمكنته من نفسها لم تَرَ عنده ما ترضى به فذهبت ولم تَعُدْ، فقال فى ذلك أشعارًا كثيرة، منها:

تقول وقد قَبَّلْتُها ألف قُبْلَة … كفاك أما شىءٌ لديك سوى القُبَلْ

فقلت لها حب على القلب حفظُه … وطولُ بكاءٍ تستفيض له المُقَلْ

فقالت لعمرُ الله ما لذّةُ الفتى … من الحب فى قول يخالفه الفعلْ

---

(١) صحيح: رواه البخارى (٦٤٠٨) ومسلم (٢٦٨٩).

(٢) حيل: منع.

(٣) عسيلة: الجماع.

(٤) أيمن بن خريم: هو الصحابى أيمن بن خريم بن فاتك الأسدى، أسلم يوم الفتح ترجمته فى «الاستيعاب» (١/ ٣٣٩) و«الإصابة» (١/ ١٨٨).

وقال آخر:

رأَت حُبِّى سعادُ بلا جماعِ ... فقالت حبلُنا حبلُ انقطاع

ولست أُريد حبّا ليس فيه ... متاعٌ منكَ يدخل فى متاعى

فلو قبَّلتنى ألفًا وألفًا ... لما أرضيت إلا بالجماع

إذا ما الصبُّ لم يكُ ذا جماعِ ... يرَى المحبوبَ كالشيء المُضاع[1]

جِماعُ الصبّ غايةُ كلّ أُنثى ... وداعيةٌ لأهل العشق داعى

فقلت لها وقد ولّت تعالَىْ ... فإنك بعد هذا لن تُراعى

وإنكِ لو سألتِ بقاء يومٍ ... خلىٌّ عن جماعك لن تطاعى

فقالت مرحبًا بفتًى كريمٍ ... ولا أهلاً بذِى الْخَنْعِ[2] اليَرَاع[3]

إذا ما البعلُ لم يكُ ذا جِماعِ ... يُرى فى البيت من سقط المتاع

وقال آخر:

ولما شكوتُ الحب قالت كذبتَنى ... فكم زورَةٍ منى قصدتُك خاليا

فما حُلَّ فيها من إزارٍ للذّةٍ ... قعدتُ وحاجاتُ الفؤاد كما هيا

وهل راحةٌ للمرء فى وِرد مَنْهَلٍ ... ويَرْجِعُ بعد الوِرْد ظمآنَ صاديًا[4]

وقال العباس بن الأحنف[5]:

لم يَصْفُ وصلٌ لمعشوقَيْن لم يَذُقا ... وصلاً يَجِلُّ[6] على كل اللذّاذات[7]

وقال هُدْبَة بن الْخَشْرَم[8]:

والله ما يَشْفى الفؤاد الهائما ... نفثُ الرّقى وعَقْدُك التمائما

ولا الحديثُ دون أن تُلازما ... ولا اللزامُ دون أن تفاعما[9]

---

(١) **الصب**: المحبوب العاشق، **المضاع**: من لا حرفة له.

(٢) **الخنع**: هو من يكتفى بالمداعبة دون الجماع. (٣) **اليراع**: الجبان.

(٤) **ظمآن**: عطشان، **صاديًا**: شدة العطش.

(٥) هو العباس بن الأحنف بن الأسود بن طلحة، من فحول الشعراء، نشأ ببغداد، توفى ببغداد سنة (١٩٣هـ).

(٦) **يجل**: يعظم.

(٧) **اللذاذات**: جمع لذة: وهى المتعة.

(٨) هو الشاعر هدبة بن الخشرم العذرى.

(٩) **تفاعما**: أى عمت الرائحة الفم حتى ملأته.

ولا الفـعـام دون أن تفـاقـمـا[١] وتعلـو القـوائـمُ القـوائـمـا[٢]

وقال آخر:

قـــولا لعـــاتكـــة التـــي فـي نظـرة قـضـت الوَطَـرْ
إنـــي أريــــدك للنكـــا ح ولا أريـــدك للنـظـــرْ
لـو كـان هـــذا مـقـنعـــي لَقَنِعْـتُ عنهـا بالقـمـرْ

وقال آخر:

دواءُ الحـبِّ تقـبـيـلٌ وشَـم ووضـعٌ للبطـون علـى البطـون
ورَهْـزٌ[٣] تـذرف العينـان منـه وأخـذٌ بالمناكـب والقـرون[٤]

وقالت امرأةٌ وقد طُلبت منها المحادثة:

ليـس بهــذا أمـرتنـي أُمّي ولا بتـقـبـيـلٍ ولا بشـمّ
لكن جـمـاعًـا قـد يسلّي همي يسـقط منه خـاتمي فـي كُـمّي

وقد كشف الشاعر سبب ذلك حيث يقول:

لـو ضَـمَّ صـبٌّ إلفَـه ألفًـا لمـا أجـدى وزادت لـوعـــةٌ وغــرامُ
أرواحُـهـم مـن قـبل ذاك تـآلَفَـتْ فـتـألَفَـتْ مـن بعـدهـا الأجسـام

وقال المؤلف[٥]:

سـألت فـقيـهَ الحُبّ عن علّة الهوى وقلتُ له أشكو إلى الشـيخ حـاليـا
فـقـال دواء الحب أن تُلْصِقَ الحَشَا بأحشـاء مَنْ تهوى إذا كنت خـاليـا
وتَتَّـحـدا مـن بعــد ذاك تعـانُقًـا وتَلْثَـمَــه حـتـى يُـرى لـك ناهيـا
فـتـقـضيَ حـاجـات الفـؤاد بأسـرها على الأمن مـا دام الحـبـيـب مُـؤاتيـا
إذا كـان هـذا فـي حـلال فـحـبَّـذا وصـالٌ بـه الرحـمـنُ تلقـاه راضيـا
وإن كـان هـذا فـي حـرامٍ فـإنـه عذابٌ به تلقى العنـا والمكاويا[٦]

---

(١) تفاقما: التفاقم: التقبيل حتى الارتواء.
(٢) البيت كناية عن الجماع.
(٣) رهز: الرهز: حركة الجماع، الذوائب: جمع ذؤابة مثل الضفيرة.
(٤) القرون: الذؤابة من الشعر.
(٥) أي ابن القيم رحمه الله تعالى.
(٦) المكاويا: العذاب، العنا: المعاناة.

قال هؤلاء: ولا يستحكم الحبّ إلا بعد أن يَشُقَّ الرجلُ رداءه وتشقَّ المرأة المعشوقةُ بُرْقُعَهَا(١)، كما قال الشاعر:

إذا شُقَّ بُرْدٌ شُقَّ بالبُرْد بُرْقعٌ ... دَوَالَيْكَ حتى كلُّنا غيرُ لابسِ

فكم قد شققنا من رداء مُحَبَّرٍ(٢) ... ومن برقعٍ عن طفلةٍ غيرِ عانس(٣)

ولما بلغ بعضَ الظرفاء(٤) قولُ المأمون: ما الحبّ إلا قبلةٌ. الأبيات قال: كذب المأمون ثم قال:

وباض الحبُّ فى قلبى ... فوا ويلا إذا فرَّخْ

وما ينفعنى حبى ... إذا لم أكنُس البَرْبَخْ(٥)

وإن لم يضع الأطلـ ... ـع خرجيه على المطبخ(٦)

وقال ابن الرُّومى:

أُعانقُها والنفسُ بعدُ مَشوقَةٌ ... إليها وهل بعد العِنَاق تدانى

وأَلْثَمُ فاها كى تزولَ صبَابتى ... فيشتدّ ما ألقى من الهَيمَانِ

ولَمْ يَكُ مقدارُ الذى بى من الجَوَى ... لِيَشْفِيَه ما ترشُفِ شفتانِ

كأن فؤادى ليس يشفى غليلَه ... سوى أن أرى الرُّوحين تمتزجانِ

وقال الطبرانى فى معجمه الأوسط: حدّثنا بكر بن سهل: حدّثنا عبد الله بن يوسف: حدّثنا محمد بن مسلم، عن إبراهيمَ بن مَيْسَرَة، عن طاوس، عن ابن عباس ﷺ أن رجلاً قال: يا رسول الله عندنا يتيمة قد خطبها رجلان: مُوسِرٌ ومُعْسِرٌ، وهى تهوى المُعْسِرَ، ونحن نهوى المُوسِرَ، فقال: «لَمْ يُرَ لِلْمُتحَابِّينَ مِثْلُ التَّزْوِيجِ»(٧) قال أبو القاسم الطبرانى: لم يَرْوِه عن طاوس إلا إبراهيم، ولا رواه عن إبراهيم إلا محمد بن مسلم، وسفيان الثورى،

---

(١) برقعها: البرقع: خمار يغطى كل شيء فى المرأة ما عدا العينين.

(٢) محبر: أى مزين.

(٣) عانس: العانس من النساء: المرأة التى لم تتزوج.

(٤) هو أبو العير الشاعر.

(٥) البربخ: فرج المرأة، أو مكان خروج الماء من المرأة.

(٦) الأطلع: هو عضو الجماع، المطبخ: أى الشاب القوى.

(٧) صحيح: رواه ابن ماجه (١٨٤٧) والطبرانى فى «الأوسط» (٣١٧٣) والحاكم (٣/ ١٦٠) وعبد الرزاق (١٠٣١٩) والبيهقى فى «الكبرى» (٧/ ٧٨) والحديث صححه الألبانى فى «صحيح الجامع» (٥٢٠٠).

تفرَّد به مُؤَمَّل بن إسماعيل عن الثورى. انتهى. وقد رواه أبو الفرج ابن الجوزى من حديث حَسَّان بن بِشْر: حدّثنا أحمد بن حَرْب: حدّثنا ابن عُيَيْنَةَ: حدثنا عمرو، عن جابر... فذكره. وقال المعافى بن عمْران: حدّثنا إبراهيم بن يزيد، عن سليمان بن موسى، عن عمرو، عن طاوس، عن ابن عباس ﷺ وحدّثنا علىّ بن حرب الطائى: حدّثنا ابن عُيَيْنَةَ، عن إبراهيم بن مَيْسَرة عن طاووس وذكره الدارقطنى فى كتاب «الغرائب» وقال: تفرَّد به يزيد بن مروان عن عمرو بن هارون عن عثمان بن الأسود المكى عن إبراهيم بن مَيْسَرَة، عن طاووس.

وقالت هند بنت المُهلَّب: ما رأيت لصالحى النساء وشِرَارِهن خيرًا من إلحاقهنّ بمن يَسْكُنَّ إليه من الرجال، ولَربَّ مسكون إليه غير طائل والسَّكَن عَلَى كل حالٍ أوفق.

وذكر الحاكم فى «تاريخ نَيْسابور» من حديث أبى هريرة ﷺ يرفعه: «أَرْبَعٌ لا يَشْبَعْنَ مِنْ أَرْبَعٍ: أَرْضٌ مِنْ مَطَرٍ، وأُنْثَى مِنْ ذَكَرٍ، وَعَيْنٌ مِنْ نَظَرٍ، وَعَالِمٌ مِنْ علم»[١]. وهذا باطلٌ قطعًا عَلَى رسول الله. هو كثير عن أبى هريرة ﷺ. وذكر الطبرانى فى «معجمه الأوسط» من حديث ابن عمر يرفعه: «فَضْلُ مَا بَيْنَ لَذَّةِ الْمَرْأَةِ وَلَذَّةِ الرَّجُلِ كَأَثَرِ الْمخْيَطِ فِى الطِّينِ إلا أَنَّ اللهَ سَتَرَهُنَّ بِالْحَيَاءِ»[٢]. وقال: لم يَرْوِه عن ليث إلا أبو المسيب سَلام بن سلام عن سويد عن عبد الله بن أُسامة عن يعقوب بن خالد عن عطاء عن ابن عمر ﷺ. قلت: وهذا أيضًا لا يَصِحُّ عن رسول الله ﷺ وإسناده مظلم لا يحتج بمثله.

فــصـل: ورأت طائفةٌ أن الجماع يُفسد العشقَ ويُبطله أو يُضعفه، واحتجت بأمور منها: أن الجماع هو الغاية التى تُطلَب بالعشق فما دام العاشقُ طالبًا فعشقه ثابتٌ، فإذا وصل إلى الغاية قضى وطَرَه، وبَرَدَت حرارة طلبه، وطَفِئَتْ نارُ عشقه. قالوا: وهذا شأن كل طالب لشيء إذا ظَفر به، كالظمآن إذا رَوِىَ، والجائع إذا شَبِع، فلا معنى للطلب بعد الظفر. ومنهــا: أن سبب العشق فكرى، وكلما قَوِىَ الفكرُ زاد العشق، وبعد الوصول لا يَبْقَى الفكر، ومنها: أنه قبل الظفر ممنوعٌ، والنفس مُولَعَةٌ بحبّ ما مُنعَتْ منه كما قال:

وزادني كَلَفًا[٣] في الحب أن مُنِعَتْ ... أَحَبُّ شَيءٍ إلى الإنسان ما مُنِعا

(١) موضوع: رواه الطبرانى فى «الأوسط» (٨٢٧٧) وأبو نعيم فى «الحلية» (٢/ ٢٨١) وابن عدى (٥/ ٣٣٠) وابن الجوزى فى «الموضوعات» (١/ ٢٣٤) وضعفه الألبانى فى «ضعيف الجامع» (٧٦٣).

(٢) ضعيف جدًا: رواه الطبرانى فى «الأوسط» (٧٣٧٨) وضعفه الألبانى فى «ضعيف الجامع» (٣٩٦٠).

(٣) الكلف: الهيام والولع.

وقال الآخر:

لولا طِرَادُ[١] الصيد لم تَكُ[٢] لَذَّةٌ ... فتَطَارَدي لي بالوصال قليلا

قالوا: وكانت الجاهلية الجهلاء في كفرهم لا يرجون ثوابًا ولا يخافون عقابًا، وكانوا يصونون العشق عن الجماع، كما ذُكر أن أعرابيًا عَلِق امرأةً فكان يأتيها سنين وما جرى بينهما ريبة، قال: فرأيت ليلةً بياض كفّها في ليلة ظلماء فوضعتُ يدي عَلَى يدها فقالت: مه لا تفسد ما صَلَح فإنه ما نكح حب إلا فسد. فأخذ ذلك المأمون فقال:

ما الحبّ إلا نظرةٌ ... وغمزُ كفٍّ وعَضُدْ
أو كُتُبٌ فيها رُقًى ... أجلُّ من نفث العُقَدْ
ما الحبّ إلا هكذا ... إن نُكح الحبُّ فَسَدْ
مَن كان هذا حبُّه ... فإنما يبغي الوَلَدْ

وهَوِي آخرُ امرأةً فدام الحالُ بينهما في اجتماع وحديث ونظر، ثم إنه جامعها فقطعت الوصلَ بينهما فقال:

لو لم أواقع دام لي وصلُها ... فليتني لا كنتُ واقعتُها

وقيل لآخرَ شكا فراقَ محبوبة له:

أكثرتَ منْ وَطْئِهَا[٣] وَالوَطْءُ مَسْأَمَةٌ[٤]
فارفُق بنفسك إن الرفقَ محمود

وذكر عمر بن شَبَّة[٥] عن بعض علماء أهل المدينة قال: كان الرجل يحب الفتاة فإذا ظفر بها بمجلس تشاكيا وتناشدا الأشعار، واليوم يشير إليها وتشير إليه فيعدُها وتَعدُه، فإذا التقيا لم يَشكُ حبا ولم يُنشد شعرًا وقام إليها كأنه أشهد عَلَى نكاحها أبا هريرة ﷺ.

لم يَخْطُ من داخل الدِّهليز[٦] منصرفًا
إلا وخَلْخَالُها قد قارب الساقا

---

(١) طراد: أي: يطرد بعضهم بعضًا.
(٢) تك: أصلها تكون.
(٣) وطئها: كناية عن الجماع.
(٤) مسأمة: مجلبة للسآمة والملل.
(٥) هو الحافظ العلامة النحوي عمر بن شبة بن عبدة النميري البصري، صاحب التصانيف، ولد سنة (١٩٣ هـ) وتوفي سنة (٢٦٣ هـ).
(٦) الدهليز: كلمة فارسية معناها: المدخل بين الدار والباب.

قال الأصمعي(١): قلت لأعرابية: ما تعدون العشق فيكم؟ قالت: العناق والضَّمة والغَمْزةُ والمحادثة.

ثم قالت: يا حضريّ فكيف هو عندكم؟ قلت: يقعد بين شُعَبها الأربع ثم يُجهدها. قالت: يا بن أخي ما هذا عشقٌ هذا طالب ولد.

وسئل أعرابي عن ذلك فقال: مَصُّ الرِّيق، ولثْمُ الشَّفة(٢)، والأخذ من أطايب الحديث، فكيف هو فيكم أيها الحضري؟ فقال: العَفْسُ الشديد، والجمع بين الركبة والوريد، ورَهْزٌ يوقظ النائم، ويَشفي القلب الهائم. فقال: بالله ما يفعل هذا العدو الشديد فكيف الحبيب الودود؟.

وقال بعضهم: الحبّ يطيب بالنظر ويَفْسُد بالغمز. قال هؤلاء: والحب الصحيح يوجب إعظامَ المحبوب وإجلاله والحياءَ منه، فلا تطاوع نفسه أن يلقي جلباب الحياء عند محبوبه، وأن يُلقيَه عنه، ففي ذلك غاية إذلاله وقهره كما قيل:

إذا كان حظ المرء ممن يُحبُّه ... حرامًا فحظي ما يَحلّ ويَجمُلُ
حديثٌ كماء المُزْن(٣) بين فُصُوله ... عتابٌ به حسن الحديث يُفَصَّل
ولَثْمُ فمٍ عَذْب اللِّثَات(٤) كأنما ... جناهن شهدٌ فُتَّ فيه القَرَنْفَلُ(٥)
وما العشق إلا عفةٌ(٦) ونزاهةٌ(٧) ... وأنسُ قلوب أُنْسُهن التغزُّل
وإني لأستحيي الحبيبَ من التي ... تَريبُ وأُدعَى للجميل فأحْمِل

وزعم بعضهم أنه كان يُشْرَط بين العشيقة والعاشق أنَّ له من نصفها الأعلى إلى سُرَّتها ينال منه ما يشاءُ من ضمّ وتقبيل ورَشْف، والنصفُ الأسفلُ يَحْرُم عليه، وفي ذلك قال شاعر القوم:

فللحبّ شطرٌ مطْلَقٌ من عِقَالهِ ... وللبَعْل شطرٌ ما يُرام مَنيعُ

---

(١) **الأصمعي**: هو: أبو سعيد عبد الملك بن قريب الأصمعي، اللغوي المؤرخ، ولد سنة (١٣٣هـ) من أعلم الناس بلغة العرب وأيامهم، مات سنة (٢١٥هـ).

(٢) **لثم الشفة**: أي تقبيلها.

(٣) **المزن**: السحاب.

(٤) **اللثات**: جمع لثة وهي: منبت الأسنان.

(٥) **القرنفل**: نبات طيب الرائحة مسكن للآلام.

(٦) **عفة**: الترفع عن الوقوع في الفاحشة.

(٧) **نزاهة**: عدم التواجد في أماكن الفجور والعشق.

وقال الآخر:

لهـــا شطرٌ فـــمن حِلٌ وبلٌ (١) ونصفٌ كـالبَحيرَة (٢) مـا يهـاج

وهذا كان من دين الجاهلية فأبطلته الشريعةُ، وجعلت الشّطرين كليهما للبَعْل.

والشعراء قاطبةً لا يرون بالمحادثة والنظر للأجنبيات بأسًا، وهو مخالفٌ للشرع والعقل فإن فيه تعريضًا للطبع لما هو مجبولٌ على الميل إليه، والطبعُ يَسْرِق ويَغْلِبُ، وكم من مفتونٍ بذلك فى دينه ودنياه، فإن قيل فقد أنشد الحاكم فى «مناقب الشافعى» له:

يقولون لا تنظُرْ وتلك بليَّةٌ ألا كلّ ذى عينين لا بدّ ناظرُ

وليس اكتحالُ العين بالعين ريبةً إذا عَفَّ فيما بين ذاك الضمائرُ

فإن صحت عن الشافعى فإنما أراد النظر الذى لا يدخل تحت التكليف، كنظرة الفَجْأة أو النظر المباح. وقد ذهب أبو بكر محمد بن داودَ الأصفهانىُّ إلى جواز النظر إلى من لا يحلّ له، كما سيأتى كلامه إن شاء الله تعالى. قال أبو الفرج بن الجوزى (٣): وأخطأ فى ذلك وجرَّ عليه خطؤه اشتهارَه بين الناس وافتضاحَه. وذهب أبو محمد بن حزم إلى جواز العشق للأجنبية من غير ريبة، وأخطأ فى ذلك خطأ ظاهرًا، فإن ذَريعة العشق أعظمُ من ذَريعة النظر، وإذا كان الشرعُ قد حرّم النظر لما يؤدى إليه من المفاسد كما سيأتى بيانُه إن شاء الله تعالى، فكيف يجوز تعاطى عشق الرجل لمن لايحل له؟.

والمقصود أن هذه الفرقة رأت أن الجماع يُفْسد العشق فغارت عليه مما يفسدُه. وإن لم تتركْهُ ديانة. وقيل لبعض الأعراب: ما ينال أحدُكم من عشيقته إذا خلا بها؟ قال: اللّمسَ والقُبَلَ وما يشاكلها. قال: فهل يتطاولان إلى الجماع؟ فقال: بأبى وأُمى ليس هذا بعاشق، هذا طالب ولد.

ويُحكى أن رجلاً عشق امرأةً فقالت له يومًا: أنت صحيح الحبّ غير سقيمه - وكانوا يسمون الحب على الخنا (٤) الحب السقيم - فقال: نعم، فقالت: اذهب بنا إلى المنزل، فما هو إلا أن حصلت فى منزله فلم يكن له همةٌ غيرُ جماعها، فقالت له وهو كذلك:

---

(١) حل وبل: أى الشىء المباح.

(٢) البَحيرة: هى الناقة التى كانت تلد خمسة أبطن فتشق أذنها، وتترك فلا ينتفع بها بعد ذلك.

(٣) أبو الفرج بن الجوزى: هو الحافظ العلامة الواعظ جمال الدين أبو الفرج بن الجوزى، صاحب التصانيف المشهورة مثل: «زاد المسير» «تلبيس بليس» «الموضوعات» ولد سنة (٥٠٩ هـ) وتوفى سنة (٥٩٧ هـ).

(٤) الخنا: الفحش من القول والفعل.

أسرفت فى وطئنا والوطءُ مَقْطَعَةٌ ... فارفُق بنفسك إن الرفق محمود

فقال لها وهو عَلَى حاله:

لو لم أطاك لما دامت محبتُنا ... لكن فعلىَ هذا فعلُ مجهود

فنفرت من تحته وقالت: يا خبيث أراك خلاف ما قلت من صحة الحب، ولم تجعل جماعى إلا سببًا لذهاب حبك، والله لا ضمنى وإياك سقفٌ أبداً. وسيأتى تمامُ الكلام فى هذا فى باب «عفاف المحبين» إن شاء الله تعالى.

فصل: الخطاب بين الفريقين أن الجماعَ الحرام يفسد الحب، ولا بدّ أن تنتهى المحبة بينهما إلى المعاداة والتباغُض والقلى[1]، كما هو مشاهد بالعيان، فكل محبة لغير الله آخرها قلًى وبغض، فكيف إذا قارنها ما هو من أكبر الكبائر؟ وهذه عداوة بين يدى العداوة الكبرى التى قال الله تعالى فيها: ﴿**الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ**﴾ (الزخرف: ٦٧) وسنذكر إن شاء الله تعالى من ظفر بمحبوبه وترك قضاء وَطَرِه منه رغبة فى بقاء محبته، وخشية أن تنقلب قلًى وبغضًا فى الباب الموعود به فإن ذلك أليقُ به.

وأما الجماعُ المباح فإنه يزيد الحب إذا صادف مراد المحب، فإنه إذا ذاق لذَّته وطَعْمَه أوجب له ذلك رغبةً أُخرى لم تكن حاصلةً قبل الذَّوق. ولهذا لا يكاد البِكْران يصبر أحدهما عن الآخر، هذا ما لم يَعْرِض للحبّ ما يُفسده ويُوجب نقله إلى غير المحبوب. وأما ما احتجَّ به الآخرون فجوابُه أن الشهوةَ والإرادة لم تُطفأ نارُها بالكلية، بل فترت شهوةُ ذلك الوقت ثم تعود أمثالَها، وإنما يظهر هذا إذا غاب أحدهما عن حبيبه، وإلا فما دام بمرأى منه وهو قادرٌ عليه متى أحب فإن النفس تسكن بذلك وتطمئن به، وهذا حال كلّ من كان بحضرته ما يحتاج إليه من طعام وشراب ولباس وهو قادرٌ عليه، فإن نفسه تسكُن عنده، فإذا حيل بينه وبينه اشتد طلبه له ونزاع نفسه إليه.

عَلَى أن المحب للشىء متى أفرط فى تناوُل محبوبه نَفَرَتْ نفسُه منه، وربما انقلبت محبته كراهية. وسيأتى مزيد بيان لهذا فى باب: «سُلُوّ المحبين» إن شاء الله تعالى.

فصل: ودواعى الحب من المحبوب جمالُه، إما الظاهرُ أو الباطن أو هما معًا، فمتى كان جميل الصورة جميل الأخلاق والشيم والأوصاف كان الداعى منه أقوى، وداعى الحبّ من المحبّ أربعة أشياء:

---

[1] القلى: الفراق والهجران.

أولُها: النظر إما بالعين أو بالقلب إذا وُصف له، فكثير من الناس يحب غيره ويفنى فيه محبة وما رآه لكن وصف له، ولهذا نهى النبى ﷺ المَرْأَةَ أن تَنْعَتَ المَرْأَةَ لِزَوْجِهَا حتَّى كأنَّه يَنْظُرُ إِلَيْهَا» [١] والحديث فى «الصحيح».

الثانى: الاستحسان، فإن لم يورث نظره استحسانًا لم تقع المحبة.

الثالث: الفكر فى المنظور وحديث النفس به، فإن شغل عنه بغيره مما هو أهم عنده منه لم يعلق حبه بقلبه، وإن كان لا يعدم خطرات وسوانح، ولهذا قيل: العشق حركة قلب فارغ. ومتى صادف هذا النظر والاستحسان والفكر قلبًا خاليًا تمكّن منه كما قيل:

أتانى هواها قبل أن أعرف الهوى ... فصادف قلبًا خاليًا فتمكّنا

فإن قيل: فهل يتوقف عَلَى الطمع فى الوصول إلى المحبوب أم لا؟.

قيل: الناس فى هذا على أقسام: **منهم** من يعشق الجمال المطلق، فقلبه معلق به إن استقلت ركائبه، وإن حلت مضاربه، وهذا لا يتوقف عشقه على الطمع. **ومنهم** من يعشق الجمال المقيد سواء طمعت نفسه فى وصاله أم لم تطمع، **ومنهم** من لا يعشق إلا من طمعت نفسه فى وصاله، فإن يئس منه لم يعلق حبه بقلبه، والأقسام الثلاثة واقعة فى الناس، فإذا وجد النظر والاستحسان والفكر والطمع هاجت بلابله [٢]، وأمكن من معشوقه مقاتله، واستحكم داؤه، وعجز عن الأطباء دواؤه.

تالله ما أسر الهوى من عاشق ... إلا وعزَّ عَلَى النفوس فَكاكُهُ

وإذا كان النظرُ مبدأ العشق، فحقيق بالمطلق أن لا يعرض نفسه للإسار الدائم بواسطة عينه، وإذ قد أقضى بنا الكلام إلى النظر فلنذكر حُكْمه وغائلته [٣].

---

(١) **صحيح**: رواه البخارى (٥٢٤١) وأحمد (١/ ٤٦٠) وأبو داود (٢١٥٠) والترمذى (٢٧٩٢) والبيهقى فى «الكبرى» (٦/ ٣٢).

(٢) **بلابله**: خواطره وأفكاره.

(٣) **غائلته**: العاقبة الوخيمة.

الباب السادس:

فى أحكام النظر وغائلته وما يجنى على صاحبه

قال الله تعالى: ﴿ **قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٣٠) وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ** ﴾ الآية (النور: ٣٠، ٣١) فلما كان غضُّ البصر أصلاً لحفظ الفرج بدأ بذكره، ولما كان تحريمُه تحريم الوسائل فيُباح للمصلحة الراجحة، ويحرم إذا خيف منه الفساد ولم يعارضه مصلحة أرجح من تلك المفسدة، لم يأمر سبحانه بغضه مطلقًا بل أمر بالغضّ منه، وأما حفظ الفرج فواجبٌ بكل حال، لا يباح إلا بحقّه، فلذلك عمّ الأمر بحفظه، وقد جعل الله سبحانه العينَ مرْآة القلب، فإذا غضّ العبدُ بصرَه غضّ القلب شهوته وإرادته، وإذا أطلق بصرَه أطلق القلب شهوته. وفى الصحيح أن الفضل بن عباس رضي الله عنهما كان رَديف رسول الله ﷺ يوم النحر من مُزْدَلِفَةَ إِلَى مِنًى، فمرَّت ظُعُن يَجْرِينَ فَطفق الفضل ينظر إليهنَّ فحَوَّل رسول الله ﷺ رَأْسَهُ إِلَى الشِّقِّ الآخر(١). وهذا منعٌ وإنكار بالفعل، فلو كان النظر جائزًا لأقرّه عليه. وفى الصحيح عنه ﷺ أنه قال: «إن اللهَ عزَّ وجلَّ كَتَبَ عَلَى ابْنِ آدم حَظَّهُ مِنَ الزِّنَى أَدْرَكَ ذَلِكَ لا مَحَالَةَ، فَالعَيْنُ تَزْنِى وَزِنَاهَا النَّظَرُ، وَاللِّسَانُ يَزْنَى وَزِنَاهُ النُّطْقُ، وَالرِّجْلُ تَزْنِى وَزِنَاهَا الْخُطَى، وَالْيَدُ تَزْنِى وَزِنَاهَا الْبَطْشُ، وَالْقَلْبُ يَهْوَى وَيَتَمَنَّى، وَالْفَرْجُ يُصَدِّقُ ذَلِكَ أَوْ يُكَذِّبُه»(٢)، فبدأ بزنى العين لأنه أصل زنى اليد والرجل والقلب والفرج، ونبّه بزنى اللسان بالكلام على زنى الفم بالقُبَل، وجعل الفرج مصدقًا لذلك إن حقّق الفعل، أو مكذبًا له إن لم يحققه. وهذا الحديث من أبين الأشياء على أن العين تعصى بالنظر وأن ذلك زناها، ففيه رد على من أباح النظر مطلقًا. وثبت عنه ﷺ أنه قال: «يا عَلِيّ لا تُتْبِعِ النَّظْرَةَ النَّظْرَةَ فإنَّ لك الأُولَى ولَيْسَتْ لَكَ الثَّانِيَة»(٣).

ووقعت مسألة: ما تقول السادة العلماء فى رجل نظر إلى امرأة نظرةً فعلق حبُّها بقلبه واشتد عليه الأمر، فقالت له نفسه: هذا كله من أوّل نظرةٍ فلو أَعَدْتَ النظرَ إليها لرأيتَها دون ما فى نفسك فسلوتَ عنها، فهل يجوز له تعمُّدُ النظر ثانيًا لهذا المعنى؟.

---

(١) صحيح: رواه البخارى (١٥١٣) ومسلم (١٣٣٤).

(٢) صحيح: رواه البخارى (٦٢٤٣) وأبو داود (٢١٥٢) والنسائى (١٠/ ١٣٧).

(٣) صحيح: رواه أحمد (٥/ ٣٥١) وأبو داود (٢١٤٩) والترمذى (٢٧٧٧) والبيهقى فى «الكبرى» (٧/ ٩٠) والحاكم (٣/ ١٢٣) وصححه الألبانى فى «صحيح أبى داود» (١٨٦٥).

فكان الجواب : الحمد لله، لا يجوز هذا لعشرة أَوْجُه : أحدها : أن الله سبحانه أمر بغضّ البصر ولم يجعل شفاء القلب فيما حرّمه على العبد . الثاني : أن النبي ﷺ سئل عن نظر الفجأة، وقد علم أنه يؤثر في القلب فأمر بمداواته بصرف البصر لا بتكرار النظر. الثالث : أنه صرّح بأن الأولى له وليست له الثانية، ومحالٌ أن يكون داؤه مما له ودواؤه فيما ليس له. الرابع : أن الظاهر قوةُ الأمر بالنظرة الثانية لا تناقُصُهُ، والتجربةُ شاهدةٌ به، والظاهر أن الأمر كما رآه أولَ مرة فلا تحسن المخاطرة بالإعادة. الخامس : أنه ربما رأى ما هو فوق الذى فى نفسه فزاد عذابه. السادس : أن إبليس عند قصده للنظرة الثانية يقوم فى ركائبه فيزين له ما ليس بحسنٍ لِتَتِمَّ البلية. السابع : أنه لا يُعَانُ على بليته إذا أعرض عن امتثال أوامر الشرع وتداوى بما حرّمه عليه، بل هو جدير أن تتخلف عنه المعونة. الثامن : أن النظرة الأولى سهم مسموم من سهام إبليس، ومعلوم أن الثانية أشد سمًا فكيف يتداوى من السمّ بالسمّ؟. التاسع : أن صاحب هذا المقام فى مقام معاملة الحق عزَّ وجلَّ فى ترك محبوب، كما زعم، وهو يريد بالنظرة الثانية أن يتبيّن حال المنظور إليه، فإن لم يكن مرضيًا تركه، فإذًا يكون تركُهُ لأنه لا يلائم غرضَه لا لله تعالى، فأين معاملة الله سبحانه بترك المحبوب لأجله؟ العاشر : يتبين بضرب مثلٍ مطابقٍ للحال وهو أنك إذا ركبتَ فرسًا جديدًا فمالت بك إلى دربٍ ضيق لا ينفذُ ولا يمكنها تستدير فيه للخروج، فإذا همَّت بالدُّخول فيه فاكبحها(١) لئلا تدخل، فإذا دخلت خطوةً أو خطوتين فصيح بها وردها إلى وراء عاجلاً قبل أن يتمكن دخولها، فإن رددتها إلى ورائها سهل الأمر، وإن توانيت حتى وَلَجَت(٢) وسقتها داخلاً ثم قمت تجذبها بذنبها عسر عليك أو تعذر خروجها، فهل يقول عاقل إن طريق تخليصها سوقها إلى داخل؟ فكذلك النظرة إذا أثَّرت فى القلب، فإن عجل الحازم وحسم المادة من أولها سهل علاجه، وإن كرر النظر ونقب عن محاسن الصورة ونقلها إلى قلب فارغ فنقشها فيه تمكنت المحبة، وكلما تواصلت النظرات كانت كالماء يسقى الشجرة فلا تزال شجرة الحب تَنْمى حتى يفسد القلب ويُعْرِضَ عن الفكر فيما أُمِر به، فيخرج بصاحبه إلى المحن، ويوجب ارتكابَ المحظورات والفتن، ويلقى القلب فى التلف. والسببُ فى هذا أن الناظر التذَّت عينُه بأول نظرة فطلبت المعاودة، كأكل الطعام اللذيذ إذا تناول منه لقمة، ولو أنه غضَّ أولاً لاستراح قلبه وسلم.

---

(١) اكبحها : يقال : كبح فلان عن الحاجة : رده عنها.

(٢) ولجت : دخلت.

وتأمل قول النبي ﷺ: «النظرةُ سهْمٌ مَسْمُومٌ من سِهَامِ إبْلِيسَ»[١] فإن السَّهْم شأنه أن يسرى فى القلب فيعمل فيه عمل السم الذى يسقاه المسموم، فإن بادر واستفرغه وإلا قتله ولا بد.

قال المروذى[٢]: قلت لأحمد: الرجل ينظر إلى المملوكة. قال: أخاف عليه الفتنة، كم نظرة قد ألقت فى قلب صاحبها البلابل[٣]. وقال ابن عباس: الشيطان من الرجل فى ثلاثة: فى نظره وقلبه وذكره، وهو من المرأة فى ثلاثة: فى بصرها وقلبها وعَجُزها[٤].

فصل: ولما كان النظر من أقرب الوسائل إلى المحرَّم اقتضت الشريعة تحريمه، وأباحته فى موضع الحاجة، وهذا شأن كل ما حُرِّم تحريم الوسائل فإنه يباح للمصلحة الراجحة، كما حرمت الصلاة فى أوقات النهى لئلا تكون وسيلة إلى التشبه بالكفار فى سجودهم للشمس، أبيحت للمصلحة الراجحة كقضاء الفوائت وصلاة الجنازة وفعل ذوات الأسباب على الصحيح. وفى مسند الإمام أحمد بن حنبل عن النبى ﷺ أنه قال: «النظرَةُ سهمٌ مسمومٌ مِنْ سِهَامِ إبْلِيسَ فَمَنْ غَضَّ بَصَرَهُ عَنْ مَحَاسِنِ امْرَأَةٍ أَوْرَثَ اللهُ قَلْبَهُ حَلاوَةً يَجِدُهَا إِلَى يَوْمِ يَلْقَاهُ»[٥]، أو كما قال ﷺ، وقال جريرُ بن عبد الله رضي الله عنه: سألت رسول الله ﷺ عن نظر الفَجْأة فأمرنى أن أصرف بصرى[٦]، ونظرةُ الفجأة هى النظرة الأولى التى تقع بغير قصد من الناظر، فما لم يعتمده القلب لا يعاقب عليه، فإذا نظر الثانية تعمداً أثم، فأمره النبى ﷺ عند نظرة الفجاة أن يصرف بصره ولا يستديم النظر، فإن استدامته كتكريره، وأرشد من ابتلى بنظرة الفجأة أن يداويه بإتيان امرأته، وقال: إِنَّ مَعَهَا مِثْلَ الَّذِى مَعَهَا[٧]، فإن فى ذلك التسلى عن المطلوب بجنسه.

والثانى: أن النظر يثير قوة الشهوة فأمره بتنقيصها بإتيان أهله،ففتنة النظر أصل كل

---

(١) ضعيف: رواه الحاكم (٤ / ٣١٤) والطبرانى (٧٨٤٢) وقد ضعف الحديث الألبانى، رحمه الله تعالى، فى «الضعيفة» (١٠٦٥).

(٢) المروذى: هو الإمام المحدث أبو بكر أحمد بن محمد بن الحجاج المروذى، صاحب الإمام أحمد، ولد سنة (٢٠٠ هـ) وتوفى سنة (٢٧٥هـ).

(٣) البلابل: الخواطر المفزعة والمزعجة.

(٤) عجزها: دبرها ومؤخرتها،

(٥) تقدم تخريجه فى نفس الصفحة برقم (١).

(٦) صحيح: رواه أحمد (٤ / ٣٥٨) ومسلم (٢١٥٩) وأبو داود (٢١٤٨) والترمذى (٢٧٧٦).

(٧) يشير إلى حديث: «إن المرأة تقبل فى صورة شيطان، وتدبر فى صورة شيطان، فإذا أبصر أحدكم امرأة فليأت أهله فإن ذلك يرد ما فى نفسه» رواه مسلم (١٤٠٣).

فتنة، كما ثبت فى الصحيحين من حديث أسامة بن زيد ﷺ أن النبى ﷺ قال: «مَا تَرَكْتُ بَعْدِى فِتْنَةً أَضَرَّ عَلَى الرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ»(١) وفى صحيح مسلم من حديث أبى سعيد الخدرى ﷺ عن النبى ﷺ: «اتَّقُوا الدُّنْيَا وَاتَّقُوا النِّسَاءَ»(٢) وفى مسند محمد بن إسحاق السراج من حديث علىّ بن أبى طالب ﷺ عن النبى ﷺ: «أَخْوَفُ مَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِى النساءُ والْخَمْرُ»(٣) وقال ابن عباس ﷺ: لم يكفُر من كفر ممن مضى إلا من قِبَلِ النساءِ، وكُفر من بقى من قِبَلِ النساء.

فصل: وفى غضّ البصر(٤) عِدَّة فوائد:

أحدها: تخليص القلب من ألم الحسرة، فإن من أطلق نظرَه دامت حسرته، فأضر شىء على القلب إرسال البصر، فإنه يريه ما يشتد طلبه ولا صبر له عنه ولا وصول له إليه، وذلك غاية ألمه وعذابه، قال الأصمعى: رأيت جارية فى الطواف كأنها مهاةٌ(٥)، فجعلت أنظر إليها وأملأ عينى من محاسنها فقالت لى: يا هذا ما شأنك ؟ قلت: وما عليكِ من النظر؟ فأنشأت تقول:

وكنتَ متى أرسلتَ طَرَفَكَ رائداً ... لقلبك يومًا أَتَعَبَتْكَ المَنَاظرُ(٦)
رأيتَ الذى لا كله أنتَ قادرٌ ... عليه ولا عن بعضه أنت صابرُ

والنظرة تفعل فى القلب ما يفعل السهم فى الرَّمِيَّة، فإن لم تقتله جرحته، وهى بمنزلة الشرارة من النار تُرْمى فى الحشيش اليابس، فإن لم تُحرقْه كله أحرقت بعضه كما قيل:

كل الحوادث مَبْداها من النظر ... ومُعْظَمُ النار من مُسْتَصْغَرِ الشَّرر(٧)
كم نظرةٍ فَتَكَتْ فِى قلب صاحبها ... فَتْكَ السهام بلا قوسٍ ولا وَتَرَ
والمرءُ ما دام ذا عينٍ يُقَلِّبُهَا ... فى أعينِ الغيدِ موقوفٌ عَلَى الخطر(٨)
يَسُرّ مقلَته ما ضرَّ مهجته ... لا مرحبًا بسرورٍ عاد بالضرر

---

(١) **صحيح**: رواه البخارى (٥٠٩٦) ومسلم (٢٧٤١) والترمذى (٢٧٨٠) وابن ماجه (٣٩٩٨).

(٢) **صحيح**: رواه أحمد (٣/ ١٩) ومسلم (٢٧٤٣) والترمذى (٢١٩١) وابن ماجه (٤٠٠٠) والبيهقى فى «الكبرى» (٣/ ٣٦٩).

(٣) **ضعيف**: رواه الخطيب فى «تاريخ بغداد» (١٤/ ٧٩) وابن أبى حاتم فى «العلل» (٢/ ٤٣٦).

(٤) من غض بصره لله نال عشر فوائد، سيذكرها المصنف هنا.

(٥) **مهاة**: الشمس.

(٦) **طرفك**: تحريك العين عند النظر.

(٧) **مبداها**: أولها، **الشرر**: ما تطاير من النار، جمع شرارة.

(٨) **الغيد**: المرأة التى تتثنى فى مشيتها.

والناظر يَرْمى من نظره بسهام غرضها قلبه وهو لا يشعر، فهو إنما يرمى قلبه، ولى من أبيات:

يا راميًا بسهام اللّحْظ[١] مجتهدًا ... أنتَ القتيلُ بما ترمى فلا تصب
وباعثَ الطرف يَرْتاد الشفاءَ له ... تَوَقَّه إنّه يأتيك بالعَطَب[٢]

وقال الفرزدق[٣]:

تزوّدَ منها نظرةً لم تَدَعْ له ... فؤادًا ولم يَشْعُرْ بما قد تزوّدا
فلم أرَ مقتولاً ولم أر قاتلاً ... بغير سلاحٍ مثلَها حين أقصدا

وقال آخر:

ومن كان يُؤْتى من عدُوٍّ وحاسد ... فإنىَ من عينى أُتيتُ ومن قلبى
هما اعْتَوَرَانى[٤] نظرةً ثم فكرةً ... فما أبقيا لى كل من رقاد ولا لُبّ[٥]

وقال آخر:

رمانى بها طرفى فلم تُخط مقلتى ... وما كل من يُرْمى تصاب مقاتلُهْ
إذا متُّ فابكونى قتيلاً لطرْفه ... قتيل صديقٍ حاضرٍ ما يُزيلُه[٦]

وقال ابن المعتز[٧]:

متيمٌ يرعى نجومَ الدُّجى ... يبكى عليه رحمةً عاذلُهْ
عينى أشاطت[٨] بدمى فى الهوى ... فابكوا قتيلاً بعضُه قاتلُهْ

ومثله للمتنبى:

وأنا الذى اجْتَلَبَ المنيَّة طرفُه ... فَمَن المُطالبُ والقتيلُ القاتلُ

وقال أيضًا:

يا نظرةً نفت الرُّقادَ وغادرت ... فى حدّ قلبى ما بَقيتُ فلولا
كانت من الكحلاء[٩] سُؤْلى وإنما ... أجَلى تَمَثَّل فى فُؤادى سُولا

---

(١) اللحظ: النظر بجانب العين.
(٢) العطب: الهلاك.
(٣) هو: أبو فراس همام بن غالب التميمى البصرى، من كبار شعراء زمانه، كجرير والأخطل، توفى سنة (١١٠ هـ).
(٤) اعتورانى: يأتى إليه ويذهب.
(٥) لب: اللب: العقل.
(٦) يزيله: يفارقه.
(٧) هو: أبو الحسين عبيد الله بن المعتز بن منصور النيسابورى، توفى سنة (٤٤٧ هـ).
(٨) أشاطت: تعرضت للهلاك.
(٩) الكحلاء: المرأة البيضاء سوداء العينين.

وقال أيضًا :

وُقِىَ الأَميرُ من العيون فإنه ... ما لا يزول بأسه وسخائه

يَستأسِرُ البطلَ الكَمِىَّ(١) بنظرةٍ ... ويحول بين فؤاده وعزائه

وقال الصورى(٢) :

إذا أنت لم تَرْعَ البروقَ(٣) اللوامحا ... ونمتَ جرى من تحتك السيلُ سائحا

غرستَ الهوى باللحظ ثم احتقرته ... وأهملتَه مُستأنسًا مُتَسامحا

ولم تدرِ حتى أينعت شَجَراتُه ... وهبّت رياحُ الوجد فيه لَواقحا(٤)

فأمسيت تستدعى من الصبر عازيًا ... عليك وتستدنى من النوم نازحا(٥)

ودخل أصبهان مُغَنٍّ فكان يتغنى بهذين البيتين :

سماعًا يا عبادَ الله مِنِّى ... وكفُّوا عن ملاحظة المِلاح

فإِن الحبَّ آخرُه المنايا ... وأَوَّلُهُ شبيهٌ بالمزاح

وقال آخر :

وشادنٍ(٦) لما بدا ... أَسْلَمَنِى إِلى الرَّدى(٧)

بظرفه ولطفه ... وطَرفه لما بدا

أردتُّ أن أصيده ... فصاد قلبى وعدا

وقال آخرُ يعاتب عينَه :

والله يا بصرى الجانى على جسدى ... لأَطفئنَّ بدمعى لَوْعَةَ الحَزَنَ

تالله تطمَعُ أَن أبكِى هوًى وضنًى(٨) ... وأنت تشبع من غُمْضٍ ومن وَسَنِ(٩)

هيهات حتى تُرى طَرْفًا بلا نَظَرِ ... كما أُرَى فى الهوى شخصًا بلا بدنِ

وقال آخر :

يا من يرى سقمى يزيدُ ... وعِلَّتى أَعْيَتْ طبيبى

لا تعجبنَّ فهكذا ... تَجْنى العيونُ عَلَى القلوب

---

(١) الكمى : الشجاع المقدام.

(٢) هو الشاعر عبد المحسن بن محمد بن أحمد الصورى الشامى، توفى سنة (٤١٩ هـ) وكان يسمى أيضًا بابن غلبون.

(٣) البروق : شجر ضعيف له ثمر أسود.

(٤) لواقحا : اللواقح : الرياح التى تحمل الندى.

(٥) نازحا : بعيداً.

(٦) شادن : ولد الظبية.

(٧) الردى : الهلاك والدمار.

(٨) وضنى : بخل المعجم الوجيز (٣٨٣).

(٩) وسن : أول النوم.

وقال آخر:

لواحظُنا[١] تجنى ولا عِلْمَ عندنا ... وأنفسُنا مأخُوذةٌ بالجرائر[٢]

ولم أرَ أغبى من نفوسٍ عفائفٍ ... تُصَدِّق أخبارَ العيون الفواجر

ومن كانت الأجفان حُجَّابَ قلبه ... أذِنَ عَلَى أحشائه بالفواقر[٣]

وقال آخر:

أنا ما بين عدويـ ... ـن هما قلبى وطرفى

ينظر الطرفُ ويهوى الـ ... ـقلبُ والمقصودُ حَتْفى

وقال الخفاجى[٤]:

رَمتْ عينها عينى وراحت سليمةً ... فَمَنْ حاكمٌ بين الكحيلة والعَبْرَى[٥]

فيا طَرْفُ قد حذَّرتك النظرةَ التى ... خَلَسْتَ فما راقبتَ نهيًا ولا زجرا

ويا قلبُ قد أرداك[٦] طرفىَ مرَّةً ... فويحكَ لم طاوعته مرة أخرى

ولى من أبياتٍ لعل معناها مبتكَر:

ألم أقل لك لا تَسْرِقْ ملاحظةً ... فسارقُ اللحظ لا ينجو من الدَّرَك[٧]

نصبتُ طرفى له لما بدا شَرَكًا ... فكان قلبىَ أَوْلى منه بالشَّرَك

الفائدة الثانية: أنه يورثُ القلب نورا وإشراقًا يظهر فى العين وفى الوجه وفى الجوارح، كما أن إطلاق البصر يورثه ظلمة تظهر فى وجهه وجوارحه. ولهذا والله أعلم ذكر الله سبحانه آية النور فى قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ (النور: ٣٥) عقيب قوله: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ (النور: ٣٠) وجاء الحديث مطابقًا لهذا حتى كأنه مشتق منه وهو قوله: «النظرة سهمٌ مسمومٌ من سهام إبليس، فمن غضَّ بصرَه عن محاسن امرأةٍ أورث الله قَلْبَهُ نوراً...» الحديث.

الفائدة الثالثة: أنه يورث صحة الفِراسة فإنها من النور وثَمَرَاتِه، وإذا استنار القلب صحَّتِ الفِراسة لأنه يصير بمنزلة المِرْآة الْمَجْلُوّة[٨] تظهر فيها المعلومات كما هى، والنظر

---

(١) لواحظنا: اللواحظ: العيون.

(٢) الجرائر: الخطيئة.

(٣) الفواقر: المصائب.

(٤) أبو إسحاق إبراهيم بن أبى الفتح الخفاجى الأندلسى، توفى سنة (٥٣٣ هـ).

(٥) العبرى: العين التى تبكى.

(٦) أرداك: قتلك.

(٧) الدرك: الدور السفلى.

(٨) المجلوة: اللامعة

بمنزلة التنفُّس فيها، فإذا أطلق العبدُ نظرةً تَنَفَّسَتْ نفسُه الصُّعَداء في مرآة قلبه فطمست(١) نورها كما قيل:

مرآةُ قلبك لا تُريك صلاحَه والنفسُ فيها دائمًا تتنفَّس

وقال شجاع الكِرْماني: من عمَّر ظاهرَه باتّباع السنة، وباطنَه بدوام المراقبة، وغض بصره عن المحارم، وكف نفسه عن الشهوات، وأكل من الحلال لم تخطئ فراسته. وكان شجاع لا تخطئ له فراسة.

والله سبحانه وتعالى يجزى العبد على عمله بما هو من جنسه، فمن غض بصره عن المحارم عوضه الله سبحانه وتعالى إطلاق نور بصيرته، فلما حبس بصره لله أطلق الله نور بصيرته، ومن أطلق بصره فى المحارم حبس الله عنه بصيرته.

الفائدة الرابعة: أنه يفتح له طرق العلم وأبوابه، ويسهّل عليه أسبابه، وذلك بسبب نور القلب، فإنه إذا استنار ظهرت فيه حقائقُ المعلومات، وانكشفت له بسرعة، ونفذ من بعضها إلى بعض، ومن أرسل بصره تكدَّر عليه قلبُه وأظلم وانسدّ عليه باب العلم وطُرُقه.

الفائدة الخامسة: أنه يورث قُوَّةَ القلب وثباته وشجاعته، فيجعل له سلطان البصيرة مع سلطان الحجة، وفى الأثر: إن الذى يخالف هواه يَفْرَق(٢) الشيطان من ظله، ولهذا يوجد فى المتَّبع لهواه من ذلّ القلب وضعفه ومهانة النفس وحقارتها ما جعله الله لمن آثر هواه على رضاه. قال الحسن: إنهم وإن هَمْلَجَت(٣) بهم البغال وطَقْطَقَتْ(٤) بهم البَراذين(٥) إن ذل المعصية لفى قلوبهم. أبى الله إلا أن يذل من عصاه، وقال بعض الشيوخ: الناسُ يطلبون العزّ بأبواب الملوك، ولا يجدونه إلا فى طاعة الله. ومن أطاع الله فقد والاه فيما أطاعه فيه، ومن عصاه فقد عاداه فيما عصاه فيه، وفيه قسطٌ ونصيبٌ من فعل من عاداه بمعاصيه، وفى دعاء «القنوت»: «إنه لا يَذلّ من واليت، ولا يَعزّ من عاديت»(٦).

الفائدة السادسة: أنه يورث القلب سروراً وفرحة، وانشراحًا أعظمَ من اللذَّة والسرور الحاصل بالنظر، وذلك لقهره عدوَّه بمخالفته ومخالفة نفسه وهواه، وأيضًا فإنه لما كَفّ لذته وحبس شهوته لله وفيها مسرة نفسه الأمارة بالسوء أعاضه الله سبحانه مسرة ولذة أكمل منها، كما قال بعضهم: والله للذة العفة أعظم من لذة الذنب. ولا ريب أن النفس إذا

---

(١) **طمست**: خفت نورها. (٢) **يفرق**: يخاف.

(٣) **هلجت**: أسرعت الخطا. (٤) **طقطقت**: صوت بحوافرها.

(٥) **البراذين**: البرذون: الخيل التركى.

(٦) **صحيح**: رواه أحمد (١/ ١٩٩) وأبو داود (١٤٢٥) والترمذى (٤٦٤) والنسائى (٣/ ٢٧٥) وابن ماجه (١١٧٨) وصححه الألبانى فى «الإرواء» (٤٢٩).

خالفت هواها أعقبها ذلك فرحًا وسروراً ولذة أكمل من لذة موافقة الهوى بما لا نسبة بينهما. وههنا يمتاز العقل من الهوى.

الفائدة السابعة: أنه يخلص القلب من أسر الشهوة، فإن الأسير هو أسير شهوته وهواه، فهو كما قيل:

* طليق برأى العين وهو أسير *

ومتى أسرت الشهوة والهوى القلب تمكن منه عدوه وسامه[١] سوء العذاب وصار:

كعصفورة فى كف طفل يسومها
حياضَ الردى[٢] والطفلُ يلهو ويلعب

الفائدة الثامنة: أنه يسدّ عنه بابًا من أبواب جهنم، فإن النظر بابُ الشهوة الحاملة عَلَى مواقعة الفعل، وتحريمُ الرب تعالى وشرعُه حجابٌ مانعٌ من الوصول، فمتى هَتَكَ الحجاب ضرِىَ[٣] عَلَى المحظور، ولم تقف نفسه منه عند غاية، فإن النفس فى هذا الباب لا تقنع بغاية تقف عندها، وذلك أن لذتها فى الشىء الجديد، فصاحب الطارف لا يُقنعُهُ التليد[٤]، وإن كان أحسن منه منظراً وأطيب مخبرًا[٥]، فغض البصر يسد عنه هذا الباب الذى عجزت الملوك عن استيفاء أغراضهم فيه.

الفائدة التاسعة: أنه يقوى عقله ويزيده ويثبته، فإن إطلاق البصر وإرساله لا يحصل إلا من خفة العقل وطيشه وعدم ملاحظته للعواقب، فإن خاصة العقل ملاحظة العواقب. ومُرسِلُ النظر لو علم ما تجنى عواقب نظره عليه لما أطلق بصره، قال الشاعر:

وأعقلُ الناسِ من لم يرتكب سببًا حتى يفكِّرَ ما تَجْنى عواقبه

الفائدة العاشرة: أنه يُخلص القلب من سُكر الشهوة ورقدة الغفلة، فإن إطلاق البصر يوجب استحكام الغفلة عن الله والدار الآخرة، ويوقع فى سكرة العشق، كما قال الله تعالى عن عشاق الصور: ﴿**لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ**﴾ (الحجر: ٧٢) فالنظرة كأس من خمر، والعشق هو سكر ذلك الشراب، وسكر العشق أعظم من سكر الخمر، فإن سكران الخمر يفيق، وسكران العشق قلما يفيق إلا وهو فى عسكر الأموات، كما قيل:

سكران سكر هوًى وسكر مدامة[٦] ومتى إفاقتُه مَنْ به سُكران؟

وفوائد غضّ البصر وآفاتُ إرساله أضعاف أضعاف ما ذكرنا، وإنما نبهنا عليه تنبيهًا

---

(١) سامه: السام: الهلاك.
(٢) الردى: الهلاك.
(٣) ضرى: تجرأ.
(٤) التليد: القديم الموروث.
(٥) مخبراً: المخبر: الباطن.
(٦) مدامة: الخمر.

ولا سيما النظر إلى من لم يجعل الله سبيلاً إلى قضاء الوطر(١) منه شرعًا، كالمردان(٢) الحسان، فإن إطلاق النظر إليهم السمُّ الناقع(٣) والداء العُضال(٤). وقد روى الحافظ محمد بن ناصر من حديث الشعبى مرسلاً قال: قدم وفد عبد القيس على النبى ﷺ وفيهم غلام أمرد ظاهر الوضاءة، فأجلسه النبى ﷺ وراء ظهره، وقال: «كَانَتْ خَطِيئَةُ مَنْ مَضَى مِنَ النَّظَرِ»(٥).

وقال سعيد بن المسيب(٦): إذا رأيتم الرجل يحد النظر إلى الغلام الأمرد فاتهموه. وقد ذكر ابن عدى فى «كامله» من حديث بقية عن الوازع عن أبى سلمة عن أبى هريرة ﷺ قال: «نهى رسول الله ﷺ أن يحدَّ الرجل النظر إلى الغلام الأمرد»(٧) وكان إبراهيم النخعى(٨) وسفيان الثورى(٩) وغيرُهما من السلف ينهون عن مجالسة المرْدان.

قال النخعى: مجالستهم فتنة وإنما هم بمنزلة النساء.

وبالجملة فكم من مُرْسل لحظاته رجع بجيش صبره مغلولاً، ولم يُقلع حتى تشحط(١٠) بينهم قتيلاً.

يا ناظراً ما أقلعت لَحَظاته(١١) — حتى تشحَّط بينهن قتيلاً

---

(١) الوطر: قضاء الحاجة.

(٢) المردان: الأمرد: الشاب الذى بلغ.

(٣) الناقع: الدائم القاتل.

(٤) العضال: المنكر القاتل.

(٥) لا أصل له، قاله الشوكانى فى «الفوائد المجموعة» (٢٠٦).

(٦) سعيد بن المسيب بن حزن المخرومى القرشى، سيد التابعين، الزاهد، الورع، ولد لسنتين مضتا من خلافة عمر بن الخطاب ﷺ، وتوفى سنة (٩٤ هـ).

(٧) ضعيف جدًا: رواه ابن عدى فى «الكامل» (٧/ ٩٦).

(٨) هو: أبو عمران إبراهيم بن يزيد بن قيس بن الأسود الكوفى، مات سنة (٩٦ هـ).

(٩) هو: أبو عبد الله سفيان بن سعيد بن مسروق بن حبيب، ولد سنة (٩٧ هـ) وتوفى سنة (١٦١هـ).

(١٠) تشحط: تمعك، وتمرغ.

(١١) لحظاته: اللحظ: النظر إليه بمؤخرة العين المعجم الوجيز (٥٥٣).

الباب السابع:

فى ذكر مناظرة بين القلب والعين
ولوم كل منهما صاحبه والحكم بينهما

لما كانت العين رائداً، والقلب باعثًا وطالبًا، وهذه لها لذَّةُ الرؤية، وهذا له لذة الظفر، كانا فى الهوى شريكَىْ عِنان. ولما وقعا فى العناء، واشتركا فى البلاء، أقبل كل منهما يلوم صاحبه ويعاتبُه.

فقال القلب للعين: أنت التى سقتنى إلى موارد الهلكات، وأوقعتنى فى الحسرات بمتابعتك اللحظات(١)، ونزهت طرفك فى تلك الرياض، وطلبت الشفاء من الحدق(٢) المراض، وخالفت قول أحكم الحاكمين: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ...﴾ (النور: ٣٠) وقول رسوله ﷺ: «النَّظَرُ إِلى الْمَرْأَةِ سَهْمٌ مَسْمُومٌ مِن سِهَامِ إِبليسَ، فَمَنْ تَرَكَهُ من خَوْفِ الله عَزَّ وَجَلَّ أَثَابَهُ اللهُ إِيمانًا يَجِدُ حَلاوَتَهُ فِى قَلْبِه» (رواه الإمام أحمد) حدّثنا هشيم، حدثنا عبد الرحمن بن إسحاق، عن محارب بن دثار، عن صلة، عن حذيفة.

وقال عمر بن شَبَّة: حدثنا أحمد بن عبد الله بن يونس، حدثنا عنبسة بن عبد الرحمن القرشى، حدثنا أبو الحسن المدنى، حدثنا علىّ بن أبى طالب قال: قال رسولُ الله ﷺ: «نَظَرُ الرَّجُلِ فِى مَحَاسِنِ الْمَرْأَةِ سَهمٌ مِنْ سِهَامِ إبليسَ مَسْمُومٌ، فَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذَلكَ السَّهْمِ أَعْقَبَهُ اللهُ عِبَادَةً تَسُرُّهُ»(٣)، فمن الملوم سوى من رمى صاحبه بالسهم المسموم؟ أوما علمت أنه ليس شىء أضر على الإنسان من العين واللسان؟ فما عطب(٤) أكثر من عطب إلا بهما، وما هلك أكثر من هلك إلا بسببهما، فللَّه كم من مورد هلكة أورداه، ومصدر ردى عنه أصدراه، فمن أحب أن يحيا سعيداً أو يعيش حميداً فليغض من عنان طرفه ولسانه ليسلم من الضرر، فإنه كامن فى فضول الكلام وفضول النظر. وقد صرح الصادق المصدوق بأن العينين تزنيان وهما أصل زنى الفرج، فإنهما له رائدان، وإليه داعيان، وقد سئل رسول الله ﷺ عن نظرة الفجاة فأمر السائل أن يصرف بصره، فأرشده إلى

---

(١) اللحظات: جمع لحظة، وقد تقدم معناها.

(٢) الحدق: جمع حدقة وهى: السواد المستدير حول العين.

(٣) ضعيف: رواه الحكيم الترمذى فى «نوادر الأصول» كما فى «إتحاف السادة المتقين» (٩/ ٣٤).

(٤) عطب: الهلاك.

ما ينفعه ويدفع عنه ضرره، وقال لابن عمه عليّ ﷺ محذراً له مما يوقع في الفتنة ويورث الحسرة: «لا تُتْبِع النَّظْرَةَ النَّظْرَةَ». أوَما سمعت قول العقلاء: من سرح ناظره، أتعب خاطره، ومن كثرت لحظاته، دامت حسراته، وضاعت عليه أوقاته، وفاضت عبراته، وقول الناظم:

نظرُ العيون إلى العيون هو الذى ... جعل الهلاكَ إلى الفؤاد سبيلا

ما زالت اللَّحَظات تغزو قلبَه ... حتى تَشَحَّط بينهن قتيلا

وقال آخر:

تَمَتَّعْتُمَا يا مقلتيّ بنظرة ... وأوردتما قلبى أمَرَّ الموارد

أعينيّ كُفَّا عن فؤادى فإنه ... من الظلم سعيُ اثنين فى قتل واحد

فصل: قالت العين: ظلمتنى أولاً وآخراً، وبؤت بإثمى باطناً وظاهراً، وما أنا إلا رسولك الداعى إليك، ورائدك الدال عليك.

وإذا بعثت برائد نحو الذى ... تهوى وتَعْتِبُه ظلمت الرائدا

فأنت الملك المطاع، ونحن الجنود والأتباع. أركبتنى فى حاجتك خيلَ البريد، ثم أقبلت على بالتهديد والوعيد. فلو أمرتنى أن أغلق علىّ بابى، وأرخى علىَّ حجابى(١)، لسمعت وأطعت، ولما رعيت فى الحمى(٢) ورتعت، أرسلتنى لصيد قد نصبت لك حبائله وأشراكه، واستدارت حولك فخاخه وشباكه. فغدوت أسيراً، بعد أن كنت أميراً، وأصبحت مملوكًا، بعد أن كنت مليكًا. هذا وقد حكم لى عليك سيد الأنام وأعدل الحكام عليه الصلاة والسلام، حيث يقول: «إنَّ فى الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ لَهَا سَائِرُ الْجَسَدِ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ لَهَا سَائِرُ الْجَسَدِ، أَلا وَهِيَ الْقَلْبُ»(٣)، وقال أبو هريرة: القلب ملك والأعضاء جنوده، فإن طاب الملك طابت جنوده، وإذا خبث الملك خبثت جنوده(٤)، ولو أنعمت النظر لعلمت أن فساد رعيتك بفسادك، وصلاحها ورشدها برشادك، ولكنك هلكت وأهلكت رعيتك، وحملت على العين الضعيفة خطيئتك، وأصل بليتك أنه خلا منك حب الله وحب ذكره وكلامه وأسمائه وصفاته، وأقبلت على غيره وأعرضت عنه، وتعوضت بحب من سواه والرغبة فيه منه، هذا وقد سمعت ما قص عليك من إنكاره سبحانه على بنى إسرائيل استبدالهم طعاماً بطعام أدنى منه، فذمهم على ذلك

---

(١) **أرخى على حجابى**: أى الجفون.

(٢) **الحمى**: مكان الكلأ والعشب.

(٣) **صحيح**: رواه البخارى (٥٣) ومسلم (١٥٥٩) وأبو داود (٣٣٢٩) والترمذى (١٢٠٥).

(٤) **ضعيف**: رواه البيهقى فى «الشعب» وضعفه الألبانى فى «ضعيف الجامع» (٤١٣٨).

ونعاه(١) عليهم، وقال: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾ (البقرة: ٦١) فكيف بمن استبدل بمحبة خالقه وفاطره، ووليه ومالك أمره، الذى لا صلاح له ولا فلاح، ولا نعيم ولا سرور، ولا فرحة ولا نجاة، إلا بأن يوحده فى الحب، ويكون أحب إليه مما سواه، فانظر بالله بمن استبدلت؟ وبمحبة من تعوضت؟ رضيت لنفسك بالحبس فى الحش(٢)، وقلوب محبيه تجول حول العرش. فلو أقبلت عليه وأعرضت عمن سواه لرأيت العجائب، ولأمنت من المتالف والمعاطب، أوما علمت أنه خص بالفوز والنعيم، من أتاه بقلب سليم، أى سليم مما سواه، ليس فيه غيرُ حبه واتباع رضاه. قالت: وبين ذنبى وذنبك عند الناس كما بين عماى وعماك فى القياس. وقد قال من بيده أزِمَّة الأمور: ﴿فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِى فِى الصُّدُورِ﴾ (الحج: ٤٦).

فصل: فلما سمعت الكبد تحاوُرَهما الكلام، وتناوُلَهما الخصام، قالت: أنتما على هلاكى تَساعدتما، وعلى قتلى تعاونتما. ولقد أنصف من حكى مناظرتكما، وعلى لسانى متظلمًا منكما:

يقول طرفى لقلبى هِجْتَ سَقَمًا ... والعينُ تزعمُ أن القلبَ أنكاها(٣)
والجسمُ يشهد أن العين كاذبةٌ ... وهى التى هيَّجت للقلب بَلْواها
لولا العيونُ وما يَجْنِينَ من سَقَمٍ ... ما كنتُ مُطَّرَحًا من بعضِ قَتْلاها
فقالت الكبدُ المظلومةُ اتَّئِدا(٤) ... قطعتمانى وما راقبتما اللهَ

وقال آخر:

يقول قلبى لطَرْفى أن بكى جزعًا ... تبكى وأنتَ الذى حَمَّلْتَنى الوَجَعَا
فقال طرفى له فيما يعاتبُه ... بل أنت حَمَّلْتَنى الآمال والطَّمَعا
حتى إذا ما خلا كلٌّ بصاحبه ... كلاهما بطويل السُّقم قد قَنِعَا
نادتهما كبدى لا تَبْعدا فلقد ... قطعتمانى بما لاقيتما قِطَعَا

وقال آخر:

عاتبتُ قلبى لما ... رأيتُ جسمى نحيلا
فألزم القلبُ طرفى ... وقال كنتَ الرسولا
فقال طرفى لقلبى ... بل كنتَ أنتَ الدليلا
فقلتُ كُفَّا جميعًا ... تركتمانى قتيلا

---

(١) **نعاه**: يقال: أنعاه: أخبر بموته.

(٢) **الحش**: جمع حشوش، وهو الكنيف.

(٣) **أنكاها**: قهرها وغلبها.

(٤) **اتئدا**: من التؤدة وهى: التمهل.

ثم قالت: أنا أتولى الحكم بينكما، أنتما فى البلية شريكا عنان، كما أنكما فى اللذَّة والمسرة فرسا رهان، فالعينُ تلتذ، والقلب يتمنى ويشتهى، ولهذا قال فيكما القائل:

ولما سَلوْتُ الحبَّ بَشَّــر ناظرى — لقلبى فقـال القلبُ لى ولك الهنـا
تخلَّصت من إحيـاء ليلكَ ساهرًا — وخلَّصتَنى من لوعة الهجر والضنَا(١)
كـلانا مُـهنًّا بالبـقـاء فـإن تَعُـدْ — فـلا أنتَ يبـقـيكَ الغـرامُ ولا أنا

وإن لم تُدْرِكْكُما عنايةُ مُقَلِّبِ القلوب والأبصار، وإلا فما لك من قُرَّة ولا للقلب من قرار، قال الشاعر:

فوالله ما أدرى أنفسـى ألومُـها — على الحبِّ أم عينى المشُومَةَ أم قلبى
فإن لُمْتُ قلبى قال لى العينُ أبصرَتْ — وإن لُمْتُ عينى قالت الذنبُ للقلب
فعينى وقلبى قد تقاسمتما دمى — فيا ربّ كن عونًا على العين والقلب

قالت: ولما سقيت القلبَ ماء المحبة بكؤوسك، أوقدت عليه نار الشوق فارتفع إليك البخار، فتقاطر منك فشرقت بشربه أولاً، وشرقت بحر ناره ثانيًا، قال:

خذى بيدى ثم اكشفى الثوبَ فانظرى — ضنـى جسـدى لكنـى أتسـتَّـر
وليس الذى يجرى من العين ماؤها — ولكنها رُوحٌ تـذوب فـتـقطـر

قالت: والحاكمُ بينكما الذى يحكم بين الروح والجسد إذا اختصما بين يديه فإن فى الأثر المشهور: لا تزال الخصومة يوم القيامة بين الخلائق حتى تختصم الروح والجسد فيقول الجسد للروح: أنت الذى حركتنى وأمرتنى وصرفتنى، وإلا فأنا لم أكن أتحرك ولا أفعل بدونك. فتقول الروح له: وأنت الذى أكلت وشربت وباشرت وتنعمت، فأنت الذى تستحق العقوبة، فيرسل الله سبحانه إليهما ملكًا يحكم بينهما فيقول: مثلكما مثل مقعد(٢) بصير وأعمى يمشى، دخلا بستانًا فقال المقعد للأعمى: أنا أرى ما فيه من الثمار ولكن لا أستطيع القيام، وقال الأعمى: أنا أستطيع القيام ولكن لا أبصر شيئًا، فقال له المقعد: تعال فاحملنى فأنت تمشى وأنا أتناول، فعلى من تكون العقوبة؟ فيقول: عليهما، قال، فكذلك أنتما، وبالله التوفيق.

---

(١) الضنا: شدة الألم والمرض.
(٢) المقعد: الذى لا يستطيع السير ولا الحركة، وهو ما يسمى الآن شلل الأطفال.

الباب الثامن:

فى ذكر الشبه التى احتج بها من أباح النظر إلى من لا يحل له الاستمتاع به وأباح عشقه

قـالت هذه الطائفـة: بيننا وبينكم الكتاب والسنة وأقوال أئمة الإسلام والمعـقـول الصحيح.

أما الكتاب فقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِى مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾ (الأعراف: ١٨٥) وهذا يَعُمّ جميعَ ما خلق الله، فما الذى أخرج من عمومه الوجه المليح؟ وهو من أحسن ما خلق. وموضعُ الاستدلال به والاعتبار أقوى، ولذلك يسبح الخالق سبحانه عند رؤيته، كما قال بعض الناظرين إلى جميع الصورة:

ذى طلعة سبحان فالق صبحه ... ومعاطف[١] جلَّت يمينُ الغارس
مرَّت بأرجاء الخيال طيوفه ... فبكت علَى رَسم السُّلُوِّ الدارس[٢]

ورؤية الجمال البديع تنطق ألسنة الناظرين بقولهم: سبحان الله رب العالمين، وتبارك الله أحسن الخالقين، والله تعالى لم يخلق هذه المحاسن عبثًا، وإنما أظهرها ليستدل الناظرُ إليها على قدرته ووحْدانيته وبديع صنعه، فلا تعطل عما خلقت له.

وأما السُّنَّة فالحديثُ المشهور: «النَّظَرُ إِلَى الْوَجْهِ الْمَلِيحِ عِبَادَةٌ»[٣].

وفى الحديث الآخر: «اطْلُبُوا الْخَيْرَ مِنْ حِسَانِ الْوُجُوهِ»[٤]، وفى هذا إرشاد إلى تصفح الوجوه وتأملها. وخطب رجل امرأةً فاستشار النبى ﷺ فى نكاحها، فقال: «هَلْ نَظَرْتَ إِلَيْهَا» ؟ فقال: لا، قال: «اذهبْ فانظرْ إليها» ولو كان النظر حرامًا لما أطلق له أن ينظر فإنه لا يأمن الفتنة.

---

(١) معاطف: العطف هو: الجانب

(٢) الدارس: الذى ذهب أثره.

(٣) موضوع: رواه الخطيب فى «تاريخ بغداد» (٣/ ٢٢٦) وابن الجوزى فى «الموضوعات» (١/ ١٦٢).

(٤) موضوع: رواه البخارى فى «التاريخ» (١/ ٥١) وابن عدى فى «الكامل» (٣/ ١١٣٨) والخطيب فى «تاريخ بغداد» (٤/ ١٨٥) وذكره الألبانى فى «ضعيف الجامع» (٩٠٣).

وأما أقوال الأئمة فحكى السمعانى(١) أن الشافعى كتب إليه رجلٌ فى رقعة:

سل المفتىَ المكىَّ هل فى تزاوُرٍ ونظرةِ مشتاقِ الفؤاد جُناح(٢)

فأجابه الشافعىّ:

معاذَ إلهِ العَرْشِ أن يُذْهب التقى تلاصُقُ أكبادٍ بهنَّ جراح

وذكر الخرائطى(٣) هذا السؤال والجواب عن عطاء بن أبى رَبَاح(٤)، وأوَّله: سألت عطاء المكّى. وذكر الحاكم فى «مناقب الشافعى» من شعره:

يقولون لا تنظر وتلك بَلِيَّةٌ ألا كلُّ ذى عينين لا بدَّ ناظر

وليس اكتحالُ العين بالعين ريبةً إذا عفَّ فيما بين الضمائر

وذكر الاستربادى(٥) فى كتاب: مناقب الشافعى أن رجلاً كتب إلى سعيد بن المسَّيب:

يا سيِّد التابعين والبَرَرَهْ نسيتُ فى العشق سورة البقرهْ

فكن بفتواك مشفقًا رَفِقًا باهى بك اللهُ أكرمَ البَرَرَهْ

هل حرَّم اللهُ لَثْمَ خدِّ فتًى أوصافُه بالجمال مشتَهِرَهْ

فأجابه سعيد:

يا سائلى عن خفىِّ لَوْعَته عليك بالصبر تَحْمَدَنّ أثَرَهْ

ولا تكن طالبًا لفاحشة أو كالذى ساق سيلُه مطرَهْ

وراقب اللهَ واخشَ سَطْوَته وخالف الفاسقين والفَجَرَهْ

وقبِّل الخد من حبيبك ذا فى كل يومٍ وليلةٍ عَشَرَهْ

وقال أبو العباس المبرِّد فى «الكامل»: قال أعرابى أنشدنيه أبو العالية:

سألت الفتى المكىَّ ذا العلم ما الذى يحلّ من التقبيل فى رمضان

---

(١) هو: أبو سعيد فخر الدين أبو المظفر عبد الرحيم السمعانى المروزى الشافعى، ولد سنة (٥٣٧ هـ) من مصنفاته «الأنساب» توفى سنة (٦١٨ هـ).

(٢) هذه الحكاية كذب، وسوف يبين ذلك المصنف.

(٣) هو: أبو بكر محمد بن جعفر بن محمد السامرى الخرائطى، من مصنفاته «مساوئ الأخلاق» و «مكارم الأخلاق» وتوفى سنة (٣٢٧ هـ).

(٤) هو: أبو محمد عطاء بن أبى رباح القرشى، مولاهم المكى، ولد فى خلافة عثمان بن عفان ، توفى سنة (١١٤ هـ).

(٥) هو: المحدث أبو بكر محمد بن يوسف بن حماد الأسترابادى، بلغ من العمر مائة سنة، مات سنة (٣١٨ هـ) بجرجان.

فـقـال لـي الـمكيُّ أمـا لزوجـة ... فـسبعٌ وأمـا خُلَّـةٍ[1] فـثـمـان

وذكر أبو بكر الخطيب في كتاب رواه مالك عن بعضهم:

أقـول لـمُفْـت بيـن مكَّةَ والصـفـا
لك الخيـرُ هل فى وصلهنَّ حـرام
وهل فى صمـوت الحجل مهضومة الحشا[2]
عِـذَاب الثنايـا إن لثمـتُ أثـام[3]
فـقـال لـي المـفـتي وسالـت دموعُه
عَلَى الخـدِّ مـن عـينيـه فـهـي تُـؤَامُ
ألا ليـتنـي قـبَّلـتُ تلـك عـشيـةً
ببطـن منًـى والمُـحْـرمـون نيـام

وقال الحاكم فى كتاب «مناقب الشافعي»: حدثنا أبو العلاء بن كُوشيار الحارى، أنبأنا عليّ بن سليمان الأخفش، عن محمد بن الجهم قال: سمعت الربيع يقول: حضرت الشافعي بمكة وقد دفع إليه رجل رقعة فيها:

أقـول لـمُفْـت بيـن مكَّةَ والصـفـا
لك الخيـرُ هل فى وصلهنَّ حـرام
وهل فى صَـمـوت الحَجـل مهضومة الحشا
عِـذَاب الثنايـا إن لثمـتُ أثـام

قال فوقَّع الشافعي فيها:

فقال لى المفتي وفاضت دموعُه ... عَلَى الخدِّ من عين وهن تُـؤَامُ
ألا ليتني قَبَّلتُ تلك عشيـةً ... ببطـن منًـى والمُحْرِمـون قيـامُ

وقال عمرو بن سفيان بن بنة جامع بن مُرْخِيَة[4]:

إنـا سـألنـا مـالكًـا وقـرينَـه ... ليثَ بن سعد عن لثَام الوامق[5]
أيجـوز قـالا: والذى خلق الورى ... مـا حـرَّم الرَّحـمن قُبلـة عـاشق

---

(١) خلة: الخلة: الصداقة.
(٢) الحشا: البطن.
(٣) أثام: حامل الإثم.
(٤) مرخية: هذا لقب لجامع بن مالك بن شداد.
(٥) الوامق: من أحب من غير ريبة.

ذكر ذلك صاحب كتاب «رستاق الاتفاق»[١] وهو شاعر المصريين، وأنشد فيه لعمرو بن سفيان هذا وكتب بها إلى ابن عُيَيْنَة[٢]:

قلنا لسفيان الهلالي مرةً ... حرُمت ضَمَّ العاشق المشتاق
لحبيبه من بعد نأي ناله ... فأجاب لا والواحد الخلاق

وأنشد فيه لجدّه جامع، وكتب بها إلى عليّ بن زيد بن جُدْعان:

سألنا ابن جُدْعان بن عمرو أخا العلا ... أيحْرُم لثمُ الحِبِّ في ليلة القدر
فقال لنا المكيُّ وناهيك علمُه ... ألا لا ومن قد جاء بالشَّفع والوَتر

وأنشد لإبراهيم بن المدبِّر وكتب بها إلى أبي بكر بن عياش[٣] أحد أئمة القراء:

سألت ابن عَيَّاشٍ وكان معلّما ... لك الخير هل في ضمة الحب من وزر
فقال أبو بكر ولا في لثَامه ... ألم يَأتنا التنزيل بالوَضْع للإصْر

وأنشد لآخر: وكتب بها إلى الإمام أحمد بن حنبل قال: وزعم بعضهم أنه إسحاق بن مُعاذ بن زهير شاعر أهل مصر في وقته:

سألتُ إمام الناس نَجْلَ ابن حَنْبَلٍ ... عن الضمِّ والتقبيل هل فيه من باس
فقال إذا جلَّ العَزاء فواجبٌ ... لأنك قد أحييت عبداً من الناس

وأنشد لابن مُرْخِيَة، وكتب بها إلى أبي حنيفة[٤]:

كتبتُ إلى النعمان يومًا رسالةً ... نسائله عن لثْم حِبٍّ ممنَّع
فقال لنا لا إثم فيه وإنه ... شهيٌّ إذا كانت لعشرٍ وأربع

وكتب رجل إلى أبي جعفر الطحاوي:

أبا جعفرٍ ماذا تقول فإنه ... إذا نابنا خَطْبٌ عليك المعَوَّل[٥]
فلا تُنْكِرَنْ قولي وأبشر برحمة الـ ... ـإله عن الأمر الذي عنه نسأل
أبالحُبِّ عارٌ أم من الحب مَهْرَبٌ ... وهل من لَحًا[٦] أهل الصبابة يَجْهل
وهل بمباحٍ فيه قتلُ متيَّمٍ ... يهاجره أحبابُه وهو يوصل
فرأيَكَ في ردِّ الجواب فإنني ... بما فيه تقضي أيها الشيخُ أفعل

---

(١) رستاق الاتفاق: القرى المتجاورة، وصاحب هذا الكتاب اسمه: أبو الفعمق الشاعر.
(٢) هو سفيان بن عيينة، رحمه الله تعالى.
(٣) هو أبو بكر بن عياش الأسدي المقرئ، ولد سنة (٩٥ هـ) وتوفي سنة (١٩٣ هـ).
(٤) هو: أبو حنيفة بن النعمان الكوفي، صاحب المذهب الحنفي، عاشي سبعين عامًا، ومات سنة (١٥٠هـ).
(٥) نابنا: أي أصابتنا الداهية، المعول: الذنب.
(٦) لحا: خاصم.

فأجابه الطحاوى:

ساقضى قضاءً فى الذى عنه تسـأل | واحكم بين العاشقين فأعدل
فديتك ما بالحب عارٌ علمته | وللعار تركُ الحب إن كنت تعقل
ومهما لحا فى الحب لاحٍ فإنه | لعمرك عندى من ذوى الجهل أجهل
وليس مباحًا عندنا قتلُ مسلمٍ | بلا ترَةٍ[1] بل قاتلُ النفس يُقْتَل
ولكنه إن مات فى الحبّ لم يكن | له قَوَدٌ فيه ولا عنه يُعقَل[2]
وصالُك من تهوى وإن صدّ واجبٌ | عليك كذا حكمُ المتيَّم يفعل
فهذا جوابُ فيه عندى قناعةٌ | لما جئت عنه أيها الصبّ تسأل

ويكفى أن المعتزلة من أشدّ الناس تعظيمًا للذنوب، وهم يخلدون أصحابَ الكبائر ولا يَرَوْنَ تحريمَ ذلك، كما ذكره الحافظ أبو القاسم بن عساكر فى «تاريخه» المشهور لبعض المعتزلة[3]:

سألنا أبا عثمان عَمْرًا وواصلاً | عن الضمّ والتقبيل للخدّ والجيد
فقالا جميعًا والذى هو عادلٌ | يجوز بلا إثمٍ فدع قولَ تفنيد[4]

وقال إسحاق بن شبيب:

سألنا شيوخَ الواسطيّين كلّهم | عن الرَّشْف والتقبيل هل فيهما إثمُ
فقالوا جميعًا ليس إثمًا لزوجةٍ | ولا خُلَّةٍ والضمُّ من هذه غُنْمُ[5]

وأنشد أبو الحسن على بن إبراهيم بن محمد بن سعد الخير فى كتابه «شرح الكامل»:

فلما أن أبيح لنا التلاقى | تعانَقْنا كما اعْتَنق الصديقُ
وهل حَرَجًا تراه أو حرامًا | مَشُوقٌ ضمَّه صب[6] مَشُوقُ

وقال الخطيب فى «تاريخ بغداد»: حدَّثنا أبو الحسن على بن أيوب بن الحسن إملاء، حدَّثنا أبو عبد الله المَرْزُبانى وابن حَيُّويَه وابن شاذان قالوا: حدَّثنا أبو عبد الله إبراهيم بن محمد بن عرفة نِفْطَوَيْه بقُرْطُبَة قال: دخلت عَلَى محمد بن داود الأصبهانى فى مرضه الذى

---

(١) ترة: ظلم فى الثار. (٢) قود: قصاص.

(٣) المعتزلة: فرقة من الفرق الضالة التى ذكرت فى حديث افتراق الأمة، والمعتزلة فى نفسها افترقت لأكثر من عشرين فرقة.

انظر «الفرق بين الفرق» (١١٤) للبغدادى.

(٤) تفنيد: يقال: فند فلانًا: خطأ رأيه، وفى القرآن الكريم: المعجم الوجيز (٤٨١).

(٥) غنم: ربح. (٦) صب: عاشق.

مات فيه فقلت له: كيف تجدُك ؟ قال: حبّ مَن تعلم أورثني ما ترى، فقلت له: ما منعك عن الاستمتاع به مع القدرة عليه؟ قال: الاستمتاع على وجهين: **أحدُهما**: النظرُ المباح، **والثاني**: اللَّذَّة المحظورة. فأما النظر المباح فاورثني ما ترى... وذكر القصة. وستأتي في باب «عفاف العشاق».

والمقصود أنه لم يَرَ النظرَ إلى معشوقه ولا عشْقَه حرامًا. وجرى على هذا المذهب أبو محمد بن حَزْم في كتاب «طوق الحمامة» له. قالوا: ونحن نحاكمكم إلى واحد يُعَدّ بآلاف مؤلفة وهو شيخ الإسلام ابن تيمية فإنه سئل:

ما تقول السادة الفقهاء في رجلٍ عاشقٍ في صورة وهي مُصِرّة على هجره منذ زمنٍ طويلٍ لا تزيده إلا بعدًا، ولا يزداد لها إلا حبًّا، وعشقُه لهذه الصورة من غير فسقٍ ولا خنى[(١)]، ولا هو ممن يُدَنِّسُ عشقه بزنى، وقد أفضى به الحالُ إلى الهلاك لا محالة، إن بقي مع محبوبه على هذه الحالة، فهل يحل لمن هذه حاله أن يهجر؟ وهل يجب وصاله على المحبوب المذكور؟ وهل يأثم ببقائه على هجره؟ وما يجب من تفاصيل أمرهما؟ وما لكل واحدٍ منهما على الآخر من الحقوق مما يوافق الشرع الشريف؟.

فأجاب بخطه بجواب طويل قال في أثنائه: فالعاشقُ له ثلاثُ مقامات: ابتداءٌ، وتوسُّطٌ، ونهاية. أما ابتداؤه فواجبٌ عليه فيه كتمانُ ذلك وعدمُ إفشائه للخلق، مراعيًا في ذلك شرائط الفُتوَّة من العفّة مع القدرة، فإن زاد به الحال إلى المقام الأوسط فلا بأس بإعلام محبوبه بمحبته إياه، فيخفّ بإعلامه وشكواه إليه ما يجد منه، ويحذر من اطلاع الناس على ذلك، فإن زاد به الأمرُ حتى خرج عن الحدود والضوابط التحق بالمجانين والموسوسين. فانقسم العشاق قسمين: قسمٌ قَنِعُوا بالنظرة بعد النظرة، فمنهم من يموت وهو كذلك ولا يُظْهِر سره لأحد، حتى محبوبه لا يدري به، وقد روى عن النبي ﷺ: «مَنْ عَشِقَ فَعَفَّ فَكَتَمَ فَمَاتَ فَهُوَ شَهِيدٌ»[(٢)].

والقسمُ الثاني أباحوا لمن وصل إلى حد يخاف على نفسه منه القُبْلَة في الحين، قالوا: لأن تركها قد يؤدّي إلى هلاك النفس، والقُبلةُ صغيرةٌ وهلاكُ النفس كبيرة. وإذا وقع الإنسان في مَرَضَين داوَى الأخطر ولا خطرَ أعظمُ من قتل النفس، حتى أوجبوا على المحبوب مطاوعَته على ذلك إذا علم أن ترك ذلك يؤدّي إلى هلاكه، واحتجُّوا بقول الله تعالى:

---

(١) خنى: فحش.

(٢) **موضوع**: رواه ابن حبان في «المجروحين» (١/ ٣٤٩) والخطيب في «تاريخه» (٥/ ١٥٦) وابن عساكر في «تاريخه» (١٣/ ٢٦٣/ ٢) وحكم عليه الألباني في «الضعيفة» (٤٠٩) بالوضع.

تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ (النساء: ٣١) وبقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ﴾ (النجم: ٣٢) وبحديث الذى قال: يا رسول الله، إنى لقيتُ امرأةً أجنبيةً فاصبت منها كلَّ شيْءٍ إلا النكاح، قال: «أصَلَّيت معنا»؟ قال: نعم، قال: «إن الله قد غَفَرَ لَكَ»(١)، فانزل الله تعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ (هود: ١١٤) ثم قال: فإن كان هذا السائلُ كما زعم ممن لا يدنس عِشْقَه بزنى، ولا يَصْحبه بخنا فَيُنْظَرُ فى حاله، فإن كان من الطبقة الأولى، فالنظر كاف لهم إن صدقت دعواهم، وإن كان من الطبقة الثانية فلا بأس بشكواه إلى محبوبه كى يرق عليه ويرحمه، وإن غلب عليه الحال فالتحق بالثالثة أُبيح له ما ذكرنا بشرط أن لا يكون أنمُوذجًا لفعل القبيح المحرم، فيلتحق بالكبائر ويستحق القتل عند ذلك ويزول عنه العذر ويحقّ عليه كلمةُ العذاب. انتهى ما ذكرناه من جوابه.

قالوا: وقد جوزت طائفة من فقهاء السَلَف والخَلَف والعلماء استمناء الإنسان بيده إذا خاف الزنى، وقد جوّزت طائفة من الفقهاء لمن خاف على نفسه فى الصوم الواجب من شدة الشبق(٢) أن تتشقق أُنْثَيَاه أن يجامع امرأته، وبنوا على ذلك فرعًا: وهو إذا كان له امرأتان حائض وصائمة فهل يطأُ هذه أو هذه عَلَى وجهين. ولا ريب أن النظر والقبلة والضمّ إذا تضمَّن شفاءه من دائه كان أسهلَ من الاستمناء باليد والوطء فى نهار رمضان.

وقد جوّز بعض الفقهاء للمرأة إذا خافت الزنى أن تتخذ لها شيئًا تدخله فى فرجها وتخرجه لئلا تقع فى محظور الزنى.

ولا ريب أن الشريعة جاءت بالتزام الدخول فى أدنى المفسدتين دفعًا لأعلاهما، وتفويت أدنى المصلحتين تحصيلاً لأعلاهما، فأين مفسدةُ النظر والقبلة والضم من مفسدة المرض والجنون أو الهلاك جملة؟ فهذا ما احتجَّت به هذه الفرقة ونحن نذكر ما لها وما عليها فى ذلك بحول الله وقوَّته وعونه.

---

(١) **صحيح**: رواه أحمد (٥/ ٣٦٥) ومسلم (٢٧٦٣) وأبو داود (٤٣٨١) وابن خزيمة (٣١١).
(٢) **شدة الشبق**: أى شدة الشهوة، أو شدة الاشتياق إلى الجماع، المعجم الوجيز (٣٣٤).

الباب التاسع:

فى الجواب عما احتجت به هذه الطائفة
وما لها وما عليها فى هذا الاحتجاج

وشبههم التى ذكروها دائرةٌ بين ثلاثة أقسام:

أحدها: نقول صحيحة لا حجة لهم فيها.

والثانى: نقول كاذبة عمن نسبت إليه من وضع الفساق والفجار كما سنبينه.

الثـالث: نقول مجملة محتملة لخلاف ما ذهبوا إليه. فأما احتجاجهم بقوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ ﴾ (الأعراف: ١٨٥) فهو نَظير احتجاجهم بعينه عَلَى إباحة السماع الشيطانى الفسقى بقوله تعالى: ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ (١٧) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ﴾ (الزمر: ١٧، ١٨) قالوا: والقول عام فحمَّلوا لفظه ومعناه ما هو برىء منه. وإنما القول ههنا ما أمرهم الله باستماعه، وهو وَحْيُهُ الذى أنزله عَلَى رسوله وهو الذى قال فيه: ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ ﴾ (المؤمنون: ٦٨) وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ ﴾ (القصص: ٥١) فهذا هو القول الذى أمروا باتِّباع أحسنه كما قال: ﴿ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم ﴾ (الزمر: ٥٥).

والنظر الذى أمَرَنا سبحانه به المُؤَدّى إلى معرفته والإيمان به ومحبَّته والاستدلال عَلَى صدق رُسله فيما أخبروا به عنه من أسمائه وصفاته وأفعاله وعقابه وثوابه، لا النظرُ الذى يوجب تعلُّق الناظر بالصورة التى يحرم عليه الاستمتاع بها نظرًا ومباشرة[١]، فهذا النظر الذى أمر الله سبحانه وتعالى صاحبه بغضّ بصره، هذا مع أن القوم لم يُبْتَلَوْا بالمُرْدان[٢]، وهم كانوا أشرفَ نفوسًا، وأطهَر قلوبًا من ذلك، فإذا أمرهم بغضّ أبصارهم عن الصورة التى تباح لهم فى بعض الأحوال خشيةَ الافتتان، فكيف النظر إلى صورة لا تباح بحال؟ ثم يقال لهذه الطائفة: النظر الذى ندب الله إليه نظرٌ يثاب عليه الناظر، وهو نظرٌ موافق لأمره، يقصد به معرفة ربه ومحبَّته، لا النظرُ الشيطانى.

ويشبه هذا الاستدلال استدلال بعض الزنادقة المنتَسبين إلى الفقه عَلَى حلّ الفاحشة

---

(١) مباشرة: هى كل ما دون الجماع من العناق والمداعبة.

(٢) المردان: الأمرد: الشاب الذى بلغ دون إنبات لحيته.

بمملوك الرجل بقوله تعالى: ﴿إِلاَّ عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ (المؤمنون: ٦) ومعتقد ذلك كافر حلال الدم بعد قيام الحجة عليه، وإنما تسترت هذه الطائفةُ لهواها وشهَوَاتها، وأوهمت أنها تنظر عبرة واستدلالاً، حتى آل ببعضهم الأمرُ إلى أن ظنُّوا أن نظرهم عبادة، لأنهم ينظرون إلى مظاهر الجمال الإلهي، ويزعمون أن الله ـ سبحانه وتعالى عن قول إخوان النصارى ـ يظهر في تلك الصورة الجميلة ويجعلون هذا طريقًا إلى الله كما وقع فيه طوائف كثيرة ممن يدَّعي المعرفة والسلوك.

قال شيخنا، رحمه الله تعالى[١]: وكفر هؤلاء شر من كفر قوم لوط، وشر من كفر عباد الأصنام، فإن أولئك لم يقولوا: إن الله سبحانه يتجلَّى في تلك الصورة، وعُبَّاد الأصنام غاية ما قالوه: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ (الزمر: ٣) وهؤلاء قالوا: نعبدهم لأن الله ظهر في صُوَرهم، وحكى لي شيخنا: أن رجلاً من هؤلاء مرَّ به شاب جميل فجعل يُتبعه بصره، فأنكر عليه جليس له وقال: لا يَصلُح هذا لمثلك، فقال: إني أرى فيه صفات معبودي وهو مَظْهَرٌ من مظاهر جماله، فقال: لقد فعلت به وصنعت، فقال: وإن، قال شيخنا: فلعن الله أمة معبودها موطوؤها. قال: وسئل أفضل متأخريهم العفيف التلمساني فقيل له: إذا كان الوجود واحداً فما الفرق بين الأخت والبنت والأجنبية حتى تحل هذه؟ فقال: الجميع عندنا سواء ولكنْ هؤلاء المحجوبون قالوا: حرام، فقلنا: حرام عليكم. ومن هؤلاء الزنادقة: من يخصّ ذلك ببعض الصُّوَر، فهؤلاء من جنس النصارى بل هم إخوانهم، فالنظر عند هؤلاء إلى الصُّوَر المحرَّمة عبادة، ويشبه أن يكون هذا الحديث من وضع بعض هؤلاء الزنادقة، أو مُجَّان الفُسَّاق، وإلا فرسول الله ﷺ. بريء منه.

وسئل شيخنا عمن يقول: «النظر إلى الوجه الحسن عبادة»[٢] ويروى ذلك عن النبي ﷺ، فهل ذلك صحيحٌ أم لا؟ فأجاب بأن قال: هذا كذبٌ باطل، ومن روى ذلك عن النبي ﷺ أو ما يشبهه فقد كذب عليه ﷺ، فإن هذا لم يَرْوه أحدٌ من أهل الحديث لا بإسناد صحيح ولا ضعيف بل هو من الموضوعات، وهو مخالفٌ لإجماع المسلمين. فإنه لم يقل أحدٌ إن النظر إلى المرأة الأجنبية والصبيِّ الأمرد عبادة. ومن زعم ذلك فإنه يُستتاب فإن تاب وإلا قُتل، فإن النظر منه ما هو حرامٌ، ومنه ما هو مكروهٌ، ومنه ما هو مباحٌ والله أعلم. وأما الحديث الآخر، وهو: «اطْلُبُوا الْخَيرَ مِنْ حِسَانِ الْوُجوه»[٣]، فهذا وإن كان قد رُوي

---

(١) أي: شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، قدس الله روحه.

(٢) تقدم تخريجه. (٣) تقدم تخريجه.

بإسناد إلا أنه باطلٌ لم يصح عن رسول الله ﷺ . ولو صحَّ لم يكن فيه حجةٌ لهذه الطائفة، فإنه إنما أمر بطلب الخير منهم لا بطلب وصالهم ونيل المحرَّم منهم، فإن الوجه الجميل مَظِنَّة الفعل الجميل، فإن الأخلاق - في الغالب - مناسبةٌ للخِلْقة بينهما نسب قريب، وأما أمر النبي ﷺ للخاطب بأن ينظر إلى المخطوبة فذلك نظرٌ للحاجة، وهو مأمور به أمْرَ استحباب عند الجمهور، وأمْرَ إيجاب عند بعض أهل الظاهر، وهو من النظر المأذون فيه لمصلحة راجحة، وهو دخول الزوج عَلَى بصيرة وأبعد من ندمه ونَفْرَته عن المرأة، فالنظر المباح أنواعٌ هذا أحدُها بخلاف النظر إلى الصورة المحرَّمة.

فصل: وأما ما ذكره السمعاني عن الشافعيِّ - رحمه الله تعالى - فمن تحريف الناقل. والسائلُ لم يذكر لفظ الشافعي، والبيتان هكذا هما:

سألت الفتى المكيَّ في تزاوُرٍ ... ونظرة مشتاق الفؤاد جُناح(١)

فقال معاذ الله أن يُذهبَ التقى ... تلاصُقُ أكباد بهنَّ جِراح

فهذا السائل هو الذي ذكر السؤال والجواب، وهو مجهول لا يُعْرَف هل هو ثقة أم لا؟ ثم إن الجواب لا يَدُلُّ على مقصود هذه الفرقة بوجه ما، بل هو حجةٌ عليها فإنه نهى أن يُذهب التقى تلاصُق هذه الأكباد، فكأنه قال:

لا تتلاصق هذه الأكباد لئلا يُذهب تلاصقها التقى، فالتلاصقُ المذكور فاعلٌ، والتقى مفعول، فكأنه قال: لا يفعل لئلا يذهب التلاصقُ التقى.

وجوابٌ آخر: وهو أن هذا التلاصقُ إنما يكون غير مذهب للتقى إذا كان في عشق مباح بل مستحب كعشق الزوجة والأَمَة.

وأما ما ذكروا عن سعيد بن المسيب - رحمه الله تعالى - فقد أجاب عنه سعيد نفسه، فإنه لما مر به مرخية هذا السائل - وكان من بني كلاب - قال سعيد: هذا من أكذب العرب، قيل: كيف يا أبا محمد؟ قال: أليس الذي يقول:

سألت سعيدَ بن المُسَيَّب مفتي المدينة

هل في حبِّ دَهماءِ(٢) من وِزْر؟

فقال سعيدُ بنُ المسيَّب إنما

تُلام على ما تستطيع من الأمْر

---

(١) جناح: اللوم والإثم. (٢) دهماء: سوداء.

كذب والله ما سألنى عن شيء من هذا قط ولا أفتيته. وإذا كان هذا جواب سعيد فى مثل هذا فما جوابه لمن سأله أن يقبّل حبيبًا أجنبيًا كل يوم وليلة عشرة؟ فقبح الله الفسقة الكذابين على العلماء لا سيما على مثل سعيد، فهؤلاء كلهم فسقة كاذبون أرادوا تنفيق[1] فسقهم بالكذب على علماء وقتهم، كما نفق الفاسق أبو نواس كذبه على إسحاق بن يوسف الأزرق. قال عبد الله بن محمد بن عائشة: أتيت إسحاق بن يوسف الأزرق يومًا، فلما رآنى بكى، قلت: ما يبكيك؟ قال: هذا أبو نُواس، قلت: ما له ؟ قال: يا جارية، ائتينى بالقرطاس، فإذا فيه مكتوب:

يا ساحرَ المقلتين والجيدِ	وقاتلى منه بالمواعيدِ
توعدنى الوصلَ ثم تُخْلِفُنى	ويلاه من مخلفٍ لموعودى
حدَّثنى الأزرق المحدِّث عن	شمرٍ وعوفٍ عن ابن مسعودِ
لا يُخلفُ الوعدَ غير كافرةٍ	أو كافرٍ فى الجحيم مَصْفُودِ[2]

كَذب والله علىَّ وعَلَى التابعين وعلى الصحابة.

ولو صحّ عن سعيد لم يكن لكم فيه حجة فإن سعيدًا أمره بالصبر أولاً، ومراقبة الله وخوف سطوته ومخالفة الفسقة، ثم أمره بتقبيل خد من يحبه كل يوم عشر مرات، وهذا قطعًا إنما أراد به من يحل له تقبيله من زوجة أو سُرِّية، فامره ان يعتاض بقُبلتها من لا يَحلُّ له، ولا يظن بعلماء الإسلام غير هذا إلا مفرط فى الجهل أو متهم على الدين.

وأما ما ذكره المبرد عن الأعرابى الذى سأل المفتى المكى عن القبلة فى رمضان فقال: للزوجة سبع وللخلة ثمان، فهذا المستفتى والمفتى لا يعرف واحد منهما حتى يقبل خبره، ولو صحَّ ذلك وعرف المستفتى والمفتى لكانت الخلة هى أمته الجميلة، وهى التى يحل تقبيلها ثمانيًا فأكثر.

وأما أن يفتى أحد من أهل الإسلام بأنه يحل تقبيل المرأة الأجنبية المحرمة عليه ثمانيًا فى رمضان أو غيره فمعاذ الله من ذلك، وهكذا حكم الأثر الذى ذكره الخطيب فى كتاب رواه مالك، ولا يظن بعالم أنه تمنى أن يقبِّل امرأة أجنبية وهو محرم ببطن منى، فإن القُبلة المذكورة تعرض الحج للفساد وتبطله عند طائفة، فإن صح هذا فإنما أراد امرأته أو أَمَتَه.

---

(١) تنفيق: ترويج.

(٢) مصفود: موضوع فى الأصفاد، أى: فى القيود.

وأما الأثر الذى ذكره الحاكم فى مناقب الشافعى - رحمه الله تعالى - فليس بين الحاكم وبين الربيع من يحتج به. ويدل على أن القصة كذب ظاهر أن المستفتى زعم أن الشافعى أجاب بقوله: فقال لى المفتى وفاضت دموعه. وهذا إنما هو حكاية المستفتى قول المفتى فمن هو الحاكى عن الشافعى؟ فدعوا هذه الأكاذيب والترهات[١]، وأما ما ذكرتم عن عمرو بن سفيان ابن بنت جامع، فمن ذكر هذا عن عمرو بن سفيان؟ ومن هو عمرو بن سفيان ابن بنت جامع بن مُرخية هذا؟ وهذا موضع البيتين المشهورين:

سـألنا عن ثُمَالَة كلَّ حىٍّ ... فقال القائلون ومَنْ ثُمَالَهْ

فقلتُ محمدُ بنُ يزيدَ منهم ... فقالوا زدتَنا بهمُ جَهالَهْ

وهل يحل لأحد أن يصدق عن مالك والليث بن سعد[٢] أنهما أجازا تقبيل خد المرأة الأجنبية المعشوقة أو خد الأمرد الجميل الصورة؟ هذا وقصةُ مالك مع الذى ضم صبيًّا إليه فأفتى بضربه ستمائة سوط فمات، فقال له أبو الفتى: قتلت ابنى، فقال: قتله الله. فمن هذا تشديده وفتواه هل يفتى بجواز تقبيل خدود المرد الحسان؟ نعم ما حرّم الرحمنُ قُبلةَ عاشقٍ يَحلُّ لمعشوقه مواصلتُه، ولا قبلة الرجل خد ولده كما قبل الصديق ﷺ خد ابنته عائشة ﷺ، ورأى أعرابى النبى ﷺ يقبل أحد ابنى ابنته فقال: وإنكم لتُقَبِّلون الصبيان؟ إن لى عشرةً من الولد ما قبَّلتهم، فقال: «أوَأَمْلكُ لَكَ إنْ نَزعَ اللهُ الرَّحْمَةَ من قَلْبكَ»[٣]؟ وأما صاحبُ كتاب «رُستاق الاتفاق» وهو شاعر المصريين فلعمرُ الله لقد أفسدت إذ أسندت، فإنه الفاسقُ الماجنُ المسمَّى أبا الرَّقَعْمَق[٤]، ولكن لا يُنكَر هذا المتن بهذا الإسناد، فإنه لا يليق إلا به، وأما قصة إبراهيم بن المدبر عن أبى بكر بن عياش فنقل غير مصدق عن قائل غير معصوم.

وأما ما ذكروا عن الإمام أحمد - رحمه الله تعالى - فوالذى لا إله غيرُه إنه لَمِنْ أقبح الكذب عليه، ولو أن هذا الكاذبَ الفاسق نفق هذه الكذبة بغيره لراج أمرها بعض الرواج، ولكن من شدة جهله نفقها بأحمد بن حنبل وهو كمن نسب إليه القولَ بأن القرآن مخلوق

---

(١) الترهات: الأباطيل والخرافات.

(٢) هو: أبو الحارث الفهمى، الليث بن سعد بن عبد الرحمن، عالم الديار المصرية، ولد سنة (٩٤ هـ) بقلقشنده، إحدى قرى مركز طوخ، وتوفى سنة (١٧٥ هـ).

(٣) صحيح: رواه البخارى (٥٩٩٨) ومسلم (٢٣١٧) وابن ماجه (٣٦٦٥).

(٤) هو: أبو حامد أحمد بن محمد الأنطاكى الشاعر، مات سنة (٣٩٩ هـ).

أو تقديم عليٍّ عَلَى أبى بكر، أو تقديم الرأى على السُّنّة، وأمثال ذلك، وكذلك ما ذكره عن أبى حنيفة - رحمه الله تعالى - ولو صحَّ لم يكن فيه حجة لهذه الطائفة، فإنه قال: لا إثم فيه إذا كانت لعشر وأربع، ولم يقل إذا كانت أجنبية، ونحن نقول بما قال أبو حنيفة، رحمة الله تعالى: إذا كان المعشوق حلالاً.

وأما ما ذكر عن الطحاويّ فلا نعلم صحته، وإن صحّ فإنما أُراد به التقبيلَ المباح، فإن الرجلَ قد يُبتلى بهجر زوجته أو أمَةٌ له فيسأل أطباءَ الدين وأطباء الجسم وأطباء الحبّ عن دوائه، فيجيبه كل منهم بمقتضى علمه وما عنده، وقد شكى مغيث زوج بريرة حبَّه لها فشفع عندها النبى ﷺ أن تراجعه فلم تفعل، وشكى إليه رجل أن امرأته لا تردُّ يدَ لامس فقال: طلِّقها، فقال: إنى أخاف أن تتبعها نفسى، فقال: «استمتع بها»[١]. ذكره الإمام أحمد والنسائى.

قال بعض أهل العلم: راعى النبى ﷺ دفعَ أعلى المفسدتين بأدناهما، فإنه لما شكى إليه أنها لا ترد يد لامس أمره بطلاقها، فلما أخبره عن حبها وأنه يخاف أن لا يصبر عنها ولعل حبه لها يدعوه إلى معصية، أمره أن يمسكها مداواة لقلبه ودفعًا للمفسدة التى يخافها باحتمال المفسدة التى شكى منها. وأجاب أبو عبيدة عنه بأنها كانت لا تَرُدّ يدَ لامس يطلب منها العطاء، فكانت لا ترد يد من سألها شيئًا من مال الزوج، ورد عليه هذا التأويل بأنه لا يقال لطالب العطاء لامس وإنما يقال له ملتمس. وأجابت طائفة أخرى عنه بأن طرآن[٢] المعصية على النكاح لا توجب فساده. وقال النسائى: هذا الحديث مُنكر. وعندى أن له وجهًا غير هذا كلّه، فإن الرجل لم يَشْكُ من المرأة أنها تزنى بكل من أراد ذلك منها، ولو سأل عن ذلك لما أقرّه رسول الله ﷺ على أن يقيم مع بغى ويكون زوج بغى ديُّوثًا[٣]، وإنما شكى إليه أنها لا تجذب نفسها ممن لاعبها ووضع يده عليها أو جذب ثوبها ونحو ذلك، فإن من النساء من تلين عند الحديث واللعب ونحوه، وهى حصان[٤] عفيفةٌ إذا أريد منها الزنى، وهذا كان عادة كثير من نساء العرب ولا يعدون ذلك عيبًا، بل كانوا فى الجاهلية يرون للزوج النصف الأسفل وللعشيق النصف الأعلى.

---

(١) منكر: رواه النسائى (٣/ ٣٧٩) والبغوى فى «شرح السنة» (٩/ ٢٨٨).

(٢) طرآن: حدوث.

(٣) الديوث: الذى لا يغار على عرضه.

(٤) حصان: هذه صيغة مبالغة من محصنة، والمحصنة: العفيفة الطاهرة.

فللحبِّ ما ضَمَّت عليه نقابها ... وللبَعْلِ ما ضُمَّت عليه المآزرُ[١]

والمقصود أن القوم كانوا مع العاشق على معشوقه إذا كان يُباح له وصاله، وسنذكر ذلك في باب «مساعدة العشاق بالمباح من التلاق» إن شاء الله تعالى.

وأما ما ذكروا عن شيوخ المعتزلة وشيوخ الواسطيّين، فأما أبو عثمان المذكور وهو عمرو بن عبيد، وواصلٌ وهو واصلُ بن عطاء، وهما شيخا القوم ولو أفتيا بذلك لكانت فتيا من مبتدعين مذمومين عند السَّلف والخَلَف، فكيف والمخبر بذلك رجل مجهول من المعتزلة كذب على من يعظمهما المعتزلة لينفق فِسْقَه؟.

وأما قصة محمد بن داود الأصبهاني فغايتها أن تكون من سعيه المغفوّ المغفور، لا من عمله المشكور، وسلّط الناس بذلك على عرضه، والله يغفر لنا وله، فإنه تعرّض بالنظر إلى السقم الذي صار به صاحبَ فراش، وهذا لو كان ممن يُباح له لكان نقصًا وعيبًا، فكيف من صبي أجنبي؟ وأرضاه الشيطان بحبه والنظر إليه عن مواصلته، إذا لم يطمع في ذلك منه، فنال منه ما عرف أن كيده لا يتجاوزه وجعله قدوة لمن يأتم به بعده كأبي محمد بن حزم الظاهري وغيره، وكيد الشيطان أدق من هذا.

وأما أبو محمد فإنه على قدر يبسه وقسوته في التمسك بالظاهر وإلغائه للمعاني والمناسبات والحِكَمَ والعِلَل الشرعية انماع[٢] في باب العشاق والنظر وسماع الملاهي المحرمة، فوسع هذا الباب جدًا وضيّق باب المناسبات والمعاني والحكم الشرعية جدًا، وهو من انحرافه في الطرفين حين ردّ الحديث الذي رواه البخاري في صحيحه في تحريم آلات اللهو بأنه معلّق غير مُسْنَد، وخَفِيَ عليه أن البخاري لقي من علّقه عنه وسمع منه، وهو هشام بن عمار، وخفي عليه أن الحديث قد أسنده غير واحد من أئمة الحديث غير هشام بن عمار، فأبطل سُنّةً صحيحةً ثابتةً عن رسول الله ﷺ لا مَطْعَنَ فيها بوجه[٣]، وأما من حاكمتمونا إليه وهو شيخ الإسلام ابن تيمية فنحن راضون بحكمه، فأين أباح لكم النظر المحرم وعشق المردان والنساء الأجانب؟ وهل هذه إلا كذبٌ ظاهر عليه؟ وهذه تصانيفُه وفتاواه كلهًا ناطقة بخلاف ما حكيتموه عنه؟ وأما الفُتْيا التي حكيتموها فكذب عليه لا تناسب كلامه بوجه، ولولا الإطالة لذكرناها جميعها حتى يعلم الواقف عليها أنها لا تصدُر عمن دونه فضلاً عنه، وقلت لمن أوقفني عليها: هذه كذب عليه لا يشبه كلامه،

---

(١) **المآزر**: ما بين الفخذين. (٢) **انماع**: أي ذاب.

(٣) **صحيح**: رواه البخاري (٥٥٩٠) معلقًا بصيغة الجزم.

وكان بعض الأمراء قد أوقفنى عليها قديمًا وهى بخط رجل متهم بالكذب، وقال لى: ما كنت أظن الشيخ برقة هذه الحاشية، ثم تأملتها فإذا هى كذبٌ عليه، ولولا الإطالة لذكرنا من فتاويه ما يبين أن هذه كذب، وأما ما ذكرتم من مسألة التزام أدنى المفسدتين لدفع أعلاهما، فنحن لا ننكر هذه القاعدة، بل هى من أصحّ قواعد الشريعة، ولكن الشأن فى إدخال هذه الصورة فيها. بل نحاكمكم إلى هذه القاعدة نفسها، فإن احتمال مفسدة ألم الحبّ مع غضّ البصر وعدم تقبيل المحبوب وضمّه ونحو ذلك أقلُّ من مفسدة النظر والتقبيل، فإن هذه المفسدة تَجُرُّ إلى هلاك القلب وفساد الدين، وغايةُ ما يُقَدَّر من مفسدة الإمساك عن ذلك سقمُ الجسد أو الموتُ تفاديًا عن التعرض للحرام، فأين إحدى المفسدتين من الأخرى؟ عَلَى أن النظر والقُبلة والضم لا يمنع السقم والموت الحاصل بسبب الحبّ، فإن العشق يزيد بذلك ولا يزول.

فما صبابةُ مشتاق عَلَى أمَلٍ   من الوصال كمشتاق بلا أمل

ولا ريب فى أن محبة من له طمع أقوى من محبة من يئس من محبوبه، ولهذا قال الشاعر:

وأبرحُ ما يكون الحبّ يومًا   إذا دَنَت الدِّيارُ من الدِّيارِ

فإن قيل: فقد أباح الله سبحانه للمضطر الميتة والدم ولحم الخنزير(١)، وتناولها فى هذه الحال واجبٌ عليه. قال مسروق والإمام أحمد، رحمهما الله تعالى: من اضطر إلى أكل الميتة فلم يأكل فمات دخل النار(٢)، فغاية النظرة والقُبْلة والضمَّة أن تكون محرَّمة، فإذا اضطر العاشق إليها فإن لم تكن واجبة فلا أقل من أن تكون مباحة، فهذا قياسٌ واعتبار صحيح، وأين مفسدة موت العاشق إلى مفسدة ضمّة ولثمة؟ **فالجواب**: أن هذا يتبين بذكر قاعدة، وهى أن الله سبحانه وتعالى لم يجعل فى العبد اضطرارًا إلى الجماع بحيث إن لم يفعله مات، بخلاف اضطراره إلى الأكل والشرب واللباس، فإنه من قوام البدن الذى إن لم يباشره هلك، ولهذا لم يُبح من الوطء الحرام ما أباح من تناول الغذاء والشراب المحرم، فإن هذا من قبيل الشهوة واللذة التى هى تتمة وفضلة، ولهذا يمكن الإنسان أن يعيش طول عمره بغير تزوج وغير تَسَرّ(٣)، ولا يمكنه أن يعيش بغير طعام ولا شراب، ولهذا أمر

---

(١) **الخنزير**: حيوان داجن من الفصيلة الخنزيرية، الجمع: خنازير.
(٢) **موقوف**: رواه البيهقى فى «الكبرى» (٩/ ٣٥٧).
(٣) **تسر**: التسرى يقال: تسرى الرجل: إذا اتخذ جارية يتسرى بها، أى: يتمتع بها، والجمع سرارى.

النبى ﷺ الشباب أن يداووا هذه الشهوة بالصوم، وقال تعالى عن عشَّاق الْمُرْدان: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ﴾ (النمل: ٥٥) وفيها: ﴿أَئِنَّكُمْ﴾ فاخبر أن الحامل على ذلك مجرد الشهوة لا الحاجة فضلاً عن الضرورة، والشهوة المجردة لا تلتحق بالضروريات ولا بالحاجات، والحِمْيَةُ عنها خشيةَ إفضائها[١] إلى مرض أصعب منها جار مجرى الحمية عن تناول ما يضر من الأطعمة والأشربة، وذلك لا تدعو الضرورة إلى تناوله وإن كانت النفس قد تشتهيه فالقبلة والنظر والضم ونحوها جار مجرى تناول الفاكهة المضرَّة والزفرة المضرة للمحموم ومن به مرض يضره معه تناولُ ذلك، فإذا قال المريض: أنا إن لم أتناول ذلك وإلا خشيت الموت لم يكن صادقًا فى قوله، وإنما الحامل له على ذلك مجرد الشهوة، وربما زاد تناول ذلك فى مرضه، فالطبيب الناصح لا يفسح له فيه، فكيف يفسح الشارع الحكيم الذى شريعته غاية طب القلوب والأديان وبها تحفظ صحتها وتدفع موادها الفاسدة فى تناول ما يزيد الداء ويقويه ويمده ؟ هذا من المحال، بل الشريعة تأمر بالحمية عن أسباب هذا الداء خوفًا من استحكامه وتولد داءٍ آخر أصعب منه.

وأما مسألة من خاف تشقُّق أُنْثَيَيْه وأنه يباح له الوَطْءُ فى رمضان، فهذا ليس على إطلاقه، بل إن أمكنه إخراج مائه بغير الوطء لم يجز له الوطء بلا نزاع، وإن لم يمكنه ذلك إلا بالوطء المباح فإنه يجرى مجرى الإفطار لعذر المرض ثم يقضى ذلك اليوم، والإفطار بالمرض لا يتوقف على خوف الهلاك، فكيف إذا خاف تلف عضو من أعضائه القاتلة، بل هذا نظير من اشتد عطشه وخاف إن لم يشرب أن يحدث له داء من الأدواء، أو يتلف عضو من أعضائه، فإنه يجوز له الشرب ثم يقضى يومًا مكانه. **فإن قيل**: فلو اتفق له ذلك ولم يكن عنده إلا أجنبية هل يباح له وطؤها لئلا تتلف أنثياه؟ **قيل**: لا يباح له ذلك، ولكن له أن يخرج ماءه باستمنائه، فإن تعذر عليه فهل يجوز له أن يمكنها من استخراج مائة بيدها؟ هذا فيه نظر، فإن أبيح جرى مجرى تطبيب المرأة الأجنبية للرجل ومسها منه ما تدعو الحاجة إلى مَسِّه. وكذلك تطبيب الرجل للمرأة الأجنبية ومَسُّه ما تدعو الحاجة إليه والله أعلم.

وقد سئل أبو الخطاب محفوظ بن أحمد الكَلْوَذانى[٢] فى رقعة:

---

(١) إفضائها: إيصالها ووقوعها فى الحرام.

(٢) هو الشيخ العلامة أبو الخطاب محفوظ بن أحمد الكلوذانى البغدادى، شيخ الحنابلة، ولد سنة (٤٣٢ هـ) من مصنفاته كتاب: «المسائل» توفى سنة (٥١٠ هـ).

قل لأبى الخطاب نجم الهُدى ... وقُدْوةِ العالم فى عصره
لا زلت فى فتواك مستأمنًا ... من خُدع الشيطان أو مكره
ماذا ترى فى رَشَإٍ أغْيَد[١] ... حاز اللَّمى والدُّرَّ فى ثغره[٢]
لم يَحْكِ بدر التّمَّ فى حُسْنه ... حتى حكى الزُّنبورَ فى حُضْره[٣]
فهل يُجيز الشرعُ تقبيلَه ... لمستهامٍ خاف من وِزْره
أم هل عَلَى المشتاق فى ضمِّه ... من غير إدناءٍ إلى صدره
إثمٌ إذا ما لم يكن مضمِرًا ... غيرَ الذى قدَّم من ذكره

فأجاب:

يا أيها الشيخُ الأديب الذى ... قد فاق أهل العصر فى شعره
تسأل عن تقبيل بدرِ الدُّجى ... وعَطْفِ زَنْدَيْك[٤] عَلَى نحره
هل ورد الشرعُ بتحليله ... لمستهامٍ خاف من وِزْرِه
من قارف الفتنة ثم ادعى الـ ... ـعصمة قد نافق فى أمره
هل فتنةُ المرء سوى الضمّ والتْـ ... ـتَقبيل للحِبِّ عَلَى ثغره
وهل دواعى ذلك المشتهَى ... إلا عناقُ البدر فى خِدْره[٥]
وبذْلُه ذاك لمشتاقه ... يزرى عَلَى هاروتَ فى سِحْره
ولا يُجيزُ الشرعُ أسبابَ ما ... يُورِّط المسلمَ فى حَظْره
فانجُ ودع عنك صُدَاع الهوى ... عساك أن تسلمَ من شرِّه
هذا جوابُ الكَلْوَذَانِىِّ قد ... جاءك يرجو اللهَ فى أجره

فهذا جواب أهل العلم، وهو مطابق لما ذكرناه، والله تعالى أعلم.

وسئل الإمام أبو الفرج بن الجوزى، رحمه الله، بأبيات:

يا أيها العالمُ ماذا ترى ... فى عاشقٍ ذاب من الْوَجْدِ[٦]
من حبِّ ظبيٍ أغيدٍ أهيفٍ[٧] ... سهلِ المُحْيَّا حسنِ القدّ

---

(١) رشا: ولد الظبى.

(٢) ثغره: الثغر: الفم.

(٣) بدر التم: القمر ليلة البدر، حضره: قفز وهو يجرى.

(٤) الدجى: الظلمة، زنديك: قاطع الذبيحة.

(٥) خدره: الخدر: ستر الجارية وهى فى بيتها.

(٦) الوجد: العشق.

(٧) أهيف: يقال: امرأة هيفاء، أى: ضمرة البطن، دقيقة الخصر.

فهل ترى تقبيلَه جائزاً ... فى الفمِ والعينين والخدْ
من غير ما فُحْشٍ ولا ريبةٍ ... بل بعناقٍ جائزِ الحدّ
إن كنت ما تفتى فإنى إذاً ... أصيح من وجدى وأستعدى

فكتب ـ رحمه الله تعالى ـ الجواب:

يا ذا الذى ذاب من الوَجْد
وظل فى ضُرٍّ وفى جَهْدِ
اسمع فدتك النفس من ناصحٍ
بنصحه يَهْدِى إلى الرُّشْدِ
لو صحّ منك العشقُ ما جئتنى
تسألنى عنه وتستعدِى
فالعاشقُ الصادقُ فى حبه
ما باله يسأل ما عندى
غَيَّبه العشقُ فما إن يُرى
يُعيدُ فى العشقِ ولا يُبدى
وكلٌّ ما تذكر مستفتياً
حرّمه اللهُ عَلَى العبدِ
إلا لما حلّه ربُّنا
فى الشرع بالإبرام والعَقْدِ
فعَدٌّ من طُرْق الهوى مُعْرِضاً
وقف بباب الواحدِ الفَرْدِ
وَسَلْه يَشفيك ولا يبتلى
قلبَك بالتعذيب والصَّدٌّ
وعِفٌّ فى العشقِ ولا تُبْدِهِ
وَاصْبِرْ وكاتمْ غَايةَ الْجُهْدِ
فإن تَمُتْ محتسباً صابراً
تفز غداً فى جنة الخلدِ

الباب العاشر:

فى ذكر حقيقة العشق وأوصافه وكلام الناس فيه

فالذى عليه الأطباء قاطبةً أنه مرض وَسْوَاسى شبيهٌ بالماليخوليا، يَجْلِبُهُ المرء إلى نفسه بتسليط فكره على استحسان بعض الصُّور والشمائل، وسببه النفسانى الاستحسان والفكر، وسببه البدنى ارتفاع بخار ردىء إلى الدماغ عن منى محتقن، ولذلك أكثر ما يعترى العزاب، وكثرة الجماع تزيله بسرعة.

وقال بعض الفلاسفة: العشق طمع يتولد فى القلب ويتحرك وينمى، ثم يتربى ويجتمع إليه مواد من الحرص، وكلما قوى ازداد صاحبه فى الاهتياج واللجاج والتمادى فى الطمع والحرص على الطلب، حتى يؤديه ذلك إلى الغم والقلق، ويكون احتراق الدم عند ذلك باستحالته إلى السوداء والتهاب الصفراء وانقلابها إليها. ومن غلبة السوداء يحصُلُ له فساد الفكر، ومع فساد الفكر يكون زوال العقل ورجاء ما لا يكون وتمنِّى ما لا يتم حتى يؤدى إلى الجنون، فحينئذ ربما قتل العاشق نفسه، وربما مات غمًّا، وربما نظر إلى معشوقه، فمات فرحًا، وربما شهق شهقة فتختنق روحه فيبقى أربعة وعشرين ساعة فيظن أنه قد مات، فيدفن وهو حى، وربما تنفس الصعداء فتختنق نفسه فى تامور[١] قلبه، وينضم عليها القلب ولا ينفرج حتى يموت، وتراه إذا ذكر له من يهواه هرب دمه واستحال لونه، وقال أفلاطون: العشق حركة النفس الفارغة، وقال أرسطاطاليس[٢]: العشق عمى الحس عن إدراك عيوب المحبوب. ومن هذا أخذ جرير[٣] قوله:

فلسـت براءٍ عـيـبَ ذى الودِّ كلّـه ... ولا بعضَ مـا فـيـه إذا كنت راضـيـا

فعينُ الرِّضى عن كلِّ عيبٍ كَليلَةٌ[٤] ... ولكنَّ عينَ السُّخط تُبْدِى المساويا

وقال أرسطو: العشق جهلٌ عارضٌ صادف قلبًا فارغًا لا شُغْل له من تجارة ولا صناعة.
وقال غيره: هو سوء اختيار صادف نفسًا فارغة.

---

(١) تامور: التامور: علقة القلب ودمه.
(٢) فيلسوف يونانى صاحب المنطق، وهو أستاذ أفلاطون صاحب المدينة الفاضلة.
(٣) هو: أبو حرزة جرير بن الخطفى البصرى، من أشعر شعراء عصره، وشعره فى الذروة، توفى سنة (١١٠ هـ).
(٤) كليلة: متعبة.

قال قيس بن الملوح(١):

أتانى هواها قبل أن أعرف الهوى ... فصادف قلبًا خاليًا فتمكّنا

وقال بعضهم: لم أرَ حقًّا أشبه بباطل، ولا باطلاً أشبه بحق من العشق، هزله جد، وجده هزل، وأوله لعب، وآخره عطب.

وقال الجاحظ: العشق اسم لما فضل عن المحبة، كما أن السرف اسم لما جاوز الجود، والبخل اسم لما جاوز الاقتصاد، فكل عشق يسمى حبًّا، وليس كل حب يسمى عشقًا، والمحبة جنس والعشق نوع منها، ألا ترى أن كل محبة شوق، وليس كل شوق محبة؟

وقالت فرقة أخرى: العشق هو الاستهيام(٢) والتضرع واللوذان(٣) بالمعشوق، والوَجْدُ هو الحب الساكن، والهوى أن يهوى الشيء فيتبعه، غيًّا كان أو رشدًا، والحب حرف ينتظم هذه الثلاثة، وقال المأمون ليحيى بن أكثم(٤): ما العشق؟ فقال: سوانحُ تسنح للمرء فيهيم بها قلبُه وتؤثرُها نفسُه. فقال له ثُمَامَةُ بن أشرس(٥): اسكت يا يحيى، إنما عليك أن تجيب فى مسألة طلاق، أو مُحْرِمٍ صاد ظبيًا، فأما هذه فمن مسائلنا نحن، فقال له المأمون: قل يا ثمامة، قال: العشق جليس ممتع، وأليف مؤنس، وصاحب ملك مسالكه لطيفة ومذاهبه غامضة وأحكامه جارية، ملك الأبدان وأرواحها والقلوب وخواطرها والعقول وآراءها، قد أعطى عنان طاعتها، وقوة تصرفها توارى عن الأبصار مدخله، وعمى فى القلوب مسلكه، فقال له المأمون: أحسنت يا ثمامة، وأمر له بألف دينار.

وقال بعضهم: قلت لمجنون قد أذهب عقله العشق: أجزْ هذا البيت:

ومَا الحبُّ إلا شعلةٌ قَدَحَتْ بها ... عيونُ المَهَا باللحظ بين الجوانح

فقال بديهًا:

ونارُ الهوى تخفى وفى القلب فعلُها ... كفعل الذى جاءت به كفٌّ قادح

---

(١) هو: بخترى بن الجعد من بنى كعب بن سعد، صاحب القصائد التى تذكر حبه وهيامه لليلى بنت مهدى العامرية، فكان يسمى مجنون ليلى.

(٢) الاستهيام: جنون العشق والحب.

(٣) اللوذان: اللوذ: الحمى والملجأ.

(٤) هو: القاضى الفقيه أبو محمد التميمى المروزى يحيى بن أكثم بن محمد بن قطن، ولد فى خلافة المهدى، وتوفى سنة (٢٤٢ هـ).

(٥) هو العلامة أبو معنى النميرى البصرى من رءوس المعتزلة، جمع بين رقة الدين والاستهزاء بالإسلام ونبيه ﷺ، انظر «الفرق بين الفرق» (١١٤).

وقال الأصمعي(١): سألت أعرابيًا عن العشق فقال: جلَّ والله عن أن يُرَى، وخفي عن أبصار الورى، فهو في الصدور كامن(٢) ككمون النار في الحجر، إن قدح أورى(٣)، وإن ترك توارى، وقال بعضهم: العشق نوع من الجنون، والجنون فنون، فالعشق فن من فنونه. واحتج بقول قيس:

قالوا جننتَ بمن تهوى فقلتُ لهم ... العشقُ أعظمُ مما بالمجانين
العشقُ لا يستفيق الدهرَ صاحبُه ... وإنما يُصْرَع المجنونُ في الحين

وقال آخر: إذا امتزجت جواهر النفوس بوصف المشاكلة أنتجت لمح نور ساطع تستضيءُ به النفس في معرفة محاسن المعشوق فتسلك طريق الوصول إليه، وقال أعرابي: العشق أعظم مسلكًا في القلب من الروح في الجسم، وأملك بالنفس من ذاتها، بطن وظهر فامتنع وصفُه عن اللسان، وخَفِيَ نعتُه عن البيان فهو بين السِّحر والجنون، لطيفُ المسلك والكُمون.

وقيل: العشق مَلِكٌ غشومٌ(٤)، مسلط ظلوم، دانت له القلوب، وانقادت له الألباب، وخضعت له النفوس. العقل أسيره، والنظر رسوله، واللحظ لفظه، دقيق المسلك، عسير المخرج، وقيل لآخر: ما تقول في العشق؟ فقال: إن لم يكن طَرَفًا من الجنون فهو نوع من السحر.

وأما الفلاسفة المشّاءُون(٥): فقالوا: هو اتفاق أخلاق، وتشاكل مَحَبَّاتٍ وتجانُسُها، وشوقُ كل نفس إلى مشاكلها ومجانسها في الخلقة القديمة قبل إهباطها إلى الأجساد.

قلت: هذا مبني على قولهم الفاسد بتقدم النفوس على الأبدان، وعليه بنى ابنُ سينا(٦) قصيدتَه المشهورة:

* هَبَطَتْ إليك من المحلِّ الأرفَعِ *

وسمعت شيخنا يحكي عن بعض فضلاء المغاربة وهو جمال الدين بن الشريشي شارحُ المقامات أنه كان ينكر أن تكون هذه له، قال: وهي مخالفة لما قرره في كتبه من أن

---

(١) تقدمت ترجمته. (٢) كامن: كمن في المكان كمونًا: توارى، المعجم الوجيز (٥٤١).
(٣) قدح أورى: يقال: قدح بالزند قدحًا: ضرب به حجره لتخرج النار منه، المعجم الوجيز (٤٩١).
(٤) غشوم: من الغشم: وهو الذي يأخذ ولا يعطي.
(٥) المشاءُون: هم تلامذة أرسطوطاليس، كان يعلمهم وهم مشاة، فسموا بالمشائين.
(٦) هو: أبو علي الحسين بن عبد الله بن الحسن بن علي بن سينا البلخي، صاحب كتاب «القانون في الطب» يعرف باسم الشيخ الرئيس، توفي سنة (٤٢٨ هـ).

حدوث النفس الناطقة مع البدن، **وقال آخرون فى وصفه**: دق عن الأفهام مسلكه، وخفى عن الابصار موضعه، وحارت العقول فى كيفية تمكنه، غير أن ابتداء حركته وعظم سلطانه من القلب، ثم يتغشى[١] سائر الأعضاء فيبدى الرعدة فى الأطراف، والصفرة فى الألوان، والضعفَ فى الرأى، واللجلجة فى الكلام، والزلل والعثار، حتى ينسب صاحبه إلى الجنون، وقيل لأبى زهير المدينى: ما العشق ؟ قال: الجنون والذلّ وهو داء أهل الظرف، ونظر عاشق إلى معشوقه فارتعدت فرائصه وغشى عليه، فقيل لحكيم: ما الذى أصابه؟ فقال: نظر إلى من يحبه فانفرج له قلبه فتحرك الجسم بانفراج القلب. فقيل له: نحن نحبُّ أولادنا وأهلنا ولا يصيبنا ذلك، فقال: تلك محبة العقل وهذه محبة الروح، قال:

ومـــا هو إلا أن يَراها فُـــجَـــاءةً ... فتصطكُّ[٢] رجلاه ويسقطَ للجَنْبِ

وقال: العشقُ ملكٌ مسلط على قهر النفوس وأسر القلوب، قال الشاعر:

مَلَكَ القلوبَ فـأصـبـحت فى أسـره ... وبودِّهـا أن لا يُفَـكَّ إسـارُهـا

وقال أعرابى فى وصفه: بالقلب وَثْبَتُه، وبالفؤاد وَجْبَتُه[٣]، وبالاحشاء ناره، وسائر الأعضاء خدامه، فالقلب من العاشق ذاهل، والدمع منه هامل[٤]، والجسم منه ناحل، مرور الليالى تجدده، وإساءة المحبوب لا تفسده.

وقيل: ليس هو موقوفًا على الحسن والجمال، وإنما هو تشاكل النفوس وتمازجها فى الطباع المخلوقة فيها كما قيل:

وما الْحبُّ منْ حسْنٍ ولا من مَلاحة ... ولكنـه شـىءٌ به الـروحُ تَكْلَـف

وقيل: أوّل العشق عناء وأوسطه سقم، وآخره قتل. كما قال ابن الفارض[٥] رحمه الله:

هو الحب فاسْلَمْ بالحشا ما الهوى سهل
فـمـا اخـتـاره مُـضْنًى به وله عَـقْلُ
وعشْ خـاليًـا فـالحـبُّ أوَّله عنـى[٦]
وأوْسَطُه سُـقْـمٌ وآخـرُه قـتْـلُ

---

(١) يتغشى: يعم ويحيط.
(٢) تصطك: ترتجف.
(٣) وجبته: اضطرابه وخفقانه.
(٤) هامل: مسكوب.
(٥) هو أبو حفص عمر بن أبى الحسن على بن المرشد الحموى، ولد وعاش ومات فى مصر، من الصوفية المنسوبين إلى الاتحاد، وذكره الإمام الذهبى فى «ميزان الاعتدال» حط من شانه، توفى سنة (٦٣٣ هـ).
(٦) عنى: سقم وألم: سقم: مرض.

الباب الحادي عشر:

في العشق هل هو اضطراري خارج عن الاختيار
أو أمر اختياري واختلاف الناس في ذلك وذكر الصواب فيه

فنقـــول: اختلف الناس في العشق هل هو اختياري أو اضطراريّ خارج عن مقدور البشر؟ فقالت فرقة: هو اضطراري وليس باختياري، قالوا: وهو بمنزلة محبة الظمآن للماء البارد، والجائع للطعام، وهذا مما لا يملك.

قال بعضهم: والله لو كان لي من الأمر شيء ما عذبت عاشقًا، لأن ذنوب العشاق اضطرارية، فإذا كان هذا قوله فيما تولد عن العشق من فعل اختياري فما الظن بالعشق نفسه؟ وقال أبو محمد بن حزم: قال رجل لعمر بن الخطاب ﷺ: يا أمير المؤمنين، إني رأيت امرأةً فعشقتها، فقال عمر: ذاك مما لا يملك.

وقال كامل في سَلْمى:

يلومونني في حُبِّ سَلْمى كأنما	يَرَوْنَ الهوى شيئًا تَيَمَّمْتُهُ[١] عَمْدا
ألا إنما الحبُّ الذي صَدَّعَ الحشا	قضاءٌ من الرحمن يَبْلو به العَبْدا

وقال التميمي[٢] في كتاب «امتزاج الأرواح»: سئل بعض الأطباء عن العشق فقال: إن وقوعه بأهله ليس باختيار منهم، ولا بحرصهم عليه، ولا لذة لأكثرهم فيه، ولكن وقوعه بهم كوقوع العِلَل المدنفة. والأمراض المُتلفة، لا فرق بينه وبين ذلك. وقال المدائني: لام رجلٌ رجلاً من أهل الهوى فقال: لو صح لذي هوى اختيار لاختار أن لا يهوى.

ويدل على ذلك من السُّنَّة ما رواه البخاري في صحيحه من قصة بريرة أن زوجها كان يمشي خلفها بعد فراقها له، وقد صارت أجنبية منه، ودموعه تسيل على خديه، فقال النبي ﷺ: «يا عَبَّاسُ ألا تَعْجَبُ مِنْ حُبِّ مُغيث بَريرَةَ، وَمِنْ بُغْضِ بَريرَةَ مُغيثًا»؟ ثم قال لها: «لَوْ رَاجَعْتيه» فقالت: أتأمُرُني؟ فقال: «إنَّمَا أنَا شَافِعٌ» قالت: لا حَاجَةَ لي فيه[٣]. ولم

---

(١) تيممته: يقال: يمم إلى القاهرة: قصد واتجه.

(٢) هو: القاضي أبو عبد الله محمد بن عيسى بن حسن التميمي المغربي السبتي المالكي، عاش سبعًا وسبعين عامًا، وتوفى سنة (٥٠٥ هـ).

(٣) صحيح: رواه البخاري (٥٢٨٣) وأحمد (١/ ٢١٥) وأبو داود (٢٢٣١) والنسائي (٤/ ٦٣١) وابن ماجه (٢٠٧٥).

ينهه عن عشقها في هذه الحال، إذ ذلك شيءٌ لا يملك ولا يدخل تحت الاختيار. وقال جامع:

سألت سعيدَ بن المسيَّب مفتيَ الـ ـمدينة هل في حبّ دَهْمَاءَ مِنْ وِزْرِ
فقال سعيدُ بن المسيِّب إنما يلام على ما يُسْتطاع من الأمر

قالوا: والعشقُ نوع من العذاب، والعاقل لا يختار عذاب نفسه، وفي هذا قال المؤمل:

شَفَّ المُؤَمَّلَ يومَ الْحِيرَةِ النظرُ ليت المؤمَّلَ لم يُخْلَق له بَصَرُ
يكفى المحبّين في الدنيا عذابُهم والله لأعَذِّبَنَّهُمْ بعدها سَقَرَ [(١)]

فيقال: إنه عمي بعد هذا.

وقال آخر: ليس الهوى إلى الرأي فيملكه، ولا إلى العقل فيدركه، ثم أنشد:

ليس خَطْبُ الهوى بخطبٍ يسير لا يُنَبِّيكَ عنه مثلُ خبير
ليس أمرُ الهوى يُدبَّر بالرأ ى ولا بالقياس والتفكير
إنما الأمرُ في الهوى خطَرَاتٌ مُحْدثَاتُ الأمور بعد الأمور

وقال القاضي أبو عمر محمد بن أحمد بن محمد بن سلمان النُّوقَاتي [(٢)] في كتابه «محنة الظراف»: العشاق معذورون على الأحوال، إذ العشق إنما دهاهم [(٣)] عن غير اختيار، بل اعتراهم عن جبر واضطرار، والمرء إنما يلام على ما يستطيع من الأمور، لا على المقضي عليه والمقدور. فقد قيل: إن الحامل كانت ترى يوسف - عليه الصلاة والسلام - فتضع حملها، فكيف ترى هذه وضعته؟ أباختيار كان ذلك أم باضطرار؟ قال غيره: وهؤلاء النسوة قطعن أيديهن لما بدا لهن حسن يوسف عليه السلام وما تمكن حبه من قلوبهن، فكيف لو شغفن حبًّا [(٤)]؟.

وكان مصعب بن الزبير إذا رأته المرأة حاضت لحسنه وجماله. قال فيه الشاعر:

إنما مُصْعَبٌ شهابٌ من اللـ
ـه تجلَّت عن وجهه الظلماء

---

(١) سقر: من أسماء النار.

(٢) هو: أبو عمر محمد بن أحمد بن محمد بن سليمان النوقاتي السجستاني، الحافظ الأديب، توفي سنة (٣٩٩ هـ).

(٣) دهاهم: يقال: دهمه الأمر: أي فجاءه، المعجم الوجيز (٢٣٦).

(٤) شغفن حبًّا: أي لمس حبه شغاف القلب، وشغاف القلب: جداره الداخلي.

ومن ههنا أخذ أحمد بن الحسين الكندى المتنبى قوله :

تَـقِ اللهَ واسـتُـرْ ذا الجـمـالَ ببُـرْقُعٍ

فإن لُحْتَ حاضت فى الخدور العواتق[١]

فإذا كان هذا من مجرد الرؤية فكيف بالمحبة التى لا تُملك؟ وقال هشام بن عروة عن أبيه : مات بالمدينة عاشق فصلى عليه زيد بن ثابت، فقيل له فى ذلك فقال : إنى رحمته. ورؤى أبو السائب المخزومى[٢] - وكان من العلم والدين بمكان - متعلقًا بأستار الكعبة وهو يقول : اللهم ارحم العاشقين وقوِّ قلوبهم واعطف عليهم قلوب المعشوقين، فقيل له فى ذلك فقال : والله للدعاء لهم أفضل من عمرة من الجعرانة[٣] ثم أنشد :

يا هَجْرُ كُفَّ عن الهوى ودع الهوى	للعاشقين يطيبُ يا هَجْرُ
ماذا تريدُ من الذين جفونُهم	قَرْحى وَحَشْو قلوبهم جَمْرُ
مُتَبَلِّدين[٤] من الهوى ألوانهم	مما تُجِنُّ قلوبهم صُفْرُ
وسوابقُ العَبَرات فوق خدودهم	دررٌ تَفيض كأنها قَطْرُ

ويُذكَرُ أن النبى ﷺ مرّ بجارية تتغنّى :

هل علىَّ وَيْحكما	إن هَويتُ من حَرَج

فتبسَّم وقال : «لا حَرَجَ إن شاء الله»[٥].

قالوا : وقد فسر كثير من السلف قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ﴾ (البقرة : ٢٨٦) بالعشق. وهذا لم يريدوا به التخصيص، وإنما أرادوا به التمثيل وأن العشق من تحميل ما لا يُطاق. والمراد بالتحميل ههنا التحميل القدرى لا الشرعى الأمرى. قالوا : وقد رأينا جماعة من العشاق يطوفون على من يدعو لهم أن يعافيهم الله من العشق، ولو كان اختياراً لأزالوه عن نفوسهم. ومن ههنا يتبين خطأ كثير من العاذلين، وعذلهم فى هذه الحال بمنزلة عذل المريض فى مرضة، قال :

---

(١) العواتق : الشابات من النساء.

(٢) هو قاضى القضاة، أبو السائب عتبة بن عبد الله بن موسى الهمدانى الشافعى، توفى سنة (٣٥١هـ).

(٣) الجعرانة : مكان بين مكة والطائف، وهى أقرب إلى مكة منها إلى الطائف، وكانت منها عمرة النبى ﷺ فى السنة الثالثة بعد غزوة حنين والطائف.

(٤) متبلدين : يقال : بلد : سقط إلى الأرض من الضعف، المعجم الوجيز (٦٠).

(٥) موضوع : رواه الدارقطنى، كما فى «تنزيه الشريعة» (٢/ ٢٢٣/ ٣١) وقال ابن عراق : تفرد به حسين بن عبد الله، وهو متروك.

يا عـــاذلي والأمـــرُ في يـــده ... هلا عَـــذَلْتَ وفي يدى الأمـــرُ

وإنما ينبغى العذلُ قبل تعلُّق هذا الداء بالقلب، كما قيل فيه:

يُذكِّـرنى حم والرُّمحُ شـاجِـرٌ[1] ... فـهـلا تلاحـم قـبـل التـقـدُّم

وقالت فرقة أخرى: بل اختيارى تابع لهوى النفس وإرادتها، بل هو استحكام الهوى الذى مدح الله من نهى عنه نفسه فقال تعالى: ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴾ (النازعات: ٤٠، ٤١) فمحال أن ينهى الإنسان نفسه عما لا يدخل تحت قدرته.

قـــالوا: والعشق حركة اختيارية للنفس إلى نحو محبوبها، وليس بمنزلة الحركات الاضطرارية التى لا تدخل تحت قدرة العبد. قالوا: وقد ذم الله سبحانه وتعالى أصحاب المحبة الفاسدة الذين يحبون من دونه أندادًا، ولو كانت المحبة اضطرارية لما ذموا على ذلك. قالوا: ولأن المحبة إرادة قوية، والعبد يحمد ويذم على إرادته، ولهذا يحمد مريد الخير وإن لم يفعله، ويذم مريد الشر وإن لم يفعله. وقد ذم الله الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا، وأخبر أن لهم عذابًا أليمًا، ولو كانت المحبة لا تملك لم يتوعدهم بالعذاب على ما لا يدخل تحت قدرتهم. قالوا: والعقلاء قاطبة مطبقون[2] على لوم من يحب ما يتضرر بمحبته. وهذا فطرة فطر الله عليها الخلق، فلو اعتذر بأنى لا أملك قلبى لم يقبلوا له عذرًا.

فـــصل: وفصل النزاع بين الفريقين أن مبادئ العشق وأسبابه اختيارية داخلة تحت التكليف، فإن النظر والتفكر والتعرض للمحبة أمر اختيارى، فإذا أتى بالأسباب كان ترتب المسبب عليها بغير اختياره كما قيل:

تَـوَلَّـعَ[3] بالعـشق حتى عَـشِقْ ... فلـمـا اسـتـقلّ بـه لـم يُطِـقْ

رأى لُجَّـــةً[4] ظنَّـهـا مَـوْجَـةً ... فلـمـا تـمـكَّـن مـنـهـا غَـرِقْ

تَـمَنَّـى الإقـــالـةَ من ذَنبـه ... فلم يستطِعْـهـا ولم يَسْتَطِقْ[5]

---

(١) شاجر: يقال اشتجر الشيء: تداخل بعضه فى بعض.

(٢) مطبقون: متفقون.

(٣) تولع: أى ادعى الولع والعشق.

(٤) لجة: اللجة: معظم البحر وتردد أمواجه، والجمع لجج ولجاج، المعجم الوجيز (٥٥٣).

(٥) معنى البيت: أى لم يستطع مقاومة الحب، فلم يتب منه.

وهذا بمنزلة السكر من شرب الخمر، فإن تناول المسكر اختيارى، وما يتولد عنه السكر اضطرارى، فمتى كان السبب واقعًا باختياره لم يكن معذوراً فيما تولد عنه بغير اختياره، فمتى كان السبب محظوراً، لم يكن السكران معذوراً. ولا ريب أن متابعة النظر واستدامة الفكر بمنزلة شرب المسكر فهو يلام على السبب، ولهذا إذا حصل العشق بسبب غير محظور لم يلم عليه صاحبه، كمن كان يعشق امرأته أو جاريته ثم فارقها وبقى عشقها غير مفارق له، فهذا لا يلام على ذلك كما تقدم فى قصة بَرِيرَةَ ومغيث[١]. وكذلك إذا نظر نظرة فجاءة ثم صرف بصره وقد تمكن العشق من قلبه بغير اختياره، على أن عليه مدافعته وصرفه عن قلبه بضده، فإذا جاء أمر يغلبه فهناك لا يلام بعد بذل الجهد فى دفعه.

ومما يبين ما قلناه أن سكر العشق أعظم من سكر الخمر كما قال الله تعالى عن عشاق الصور من قوم لوط: ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ (الحجر: ٧٢) وإذا كان أدنى السكرين لا يعذر صاحبه إذا تعاطى أسبابه، فكيف يعذر صاحب السكر الأقوى مع تعاطى أسبابه؟ وإذ قد وصلنا إلى هذا الموضع فلنذكر بابًا فى «سكرة الحب» وسببها.

---

(١) تقدمت.

الباب الثانى عشر:

فى سـكرة العشـاق

ولا بدّ قبل الخوض فى ذلك من بيان حقيقة السكر، وسببه، وتولّده، فنقول: السُّكْر لذة يغيب معها العقل الذى يعلم به القول ويحصل معه التمييز، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ (النساء: ٤٣) فجعل الغاية التى يزول بها حكم السكران أن يعلم ما يقول، فمتى لم يعلم ما يقول فهو فى السكر، وإذا علم ما يقول خرج عن حكمه، وهذا هو حد السكران عند جمهور أهل العلم.

قيل للإمام أحمد بن حنبل، رحمه الله تعالى: بماذا يُعلم أنه سكران؟ فقال: إذا لم يعرف ثوبه من ثوب غيره، ونعله من نعل غيره. ويذكر عن الشافعى، رحمه الله تعالى، أنه قال: إذا اختلط كلامه المنظوم، وأفشى سره المكتوم، وقال محمد بن داود الأصفهانى: إذا عزبت عنه الهموم، وباح بسرّه المكتوم.

فالسُّكْر يجمع معنيين: وجود لذة، وعدم تمييز، والذى يقصد السكر قد يقصد أحدهما وقد يقصد كليهما، فإن النفس لها هوى وشهوات تلتذ بإدراكها، والعلم بما فى تلك اللذات من المفاسد العاجلة والآجلة يمنعها من تناولها، والعقل يأمرها بأن لا تفعل، فإذا زال العقل الآمر والعلم الكاشف انبسطت النفس فى هواها، وصادفت مجالاً واسعًا.

وحرَّم الله سبحانه وتعالى السكر لشيئين ذكرهما فى كتابه من قوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ (المائدة: ٩١)، فأخبرَ الله سبحانه أنه يوجب المفسدة الناشئة من النفس بواسطة زوال العقل، ويمنع المصلحة التى لا تتم إلا بالعقل.

وقد يكون سبب السُّكْر ألمًا كما يكون لذة. قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (١) يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ (الحج: ١، ٢).

وقد يكون سببه قوة الفرح بإدراك المحبوب بحيث يختلط كلامه، وتتغير أفعاله بحيث يزول عقله، وربما قتله الفرح بسبب طبيعى وهو انبساط دم القلب انبساطًا خارجًا عن العادة، والدم حامل الحار الغريزى فيبرُد القلب بسبب انبساط دمه فيحدث الموت.

وقد جرى هذا لأحمد بن طولون[1] أمير مصر فإنه مر بصياد في يوم بارد وعنده بُني له، فرقَّ عليهما، وأمر غلامه أن يدفع إليه ما معه من الذهب، فصبه في حجره ومضى، فاشتد فرحه به فلم يحتمل ما ورد عليه من الفرح فقضى مكانه، فعاد الأمير من شأنه فوجد الرجل ميتًا والصبي يبكي عند رأسه فقال: من قتله ؟ فقال: مرَّ بنا رجلٌ - لا جزاه الله خيرًا - فصب في حجر أبي شيئًا فقتله مكانه، فقال الأمير: صدق، نحن قتلناه، أتاه الغنى وهلةً واحدةً[2] فعجز عن احتماله فقتله، ولو أعطيناه ذلك بالتدريج لم يقتله، فحرض الصبي على أن يأخذ الذهب فأبى وقال: والله لا أمسك شيئًا قتل أبي.

والمقصود أن السكر يوجب اللذة ويمنع العلم، فمنه السكر بالأطعمة والأشربة، فإن صاحبها يحصل له لذة وسرور بها يحمله على تناولها لأنها تغيب عنه عقله فتغيب عنه الهموم والغموم والأحزان تلك الساعة، ولكن يغلط في ذلك فإنها لا تزول ولكن تتوارى، فإذا صحا عادت أعظم ما كانت وأوفره، فيدعوه عودها إلى العود.

كما قال الشاعر:

وكـــأسٍ شـــربتُ على لـذَّةٍ   وأخـــرى تداويت منهـــا بهـــا

ومن الناس من يقصد بها منفعة البدن وهو غالط، فإنه يترتب عليها من المضرة المتولدة عن السكر ما هو أعظم من تلك المنفعة بكثير، واللذة الحاصلة بذكر الله والصلاة عاجلاً وآجلاً أعظمُ وأبقى وأدفع للهموم والغموم والأحزان.

وتلك اللذة أجلب شيء للهموم والغموم عاجلاً وآجلاً، ففي لذة ذكر الله والإقبال عليه والصلاة بالقلب والبدن من المنفعة الشريفة العظيمة السالمة عن المفاسد الدافعة للمضار غنى وعوض، للإنسان الذي هو إنسان عن تلك اللذة الناقصة القاصرة المانعة لما هو أكمل منها، الجالبة لألمٍ أعظم منها.

فـصـل: ومن أسباب السُّكْر: حبُّ الصور، فإنه إذا استحكم الحبُّ وقويَ أسكر المحب، وأشعارُهم بذلك مشهورة كثيرةٌ ولا سيما إذا اتصل الجماع بذلك الحب، فإن صاحبه ينقص تمييزه أو يعدم في تلك الحالة بحيث لا يميز، فإن انضاف إلى ذلك السكر سكرُ الشراب بحيث يجتمع عليه سكر الهوى وسكرُ الخمر وسكر لذة الجماع فذلك غاية

---

(١) هو: أبو العباس أحمد بن طولون التركي، حكم مصر بالحديد والنار، ولد سنة (٢١٤ هـ) وحكم مصر وله من العمر أربعون سنة، ومات سنة (٢٧٠ هـ).

(٢) وهلة واحدة: دفعة واحدة.

السكر. ومنه ما يكون سببه حب المال والرئاسة وقوة الغضب، فإن الغضب إذ قوى أوجب سكرًا يقرب من سكر الخمر.

ويدخل ذلك فى الإغلاق الذى أبطل النبى ﷺ وقوع الطلاق فيه بقوله: «لا طَلاقَ فى إغْـلاق»[(١)] رواه أبو داود وقال: أظنه الغضب. وفسره الإمام أحمد بن حنبل -رحمه الله تعالى- أيضًا بالغضب.

ومما يدلّ على صحة ذلك قولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ (يونس: ١١) قال السلف فى تفسيرها: هو الرجل يدعو على نفسه وأهله فى وقت الغضب من غير إرادة منه لذلك، فلو استجاب الله دعاءه لأهلكه وأهلك من دعا عليه، ولكن لرحمته لما علم أن الحامل له على ذلك سكر الغضب لا يجيب دعاءه.

ومن هذا قول الواجد لراحلته بعد يأسه منها وإيقانه بالهلاك: اللهم أنت عبدى وأنا ربك، قال رسول الله ﷺ: «أخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ»[(٢)]، ولم يكن بذلك كافرًا لعدم قصده، وذكر النبى ﷺ ذلك تحقيقًا لشدة الفرح الذى أفضى به إلى ذلك. وإنما كانت هذه الأشياء قد توجب السكر لأن السكر سببه ما يوجب اللذّة القاهرة التى تغمر العقل، وسبب اللذة إدراك المحبوب، فإذا كانت المحبة قويّة وإدراك المحبوب قويًّا والعقل ضعيفًا حدث السكر، لكن ضعف العقل يكون تارة من ضعف المحبة وتارة من قوة السبب الوارد، ولهذا يحصُل من السكر للمبتدئين فى إدراك الرئاسة والمال والعشق والخمر ما لا يحصُل لمن اعتاد ذلك وتمكن فيه.

فصل: ومن أقوى أسباب السكر المُوجبَة له: سماع الأصوات المطربة من جهتين: من جهة أنها فى نفسها توجب لذة قوية ينغمر معها العقل، ومن جهة أنها تحرك النفس إلى نحو محبوبها كائنًا ما كان، فيحصل بتلك الحركة الشوق والطلب مع التخيل للمحبوب وإدناء صورته إلى القلب واستيلائها على الفكرة لذة عظيمة تقهر العقل، فتجتمع لذة الألحان ولذة الأشجان[(٣)]، ولهذا يقرن المعنيون بهذه اللذات سماع الألحان بالشراب

---

(١) حسن: رواه أحمد (٦/ ٢٧٦) وأبو داود (٢١٩٣) وابن ماجه (٢٠٤٦) وابن أبى شيبة (٧/ ٨٨/ ٣) والحاكم (٢/ ١٩٨) والبيهقى فى «الكبرى» (٧/ ٣٥٧) والدارقطنى (٤٤٠) وحسنه الألبانى فى «الإرواء» (٢٠٤٧).

(٢) صحيح: رواه البخارى (٦٣٠٩) ومسلم (٢٧٤٧).

(٣) الأشجان: يقال: شجن شجنًا: حزن، المعجم الوجيز (٣٣٦).

كثيراً ليكمل لهم السكر بالشراب والعشق والصوت المطرب، فيجدون من لذة الوصال وسكره في هذه الحال ما لا يجدونه بدونها.

فالخمر شراب النفوس، والالحان شراب الارواح، ولا سيما إذا اقترن بها من الأقوال ما فيه ذكر المحبوب ووصف حال المحب على مقتضى الحال التى هو فيها، فيجتمع سماع الأصوات الطيبة وإدراك المعانى المناسبة، وذلك أقوى بكثير من اللذة الحاصلة بكل واحد منها على انفراده، فتستولى اللذة على النفس والروح والبدن أتم استيلاء فيحدث غايةُ السكر. فكيف يدعى العذر من تعاطى هذه الأسباب ويقول: إن ما تولد عنها اضطرارى غير اختيارى، وبالله التوفيق.

الباب الثالث عشر:

فى أن اللذة تابعة للمحبة فى الكمال والنقصان

فكلما قويت المحبة قويت اللذة بإدراك المحبوب، وهذا الباب من أجلّ أبواب الكتاب وأنفعها. ونذكر فيه بيان معرفة اللذة وأقسامها ومراتبها فنقول:

أمــا اللذة: فـفسرت بأنها إدراك الملائم كما أن الألم إدراك المنافى. قال شيخنا: والصواب أن يقال: إدراك الملائم سبب اللذة، وإدراك المنافى سبب الألم، فاللذة والألم ينشآن عن إدراك الملائم والمنافى، والإدراك سبب لهما، واللذة أظهر من كل ما تعرف به فإنها أمر وجدانى، وإنما تعرف بأسبابها وأحكامها، واللذة والبهجة والسرور، وقرة العين، وطيب النفس، والنعيم، ألفاظ متقاربة المعنى، وهى أمر مطلوب فى الجملة، بل ذلك مقصود كل حى، وذلك أمر ضرورى من وجوده، وذلك فى المقاصد والغايات بمنزلة الحس والعلوم البديهية فى المبادئ والمقدّمات، فإن كل حى له علم وإحساس، وله عمل وإرادة، وعلم الإنسان لا يجوز أن يكون كله نظريًّا استدلاليًّا لاستحالة الدور والتسلسل، بل لا بد له من علم أوله بديهى يبده النفس ويتبدئ فيها، فلذلك يُسمى بديهيًّا وأوليًّا، وهو من نوع ما تُضطر إليه النفس ويسمى ضروريًّا. فإن النفس تضطر إلى العلم تارة وإلى العمل أخرى، وكذلك العمل الاختيارى المرادى له مراد، فلذلك المراد إما أن يُراد لنفسه أو لشىء آخر، ولا يجوز أن يكون كل مراد مراداً لغيره حذراً من الدور والتسلسل، فلا بد من مراد مطلوب محبوب لنفسه، فإذا حصل المطلوب المراد المحبوب فاقتران اللذة والنعمة والفرح والسرور وقرة العين به على قدر قوة محبته وإرادته والرغبة فيه، وذلك أمر ذوقى وجدى، ولهذا يغلب على أهل الإرادة والعمل من السالكين اسم الذوق والوجد لما فى وجود المراد المطلوب من الذوق والوجد الموجب للفرح والسرور والنعيم.

فههنا ثلاثة أنواع من الأسماء متقاربة المعانى:

أحدها: الشهوة والإرادة والميل والطلب والمحبة والرغبة ونحوها.

الثانى: الذوق والوجد والوصول والظفر والإدراك والحصول والنيل ونحوها.

الثالث: اللذة والفرح والنعيم والسرور وطيب النفس وقرة العين ونحوها.

وهذه الأمور الثلاثة متلازمة.

فصل: وإذا كانت اللذة مطلوبة لنفسها فهى إنما تُذَمُّ إذا أعقبت ألمًا أعظم منها أو منعت لذة خيرًا منها، وتُحْمَدُ إذا أعانت على اللذّة الدائمة المستقرة وهى لذة الدار الآخرة ونعيمها الذى هو افضل نعيم وأجله كما قال الله تعالى: ﴿وَلا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ۝٥٦ وَلأَجْرُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ (يوسف: ٥٦، ٥٧) وقال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾ (النحل: ٣٠) وقال تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۝١٦ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ (الأعلى: ١٦، ١٧) وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (العنكبوت: ٦٤) وقال العارفون بتفاوت ما بين الأمرين لفرْعون: ﴿فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۝٧٢ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ (طه: ٧٢، ٧٣) والله سبحانه وتعالى إنما خلق الخلقَ لدار القرار وجعل اللذة كلّها باسرها فيها، كما قال الله تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ﴾ (الزخرف: ٧١) وقال تعالى: ﴿فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ (السجدة: ١٧) وقال النبى ﷺ: «يقول الله تعالى: أعْدَدْتُ لعبَادى الصَّالحينَ مَا لا عَيْنٌ رَأَتْ وَلا أُذُنٌ سَمعَتْ وَلا خَطَرَ عَلَى قَلْب بَشَرٍ، بَلْهُ مَا اطلَعْتُم»[١]، أى غيرَ ما اطلعتم عليه، وهذا هو الذى قصده الناصح لقومه الشفيقُ عليهم حيث قال: ﴿يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ۝٣٨ يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾ (غافر: ٣٨، ٣٩) فاخبرهم أن الدنيا متاع يتمتع بها إلى غيرها، والآخرة هى المستقر والغاية.

فصل: وإذا عُرِفَ أن لذات الدنيا ونعيمها متاع ووسيلة إلى لذات الدار الآخرة ولذلك خُلقت، كما قال النبى ﷺ: «الدُّنيا مَتَاعٌ وَخَيْرُ مَتَاع الدُّنْيَا الْمَرْأَةُ الصَّالحَةُ»[٢]، فكلُّ لذة أعانت على لذات الدار الآخرة فهى محبوبة مرضية للرب تعالى، فصاحبها يلتذ بها من وجهين: من جهة تنعمه وقرة عينه بها، ومن جهة إيصالها له إلى مرضاة ربه وإفضائها إلى لذة أكمل منها، فهذه هى اللذة التى ينبغى للعاقل أن يسعى فى تحصيلها، لا اللذة التى تعقبه غاية الالم وتفوت عليه أعظم اللذات، ولهذا يثاب المؤمن على كل ما يلتذ به من المباحات إذا قصد به الإعانة والتوصل إلى لذة الآخرة ونعيمها، فلا نسبة بين لذة صاحب الزوجة أو الأمَة الجميلة التى يحبها وعينه قد قرت بها، فإنه إذا باشرها والتذ قلبه وبدنه

---

(١) صحيح: رواه البخارى (٣٢٤٤) ومسلم (٢٨٢٤).

(٢) صحيح: رواه أحمد (٢/ ١٦٨) ومسلم (١٤٦٧) والنسائى (٣/ ٣٨١) وابن ماجه (١٨٥٥).

ونفسه بوصالها أثيب على تلك اللذة في مقابلة عقوبة صاحب اللذة المحرمة على لذته، كما قال النبي ﷺ: «وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ أَجْرٌ» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، أَيَأْتِي أَحَدُنَا شَهْوَتَهُ وَيَكُونُ لَهُ فِيهَا أَجْرٌ؟ قَالَ: «أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي الْحَرَامِ أَكَانَ عَلَيْهِ وِزْرٌ؟» قالوا: نعم، قال: «فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الْحَلَالِ يَكُونُ لَهُ أَجْرٌ»(١).

واعلم أن هذه اللذة تتضاعف وتتزايد بحسب ما عند العبد من الإقبال على الله وإخلاص العمل له والرغبة في الدار الآخرة، فإن الشهوة والإرادة المنقسمة في الصور اجتمعت له في صورة واحدة، والخوف والهم والغم الذي في اللذة المحرمة معدوم في لذته، فإذا اتفق له مع هذا صورة جميلة ورزق حبها ورزقت حبه وانصرفت دواعي شهوته إليها، وقصرت بصره عن النظر إلى سواها ونفسه عن التطلع إلى غيرها فلا مناسبة بين لذته ولذة صاحب الصورة المحرمة. وهذا أطيب نعيم ينال من الدنيا، وجعله النبي ﷺ ثالث ثلاثة بها ينال خير الدنيا والآخرة وهي: قلب شاكر، ولسان ذاكر، وزوجة حسناء إن نظر إليها سرته، وإن غاب عنها حفظته في نفسها وماله(٢)، فالله المستعان.

وقال القاسم بن عبد الرحمن: كان عبد الله بن مسعود ﷺ يقرأ القرآن فإذا فرغ قال: أين العزاب؟ فيقول: ادنوا مني ثم قولوا: اللَّهم ارزقني امرأةً إذا نظرتُ اليها سرتني، وإذا أمرتها أطاعتني، وإذا غِبْت عنها حفظت غيبتي في نفسها ومالي.

والألمُ والحزن والهم والغم ينشأ من عدَم العلم بالمحبوب النافع، أو من عدم إرادته وإيثاره مع العلم به، أو من عدم إدراكه والظفر به مع محبته وإرادته، وهذا من أعظم الألم، ولهذا يكون ألم الإنسان في البرزخ(٣)، وفي دار الحيوان(٤) بفوات محبوبه أعظم من ألمه بفواته في الدنيا من ثلاثة أوجه:

أحدها: معرفته هناك بكمال ما فاته ومقداره، **الثاني**: شدة حاجته إليه وشوق نفسه إليه مع أنه قد حيل بينه وبينه، كما قال الله تعالى: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ (سبأ: ٥٤) **الثالث**: حصول ضده المؤلم له. فليتأمل العاقل هذا الموضع وليتنزل نفسه منزلة

---

(١) صحيح: رواه أحمد (٥/ ١٦٧) ومسلم (١٠٠٦).

(٢) حسن: رواه أحمد (٥/ ٣٦٦) والترمذي (٣٠٩٤) وابن ماجه (١٨٥٦) وحسنه الألباني، رحمه الله تعالى، في «صحيح الجامع» (٢٩٠٧).

(٣) البرزخ: أي القبر، ومعنى البرزخ في اللغة: الحاجز بين الشيئين.

(٤) الحيوان: أي الدار الآخرة.

من قد فاته أعظم محبوب وأنفعه وهو أفقر شيء وأحوجه إليه فواتًا لا يرجى تداركه وحصل على ضده.

فيالها من مصيبة ما أوجعها، وحالة ما أفظعها، فأين هذه الحال من حالة من يلتذ في الدنيا بكل ما يقصد به وجه الله سبحانه وتعالى من الأكل والشرب، واللباس، والنكاح، وشفاء الغيظ بقهر العدو، وجهاد في سبيله، فضلاً عما يلتذ به من معرفة ربه وحبه له، وتوحيده، والإنابة إليه، والتوكل عليه، والإقبال عليه، وإخلاص العمل له، والرضا به وعنه، والتفويض إليه، وفرح القلب وسروره بقربه والأنس به، والشوق إلى لقائه، كما في الحديث الذي صححه ابن حبان والحاكم: «وَأَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ وَالشَّوْقَ إِلَى لِقَائِكَ»[١] وهذه اللذّة لا تزال في الدنيا في زيادة مع تنقيصها بالعدوّ الباطن من الشيطان والهوى والنفس والدنيا والعدو الظاهر، فكيف إذا تجردت الروح وفارقت دار الأحزان والآفات واتّصلت بالرفيق الأعلى: ﴿مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا﴾ (النساء: ٦٩، ٧٠) فإذا أفضى إلى دار النعيم فهنالك من أنواع اللذة والبهجة والسرور ما لا عينٌ رأت ولا أُذُنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر، فبؤسًا وتعسًا للنفوس الوضيعة الدنيئة التي لا يهزها الشوقُ إلى ذلك طربًا، ولا تتقد نار إرادتها لذلك رغبًا، ولا تَعبدُ عما يصد عن ذلك رهبًا، فبصائرها كما قيل:

خَفَافيش[٢] أعشاها النهارُ بضوئه ... ولاءَمَها قطعٌ من الليل مظلم[٣]

تجول حول الْحُش[٤]، إذا جالت النفوسُ العلويَّةُ حول العرش، وتندسّ في الأحجار، إذا طارت النفوس الزكية إلى أَعْلَى الأوكار[٥].

فلم تَرَ أمثال الرجال تفاوتوا ... إلى الفضل حتى عُد ألف بواحد

فصل: وكلّ لذّة أعقبت ألمًا أو منعت لذّةً أكملَ منها فليست بلذّة في الحقيقة وإن غالطت النفس في الالتذاذ بها، فأي لذّة لآكل طعام شهي مسموم يقطع أمعاءه عن قريب؟

---

(١) **صحيح**: رواه أحمد (٤/ ٢٧٤، ٥/ ١٩١) والنسائي (٣/ ٥٤) وابن حبان (١٩٧١) والحاكم (١/ ٥٢٤).

(٢) **خفافيش**: الخفاش: حيوان ثديي قادر على الطيران، ولا يطير إلا في الليل.

(٣) **ولاءمها**: ناسبها ووافقها.

(٤) **الحش**: الكنيف.

(٥) **الأوكار**: الوكر هو: عش الطائر.

وهذه هى لذات الكفار والفساق بعلوِّهم فى الأرض وفسادهم وفرحهم فيها بغير الحق ومرحهم. وذلك مثل لذة الذين اتخذوا من دون الله أولياء يحبونهم كحب الله، فنالوا بهم مودة بينهم فى الحياة الدنيا، ثم استحالت تلك اللذة أعظم الم وأمرَّه، ومن ذلك لذة العقائد الفاسدة والفرح بها، ولذة غلبة أهل الجور والظلم والعدوان والزنى والسرقة وشرب المسكرات. وقد أخبر الله سبحانه وتعالى أنه لم يُمكِّنْهم من ذلك لخير يريده بهم، إنما هو استدراجٌ منه لينيلَهم به أعظم الألم، قال الله تعالى: ﴿ **أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝٥٥ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ** ﴾ (المؤمنون: ٥٥، ٥٦) وقال تعالى: ﴿ **فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ** ﴾ (التوبة: ٥٥).

فصل: وأما اللذة التى لا تعقب ألمًا فى دار القرار ولا توصل إلى لذة هناك فهى لذة باطلة، إذ لا منفعة فيها ولا مضرة، وزمنها يسير ليس لتمتع النفس بها قدر وهى لا بد أن تشغل عما هو خير وأنفع منها فى العاجلة والآجلة وإن لم تشغل عن أصل اللذة فى الآخرة وهذا القسم هو الذى عناه النبى ﷺ بقوله: «كُلُّ لَهْوٍ يَلْهُو به الرَّجُلُ فَهُوَ بَاطِلٌ، إلا رَمْيَهُ بِقَوْسِه وَتَأْدِيبَهُ فَرَسَهُ وَمُلاعَبَتَهُ أَهْلَهُ، فَإِنَّهُنَّ مِنَ الحَقّ»[1] ولهذا كانت لذة اللعب بالدف فى العرس جائزة فإنها تعين على النكاح، كما تعين لذة الرمى بالقوس وتاديب الفرس على الجهاد، وكلاهما محبوب لله. فما أعان على حصول محبوبه فهو من الحق، ولهذا عد ملاعبة الرجل امرأته من الحق لإعانتها على مقاصد النكاح الذى يحبه الله سبحانه وتعالى، وما لم يعن على محبوب الرب تعالى فهو باطل لا فائدة فيه، ولكن إذا لم يكن فيه مضرة راجحة لم يحرم ولم ينه عنه، ولكن إذا صد عن ذكر الله وعن الصلاة صار مكروهًا بغيضًا للرب عز وجل مقيتًا عنده إما بأصله وإما بالتجاوز فيه. وكل ما صد عن اللذة المطلوبة فهو وبال على صاحبه، فإنه لو اشتغل حين مباشرته له بما ينفعه ويجلب له اللذة المطلوبة الباقية لكان خيراً له وأنفع.

ولما كانت النفوس الضعيفة كنفوس النساء والصبيان لا تنقاد إلى أسباب اللذة العظمى إلا بإعطائها شيئًا من لذة اللهو واللعب بحيث لو فطمت عنه كل الفطام طلبت ما هو شر لها منه رخص لها من ذلك فيما لم يرخص فيه لغيرها. وهذا كما دخل عمر بن

(١) صحيح: رواه أحمد (٤/ ١٤٤) وأبو داود (٢٥١٣) والترمذى (١٦٣٧) والنسائى (٣/ ٣٣٠) وابن ماجه (٢٨١١) وصححه الألبانى فى «الصحيحة» (٣١٥) وقد وهم المصنف فى عزو الحديث لمسلم.

الخطاب ﷺ على النبى ﷺ وعنده جوار يضربن بالدف فأسكتهن لدخوله وقال: «هَذَا رَجُلٌ لا يُحبُّ البَاطِلَ»[١] فأخبر أن ذلك باطل ولم يمنعهن منه لما يترتّب لهن عليه من المصلحة الراجحة، ويتركن به مفسدة أرجح من مفسدته، وأيضًا فيحصل لهم من التألم بتركه مفسدة هى أعظم من مفسدته، فتمكينهم من ذلك من باب الرحمة والشفقة والإحسان، كما مكن النبى ﷺ أبا عمير من اللعب بالعصفور بحضرته، ومكن الجاريتين من الغناء بحضرته، ومكن عائشة ﷺ من النظر إلى الحبشة وهم يلعبون فى المسجد، ومكن تلك المرأة أن تضرب على رأسه بالدف[٢]، نظائر ذلك.

فأين هذا من اتخاذ الشيوخ المشار إليهم المقتدى بهم ذلك دينًا وطريقًا مع التوسع فيه غاية التوسع بما لا ريب فى تحريمه؟ ونظير هذا إعطاء النبى ﷺ المؤلفة قلوبهم من الزكاة والغنيمة لضعف قلوبهم عن قلوب الراسخين فى الإيمان من أصحابه، ولهذا أعطى هؤلاء ومنع هؤلاء وقال: «أكلهم إلى ما جعل الله فى قلوبهم من الغنى والخير[٣]».

ونظير هذا مزاحه ﷺ مع من كان يمزح معه من الأعراب والصبيان والنساء تطييبًا لقلوبهم، واستجلابًا لإيمانهم، وتفريحًا لهم. وفى «مراسيل الشعبى» أن النبى ﷺ مر على أصحاب الدركلة فقال: «خذوا يا بنى أَرْفِدَةَ[٤] حَتَّى تَعْلَمَ اليَهُودُ وَالنَّصَارَى أَنَّ فِى دِينِنَا فُسْحَةً»[٥] (ذكره أبو عبيد وقال: الدِّركلة: لعبة العجم) فالنبىُّ ﷺ يبذل للنفوس من الأموال والمنافع ما يتألفها به على الحق المأمور به ويكون المبذول مما يلتذ به الآخذ ويحبه، لأن ذلك وسيلة إلى غيره، ولا يفعل ذلك مع من لا يحتاج إليه كالمهاجرين والأنصار، بل يبذل لهم أنواعًا أُخرَ من الإحسان إليهم، والمنافع فى دينهم ودنياهم، ولما كان عمر بن الخطاب ﷺ ممن لا يحب هذا الباطل ولا سماعَه، ولا يحتاج أن يتألف بما يُتألف به غيره، وليس مأمورًا بما أمر به النبى ﷺ من التأليف على الإيمان به، وطاعته بكل طريق – كان إعراضه عنه كمالاً بالنسبة إليه، وحالُ النبىّ ﷺ أكملُ.

---

(١) حسن: رواه أحمد (٣/ ٤٣٥) والطبرانى فى «الكبير» (٥٠/ ٨٤٤) وفى «الأوسط» (٦/ ١١٨) والبخارى فى «الأدب المفرد» (٣٤٢) وحسنه الألبانى فى «الصحيحة» (٤/ ٤٤٨).

(٢) صحيح: رواه البخارى (٣١٤٥) وأحمد (٥/ ٦٩).

(٣) صحيح: رواه الترمذى (٣٦٩٠) وصححه الألبانى فى «الصحيحة» (٢٢٦١).

(٤) أرفدة: أصل الحبشة، وهو جدهم الأكبر

(٥) صحيح: رواه أحمد (٦/ ١١٦، ٢٢٣) وصححه الألبانى بمجموع طرقه فى «الصحيحة» (١٨٢٩).

فـصل: إذا عرف هذا فاقسام اللذات ثلاثة: لذة جثمانية، ولذة خيالية وهمية، ولذة عقلية روحانية.

فاللذة الجثمانية: لذة الأكل والشرب والجماع، وهذه اللذة يشترك فيها مع الإنسان الحيوان البهيم، فليس كمال الإنسان بهذه اللذة لمشاركة أنقص الحيوانات له فيها، ولأنها لو كانت كمالاً لكان أفضل الإنسان وأشرفهم وأكملهم أكثرهم أكلاً وشرباً وجماعاً، وأيضاً لو كانت كمالا لكان نصيب رسل الله وأنبيائه وأوليائه منها في هذه الدار أكمل من نصيب أعدائه. فلما كان الأمر بالضد تبين أنها ليست في نفسها كمالاً، وإنما تكون كمالاً إذا تضمّنت إعانة على اللذة الدائمة العظمى، كما تقدّم.

فـصل: وأما اللذّة الوهميّةُ الخيالية: فلذةُ الرّئاسة والتعاظُم على الخلق والفخر والاستطالة عليهم.

وهذه اللذة وإن كان طُلابها أشرف نفوساً من طلاب اللذة الأولى، فإن آلامَها وما توجبه من المفاسد والمضار أعظمُ من التذاذ النفس بها، فإن صاحبها منتصبٌ لمعاداة كل من تعاظم وترأس عليه. ولهذا شروط وحقوق تفوّت على صاحبها كثيراً من لذاته الحسية، ولا يتم إلا بتحمل مشاق وآلام أعظم منها. فليست هذه في الحقيقة بلذة وإن فرحت بها النفس وسرت بحصولها، وقد قيل: إنه لا حقيقة للذة في الدنيا وإنما غايتُها دفع آلام كما يدفع ألم الجوع والعطش وألم الشهوة بالأكل والشرب والجماع، ولذلك يدفع ألم الخمول وسقوط القدر عند الناس بالرّئاسة والجاه.

والتحقيق: أن اللذة أمرٌ وجوديٌّ يستلزم دفع الألم بما بينهما من التضادّ.

فـصل: وأما اللذة العقلية الروحانية: فهي كلذة المعرفة والعلم والاتصاف بصفات الكمال من الكرم والجود والعفة والشجاعة والصبر والحلم والمروءة وغيرها، فإن الالتذاذ بذلك من أعظم اللذات، وهو لذة النفس الفاضلة العلوية الشريفة، فإذا انضمت اللذة بذلك إلى لذة معرفة الله تعالى ومحبته وعبادته وحده لا شريك له والرضا به عوضاً عن كل شيء ولا يتعوض بغيره عنه فصاحب هذه اللذة في جنة عاجلة نسبتها إلى لذات الدنيا، كنسبة لذة الجنة إلى لذة الدنيا.

فإنه ليس للقلب والروح ألذ ولا أطيب ولا أحلى ولا أنعم من محبة الله والإقبال عليه وعبادته وحده وقرة العين به والأنس بقربه والشوق إلى لقائه ورؤيته، وإن مثقال ذرة من هذه اللذة لا يعدل بأمثال الجبال من لذات الدنيا، ولذلك كان مثقال ذرة من إيمان بالله ورسوله

يخلص من الخلود فى دار الآلام، فكيف بالإيمان الذى يمنع دخولها؟ **قال بعض العارفين**: من قرت عينه بالله قرت به كل عين، ومن لم تقر عينه بالله تقطعت نفسه على الدنيا حسرات، ويكفى فى فضل هذه اللذة وشرفها أنها تخرج من القلب ألم الحسرة على ما يفوت من هذه الدنيا، حتى إنه ليتألم بأعظم ما يلتذ به أهلها، ويفر منه فرارهم من المؤلم. وهذا موضع الحاكم فيه الذوق لا مجرد لسان العلم. وكان بعض العارفين يقول: مساكين أهل الدنيا خرجوا من الدنيا ولم يذوقوا طيب نعيمها، فيقال له: وما هو ؟ فيقول: محبة الله والأنس به والشوق إلى لقائه ومعرفة أسمائه وصفاته.

وقال آخر: أطيب ما فى الدنيا معرفته ومحبته، وألذ ما فى الآخرة رؤيته وسماع كلامه بلا واسطة.

وقال آخر: والله إنه ليمر بالقلب أوقات أقول فيها: إن كان أهل الجنة فى مثل هذه الحال إنهم لفى عيش طيب. وأنت ترى محبةَ مَنْ فى محبته عذاب القلب والرُّوح كيف توجب لصاحبها لذة يتمنى أنه لا يفارقه حبُّه كما قال شاعر الحماسة:

تَشَكَّى المحبون الصبابةَ ليتنى ... تحملتُ ما يَلْقَون من بينهم وَحدى
فكانت لقلبى لذَّةُ الحبِّ كلُّها ... فلم يَلْقَها قبلى محب ولا بعدى

قالت رابعة: شَغَلُوا قلوبهم بحب الدنيا عن الله، ولو تركوها لجالت فى الملكوت ثم رجعت إليهم بطرائف الفوائد.

وقال سلم الخواص: تركتموه وأقبل بعضكم على بعض، ولو أقبلتم عليه لرأيتم العجائب.

وقالت امرأةٌ من العابدات: لو طالعت قلوب المؤمنين بفكرها ما ذُخر(١) لها فى حجب الغيوب من خير الآخرة لم يَصْفُ لها فى الدنيا عيش، ولم تقر لها فى الدنيا عين.

وقال بعض المحبين: إن حبه عَزَّ وجَلَّ شغل قلوب محبيه عن التلذذ بمحبة غيره، فليس لهم فى الدنيا مع حبه عَزَّ وجَلَّ لذة تدانى محبته، ولا يؤملون فى الآخرة من كرامة الثواب أكبر عندهم من النظر إلى وَجه محبوبهم.

وقال بعض السَلَف: ما من عبد إلا وله عينان فى وجهه يبصر بهما أمرَ الدنيا، وعينان فى قلبه يبصر بهما أمرَ الآخرة، فإذا أراد الله بعبد خيراً فتح عينيه اللتين فى قلبه فأبصر بهما من اللذة والنعيم ما لا خطر له مما وعد به من لا أصدق منه حديثاً، وإذا أراد به غير ذلك

---

(١) ذخر: اختار.

تركه على ما هو عليه ثم قرأ: ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ (محمد: ٢٤)، ولو لم يكن للقلب المشتغل بمحبة غير الله المعرض عن ذكره من العقوبة إلا صدؤه وقسوته وتعطيله عما خُلق له لكفى بذلك عقوبة.

وقد روى عبد العزيز بن أبي رَوَّاد عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ هَذِهِ القُلُوبَ تَصْدَأُ كَمَا يَصْدَأُ الْحَدِيدُ» قيل: يَا رَسُولَ الله فمَا جلاؤُهَا؟ قال: «تلاوةُ القُرْآن»[١].

وقال بعض العارفين: إن الحديد إذا لم يستعمل غشيه الصدأ حتى يفسده، كذلك القلب إذا عطل من حب الله والشوق إليه وذكره غلبه الجهل حتى يميته ويهلكه، وقال رجل للحسن: يا أبا سعيد أشكو إليك قسوة قلبي، قال: أذبه بالذكر، وأبعد القلوب من الله القلب القاسي، ولا يذهب قساوته إلا حب مقلق، أو خوف مزعج.

فإن قيل: ما السبب الذي لأجله يلتذّ المحب بحبه وإن لم يظفر بحبيبه؟.

قـــيل: الحبّ يوجب حركة النفس وشدّة طلبها، والنفس خُلقت متحركةً بالطبع كحركة النار، فالحب حركتُها الطبيعية، فكل من أحب شيئًا من الأشياء وجد في حبه لذة وروحًا[٢]، فإذا خلا عن الحب مطلقًا تعطلت النفس عن حركتها وثقلت وكسلت وفارقها خفة النشاط. ولهذا تجد الكُسالى أكثر الناس همًّا وغمًّا وحزنًا، ليس لهم فرح ولا سرور، بخلاف أرباب[٣] النشاط والجد في العمل أي عمل كان، فإن كان النشاط في عمل هم عالمون بحسن عواقبه وحلاوة غايته، كان التذاذهم بحبه ونشاطهم فيه أقوى. وبالله التوفيق.

---

(١) ضعيف جدًّا: رواه ابن عدي (٥/ ٢٨٩٣) والخطيب (١١/ ٨٥) والبيهقي في «الشعب» وفي سنده عبد الرحيم بن هارون: متروك الحديث.
(٢) روحًا: رحمة ورزقًا.
(٣) أرباب: أصحاب.

الباب الرابع عشر:

فيمن مدح العشق وتمناه وغبط صاحبه على ما أوتيه من مناه

هذا موضع انقسم الناس فيه قسمين، وربما كان الشخص الواحد فيه مجموع الحالتين. فقسم مدحوا العشق وتمنوه، ورغبوا فيه، وزعموا أن من لم يذق طعمه لم يذق طعم العيش. قالوا: وقد تبين أن كمال اللذّة تابع لكمال الحبّ فأعظم الناس لذة بالشيء أكثرهم محبة له، وقد تقدم تقريره.

قالوا: وقد حبّب الله سبحانه وتعالى إلى رسله وأنبيائه نساءهم وسراريهم، فكان آدم أبو البشر شديد المحبة لحواء، وقد أخبر الله سبحانه وتعالى أنه خلق زوجته منه ليسكن إليها [١]، قالوا: وحبه لها هو الذى حمله على موافقتها فى الأكل من الشجرة. قالوا: وأول حب كان فى هذا العالم حب آدم لحواء وصار ذلك سنة فى ولده فى المحبة بين الزوجين.

قالوا: وهذا داود من محبته للنساء جمع بين مائة امرأة، وكذلك ابنُه سليمان، قالوا: وقد عاب اليهودُ - عليهم لعائن الله - رسول الله ﷺ محبة النساء وكثرة تزوُّجه، فأنزل الله سبحانه وتعالى ذابًّا [٢] عن رسوله ﷺ وإخبارًا بأن ذلك من فضله وإنعامه عليه: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ (النساء: ٥٤).

قالوا: وقد كان عند إبراهيم خليل الرحمن أجمل النساء سارةُ، ثم تسرى بهاجر وكانت المحبة لها. قال سعد بن أبى وقّاص رضي الله عنه: كان إبراهيم الخليل يحب سُرِّيَّته هاجر محبةً شديدة، وكان يزورها فى كل يوم على البراق من الشام من شغفه بها [٣].

قال الخرائطى: حدّثنا نصر بن داود، حدثنا الواقدى، عن محمد بن صالح، عن سعد ابن إبراهيم، عن عامر بن سعد، عن أبيه ... فذكره، وقد ثبت فى «الصحيح» من حديث الشعبى عن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: بعثنى رسول الله ﷺ على جيش وفيهم أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، فلما رجعت قلت: يا رسول الله، من أحبُّ الناس إليك؟ قال: «وما تريد»؟

---

(١) أى: ليأوى إليها.

(٢) ذابًّا: مدافعًا.

(٣) شغفه بها: تعلقه وولعه.

قلت: أُحبّ أن أعلم، قال: «عائشة» قلت: إنما أعنى من الرجال، قال: «أبوها»[١]، وذكر مبارك بن فُضالة عن على بن زيد عن عمته عن عائشة، أن فاطمة ﵂ ذكرتها عند النبى ﷺ فقال لها: «يا بُنَيَّة إنها حبيبة أبيك»[٢]، وأصل الحديث فى «الصحيح» من حديث الليث عن ابن شهاب عن محمد بن عبد الرحمن عن عائشة ﵂ قالت: أرسل أزواج النبى ﷺ فاطمة بنت النبى ﷺ إليه، فدخلت وهو مضطجع معى فى مِرْطى، فقالت: يا رسول الله، إن أزواجك يسألنك العدل فى ابنة أبى قحافة، وأنا ساكتة، فقال لها رسول الله ﷺ: «أَلَسْتِ تُحبِّينَ مَا أُحِبُّ؟» قالت: بَلَى، قال: «فأَحِبِّى هَذِهِ»[٣].

وثبت فى «الصحيح» من حديث حماد بن سلمة عن أيوب عن أبى قلابة عن عبد الله ابن يزيد عن عائشة ﵂ قالت: كان رسول الله ﷺ يقسم بين نسائه فيعدل ويقول: «اللَّهمَّ هَذَا فِعْلِي فِيمَا أَمْلِكُ فَلا تَلُمْنِي فِيمَا تَمْلِكُ وَلا أَمْلِكُ»[٤]، يريد ﷺ أنه يطيق العدل بينهن فى النفقة عليهن والقسم بينهن، وأما التسوية بينهن فى المحبة فليست إليه ولا يملكها.

وقال ابن سيرين: سألت عبيدة[٥] عن قوله تعالى: ﴿**وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ**﴾ (النساء: ١٢٩) فقال: يعنى الحب والجماع.

وقال ابن عباس: لا يستطيع أن يعدل بينهن فى الشهوة ولو حرص، وقال أبو قيس مولى عمرو بن العاص: بعثنى عمرو إلى أم سلمة فقال: سلها أكان رسول الله ﷺ يقبل أهله وهو صائم؟ فإن قالت: لا، فقل لها: إن عائشة ﵂ حدثتنا أن رسول الله ﷺ كان يقبلها وهو صائم، فسألها فقالت: لا، فأخبرها بما قال عبد الله، فقالت أم سلمة ﵂: إن رسول الله ﷺ كان إذا رأى عائشة ﵂ لم يتمالك عنها، أما أنا فلا[٦]، وقال بيان الشعبى: أتانى رجل فقال: كل أمهات المؤمنين أحب إلا عائشة، فقلت: أما أنت فقد خالفت رسول الله ﷺ، كانت عائشة ﵂ أحبهن إلى قلبه، وقال مصعب بن سعد: فرض عمر بن الخطاب

(١) **صحيح**: رواه البخارى (٣٦٢) ومسلم (٢٣٨٤).

(٢) **ضعيف**: رواه أبو نعيم فى «الحلية» (٢/ ٤٤/ ٤٥) وفى سنده على بن زيد بن جدعان: ضعيف.

(٣) **صحيح**: رواه مسلم (٢٤٤٢) وأحمد (٦/ ٨٨) والبيهقى فى «الكبرى» (٧/ ٢٩٩).

(٤) **ضعيف**: رواه أحمد (٦/ ١٤٤) وأبو داود (٢١٣٤) والترمذى (١١٤٠) والنسائى (٧/ ٦٤) وابن ماجه (١٩٧١) والحاكم (٣/ ١٨٧) وضعفه الألبانى فى «الإرواء» (٧/ ٨١).

(٥) هو عبيدة بن عمرو السلمى الكوفى، من التابعين، توفى سنة (٧٢ هـ).

(٦) **حسن**: رواه عبد الله بن أحمد فى «زوائد المسند» (٦/ ٢٩٦، ٣١٧).

ﷺ لامهات المؤمنين ﷺ عشرة آلاف، وزاد عائشة ألفين وقال: إنها حبيبة رسول الله ﷺ، وكان مسروق إذا حدث عن عائشة ﷺ يقول: حدثتنى الصديقة بنت الصدّيق حبيبة رسول رب العالمين المبرأة من فوق سبع سموات. قال أبو محمد بن حزم: وقد أحب من الخلفاء الراشدين والأئمة المَهْديين كثيرٌ.

قال الخرائطى: واشترى عبد الله بن عمر جارية رومية فكان يحبها حبًّا شديداً، فوقعت ذات يوم عن بغلة له فجعل يمسح التراب عن وجهها ويُفدّيها. وكانت تقول له: أنت قالون، تعنى جيد، ثم إنها هربت منه فوجد عليها وَجداً شديداً وقال:

قد كنتُ أحسبُنى قالونَ فانصرفت ... فاليوم أعلمُ أنى غيرُ قالون

وقصة مُغيث وعشقه بَريرة حتى إنه كان يطوف وراءها ودموعه تسيل على خديه فى «الصحيح» وكان عُرْوة بن أذينة [١] شيخ مالك، من العلماء الثقات الصلحاء وقفت عليه امرأة فقالت: أنت الذى يقال له الرجل الصالح وأنت تقول:

إذا وجدتُ لهيبَ الحبّ فى كَبِدى ... عَمَدتُ نحو سقاء القوم أبْتَرِدُ

هذا بَرَدْتُ ببَرْدِ الماء ظاهرَه ... فمن لنار على الأحشاء تَتَّقدُ؟ [٢]

وكان محمد بن سيرين [٣] ينشد:

إذا خَدِرَتْ رِجْلِى تذكّرت من لها ... فناديت لُبْنَى باسمها ودعَوْتُ

دعوتُ التى لو أن نفسى تُطيعنى ... لألقيتُ نفسى نحوها وقضَيْتُ

وقال صالح عن ابن شهاب: حدّثنى عبيد الله بن عبد الله بن عتبة أن ابن مسعود ﷺ قال: بينما نحن عند رسول الله ﷺ فى قريبٍ من ثمانين رجلاً ليس فيهم إلا قرشىّ، والله ما رأيت صفحة وجوه قط أحسن من وجوههم يومئذ، قال: فذكروا النساء فتحدثوا فيهن وتحدثت معهم حتى أحببت أن نسكت، قالوا: ولولا لطافة الحب ولذته ما تمناه المتمنون. وقال شاعر الحماسة:

تَشكَّى المحبّون الصبابةَ ليتنى ... تحمَّلتُ ما يَلْقَوْن من بينهم وَحدى

فكانت لقلبى لذَّةُ الحبّ كلُّها ... فلم يَلْقَها قبلى محب ولا بعدى

قالوا: والعشق المباح مما يؤجر عليه العاشق كما قال شريك بن عبد الله - وقد سئل عن

---

(١) عروة بن أذينة، من بنى ليث، ترجمته فى «الشعر والشعراء» (٣٨٤).

(٢) تتقد: تشتعل وتضطرم.

(٣) هو: ابو بكر محمد بن سيرين الأنصارى البصرى، عالم بتعبير الرؤيا، مات سنة (١١٠ هـ).

العشاق ـ فقال: أشدهم حبًّا أعظمهم أجراً، وصدق والله إذا كان المعشوق ممن يحب الله للعاشق قربه ووصله.

وقالت امرأة:

لن يقبلَ اللهُ من معشوقةٍ عملاً ... يومًا وعاشقُها لَهْفَانُ مهجور

ليست بمأجورة فى قتل عاشقها ... لكنّ عاشقَها فى ذاك مأجور

ونحن نقول: متى باتت مهاجرةً لفراش عاشقها الذى هو بعلُها لعنتها الملائكة حتى تصبح[1]، قالوا: والعشق يصفى العقل ويذهب الهم ويبعث على حسن اللباس وطيب المطعم ومكارم الأخلاق ويعلى الهمة ويحمل على طيب الرائحة وكرم العشرة وحفظ الأدب والمروءة، وهو بلاء الصالحين ومحنة العابدين، وهو ميزان العقول وجلاء الأذهان، وهو خلق الكرام كما قيل:

وما أحببتُها فُحْشًا ولكن ... رأيتُ الحبَّ أخلاقَ الكرام

قالوا: وأرواحُ العُشَّاق عَطرَةٌ لطيفة، وأبدانهم رقيقةٌ ضعيفة، وأزواجهم بطيئة الانقياد لمن قادها، حاشا سكنها الذى سكنت إليه، وعقدت حبَّها عليه. وكلامُهم ومنادمتهم تزيد فى العقول، وتحرك النفوس، وتطرب الأرواح، وتلهو بأخبارهم أولو الألباب.

فأحاديث العشاق زينة مجالسهم، وروح محادثتهم، ويكفى أن يكون الأعرابى الذى لا يذكر مع الملوك ولا مع الشجعان الأبطال يعشق ويشتهر بالعشق فيذكر فى مجالس الملوك والخلفاء ومن دونهم، وتدون أخباره وتروى أشعاره، ويبقى له العشق ذكراً مخلداً. ولولا العشق لم يذكر له اسم ولم يرفع له رأس.

وقال بعض العقلاء: العشق للأرواح بمنزلة الغذاء للأبدان، إن تركته ضرك وإن أكثرت منه قتلك.

وقال ابن عبد البر[2] فى كتابه «بهجة المجالس»: وجد فى صحيفة لبعض أهل الهند: العشق ارتياح جعل فى الروح، وهو معنى تنتجه النجوم فى مطارح شعاعها، ويتولد فى الطباع بوصلة أشكالها، وتقبله الروح بلطيف جوهرها، وهو يعد جلاء القلوب، وصيقل

---

(١) صحيح: رواه البخارى (٩/ ٢٠٥) ومسلم (١٤٣٦) ولفظه: «إذا باتت المرأة هاجرة فراش زوجها لعنتها الملائكة حتى ترجع».

(٢) هو أبو عبد الله، محمد بن عبد الله بن عبد البر النمرى الأندلسى القرطبى، الإمام الحافظ، الفقيه، صنف التصانيف الماتعة مثل: «التمهيد» «بهجة المجالس» توفى سنة (٤٦٣ هـ).

الأذهان ما لم يفرط، فإذا أفرط صار سقمًا قاتلاً، ومرضًا منهكًا لا تنفذ فيه الآراء، ولا تنجع[١] فيه الحيل، والعلاج منه زيادة فيه.

وقال أعرابى: هو أنيس النفس، ومحادث العقل، تجنه الضمائر، وتخدمه الجوارح. وقال عبد الله بن طاهر (أمير خراسان) لولده: اعشقوا تظرفوا، وعفوا تشرفوا. وقال قدامة: وصفه بعض البلغاء فقال: يشجع الجبان، ويسخى البخيل، ويصفى ذهن البليد، ويفصح لسان الغبى، ويبعث حزم العاجز ويذل له عز الملوك، وتصدع له صولة[٢] الشجاع، وهو داعية الادب، وأول باب تفتق به الأذهان والفطن، وتستخرج به دقائق المكايد والحيل، وإليه تستروح الهمم، وتسكن نوافر الأخلاق والشِّيم، يمتع جليسه، ويؤنس أليفه. وله سرور يجول فى النفوس، وفرح يسكن فى القلوب.

وقيل لبعض الرؤساء: ابنُك قد عشق، فقال: الحمد لله، الآن رقت حواشيه، ولطفت معانيه، وملحت إشاراته، وظرفت حركاته، وحسنت عباراته، وجادت رسائله، وجلّت شمائله، فواظب على المليح، واجتنب القبيح.

وقيل لآخر ذلك فقال: إذا عشق لَطُفَ وظرف ودق ورق.

وقيل لبعضهم: متى يكون الفتى بليغًا؟ قال: إذا صنَّف كتابًا، أو وصف هوى أو حبيبًا.

وقيل لسعيد بن أسلم: إن ابنَك شرع فى الرقيق من الشعر، فقال: دعوه يظرف وينظف ويلطف.

وقال العباس بن الأحنف:

وما الناسُ إلا العاشقون ذوو الهوى ... ولا خيرَ فيمن لا يُحب ويَعْشَقُ

وقال الحسين بن مُطَير[٣]:

إن الغوانى جنةٌ رَيْحَانُهَا ... نضرُ الحياة فابن عنها نَعْزِفُ[٤]

لولا ملاحتهنّ ما كانت لنا ... دنيا نَلَذُّ بها ولا نتصرف

وقال غيره:

ولا خيرَ فى الدنيا ولا فى نعيمها ... وأنت وحيدٌ مفردٌ غيرُ عاشق

---

(١) تنجع: تفيد. (٢) صولة: سطوة فى الحرب.
(٣) هو الحسين بن مطير مولى بنى أسد، من الشعراء المبدعين.
(٤) نعزف: نترك ونزهد.

وقال آخر :

هل العـــيشُ إلا أن تروحَ وتغـــتـدى
وأنت بكأس العشق فى الناس نشوانُ (١)

وقال العَطوى :

مـــــا دنـــتُ بـالحـــب إلا والحــبّ ديـــــنُ الكــــرام

وقال آخر :

نظـرتُ إليـهـا نظـرةً فـهَـويتُـهَــا ومن ذا له عـقـل سليمٌ ولا يَهـوَى

وقال آخر :

ومـا ســـرنى أنى خَلِى من الهـوى ولو أن لى مـا بين شـرقٍ ومـغـرب

وقال آخر :

ومـا تَلِفَتْ إلا من العـشقِ مُهْجَتى وهل طاب عيشٌ لامرئٍ غيرِ عاشق

وقال آخر :

ولا خيـرَ فى الدنيـا بغيـر صبَابـة ولا فـى نعيـمٍ ليس فيـه حبـيبُ

وقال الكُمَيْت :

ما ذاق بُؤْس معـيشةٍ ونعـيمَـهـا فـيـمـا مضى أحدٌ إذا لم يَعْـشَـقِ
العـــشـقُ فـيـــه حــلاوةٌ ومَـــرارةٌ فـاسـأل بذلك من تطعَّم أوْ ذُوقِ

وقال آخر :

ومـا طابت الـدنيـا بغـير مـحـبـةٍ وأىُّ نعـيـمٍ لامـرئٍ غـيـرِ عـاشـق

وقال آخر :

أُسكُـن إلـى سَكَـنٍ تَلَذُّ بحـبّـه ذهب الزمـانُ وأنت خـالٍ مــفـرد

وقال آخر :

إذا أنت لم تعشق ولم تَدْرِ ما الهوى فـأنت وَعَيْرٌ (٢)فى الفلاةِ سواءٌ

وقال آخر :

إذا أنـت لـم تَعْـشَقْ ولم تَدْرِ مـا الهـوى
فكن حجرًا من يابس الصخر جَلْمَدا (٣)

---

(١) نشوان :النشوة: بداية السُّكر.
(٢) عير :الإبل.
(٣) جلمداً :الجلمود: الصخر الشديد الاصم.

وقال آخر:

إذا أنت لم تَعْشَقْ ولم تَدْرِ ما الهوى   فقم فاعتلف تِبْنًا فأنت حِمارُ

وقال آخر:

إذا لم تَذُقْ فى هذه الدار صَبْوةً[١]   فموتُك فيها والحياةُ سواءٌ

وقال الأقرعُ بنُ مُعاذ:

ولا خيرَ فى الدُّنيا إذا أنت لم تَزُرْ   حبيبًا ولا وافى إليك حبيبُ

وقال آخر:

وما ذاق طَعَم العيش من لم يكن له   حبيبٌ إليه يطمئنُ ويَسْكُنُ

وقال على بن أبى كثير لابن أبى الزرقاء: هل عشقت قط حتى تكاتب وتراسل وتواعد؟ قال: لا، فقال: لا يجيء منك شيء.

وكان لبعض الملوك ولدٌ واحد ساقط الهمة دنيء النفس فاتر، فأراد أن يرشحه للملك فسلط عليه الجوارى والقيان[٢] فعشق منهنَّ واحدة، فاعلم بذلك الملك فسر وأرسل إلى المعشوقة أن تجنى عليه وقولى: إنى لا أصلح إلا لملك أو عالم، فلما قالت له ذلك أخذ فى التعلم وما عليه الملوك من أدوات الملك حتى برع فى ذلك.

وقال المرْزُبانى: سئل أبو نوفل هل يسلم أحد من العشق؟ فقال: نعم الجلف[٣] الجافى الذى ليس له فضل ولا عنده فهم، فأما من فى طبعه أدنى ظرف أو معه دماثة[٤] أهل الحجاز وظرف أهل العراق فهيهات.

وقال علىّ بن عبدة: لا يخلو أحد من صبوة إلا أن يكون جافى الخلقة ناقصًا أو منقوص الهمة أو على خلاف تركيب الاعتدال. قالوا: ولا يكمل أحد قط إلا من عشقه لأهل الكمال وتشبه بهم. فالعالم يبلغ فى العلم بحسب عشقه له، وكذلك صاحب كل صناعة وحرفة. ويكفى أن العاشق يرتاح لكريم الأخلاق والأفعال والشيم لتحمد شمائله عند معشوقه كما قال:

ويرتاح للمعروف فى طلب العُلى   لتُحْمَدَ يوما عند ليلى شمائلُه[٥]

---

(١) صبوة: شدة الشوق إلى المحبوب.

(٢) القيان: الإماء اللاتى يغنين ويرقصن.

(٣) الجلف: الغليظ الجافى.

(٤) دماثة: حسن الخلق.

(٥) شمائله: صفاته الخلقية والخُلُقية.

وقال أبو المنجاب: رأيت في الطواف فتى نحيف الجسم بين الضعف يلوذ ويتعوذ ويقول:

وَددْتُ بأن الحبَّ يُجْــمَعُ كلُّه فيُقذَفُ في قلبي وينغلق الصَّدْرُ
فلا ينقضي ما في فؤادي من الهوى ومن فرحي بالحبِّ أو ينقضي العمرُ

فقلت: يا فتى، أما لهذه البَنِيَّة [١] حُرْمة تمنعك عن هذا الكلام؟ فقال: بلى والله، ولكن الحبُّ ملأ قلبي بفرح التذكر، ففاضت الفكرة في سرعة الأوبة [٢] إلى من لا يشذ عنه معرفة ما بي، فتمنيت المُنى. والله ما يسرني ما بقلبي منه ما فيه أمير المؤمنين من الملك، وإني أدعو الله أن يثبته في قلبي عمري، ويجعله ضجيعي [٣] في قبري، دَرَيْتُ به أو لم أدر. هذا دعائي أو أنصرف من حجتي، ثم بكى، فقلت: ما يبكيك؟ قال: خوف أن لا يستجاب دعائي، وله قصدت وفيه رغبت مما يعطي الله سائرَ خلقه. ثم مضى.

قالت هذه الفرقة: وغاية ما يقدر في أمر العشق أنه يقتل صاحبه كما هو معروف عند جماعة من العشاق. وقد قال سويد بن سعيد الحدثاني: حدثنا علي بن مسهر، عن أبي يحيى القتات، عن مجاهد، عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ عَشِقَ فَكَتَمَ وَعَفَّ وَصَبَرَ فَمَاتَ فَهُوَ شَهِيد» [٤] رواه عن سويد جماعة. وقال الخطيب: حدثنا أبو الحسن علي بن أيوب إملاء منه، حدثنا أبو عبد الله المرزباني وابن حيويه وابن شاذان قالوا: حدثنا أبو عبد الله إبراهيم بن محمد بن عرفة نفطويه قال: دخلت على محمد بن داود الأصبهاني في مرضه الذي مات فيه فقلت له: كيف تجدك؟ فقال: حب من تعلم أورثني ما ترى. فقلت: ما منعك من الاستمتاع به مع القدرة عليه؟ فقال: الاستمتاع على وجهين: أحدهما: النظر المباح، والثاني: اللذة المحظورة، فأما النظر المباح فأورثني ما ترى، وأما اللذة المحظورة فإنه منعني منها ما حدثني أبي، حدّثنا سويد بن سعيد، حدثنا علي بن مسهر، عن أبي يحيى القتات، عن مجاهد، عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ عَشِقَ وَكَتَمَ وَعَفَّ وَصَبَرَ غَفَرَ اللهُ لَهُ وَأَدْخَلَه الجَنَّةَ» [٥] قال الحاكم أبو عبد الله: إنما

---

(١) البنية: الكعبة.
(٢) الأوبة: الرجعة والعودة.
(٣) ضجيعي: رفيقي في المضجع.
(٤) تقدم تخريجه.
(٥) تقدم تخريجه.

أتعجب من هذا الحديث، فإنه لم يحدث به غير سويد، وهو وداود بن على وابنه أبو بكر ثقات.

ثم رواه الخطيب: حدثنا الأزهرى، حدثنا المعافى بن زكريا، حدثنا قطبة بن الفضل ابن إبراهيم الأنصارى، حدثنا أحمد بن محمد بن مسروق، حدثنا سُويد، حدثنا ابن مُسْهر، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة ﵂ مرفوعًا.

ورواه الزبير بن بكار عن عبد الملك بن عبد العزيز بن الماجشون، عن عبد العزيز بن أبى حازم، عن ابن أبى نجيح، عن مجاهد، عن ابن عباس ﵄، عن النبى ﷺ به، ولفظه: «مَنْ عَشِقَ فَعَفَّ فَمَاتَ فَهُوَ شَهِيدٌ».

رواه أبو بكر محمد بن جعفر بن سهل الخرائطى فى كتاب «اعتلال القلوب»: حدثنا أبو يوسف يعقوب بن عيسى من ولد عبد الرحمن بن عوف، عن الزبير ... فذكره، فخرج سُوَيد عن عُهدة التفرد به، على أنه لو تفرد به فهو ثقة، احتج به مسلم فى «صحيحه». وقال: عبد الله بن أحمد، قال لى أبى: أكتب عنه حديث ضمام. وقال البغوى: كان حافظًا وكان أحمد ينتقى لولديه عليه صالح وعبد الله، فكانا يختلفان إليه. وقال مسلم: ثقة ثقة. وقال أبو حاتم الرازى ويعقوب بن شيبة: هو صدوق. وأكثرُ ما عيب به التدليس[1] وقد صرّح ههنا بالتحديث، وعيبَ بأنه ذهب بصره فى آخر عمره، فربما أدخل عليه هذا الحديث فى كتبه، ولكن رواية الأكابر عنه هذا الحديث كان قبل ذهاب بصره، لأنه إنما عمى فى آخر عمره، وليس هذا بقادح فى حديثه.

قلت: وهذا حديث باطل على رسول الله قطعًا لا يشبه كلامه، وقد صح عنه أنه عد الشهداء ستًا فلم يذكر فيهم قتيل العشق شهيدًا ولا يمكن أن يكون كل قتيل بالعشق شهيدًا فإنه قد يعشق عشقًا يستحق عليه العقوبة. وقد أنكر حفاظ الإسلام هذا الحديث على سويد، وقد تكلم الناس فيه، فقال ابن المدينى: ليس بشىء والضرير إذا كان عنده كتب فهو عيب شديد. وقال يعقوب ابن شيبة: صدوق مضطرب الحفظ ولا سيما بعدما عمى. وقال البخارى: كان قد عمى فيلقن ما ليس من حديثه. وقال أبو أحمد الجرجانى: هذا الحديث احد ما أنكر على سويد، وأنكره البيهقى وأبو الفضل بن طاهر وأبو الفرج بن الجوزى وأدخله فى كتاب «الموضوعات».

---

(١) التدليس فى اصطلاح المحدثين يعنى: أن يروى الراوى عمن سمع منه ما لم يسمع منه بلفظ يحتمل السماع، وهو أنواع.

ولما رواه أبو بكر الأزرق عن سويد عاتبه عليه ابن المرزبان فاسقط ذكر النبى ﷺ منه. وكان سويد إذا سئل عنه لا يرفعه، وهذا أحسن أحواله أن يكون موقوفًا. ولذلك رواه أبو محمد الحسين القارى من حديث أبى سعد البقال، عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قوله.

وأما سياق الخطيب له من حديث هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة رضي الله عنها فلا يشك من شم رائحة الحديث أن هذا باطل على هشام عن أبيه عن عائشة، ولا يحتمل هذا المتن هذا الإسناد بوجه، والتحاكم فى ذلك إلى أهل الحديث لا إلى العارين [1] الغرباء منه، والظاهر أن ابن مسروق سرقه وغير إسناده. وأما حديث الزبير بن بكار فمن رواية يعقوب بن عيسى وهو ضعيف لا تقوم به حجة قد ضعفه أهل الحديث ونسبوه إلى الكذب.

---

(١) العارين :الذين لا يهتمون بالامر كاصحابه، فهم المستاجرة.

الباب الخامس عشر:

فيمن ذم العشق وتبرم به
وما احتج به كل فريق على صحة مذهبه

قال الله تعالى إخباراً عن المؤمنين: ﴿ رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا(١) كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا... ﴾ (البقرة: ٢٨٦) وقد أثنى الله عليهم سبحانه بهذا الدعاء الذى سألوه فيه أن لا يحمِّلهم ما لا طاقة لهم به، وقد فسر ذلك بالعشق، وليس المراد اختصاصه به بل المراد أن العشق مما لا طاقة للعبد به.

وقال مكحول: هو شدة الغُلمة(٢). وقال النبى ﷺ: «لا يَنْبَغِى لِلمَرْءِ أَنْ يُذِلَّ نَفْسَهُ»(٣)، قال الإمام أحمد: تفسيره أن يتعرض من البلاء لما لا يطيق، وهذا مطابق لحال العاشق، فإنه أذل الناس لمعشوقه ولما يحصل به رضاه، والحب مبناه على الذل والخضوع للمحبوب كما قيل:

اخْضَعْ وَذِلَّ لمن تحب فليس فى ... شرع الهوى أنفٌ يُشالُ(٤) ويُعْقَد

وقال آخر:

مساكينُ أهلُ العشق حتى قبورُهم ... عليها ترابُ الذلّ بين المقابر

وقال آخر:

قالوا عهدناك ذا عزٍّ فقلت لهم ... لا يَعجب الناسُ من ذلّ المحبينا
لا تنكروا ذِلَّةَ العُشّاق إنهم ... مستعبدون برقِّ الحبّ راضونا

قالوا: وإذا اقتحم العبدُ بحرَ العشق ولعبت به أمواجُه فهو إلى الهلاك أدنى منه إلى السلامة، كما ذكر الخرائطى أنه كان بالمدينة جارية ظريفة فهويت رجلاً من قريش، وكان لا يفارقها ولا تفارقه فملها، وزاد حبها له فسقمت، وجعل مولاها لا يعبأ بشكواها ولا يرق

---

(١) إصراً: ثقلاً، المعجم الوجيز (١٩).

(٢) شدة الغلمة: هيجان الشهوة والجماع.

(٣) صحيح: رواه أحمد (٥/ ٤٠٥) والترمذى (٢٢٥٤) وابن ماجه (٤٠١٦) وصححه الألبانى فى «الصحيحة» (٦١٣).

(٤) يشال: يعلو ويرتفع.

لها، حتى هامت على وجهها ومزقت ثيابها وأفضت(١) إلى أمرٍ عظيم. فلما رأى ما صارت إليه عالجها فلم ينفع فيها العلاج، وكانت تدور في السِّكَك بالليل وتقول:

الحبُّ أوَّل ما يكون لجاجة(٢) ... تأتي به وتسوقُه الأقدارُ
حتى إذا اقتحم الفتى لُجَجَ(٣) الهوى ... جاءت أمورٌ لا تُطاق كبارُ
من ذا يُطيق كما نطيق من الهوى ... غَلَبَ العزاءُ وباحت الأسرارُ

قال الخرائطي: وأنشدني بعض أصحابنا:

الحبُّ أوَّله شيءٌ يهيم به ... قلبُ المحبّ فَيلْقَى الموتَ كاللَّعب
يكون مبدؤه من نظرةٍ عَرَضَتْ ... وَمَزْحَةٍ أُشعلت في القلب كاللَّهَب
كالنار مبدؤها من قدْحة(٤) فإذا ... تضرَّمت أحرقت مستجمَع الحَطَب

قالوا: وكيف يمدح أمر يمنع القرار، ويسلب المنام، ويوله العقل، ويحدث الجنون، بل هو نفسه جنون، كما قال بعض الحكماء: الجنون فنون، والعشق فن من فنونه، كما قال بعض العشاق:

قالوا جُنِنْتَ بمن تهوى فقلت لهم ... العشق أعظمُ مما بالمجانين
العشقُ لا يستفيق الدهرَ صاحبُه ... وإنما يُصْرَع المجنونُ في الحين

قالوا: وكم من عاشق أتلف في معشوقه ماله وعِرْضَه ونفسه، وضيَّع أهله ومصالح دينه ودنياه.

قال الزبير بن بكار: جاءت بدوية إلى أخت لها فقالت: كيف بك من حب فلان؟ قالت: حرك والله حبه الساكن، وسكن المتحرك، ثم أنشأت تقول:

فلو أنّ ما بي بالحَصَى فلقَ الحَصَى ... وبالرِّيح لم يُسْمَعْ لهنَّ هُبُوبُ
ولو أنني أستغفرُ الله كلما ... ذكرتُكَ لم تُكْتَبْ عليَّ ذنوبُ

فقلت: والله لأسألنه كيف هو من حبك، فجاءته فسألته فقال: إنما الهوى هوانٌ ولكنه خُولِفَ باسمه، وإنما يَعْرِف ذلك من استَبْكَتْهُ المعَالم والطلول(٥).

---

(١) أفضت: وصلت وبلغت.
(٢) لجاجة: اللجاج: التمادي في العناد.
(٣) لجج: معظم البحر وتردده.
(٤) قدحة: ما يقدح به كالولاعة، وثقاب الكبريت.
(٥) الكلول: جمع طلل وهو: ما يبقى من الديار بعد اندثارها.

وأنشد أبو الفضل الربعى:

قـد أمطرت عـينى دمًا فـدماؤهـا | بعد الدُّموع من الجفون هَوَامِلُ(١)
كـيف العـزاءُ ولا يزال من الضنى | فى الجسم منى والجوانح(٢) نازلُ
لَهْفى على زَمَنٍ مضى تجتـازنى | فـيـه صـروفُ الدهر وهى عَـوَاقِلُ

قالوا: والعشق هو الداء الدوى(٣) الذى تذوب معه الارواح، ولا يقع معه الارتياح، بل هو بحر من ركبه غرق، فإنه لا ساحل له ولا نجاة منه، وهو الذى قال فيه القائل:

ومـا أحـدٌ فى الناس يُحْـمَـدُ أمـرُه | فـيـوجـد إلا وهو فى الْحب أحـمق
ومـا أحدٌ مـا ذاق بُؤْسَ مـعـيشـةٍ | فـيعـشـق إلا ذاقـهـا حـيـن يعـشـق

وقال العباس بن الأحنف:

ويحَ المحبين ما أشقى نفوسَهـم | إن كان مثلُ الـذى بى بـالمحبِّينـا
يُشْقَوْنَ فى هـذه الدنيـا بعشـقهـم | لا يُرْزَقُـون بـه دُنيـا ولا دينـا

وقال آخر:

العـشقُ مَـشْغَلَةٌ عن كل صـالحـةٍ | وَسَكْرَةُ العشقِ تَنْفى لَذَّةَ الوَسَنِ(٤)

وقال محمد بن أبى محمد اليزيدى:

كـيف يطيق الناس وصف الهوى | وهـو جـلـيلٌ مـا لـه قَـدْرُ
بل كـيف يصفـو لحَليـف الهوى | عـيـشٌ وفـيـه البَـيْنُ والْهَـجْـرُ

وقال محمد بن أُمَيَّةَ:

قـريـنُ الحب يـأْنَـسُ بالهـمـوم | ويُكثـر فكـرةَ القلب السـقـيـم
وأعظـمُ مـا يكـون به اغتـبـاطًا | عـلى خـطـرٍ ومُطَّـلعٍ عـظـيـم

وقال أبو تمام(٥):

أما الهوى فهـو العذابُ فإن جرت | فـيـه النوى فـأليم كلّ عـذاب

---

(١) هوامل: دموع العين.
(٢) الجوانح: عظام الضلع القصيرة.
(٣) الدوى: المهلك.
(٤) الوسن: أول النوم.
(٥) هو: أبو تمام حبيب بن أوس بن الحارث بن قيس الطائى، ولد فى أيام الرشيد، من أكابر الشعراء، وشعرة فى الذروة، مات سنة (٢٣٢ هـ).

وقال ابن أبي حُصَيْنَة:

والعشقُ يجتذب النفوس إلى الردى ... بالطبع واحَسَدِى لمن لم يعشق

وقال ابن المعتز[1]:

الحب داءٌ عُضالٌ[2] لا دواء له ... يحار فيه الأطباءُ النحاريرُ[3]

قد كنت أحسب أنَّ العاشقين غَلَوْا ... في وصفه فإذا بالقوم تقصيرُ

وقال أعرابي:

ألا ما الهوى والحبّ بالشيء هكذا ... يذلّ به طوع اللسان فيوصفُ

ولكنّه شيءٌ قضى الله أنه ... هو الموتُ أو شيءٌ من الموت أعْنَفُ

فأوّله سقمٌ وآخره ضنًى ... وأوسطُه شوقٌ يَشُفُّ[4] ويُتْلِفُ

وَرَوْعٌ وتسهيدٌ وهم وحسرةٌ ... ووجْدٌ عَلَى وَجْدٍ يزيد ويَضْعُفُ

وقال عبد المحسن الصُّوري[5]:

ما الحبُّ إلا مسلكٌ خَطِرٌ ... عَسِرُ النجاة ومَوْطِئٌ زَلِقُ[6]

وقال آخر:

وكان ابتداء الذى بي مُجُونا[7] ... فلما تمكّن أمسى جنونا

وكنتُ أظنُّ الهوى هيِّنًا ... لاقيتُ منه عذابًا مُهينا

وقالت امرأة:

رأيت الهوى حُلْوًا إذا اجتمع الشملُ

ومرا على الهجران لا بل هو القتلُ

فمن لم يذُق للهجر طعمًا فإنه

إذا ذاق طعم الحب لم يدر ما الوصلُ

---

(١) هو: أبو الحسن عبد الله بن المعتز النيسابوري، توفي سنة (٤٤٧ هـ) قد تقدمت ترجمته.

(٢) عضال: المرض القاتل الذي يعيي من يداويه.

(٣) النحارير: جمع نحرير، وهو: العالم الحاذق في فنه.

(٤) يشف: يمرض، يتلف: يفسد ويهلك.

(٥) هو أبو محمد الصدري عبد المحسن الصوري، شاعر الشام، توفي سنة (٤١٩ هـ).

(٦) موطئ زلق: مكان تنزلق فيه أقدام الواقف.

(٧) مجون: خلاعة.

وقد ذقتُ طعميه على القرب والنَّوَى [١]

فـأبعـدُه قـتلٌ وأقـربه خَـبْلُ [٢]

قـالوا: والعشق يترك الملكَ مملوكًا، والسلطانُ عبدًا، كما قال الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل [٣] وكانَ ملكَ الأندلس:

ظـلَّ من فَـرْطِ حُـبِّـه مـملوكـا ... ولقـد كـان قـبـل ذاك مليكـا

تركَـتْـهُ جـآذرُ [٤] القـصـر صبًّا ... مسـتهامًا على الصعـيـد تَرِيكـا

يجعـلُ الخـدَّ واضعًا فوق تُـرْبِ ... للذى يجعـل الحـريرَ أريكـا

هكـذا يحسـنُ التـذلُّل بالحُـرْ ... رِ إذا كـان فى الهـوى مـملوكـا

وقال الرشيد وقد عشق ثلاثَ جوارٍ من جواريه،ويقال: إنه المأمون:

مَلَكَ الثـلاثُ الآنسـاتُ عنَانـى ... وحَلَلْـنَ من قلبـى بكـلِّ مكـانِ

مـا لى تطاوعـنى البـريـةُ كلُّهـا ... وأُطيعُـهـنّ وهـنّ فى عـصـيـانـى

مـا ذاك إلا أن سلطـانَ الهـوى ... وبه قـويـنَ أعـزُّ من سلطانـى

وقال بعض الملوك فى جارية له عشقها وكانت كثيرةَ التَّجنِّى عليه:

أمـا يـكفـيك أنـك تَمْلكيـنـى ... وأن النـاسَ كلّهـم عـبـيـدى

وأنك لو جـهـدت على تلافـى ... لقلتُ من الرِّضا أحسنتِ زيدى

وقال ابنُ طاهر ملكُ خُراسان [٥]:

فـإنى وإن حنَّت إليك ضـمـائرى ... فما قَدْرُ حُبِّى أن يذلَّ له قدرى

وقال ابن الأحمر ملكُ الأندلس [٦]:

أيا ربَّةَ الْخِدْر التى أذهبت نُسكى [٧] ... على كل حالٍ أنتِ لا بُدّ لى منكِ

فـإما بذلٍّ وهـو أَلْيَقُ بالهـوى ... وإمَّـا بعـزٍّ وهو أَليـقُ بالملـكِ

---

(١) النوى :الرحيل والبعاد. (٢) خبل :الخبل هو: الجنون.

(٣)هو: أبو العاصى المرتضى، عبد الرحمن بن الداخل الأموى، أمير الأندلس، حكم (٣٧) سنة، ومات سنة (٣٠٦ هـ).

(٤) جآذر :جمع جؤذر، و هو: البقر الوحشى، مستهامًا :والهًا، الصعيد :المكان المرتفع.

(٥)هو: أبو أحمد عبد الله بن عبد الله بن طاهر الخذاعى، كان شاعرًا بليغًا، مات سنة (٣٠٠هـ).

(٦)هو: أبو بكر محمد بن معاوية بن عبد الرحمن الأموى القرطبى، المعروف بابن الأحمر، كان محدثًا وشيخًا ثقة، مات سنة (٣٥٨ هـ).

(٧) نسكى :العبادة الخاصة بفريضة الحج.

قــالوا: وكم ممن هرب من الحبّ إلى مظانّ التلف ليتخلص من التلف بالتلف. قال دعبل الشاعر: كنت بالثغر(١) فنودى بالنفير، فخرجت مع الناس فإذا بفتًى يَجُرّ رمحه بين يدى فالتفت فنظر إلى فقال: انت دعبل؟ قلت: نعم، قال: اسمع منّى، ثم أنشدنى فقال:

أنا في أمــــرَىْ رشــــادِ بيـن غــــزوٍ وجــــهــادِ
بـدَنـى يـغــــــزو عـــدوّى والهــــوى يغــــزو فـــؤادى

ثم قال: كيف ترى؟ قلت: جيد والله، قال: فوالله ما خرجت إلا هاربًا من الحبّ، ثم قاتل حتى قُتل.

وقال أصرم بن حميد:

نحن قـــومٌ تُـلينُنـا الحـــدَق النُّجْــ
ـــلُ عـلى أننـا نُـلين الحـــديـدا
طوع أيدى الظِّبــاء تقــتــادنا العِــيــ
ـــنُ ونقــتــادُ بالطِّعـــان الأســـودا
تتّــقى ســخطَنا الليــوثُ ونخــشى
صَوْلَة(٢) الخِشْف(٣) حين يبدى الصدودا
وترانـا عـنــــد الـكـريـهـــة أحْـــرا
رًا وفى السلــم للغــوانــى عَـــبــيــدا

قــالوا: ورأينا الداخل فيه يتمنى منه الخلاص، ولات حين مناص، قال الخرائطى: أنشدنى أبو جعفر العبدى:

إنِ اللهَ نجَّـانى من الحبّ لم أعـدِ إليـه ولم أقـبل مـقــالةَ عــاذلى
ومن لى بمَنْجَاةٍ من الحـبّ بعد ما رمتنى دواعى الحبّ بين الحبائل

وقال أبو عبيدة: الحبائل الموت، قال: وأنشدنى أبو عبيد الله بن الدولابى:

دعـوتُ ربى دعـاءً فـاسـتــجــاب له
كـــمــــا دعـــا ربّـه نــوحٌ وأيـــوبُ
أن يَنْزِعَ الداءَ من صـدرى ويجـــعلَـه
فى صـــدر سَلْمَى وحـملُ الداء تعطيبُ

---

(١) الثغر: الميناء.
(٢) صولة: جولة وسطوة.
(٣) الخشف: اسم ولد الظبية.

أو يَـشْـفِ(١) قلبي سريعًا من صَبابته
فــلا أحِنُّ إذا حَنّ المَطاريبُ

قالوا: وكم أكبّتْ فتنة العشق رءُوسًا على مناخرها فى الجحيم، وأسلمتهم إلى مقاساة العذاب الأليم، وجرّعتهم بين أطباق النار كئوس الحميم، وكم أخرجت من شاء الله من العلم والدين، كخروج الشعرة من العجين، وكم أزالت من نعمة، وأحلت من نقمة، وكم أنزلت من معقل عزه عزيزًا فإذا هو من الأذلين، ووضعت من شريف رفيع القدر والمنصب فإذا هو فى أسفل السافلين، وكم كشفت من عورة، وأحدثت من روعة، وأعقبت من ألم، وأحلت من ندم، وكم أضرمت من نار حسرات أحرقت فيها الأكباد، وأذهبت قدرًا كان للعبد عند الله وفى قلوب العباد، وكم جلبت من جهْد البلاء، ودَرْك الشقاء، وسوء القضاء، وشماتة الأعداء، فقل أن يفارقها زوال نعمة، أو فجاءة نقمة، أو تحويل عافية، أو طروق بلية، أو حدوث رزية، فلو سألت النعم ما الذى أزالك؟ والنقم ما الذى أدالك(٢)؟ والهموم والأحزان ما الذى جلبك؟ والعافية ما الذى أبعدك وجنبك؟ والستر ما الذى كشفك؟ والوجه ما الذى أذهب نورك وكسفك؟ والحياة ما الذى كدرك؟ وشمس الإيمان ما الذى كورك(٣)؟ وعزة النفس ما الذى أذلّك؟ وبالهوان بعد الإكرام بدَّلك؟ لأجابتك بلسان الحال اعتبارًا، إن لم تجب بالمقال حوارًا.

هذه والله بعض جنايات العشق على أصحابه لو كانوا يعقلون: ﴿ **فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ** ﴾ (النمل: ٥٢) ويكفى اللبيب موعظة واستبصارًا، ما قصه الله – سبحانه وتعالى – عليه فى سورة الأعراف فى شأن أصحاب الهوى المذموم تحذيرًا واعتبارًا، فبدأ سبحانه وتعالى بهوى إبليس الحامل له على التكبر عن طاعة الله عزَّ وجَلَّ فى أمره بالسجود لآدم، فحمله هوى النفس، وإعجابه بها على أن عصى أمره، وتكبر على طاعته، فكان من أمره ما كان، ثم ذكر سبحانه هوى آدم حين رغب فى الخلود فى الجنة وحمله هواه على أن أكل من الشجرة التى نُهى عنها، وكان الحامل له على ذلك هوى النفس ومحبتها للخلود، فكان عاقبةُ ذلك الهوى والشهوة إخراجَه منها إلى دار التعب

(١) يشف: يقال: شفى الله العليل شفاء: أبرأه من علته، المعجم الوجيز (٣٤٧) المطاريب: جمع مطرب وهو: المغنى حسن الصوت والأداء.
(٢) أدالك: جعلك غالبًا.
(٣) كورك: جمع ضوؤها وصار كالكرة، المعجم الوجيز (٥٤٥).

والنَّصَب. وقيل: إنه إنما أكل منها طاعة لحواء، فحمله حبه لها أن أطاعها ودخل فى هواها، وإنما توصل إليه عدوه من طريقها؟ ودخل عليه من بابها. فأول فتنةٍ كانت فى هذا العالم بسبب النساء.

ثم ذكر سبحانه فتنة الكفّار الذين أشركوا به ما لم ينزل به سلطانًا، وابتدعوا فى دينه ما لم يشرعه، وحرّموا زينته التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق، وتعبدوا له بالفواحش وزعموا أنه أمرهم بها، واتخذوا الشياطين أولياء من دونه، والحامل لهم على ذلك كله الهوى والحب الفاسد، وعليه حاربوا رسله، وكذبوا كتبه، وبذلوا أنفسهم وأموالهم وأهليهم دونه حتى خسروا الدنيا والآخرة.

ثم ذكر سبحانه وتعالى قصّة قوم نوح وما أصارهم إليه الهوى من الغَرَق فى الدنيا ودخول النار فى الآخرة. ثم ذكر قصة عاد وما أفضى إليه بهم الهوى من الهلاك الفظيع والعقوبة المستمرة ثم قصة قوم صالح كذلك، ثم قصة العشاق، أئمة الفساق، وناكحى الذكران وتاركى النسوان، وكيف أخذهم وهم فى خوضهم (١) يلعبون وقطع دابرهم وهم فى سكر عشقهم يعمهون (٢)، وكيف جمع عليهم من العقوبات ما لم يجمعه على أُمةٍ من الأمم أجمعين، وجعلهم سَلَفًا لإخوانهم اللوطية من المتقدمين والمتأخرين، ولما تجرأوا على هذه المعصية ومردوا (٣)، ونهجوا لإخوانهم طريقًا وقاموا بأمرها وقعدوا، ضجَّت الملائكة إلى الله من ذلك ضجيجًا، وعجت (٤) الأرض إلى ربها من هذا الأمر عجيجًا، وهربت الملائكة إلى أقطار السموات، وشكتهم إلى الله جميع المخلوقات، وهو سبحانه وتعالى قد حكم أنه لا يأخذ الظالمين إلا بعد إقامة الحجة عليهم، والتقدم بالوعد والوعيد إليهم، فأرسل إليهم رسوله الكريم يحذرهم من سوء صنيعهم، وينذرهم عذابه الأليم، فأذن رسول الله ﷺ بالدعوة على رءوس الملإ منهم والأشهاد، وصاح بها بين أظهرهم فى كل حاضر وباد. وقال: فكان فى قوله لهم من أعظم الناصحين: ﴿ **أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ** ﴾ (الأعراف: ٨٠) ثم أعاد لهم القول نصحًا وتحذيرًا، وهم فى سكرة عشقهم لا يعقلون ﴿ **إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ** ﴾

---

(١) خوضهم :يقال: خاض القوم فى الحديث خوضًا: تفاوضوا فيه.

(٢) يعمهون :يتحيرون.

(٣) مردوا :طغوا وتعودوا.

(٤) عجت :العج: رفع الصوت بالتكبير، وذلك فى مناسك الحج.

(الأعراف: ٨١) فأجاب العشاق جواب من أركس فى هواه وغيه فقلبه بعشقه مفتون: ﴿ **قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ** ﴾ (النمل: ٥٦) فلما أن حانَ الوقت المعلوم وجاء ميقات نفوذ القدر المحتوم، أرسل الرحمن تبارك وتعالى لتمام الإنعام والامتحان إلى بيت لوطٍ ملائكة فى صورة البشر، وأجمل ما يكون من الصُّوَر، وجاءوه فى صورة الأضياف النـزُول بـذى الصدر الرحيب، فـ: ﴿ **سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ** ﴾ (هود: ٧٧) وجاء الصريخ إلى اللوطية أن لوطًا قد نزل به شباب لم ينظر إلى مثل حُسْنهم وجمالهم الناظرون، ولا رأى مثلهم الراءون، فنادى اللوطية بعضهم بعضًا أن هلموا إلى منزل لوط ففيه قضاء الشهوات، ونيل أكبر اللذات ﴿ **وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ** ﴾ (هود: ٧٨) فلما دخلوا إليه وهجموا عليه قال لهم وهو كَظيمٌ من الهمٌ والغم وقلبه بالحزن عَميد: ﴿ **يَا قَوْمِ هَؤُلاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ** ﴾ (هود: ٧٨) فلما سمع اللوطية مقاله أجابوه جواب الفاجر المجاهر العنيد: ﴿ **لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ** ﴾ (هود: ٧٩) فقال لهم لوط مقالة المضطهد الوحيد: ﴿ **لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ** ﴾ (هود: ٨٠) فلما رأت رسلُ الله ما يقاسى نبيُّه من اللوطية كشفوا له عن حقيقة الحال وقالوا: هوِّن عليك ﴿ **يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ** ﴾ (هود: ٨١) فسُرَّ نبيّ الله سرور المحب وافاه الفرج بغتةً على يد الحبيب، وقيل له: ﴿ **فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ** ﴾ (هود: ٨١) ولما أبوْا إلا مراودته عن أضيافه ولم يرعوا حق الجار ضرب جبريل بجناحه على وجوههم فطمس منهم الأعين وأعمى الأبصار فخرجوا من عنده عُميانًا يتحسسون[١] ويقولون: ستعلم غداً ما يحل بك أيها المجنون.

فلما انشق عمود الصبح جاء النداء من عند رب الأرباب، أن اخسف بالأمة اللوطية وأذقهم أليم العذاب، فاقتلع القوى الأمين جبريل مدائنهم على ريشة من جناحه ورفعها فى الجو حتى سمعت الملائكة نبيح كلابهم، وصياح ديكتهم ثم قَلَبَها فجعل عاليها سافلها وأتبعوا الحجارة من سجيل وهو الطين المستحجر الشديد، وخوَّف سبحانه إخوانهم على لسان رسوله من هذا الوعيد، فقال تعالى: ﴿ **فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ (٨٢) مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ** ﴾ (هود: ٨٢، ٨٣) فهذه عاقبة اللوطية عشاق الصور وهم السلف وإخوانهم بعدهم على الأثر.

---

(١) يتحسسون: التحسس: التماس الطريق.

وإن لم يكونوا قومَ لوطٍ بعينهم ... فما قومُ لوطٍ منهم ببعيد
وإنهم فى الْخَسْفِ ينتظرونهم ... على موْردٍ من مهلة وصيد
يقولون: لا أهلاً ولا مرحبًا بكم ... ألم يتقدَّم ربُّكم بوعيد
فقالوا بلى لكنَّكم قد سَنَنْتُمُ ... صراطًا لنا فى العشق غيرَ حميد
أتينا به الذُّكْرَانَ من عشقنا لهم ... فأوردنا ذا العشقُ شرَّ ورود
فأنتم بتضعيف العذاب أحقٌّ من ... مُتَابِعكم فى ذاك غيرَ رشيد
فقالوا وأنتم رُسُلكم أنذرتكُمُ ... بما قد لَقِينَاه بصدقِ وعيد
فما لكم فضلٌ علينا فكلّنا ... نذوق عذاب الهُونِ[1] جدً شديد
كما كلُّنا قد ذاق لذّةَ وصلهم ... ومَجْمَعُنَا فى النار غيرُ بعيد

وكذلك قوم شعيب إنما حملهم على بخس المكيال والميزان فرطُ محبتهم للمال، وغلبهم الهوى على طاعة نبيهم حتى أصابهم العذاب.

وكذلك قوم فرعون حملهم الهوى والشهوةُ وعشق الرئاسة على تكذيب موسى حتى آل بهم الأمرُ إلى ما آل. وكذلك أهلُ السبت[2] الذين مُسخوا قردة إنما أتوا من جهة محبة الحيتان وشهوة أكلها والحرص عليها.

وكذلك الذى آتاه الرب تبارك وتعالى آياته ﴿ **فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ** ﴾ (الأعراف: ١٧٥) وقال تعالى: ﴿ **وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث** ﴾ (الأعراف: ١٧٦) وتأمَّلْ قوله تعالى: ﴿ **آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا** ﴾ فأخبر أن ذلك إنما حصل له بإيتاء الرب له لا بتحصيله هو. ثم قال: ﴿ **فَانسَلَخَ مِنْهَا** ﴾ ولم يقل فسلخناه، بل أضاف الانسلاخ إليه وعبر عن براءته منها بلفظة الانسلاخ الدالة على تخليه عنها بالكلية، وهذا شأن الكافر. وأما المؤمن ولو عصى الله تبارك وتعالى ما عصاه فإنه لا ينسلخ من الإيمان بالكلية، ثم قال: ﴿ **فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ** ﴾ ولم يقل فتبعه، فإن فى أتبعه إعلامًا بانه أدركه ولحقه، كما قال الله تعالى: ﴿ **فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ** ﴾ (الشعراء: ٦٠) أى لحقوهم ووصلوا إليهم ثم قال: ﴿ **وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا** ﴾ ففى ذلك دليل على أن مجرد العلم لا يرفع صاحبه، فهذا قد أخبر الله سبحانه أنه آتاه آياته ولم

---

(١) الهون: العار والخزى.

(٢) أهل السبت: أصحاب القرية التى كانت حاضرة البحر، وقصتهم فى سورة الأعراف (١٦٣: ١٦٦).

يرفعه بها، فالرفعة بالعلم قدرٌ زائدٌ على مجرد تعلمه، ثم أخبر الله عز وجل عن السبب الذى منعه أن يُرفع بها فقال: ﴿ **وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ** ﴾ وقوله: ﴿ **أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ** ﴾ أى سكن إليها ونزل بطبعه إليها، فكانت نفسه أرضية سفلية لا سماوية علوية، وبحسب ما يخلد العبد إلى الأرض يهبط من السماء، قال سهل: قسم الله الأعضاء من الهوى، لكل عضوٍ منه حظا. فإذا مال عضوٌ منها إلى الهوى رجع ضرره إلى القلب. وللنفس سبع حجب سماوية وسبع[1] حجب أرضية فكلما دفن العبد نفسه أرضًا أرضًا سما قلبه سماء سماء فإذا دفن النفس تحت الثرى، وصل القلبُ إلى العرش. ثم ذكر سبحانه مثل المتبع لهواه كمثل الكلب الذى لا يفارقه اللهث فى حالتى تركه والحمل عليه، فهكذا هذا لا يفارقه اللهث على الدنيا راغبًا وراهبًا.

والمقصود أن هذه السورة من أوّلها إلى آخرها فى ذكر حال أهل الهوى والشهوات وما آل إليه أمرُهم، فالعشق والهوى أصلُ كل بلية. قال عَدِيُّ بن ثابت[2] : كان فى زمن بنى إسرائيل راهبٌ يعبد الله حتى كان يؤتى بالمجانين يُعوِّذهم فيبرأُون على يديه، وإنه أُتى بامرأة ذاتِ شرفٍ من قومها قد جُنَّت، وكان لها إخوةٌ فأتَوْه بها فلم يزل الشيطان يزين له حتى وقع عليها فحملت، فلما استبان حَمْلها لم يزل يخوفه ويزين له قتلها حتى قتلها ودفنها، فذهب الشيطان فى صورة رجل حتى أتى بعض إخوتها فأخبره بالذى فعل الراهب، ثم أتى بقية إخوتها رجلاً رجلاً، فجعل الرجل يلقى أخاه فيقول: والله لقد أتانى آتٍ فذكر لى شيئًا كَبُرَ علىّ ذكرُه، فذكر ذلك بعضُهم لبعض حتى رفعوا ذلك إلى ملكهم، فسار الناس إليه حتى استنزلوه من صَوْمعته فاقرّ لهم بالذى فعل، فأمر به فصُلب، فلما رُفع على الخشبة تمثل له الشيطان فقال: أنا الذى زينتُ لك هذا وألقيتك فيه، فهل أنت مُطيعى فيما أقول لك وأخلصك؟ قال: نعم، قال: تسجد لى سجدة واحدة، فسجد له وقُتل الرجل[3] ، فهو قول الله تعالى: ﴿ **كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ** ﴾ (الحشر: ١٦) .

---

(١) الصواب «سبعة» وهو كذلك فى بعض النسخ.

(٢) هو: الإمام الحافظ عدى بن ثابت الخطمى الأنصارى الكوفى، مات سنة (١١٦ هـ).

(٣) حسن: رواه عبد الرزاق فى «تفسيره» (٢/ ٢٨٥) والحاكم (٢/ ٤٨٤) والبيهقى فى «الشعب» (٥٤٥١) قد توسع فى تخريجه الشيخ سليم الهلالى فى كتابه الفذ «الاستيعاب» (٣/٣٧٢/٣٧٣).

وقال واصل مولى أبي عيينة: دخلت على محمد بن سيرين فقال لي: هل تزوجت؟ فقلت: لا، قال: وما يمنعك؟ قلت: قلة الشيء، قال: تزوّجَ عبد الله بن محمد بن سيرين ولا شيء له فرزقه الله.

ثم حدَّث أن امرأةً من بني إسرائيل يقال لها: ميسونة خاصمت إلى حَبْرَيْن[١] من بني إسرائيل فعلقاها[٢] قال: وكان كلّ واحدٍ منهما يكتُمُ صاحبَه ما يجد منها، فأُخبرا أنها في حائط[٣] تغتسل، قال: فجاءا فتسوَّرا عليها الحائط. فلما رأتهما دخلت غَمْرًا[٤] من الماء فوارت نفسها، فقالا لها: إنك إن لم تفعلي غدونا فشهدنا عليك بالزُّور، فأبت فشهدا عليها. فلما قرّبت ليقام عليها الحدُّ نزل الوحي على دانيال بتكذيبهما، فهذا بعض فتنة العشق.

وقد روى شعبة عن عبد الملك بن عمير قال: سمعت مصعب بن سعد يقول: كان سعد يعلمنا هذا الدعاء ويذكره عن النبي ﷺ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ النِّسَاءِ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ»[٥] .

وقال الحسن بن عرفة: حدثنا أبو معاوية الضرير عن ليث، عن طاوس، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: إنه لم يكن كفرُ مَن مضى إلا من قبل النساء، وهو كفر من بقي أيضًا.

وقد روى سفيان بن عيينة، عن سليمان التيمي، عن أبي عثمان النهدي، عن أسامة ابن زيد رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا تَرَكْتُ عَلَى أُمَّتِي بَعْدِي أَضَرَّ عَلَى الرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ»[٦] .

وروى أبو إسحاق، عن هبيرة بن يريم، عن عليّ بن أبي طالب كرَّم الله وجهه ورضي عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي الخَمْرُ وَالنِّسَاءُ»[٧] . وقال عليّ بن حرب: حدثنا سفيان بن عيينة، عن علي بن زيد، عن سعيد بن المسيب قال: ما أيس الشيطان من أحد قط إلا أتاه من قبل النساء[٨] .

---

(١) حبرين: عالمين من علماء بني إسرائيل. (٢) علقاها: أغرما بها.

(٣) حائط: الحائط: هو البستان.

(٤) غمرًا: الغمر: الماء الكثير.

(٥) ضعيف: رواه الخرائطي في «اعتلال القلوب» وضعفه الألباني في «الضعيفة» (١٢٠٣).

(٦) صحيح: رواه البخاري (٩٩٦) ومسلم (٢٧٤٠).

(٧) تقدم.

(٨) ضعيف: في سنده علي بن زيد بن جدعان.

وروى سفيان بن حسين، عن يَعْلى بن مسلم، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «قيل لآدم ما حملك على أكل الشجرة؟ قال: يا رب زينت لى حواء، قال: فإنى قد عاقبتها لا تحمل إلا كرها، ولا تضع إلا كرها، وأدميتها فى الشهر مرتين».

وقال ابن عباس رضي الله عنهما، أو غيره: «أوَّل فتنة بنى إسرائيل كانت من قِبَل النساء».

قالوا: ويكفى من مضرة العشق ما اشتهر من مصارع العشاق، وذلك موجودٌ فى كل زمان.

فهذا بعض ما احتجَّت به هذه الفرقة قولها. ونحن نعقد للحكم بين الطائفتين بابًا مستقلاً بعون الله تعالى.

الباب السادس عشر:

فى الحكم بين الفريقين

وفصل النزاع بين الطائفتين

فنقول: العشق لا يُحْمَد مطلقًا ولا يذم مطلقًا، وإنما يحمد ويذم باعتبار متعلقه، فإن الإرادة تابعةٌ لمرادها، والحب تابع للمحبوب، فمتى كان المحبوب مما يُحب لذاته أو وسيلة توصله إلى ما يحب لذاته، لم تذم المبالغة فى محبته بل تحمد. وصلاح حال المحب كذلك بحسب قوة محبته.

ولهذا كان أعظم صلاح العبد أن يصرف قوى حبّه كلها لله تعالى وحده بحيث يحب الله بكلِّ قلبه وروحه وجوارحه، فيوحد محبوبه ويوحد حبه، وسيأتى إن شاء الله تعالى فى باب «توحيد المحبوب»: أن المحبة لا تصح إلا بذلك، فتوحيد المحبوب أن لا يتعدد محبوبه، وتوحيد الحب أن لا يبقى فى قلبه بقية حب حتى يبذلها له، فهذا الحب وإن سمى عشقًا فهو غاية صلاح العبد ونعيمه وقرة عينه، وليس لقلبه صلاح ولا نعيم إلا بأن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن تكون محبته لغير الله تابعة لمحبة الله، فلا يحب إلا لله، كما فى الحديث الصحيح: «ثَلاثٌ مَنْ كُنَّ فيه وَجَد بهنَّ حَلاوَةَ الإيمَان: مَنْ كَانَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْه ممَّا سوَاهُمَا، وَمَنْ كَانَ يُحبُّ المَرْءَ لا يُحبّهُ إلا لله، وَمَنْ كَانَ يَكْرَهُ أنْ يَرْجعَ في الكُفْر بَعْدَ إذْ أنْقَذَهُ اللهُ منْهُ كَمَا يَكْرَهُ أنْ يُلْقَى فى النَّار»[1] فأخبر أن العبد لا يجد حلاوة الإيمان إلا بأن يكون اللهُ أحب إليه مما سواه، ومحبة رسوله هى من محبته، ومحبة المرء إن كانت لله فهى من محبة الله، وإن كانت لغير الله فهى منقصة لمحبة الله مضعفة لها، وتصدق هذه المحبة بأن يكون كراهتُه لأبغض الأشياء إلى محبوبه وهو الكفر بمنزلة كراهته لإلقائه فى النار أو أشد، ولا ريب أن هذا من أعظم المحبة، فإن الإنسان لا يقدّم عَلَى محبة نفسه وحياته شيئًا، فإذا قدم محبة الإيمان بالله على نفسه بحيث لو خُيِّر بين الكفر وإلقائه فى النار لاختار أن يُلقى فى النار ولا يكفرَ كان الله أحبَّ إليه من نفسه، وهذه المحبةُ هى فوق ما يجده سائر العُشَّاق والمحبين من محبة محبوبهم، بل لا نظير لهذه المحبة كما لا مِثْل لمن تعلّقت به وهى محبةٌ تقتضى تقديمَ المحبوب

---

(١) صحيح: رواه البخارى (١٦) ومسلم (٤٣).

فيها على النفس والمال والولد، وتقتضى كمال الذلّ والخضوع والتعظيم والإجلال والطاعة والانقياد ظاهرًا وباطنًا، وهذا لا نظير له فى محبة مخلوق ولو كان المخلوق من كان.

ولهذا من أشرك بين الله وبين غيره فى هذه المحبة الخاصة كان مشركًا شركًا لا يَغْفِرُه الله كما قال الله تعالى: ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ** ﴾ (البقرة: ١٦٥) والصحيح أن معنى الآية: والذين آمنوا أشد حبًّا لله من أهل الأنداد لأندادهم، كما تقدم بيانه، أن محبة المؤمنين لربهم لايماثلها محبة مخلوق أصلاً كما لا يماثل محبوبهم غيره. وكل أذى فى محبة غيره فهو نعيم فى محبته، وكل مكروه فى محبة غيره فهو قرة عين(١) فى محبته.

ومن ضرب لمحبته الأمثال التى هى فى محبة المخلوق للمخلوق كالوصل والهجر والتجنى بلا سبب من المحب وأمثال ذلك مما يتعالى الله عنه علوًّا كبيرًا فهو مخطئ أقبح الخطأ وأفحشه، وهو حقيق بالإبعاد والمقت. والآفة إنما هى من نفسه وقلة أدبه مع محبوبه، والله تعالى نهى أن يضرب عباده له الأمثال فهو لا يقاس بخلقه. وما ابتدع من ابتدع إلا من ضرب الأمثال له سبحانه. فأصحاب الكلام المحدث المبتدع ضربوا له الأمثال الباطلة فى الخبر عنه وما يوصف به، وأصحاب الإرادة المنحرفة ضربوا له الأمثال فى الإرادة والطلب. وكلاهما على بدعة وخطأ.

والعشق إذا تعلق بما يحبه الله ورسوله كان عشقًا ممدوحًا مثابًا عليه. وذلك أنواع: أحدها: محبة القرآن، بحيث يغنى بسماعه عن سماع غيره، ويهيم قلبه فى معانيه ومراد المتكلّم سبحانه منه، وعلى قدر محبة الله تكون محبة كلامه، فمن أحب محبوبًا أحبّ حديثه والحديث عنه كما قيل:

إن كنت تزعُمُ حبّى ... فلِمَ هجرتَ كتابى
أما تأمّلت ما فيـ ... ـه من لذيذ خطابى

وكذلك محبة ذكْره سبحانه وتعالى من علامة محبته، فإن المحب لا يشبع من ذكر محبوبه، بل لا ينساه فيحتاج إلى من يذكّره به. وكذلك يحب سماع أوصافه وأفعاله وأحكامه، فعشق هذا كله من أنفع العشق، وهو غاية سعادة العاشق، وكذلك عشقُ العلم

(١) قرة عين: أى نور العين.

النافع، وعشقُ أوصاف الكمال من الكرم والجود والعفة والشجاعة والصبر ومكارم الأخلاق، فإن هذه الصفات لو صُوِّرت صُوَرًا لكانت من أجمل الصُّوَر وأبهاها، ولو صُوِر العلم صُورةً لكانت أجملَ من صُورة الشمس والقمر، ولكن عشق هذه الصفات إنما يناسب الأنفس الشريفة الزكية، كما أن محبة الله ورسوله وكلامه ودينه إنما تناسب الأرواح العلوية السمائية الزكية، لا الأرواحَ الأرضية الدَّنيَّة، فإذا أردت أن تعرف قيمةَ العبد وقدرَه فانظر إلى محبوبه ومُراده. واعلم أن العشق المحمود لا يعرض فيه شيءٌ من الآفات المذكورة.

بقي ههنا قسمٌ آخرُ، وهو عشق محمود يترتب عليه مفارقة المعشوق، كمن يعشق امرأته أو أَمَته فيفارقها بموت أو غيره فيذهب المعشوق ويبقى العشق كما هو، فهذا نوع من الابتلاء إن صبر صاحبُه واحتسب نال ثواب الصابرين، وإن سخط وجزع فاته معشوقه وثوابه، وإن قابل هذه البلوى بالرضا والتسليم فدرجته فوق درجة الصبر. وأعلى من ذلك أن يقابلها بالشكر نظرًا إلى حسن اختيار الله له، فإنه ما يقضي الله للمؤمن قضاء إلا كان خيرًا له، فإذا علم أن هذا القضاء خير له اقتضى ذلك شكره لله على ذلك الخير الذي قضاه له، وإن لم يعلم كونه خيرًا له فليسلم للصادق المصدوق في خبره المؤكد باليمين حيث يقول: «وَالذي نَفْسي بيَده لا يَقْضي اللهُ للْمُؤْمنِ منْ قَضَاء إلا كَانَ خَيْرًا لَهُ: إنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاء شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَلَيْسَ ذَلكَ إلا للْمُؤْمنِ»[١].
وإيمانُ العبد يأمره بأن يعتقد بأن ذلك القضاء خير له؛ وذلك يقتضي شكر من قضاه وقدره وبالله التوفيق.

---

(١) صحيح: رواه أحمد (٤/ ٣٣٢) ومسلم (٢٩٩٩).

الباب السابع عشر:

فى استحباب تخير الصور الجميلة للوصال الذى يحبه الله ورسوله

قال الله تعالى عقيب ذكره ما أحل لعباده من الزوجات والإماء وما حرَّم عليهم ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٢٦) وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيمًا (٢٧) يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا ﴾ (النساء: ٢٦ - ٢٨)أى لا يصبر عن النساء، كما ذكر الثورى عن ابن طاوس عن أبيه: ﴿ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا ﴾ . قال: إذا نظر إلى النساء لم يصبر [١]وكذلك قال غير واحد من السَّلَف. ولما كانت الشهوةُ فى هذا الباب غالبةً لا بدَّ أن توجب ما يوجب التوبة، كرر سبحانه وتعالى ذكر التوبة مرتين، فاخبر أنَّ متبعى الشهوات يريدون من عباده أن يميلوا ميلاً عظيمًا، واخبر سبحانه وتعالى أنه يريد التخفيف عنا لضعفنا، فأباح لنا أن ننكح ما طاب لنا من أطايب النساء أربعًا، وأن نتسرَّى من الإماء بما شئنا.

ولما كان العبد له فى هذا الباب ثلاثة أحوال: حالة جهل بما يحل له ويحرم عليه، وحالة تقصير وتفريط، وحالة ضعف وقلة صبر، قابل سبحانه جهل عبده بالبيان والهدى، وتقصيره وتفريطه بالتوبة، وضعفه وقلة صبره بالتخفيف.

وقال عبد الله بن أحمد فى كتاب «الزهد» لأبيه: حدثنا أبو معمر، حدثنا يوسف بن عطية، عن ثابت، عن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «جُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِى فِى الصَّلاة، وَحُبِّبَ إِلَىَّ النِّسَاءُ وَالطِّيبُ، الْجَائِعُ يَشْبَعُ وَالظَّمْآنُ يَرْوى وَأَنَا لا أَشْبَعُ مِنْ حُبِّ الصَّلاةِ وَالنِّسَاءِ» [٢]وأصله فى «صحيح مسلم» بدون هذه الزيادة.

وفى صحيح مسلم من حديث عروة عن عائشة ﷺ قالت: «لما أصاب رسول الله ﷺ سبايا بنى المصطلق وقعت جويرية بنت الحارث بن أبى ضرار فى السهم لثابت بن

---

(١) رواه ابن جرير الطبرى فى «جامع البيان» (٩١٣٧).

(٢) صحيح رواه احمد (٣/ ١٢٨) والنسائى (٣/ ٧٢٩) والحاكم (٢/ ١٦٠) وصححه الألبانى فى «صحيح الجامع» (٣١٢٤).

قيس بن الشماس أو لابن عم له، فكاتبت [1] على نفسها، وكانت امرأة جميلة حلوة لا يراها أحد إلا أخذت بنفسه، فأتت رسول الله ﷺ تستعينه على كتابتها، قالت: فوالله ما هو إلا أن رأيتُها على باب الحجرة فكرهتها، وعلمت أن رسول الله ﷺ يرى منها ما رأيت، فقالت: يا رسول الله، أنا جُويرية بنت الحارث بن أبي ضرار، سيد قومه، وقد أصابني من البلاء ما لم يخف عليك، فوقعت في السهم لثابت بن قيس بن الشماس أو لابن عم له، فجئت رسول الله ﷺ أستعينه، قال: «فَهَلْ لَكِ فِي غَيْرِ ذَلِكَ؟» قالت: وما هو؟ قال: «أَقْضِي كِتَابَتَكِ وَأَتَزَوَّجُكِ» قالت: نعم يا رسول الله قد فعلت. وخرج الخبرُ إلى الناس أن رسول الله ﷺ تزوج جويرية بنت الحارث، فقال الناس: أصهار رسول الله ﷺ فأرسلوا [2] ما بأيديهم، قالت: فلقد أُعتق بتزويجه إياها مائة أهل بيت من بني المصطلق، فما أعلم امرأةً كانت أعظم بركة على قومها منها» [3].

وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: خرج سهمي يوم جَلولاء [4] جارية كأنَّ عنقها إبريق فضة، فما ملكت نفسي أن قمت إليها فقبّلتها.

وفي «الصحيحين» من حديث أنس رضي الله عنه قال: «قدم رسول الله ﷺ خيبر فلما فتح الله عليه الحصن، ذكر له جمال صفية بنت حُييّ وقد قتل زوجها وكانت عروسًا، فاصطفاها رسول الله ﷺ لنفسه، فخرج بها حتى بلغا سد الروحاء، فبنى بها ثم صنع حيسًا في نطع صغير، ثم قال رسول الله ﷺ: «آذِنْ مَنْ حَوْلَكَ» فكانت تلك وليمةَ رسول الله ﷺ على صفية، ثم خرجنا إلى المدينة فرأيت رسول الله ﷺ يحوي لها وراءه بعباءة، ثم يجلس عند بعيره فيضع ركبته فتضع صفية رجلها على ركبته حتى تركب» وعند أبي داود في هذه القصة قال: وقع في سهم دحية جارية جميلة فاشتراها رسول الله ﷺ بسبعة أرؤس، ثم دفعها إلى أم سليم تصنعها وتهيئها وتعتد في بيتها، وهي صفية بنت حيي [5].

وقال أبو عبيدة: حج عبد الملك بن مروان ومعه خالد بن يزيد بن معاوية، وكان خالد

---

(١) فكاتبت: يقال: كاتب السيد العبد: كتب بينه وبينه اتفاقًا على مال يقسطه له، فإذا ما دفعه صار حرًا.

(٢) أرسلوا: أهملوا وتركوا.

(٣) حسن رواه أحمد (٦/ ٢٧٧) وأبو داود (٣٩٣١) وقد وهم المصنف في عزوه لمسلم.

(٤) جلولاء: اسم معركة كانت بين المسلمين والفرس، وجلولاء مكان بخرسان، وكانت هذه المعركة سنة (١٦ هـ).

(٥) صحيح رواه البخاري (٥٤٢٥) ومسلم (١٣٦٥) وأبو داود (٢٩٩٧) وأحمد (٣/ ١٥٩).

هذا من رجالات قريش المعدودين، وكان عظيم القدر عند عبد الملك، فبينما هو يطوف بالبيت إذ بصر برملة بنت الزبير بن العوام فعشقها عشقًا شديدًا، ووقعت بقلبه وقوعًا متمكنًا، فلما أراد عبد الملك القفول[١] هَمَّ خالد بالتخلف عنه، فوقع بقلب عبد الملك تهمة، فبعث إليه فسأله عن أمره، فقال: يا أمير المؤمنين، رملة بنت الزبير، رأيتها تطوف بالبيت فأذهلت عقلى، والله ما أبديت إليك ما بى حتى عيل صبرى. ولقد عرضت النوم على عينى فلم تقبله، والسلو[٢] على قلبى فامتنع منه. فأطال عبد الملك التعجب من ذلك وقال: ما كنت أقول: إن الهوى يستأسر مثلك، قال: فإنى لأشد تعجبًا من تعجبك منى. ولقد كنت أقول: إن الهوى لا يتمكن إلا من صنفين من الناس: الشعراء والأعراب. أما الشعراء فإنهم ألزموا قلوبهم الفكر فى النساء ووصفهن والتغزل فمال طبعهم إلى النساء فضعفت قلوبهم عن دفع الهوى فاستسلموا إليه منقادين. وأما الأعراب، فإن أحدهم يخلو بامرأته فلا يكون الغالب عليه غير حبه لها، ولا يشغله عنه شىء، فضعفوا عن دفع الهوى فتمكن منهم. فما رأيت نظرة حالت بينى وبين الحزم، وحسنت عندى ركوب الإثم، مثل نظرتى هذه، فتبسم عبد الملك فقال: أفكل هذا قد بلغ بك؟ فقال: والله ما عرتنى[٣] هذه البلية قبل وقتى هذا. فوجَّه عبد الملك إلى الزبير يخطب رملة على خالد، فذكروا لها ذلك فقالت: لا والله أو يطلق نساءه، فطلق امرأتين كانتا عنده، وظعن[٤] بها إلى الشام وكان يقول:

أليس يزيد الشوقُ فى كل ليلة	وفى كل يوم من حبيبتنا قرْبا
خليليّ ما من ساعة تَذْكُرانِهَا	من الدهر إلا فرّجت عنى الكَربا
أحبّ بنى العَوَّام طُرا لحبها	ومن أجلها أحببت أخوالها كَلْبا
تجول خَلاخيلُ النساء ولا أرى	لرَمْلَةَ خَلْخالا يجول ولا قُلْبا[٥]

وذكر الخرائطى: أن بشرَ بن مَرْوان كان إذا ضرب البَعث[٦] على أحد من جنده ثم

---

(١) القفول: العودة والإياب.
(٢) السلو: النسيان والتسلى.
(٣) عرقتنى: غشيتنى وأصابتنى.
(٤) ظعن: الظعن: الارتحال والسير، المعجم الوجيز (٤٠٠).
(٥) قُلْبًا: سوار المرأة، وهو نوع من أنواع حلى المرأة.
(٦) ضرب البعث: أرسل جيشًا إلى أحد الثغور.

وجده قد أخل بمركزه أقامه على كرسى ثم سمر يديه فى الحائط، ثم انتزع الكرسى من تحت رجليه، فلا يزال يتشحط حتى يموت. وأنه ضرب البعث على رجل عاشق حديث عهد بعرس ابنة عمه، فلما صار فى مركزه كتب إلى ابنة عمه كتابًا، ثم كتب فى أسفله:

لولا مــخــافــةُ بشرٍ أو عــقـــوبتُــه وأن يُرى بعــد ذا فى الكف مــســمــار
إذًا لعطّلت ثغـــــرى ثم زُرتـكم إن المــحـــب إذا مــا اشـتــاق زَوَّار

فلما ورد عليها الكتاب أجابته عنه، ثم كتبت فى أسفله:

ليس المحبُّ الذى يخشى العقابَ ولو كــانت عــقــوبتُــه فى فَـجْــوَةِ النــارِ
بل المــحــبُّ الذى لا شىء يُفْــزِعــه أو يَســتــقــرُّ ومن يهــواه فى الدارِ

فلما قرأ الكتاب قال: لا خير فى الحياة بعد هذا. واقبل حتى دخل المدينة فاتى بشر ابن مروان فى وقت غدائه، فلما فرغ من غدائه أُدخل عليه فقال: ما الذى دعاك إلى تعطيل ثغرك؟ أما سمعت النداء؟ فقال: اسمع عذرى، فإما عفوت وإما عاقبت. فقال: ويلك وهل لك من عذرٍ؟ فقص عليه قصته وقصة ابنة عمه فقال: أولى لكما، يا غلام، خط على اسمه من البعث وأعطه عشرة آلاف درهم والحق بابنة عمك:

ســهــرتُ ومن أهدى لىَ الشوقَ نائم وعــذّب قلبى بالهــوى وهو ســالمُ
فواحــســرتا حــتى مــتى أنا قــائـــلٌ لمن لامنى فى حــبِّكم أنت ظالـمُ
وحــتى مــتى أُخــفى الهــوى وأُســرُّه أدفنُ شــوقى فى الحــشــا وأُكــاتــمُ
أريــد الـذى قــد سرُّكم بمــســاءتــى لِيَــغْــفُـــلَ واشٍ أو ليُــعْــذَرَ لائــمُ

وقال آخر:

بى لا بهـــا مـــا أُقـــاســـى من تَجَنِّيــا
ومن جوى الحب (١)فى الأحشاء افديها
واللهُ يــعــلـــــم انــــــى لا أُسَـــــرُّ بــان
تلقــى من الوجــد مــا لاقَــيْــتُــه فــيــهــا
خــوفَ البكاء كــمــا ابكى فــتــتــركنى
ابكى على كــبــدى طــوراً وابكيــهــا

وقال العباس بن هشام الكلبى: ضرب (٢)عبد الملك بن مروان بعثًا إلى اليمن فاقاموا

(١) جوى الحب :الجوى: الحرقة.
(٢) ضرب :عيَّن وولى.

سنين، حتى إذا كان ذات ليلة وهو بدمشق قال: والله لأعسن[١] الليلة مدينة دمشق ولأسمعن الناس ماذا يقولون فى البعث الذى أغزيت فيه رجالهم، وأغرمتهم أموالهم، فبينما هو فى بعض أزقتها إذ هو بصوت امرأة قائمة تصلى فتسمَّع إليها، فلما انصرفت إلى مضجعها قالت: اللهم مسير النجب[٢]، ومنزل الكتب، ومعطى الرغب[٣]، أسألك أن ترد لى غائبى فتكشف به همى، وتقر به عينى، وأسألك أن تحكم بينى وبين عبد الملك ابن مروان الذى فعل بنا هذا، ثم أنشأت تقول:

تطاولَ هذا الليلُ فالعين تَدْمَعُ ... وأرَّقنى حزنٌ لقلبىَ مُوجِعُ
فبتُّ أقاسى الليلَ أرعى نُجومَه ... وبات فؤادى بالجوى يتقطَّعُ
إذا غاب منها كوكبٌ فى مَغيبه ... لَمحْتُ بعينى كوكبًا حين يَطْلُعُ
إذا ما تذكَّرتُ الذى كان بيننا ... وجدتُ فؤادى حسرة يتصدَّعُ
وكلُّ حبيب ذاكرٌ لحبيبه ... يُرَجِّى لقاه كل يوم ويطمعُ
فذا العرشِ فَرِّجْ ما ترى من صبابتى ... فأنت الذى يدعو العبادُ فيسمعُ
دعوتك فى السراء والضُّرِّ دعوةً ... عَلى حاجة بين الشراسيف[٤] تَلْذَعُ

فقال عبد الملك لحاجبه: تعرف هذا المنزل؟ قال: نعم، هذا منزل يزيد بن سنان. قال: فما المرأة منه؟ قال: زوجته، فلما أصبح سأل: كم تصبر المرأة عن زوجها؟ قالوا: ستة أشهر.

وقال جرير بن حازم عن يعلى بن حكيم، عن سعيد بن جبير قال: كان عمر بن الخطاب ﷺ إذا أمسى أخذ درته[٥] ثم طاف بالمدينة، فإذا رأى شيئًا ينكره أنكره، فبينما هو ذات ليلة يعس[٦] إذ مر بامرأة على سطح وهى تقول:

تطاول هذا الليلُ واخْضَلَ[٧] جانبه ... وأرَّقنى أن لا خليل ألاعبُهْ
فوالله لولا اللهُ لا ربّ غيرُهُ ... لحُرِّك من هذا السرير جوانبُهْ
مخافةُ ربى والحياءُ يَصُدُّنى ... وأُكرم بعلى أن تُنال مراكبُهْ

(١) لأعسن: العس: الطواف ليلاً، ومنه العسس: وهم الشرطة الذين يطوفون بالليل.
(٢) النجب: الإبل الكرام.
(٣) الرغب: ما ترغبه وتامله.
(٤) الشراسيف: طرف لين من الضلع مما يلى البطن، جمع شرسوف.
(٥) درته: عصاه.
(٦) يعس: العس: الطواف ليلاً.
(٧) اخضل: أظلم.

ثم تنفست الصعداء وقالت: لهان على عمر بن الخطاب ما لقيت الليلة، فضرب باب الدار فقالت: من هذا الذى يأتى إلى امرأة مغيبة[١] هذه الساعة؟ قال: افتحى، فأبت، فلما أكثر عليها قالت: أما والله لو بلغ أمير المؤمنين لعاقبك، فلما رأى عفافها قال: افتحى فأنا أمير المؤمنين، قالت: كذبت، ما أنت أمير المؤمنين، فرفع بها صوته وجهر لها فعرفت أنه هو، ففتحت له فقال: هيه، كيف قلت؟ فأعادت عليه ما قالت، فقال: أين زوجك؟ قالت: فى بعث كذا وكذا، فبعث إلى عامل ذلك الجند أن سرح فلان ابن فلان، فلما قدم عليه قال: اذهب إلى أهلك. ثم دخل على حفصة ابنته فقال: أى بنية كم تصبر المرأة عن زوجها؟ قالت: شهراً واثنين وثلاثة، وفى الرابع ينفد الصبر، فجعل ذلك أجلاً للبعث[٢].

وهذا مطابق لجعل الله سبحانه وتعالى مدة الإيلاء[٣] أربعة أشهر، فإنه سبحانه وتعالى علم أن صبر المرأة يضعف بعد الأربعة، ولا تحتمل قوة صبرها أكثر من هذه المدة، فجعلها أجلاً للمولى، وخيرها بعد الأربعة إن شاءت أقامت معه، وإن شاءت فسخت نكاحه. فإذا مضت الأربعة أشهر عيل صبرها. قال الشاعر:

ولما دعوتُ الصبرَ بعدك والبكا
أجاب البكا طوعًا ولم يُجبِ الصبرُ

---

(١) امرأة مغيبة: أى زوجها غائب عنها لسفر أو جهاد.

(٢) روى هذه القصة: أبو الفرج ابن الجوزى فى «مناقب عمر» (٧٦).

(٣) الإيـــلاء: حلف الزوج على زوجته ألا يقربها مدة لا تزيد على أربعة أشهر، وإلا صارت فرقة بينه وبينها.

الباب الثامن عشر:

فى أن دواء المحبين فى كمال الوصال الذى أباحه رب العالمين

قد جعل الله سبحانه وتعالى لكل داء دواء، ويسر الوصال إلى ذلك الدواء شرعًا وقدراً، فمن أراد التداوى بما شرعه الله له، واستعان عليه بالقدر وأتى الأمر من بابه صادف الشفاء، ومن طلب الدواء بما منعه منه شرعًا وإن امتحنه به قدراً فقد أخطأ طريق المداواة، وكان كالمتداوى من داء بداء أعظم منه، وقد تقدم حديث طاوس عن ابن عباس ﷺ، عن النبى ﷺ أنه قال: «لَمْ يُرَ لِلْمُتَحَابَّيْن مِثْلُ النِّكَاحِ» (١). وقد اتفق رأى العقلاء من الأطباء وغيرهم فى مواضع الأدوية أن شفاء هذا الداء فى التقاءِ الرُّوحَيْنِ والتصاق البدنين. وقد روى مسلم فى «صحيحه» من حديث أبى الزبير عن جابر ﷺ أن رسول الله ﷺ رأى امرأةً فأتى زينب فقضى حاجته منها، وقال: «إِنَّ المَرْأَةَ تُقْبِلُ فِى صُورَةِ شَيْطَانٍ وَتُدْبِرُ فِى صُورَةِ شَيْطَانٍ فَإِذَا رَأَى أَحَدُكُمُ امْرَأَةً فَأَعْجَبَتْهُ فَلْيَأْتِ أَهْلَهُ فَإِنَّ ذَلِكَ يَرُدُّ مَا فِى نَفْسِهِ» (٢). وذكر إسماعيل بن عَيَّاش، عن شرحبيل بن مسلم عن أبى مسلم الخولانى - رحمه الله - أنه كان يقول: يا معشر خولان زوجوا شبابكم وإماءكم فإن الغلمة أمر عارم (٣) فأعدوا عدتها، واعلموا أنه ليس لمنعظ (٤) إذن. يريد أنه إذا استأذن عليه فلا إذن له. وذكر العتبى أن رجلاً من ولد عثمان ورجلاً من ولد الحسين خرجا يريدان موضعًا لهما، فنزلا تحت سرحة (٥) فأخذ أحدهما فكتب عليها:

خبّرينا خُصِصْتِ بالغيث يا سَرْ ... حُ بصدقٍ والصدقُ فيه شفاءُ

وكتب الآخر:

هل يموت المحبّ من أَلَم الْحُبْـ ... ـبِ ويَشفى من الحبيب اللقاءُ

ثم مضيا، فلما رجعا وجدا مكتوبًا تحت ذلك:

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) صحيح: رواه أحمد (٣/ ٣٣٠) ومسلم (١٤٠٣) وأبو داود (٢١٥١) والترمذى (١١٥٨).

(٣) الغلمة: الشهوة. عارم: شديد لا يطاق.

(٤) المنعظ: أى: شديد الشهوة.

(٥) سرجة: شجرة طويلة عظيمة.

إن جـهـلاً سـؤالك السَّرْحَ عَـمـا ليس يومـاً عليك فـيـه خَـفـاءُ
ليس للعـاشق المـحب من الحـبْـ ـب سـوى لذة اللقـاء شـفـاءُ

وقال أبو جعفر العذرى:

لَسكْرُ الهوى أرْوى لعظمى ومَفْصِلى إذا سكر النَّدْمان من لذَّة الخـمـر
وأحسـنُ من قَرْعِ المثانى[1] ونَقْرِهـا تراجيع[2] صوت الثغر يُقْرَع بالثغر
ولمـا دعـوتُ الصبـرَ بعـدك والبكـا أجاب البكا طوعًا ولم يُجب الصبر

وقال عبد الله بن صالح: كان الليث بن سعد إذا أراد الجماع خلا فى منزل فى داره ودعا بثوب يقال له: الهركان، وكان يلبسه إذ ذاك، وكان إذا خلا فى ذلك المنزل عُلم أنه يريد أمرًا، وكان إذا غشى أهله[3] قال: اللَّهم شُد لى أصله، وارفع لى صدره، وسهل علىَّ مدخله ومخرجه، وارزقنى لذته، وهب لى ذرية صالحة تقاتل فى سبيلك. قال: وكان جهوريًا فكان يسمع ذلك منه ﷺ.

وقال الخرائطى: حدَّثنا عمارة بن وثيمة قال: حدَّثنى أبى قال: كان عبد الله بن ربيعة من خيار قريش صلاحًا وعفة، وكان ذكره لا يرقد، فلم يكن يشهد لقريش خيرًا ولا شرًا، وكان يتزوج المرأة فلا تمكث معه إلا أيامًا حتى تهرب إلى أهلها، فقالت زينب بنت عمر ابن أبى سلمة: ما لهنّ يهربن من ابن عمهن؟ قيل لها: إنهن لا يطقنه، قالت: فما يمنعه منى؟ فأنا والله العظيمة الخلق، الكبيرة العجز، الفخمة الفرج، قال: فتزوجها، فصبرت عليه، وولدت له ستة من الولد.

وقال رشيد بن سعد، عن زهرة بن معبد، عن محمد بن المنكدر أنه كان يدعو فى صلاته: اللَّهم قَوِّ لى ذكرى، فإن فيه صلاحًا لأهلى. وقال حماد بن زيد، عن هشام بن حسان، عن محمد بن سيرين قال: كان لأنس بن مالك غلام وكان شيخًا كبيرًا، فرافعته امرأته إلى أنس وقالت: لا أطيقه، ففرض له عليها ستة فى اليوم والليلة.

وقال علىّ بن عاصم: حدثنا خالد الحذاء قال: لما خلق الله آدم وخلق حواء قال له: يا آدم اسكن إلى زوجك، فقالت له حواء: يا آدم ما أطيب هذا! زدنا منه.

وفى الصحيح أن سليمان بن داود عليهما السلام طاف فى ليلة واحدة على تسعين امرأة[4].

---

(١) **المثانى**: أوتار العود.
(٢) **تراجيع**: تكرار الصوت.
(٣) **غشى أهله**: جامع زوجته.
(٤) **صحيح**: رواه البخارى (٣٤٢٤) ومسلم (١٦٥٤).

وفى الصحيحين أن رسول الله ﷺ كان يطوف على نسائه فى الليلة الواحدة وهن تسع نسوة(١)، وربما كان يطوف عليهن بغسل واحد، وربما كان يغتسل عند كل واحدة منهن.

وقال المروذى: قال أبو عبد الله - يعنى أحمد بن حنبل: ليس العزوبة من أمر الإسلام فى شىء، النبى ﷺ تزوج أربع عشرة ومات عن تسع، ولو تزوج بشر بن الحارث لتم أمره، ولو ترك الناس النكاح لم يكن غزو ولا حج ولا كذا ولا كذا، وقد كان النبى ﷺ يصبح وما عندهم شىء، ومات عن تسع، وكان يختار النكاح ويحث عليه، ونهى عن التبتل(٢)، فمن رغب عن سنة النبى ﷺ فهو على غير الحق، ويعقوب فى حزنه قد تزوج ووُلد له، والنبى ﷺ قال: «حُبِّبَ إِلَىَّ النِّسَاءُ»(٣). قلت له: فإن إبراهيم بن أدهم(٤) يحكى عنه أنه قال: «لَروعةُ صاحب العيال» فما قدرت أن أتم الحديث حتى صاح بى وقال: وقعت فى بنيات الطريق، انظر ما كان عليه محمد ﷺ وأصحابه ثم قال: بكاء الصبى بين يدى أبيه يطلب منه الخبز أفضل من كذا وكذا. أين يلحق المتعبد العزب؟ انتهى كلامه.

وقد اختلف الفقهاء هل يجب على الزوج مجامعة امرأته؟ فقالت طائفة: لا يجب عليه ذلك، فإنه حق له فإن شاء استوفاه، وإن شاء تركه، بمنزلة من استأجر داراً إن شاء سكنها، وإن شاء تركها.

وهذا من أضعف الأقوال، والقرآن والسُّنَّة والعرف والقياس يرده، أما القرآن فإن الله سبحانه وتعالى قال: ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِى عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ (البقرة: ٢٢٨) فاخبر أن للمرأة من الحق مثل الذى عليها، فإذا كان الجماع حقًّا للزوج عليها، فهو حق على الزوج بنص القرآن، وأيضًا فإنه سبحانه وتعالى أمر الأزواج أن يعاشروا الزوجات بالمعروف، ومن ضد المعروف أن يكون عنده شابه شهوتها تعدل شهوة الرجل أو تزيد عليها باضعاف مضاعفة ولا يذيقها لذة الوطء مرة واحدة. ومن زعم أن هذا من المعروف كفاه طبعه ردًّا عليه. والله سبحانه وتعالى إنما أباح للأزواج إمساك نسائهم على هذا الوجه لا على غيره، فقال تعالى: ﴿ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ ﴾ (البقرة: ٢٢٩).

---

(١) **صحيح**: رواه البخارى (٥٠٦٨) ومسلم (٣٠٩).

(٢) **التبتل**: يعنى ترك الزواج والانقطاع للعبادة.

(٣) **صحيح**: رواه أحمد (٣/ ١٢٨) والحاكم (٢/ ١٦٠) وصححه الشيخ أحمد شاكر فى «المسند» برقم (١٢٢٣٣).

(٤) هو: أبو إسحاق إبراهيم بن أدهم بن منظور الخرسانى البلخى، ولد سنة (١٠٠ هـ) وتوفى سنة (١٦٢ هـ) وهو أحد الزهاد العباد.

وقالت طائفة: يجب عليه وطؤها فى العمر مرة واحدة ليستقر لها بذلك الصداق. وهذا من جنس القول الأول، وهذا باطل من وجهٍ آخر، فإن المقصود إنما هو المعاشرة بالمعروف، والصداق دخل فى العقد تعظيماً لحرمته وفرقًا بينه وبين السفاح[١]. فوجوب المقصود بالنكاح أقوى من وجوب الصداق.

وقالت طائفة ثالثة: يجب عليه أن يطأها فى كل أربعة أشهر مرة، واحتجوا على ذلك بأن الله سبحانه وتعالى أباح للمُولِى تربص أربعة أشهر وخيَّر المرأة بعد ذلك، إن شاءت أن تقيم عنده، وإن شاءت أن تفارقه. فلو كان لها حق فى الوطء أكثر من ذلك لم يجعل للزوج تركه فى تلك المدة، وهذا القول وإن كان أقرب من القولين اللذيْن قبله فليس أيضًا بصحيح، فإنه غير المعروف الذى لها وعليها. وأما جعل مدة الإيلاء أربعة أشهر فنظراً منه سبحانه للأزواج فإن الرجل قد يحتاج إلى ترك وطء امرأته مدة لعارضٍ من سفر أو تأديب أو راحة نفس أو اشتغال بمهم، فجعل الله سبحانه وتعالى له أجلاً أربعة أشهر، ولا يلزم من ذلك أن يكون الوطء مؤقتًا فى كل أربعة أشهر مرة.

وقالت طائفة أخرى: بل يجب عليه أن يطأها بالمعروف، كما ينفق عليها ويكسوها ويعاشرها بالمعروف، بل هذا عمدة المعاشرة ومقصودها، وقد أمر الله سبحانه وتعالى أن يعاشرها بالمعروف. فالوطء داخل فى هذه المعاشرة ولا بد، قالوا: وعليه أن يشبعها وطئًا إذا أمكنه ذلك كما عليه أن يشبعها قوتًا. وكان شيخنا رحمه الله تعالى يرجح هذا القول ويختاره.

وقد حض النبى ﷺ على استعمال هذا الدواء ورغب فيه وعلق عليه الأجر وجعله صدقة لفاعله فقال: «وفى بُضْعِ[٢] أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ»[٣]. ومن تراجم النَّسائى على هذا: الترغيب فى المباضعة، ثم ذكر هذا الحديث، ففى هذا كمال اللذة، وكمال الإحسان إلى الحبيبة، وحصول الأجر، وثواب الصدقة، وفرح النفس، وذهاب أفكارها الرديئة عنها، وخفة الروح، وذهاب كثافتها وغلظها، وخفة الجسم، واعتدال المزاج، وجلب الصحة ودفع المواد الرديئة، فإن صادف ذلك وجهًا حسنًا، وخلقًا دمثًا[٤]، وعشقًا وافرًا، ورغبة تامة، واحتسابًا للثواب، فذلك اللذة التى لا يعادلها شىءٌ، ولا سيما إذا وافقت كمالها، فإنها لا تكمُل حتى يأخذ كل جزء من البدن بقسطه من اللذة، فتلتذ العين بالنظر إلى

---

(١) السفاح: أى الزنا.

(٢) بضعٍ: جماع.

(٢) تقدم.

(٤) دمثًا: الدماثة: حسن الخلق.

المحبوب، والأذن بسماع كلامه، والأنف بشم رائحته، والفم بتقبيله، واليد بلمسه. وتعتكف كل جارحة على ما تطلبه من لذتها، وتقابله من المحبوب؛ فإن فقد من ذلك شيء لم تزل النفس متطلعة إليه، متقاضية له، فلا تسكن كل السكون، ولذلك تسمى المرأة سكنًا لسكون النفس إليها، قال الله تعالى: ﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا** ﴾ (الروم: ٢١) ولذلك فضّل جماعُ النهار على جماع الليل، ولسبب آخر طبيعي، وهو أن الليل وقت تبرد فيه الحواس وتطلب حظها من السكون، والنهار محل انتشار الحركات كما قال الله تعالى: ﴿ **وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا**[١] **وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا**[٢] ﴾ (الفرقان: ٤٧) وقال الله تعالى: ﴿ **هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ** ﴾ (يونس: ٦٧) وتمام النعمة في ذلك فرحة المحب برضاء ربه تعالى بذلك، واحتساب هذه اللذة عنده، ورجاء تثقيل ميزانه، ولذلك كان أحب شيء إلى الشيطان أن يفرق بين الرجل وبين حبيبه، ليتوصل إلى تعويض كل منهما عن صاحبه بالحرام كما في «السنن» عنه ﷺ: «أَبْغَضُ الْحَلالِ إِلَى اللهِ تَعَالَى الطَّلاقُ»[٣]. وفي صحيح مسلم من حديث جابر رضي الله عنه، عن النبي ﷺ: «إِنَّ إِبْلِيسَ يَنْصِبُ عَرْشَهُ عَلَى الْمَاءِ ثُمَّ يَبُثُّ سَرَايَاهُ[٤] فِي النَّاسِ فَأَقْرَبُهُمْ مِنْهُ مَنْزِلَةً أَعْظَمُهُمْ فِتْنَةً، فَيَقُولُ أَحَدُهُمْ: مَا زِلْتُ بِهِ حَتَّى زَنَى، فَيَقُولُ: يَتُوبُ، فَيَقُولُ الآخَرُ: مَا زِلْتُ بِهِ حَتَّى فَرَّقْتُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَهلِه، فَيُدْنِيهِ وَيَلْتَزِمُهُ وَيَقُولُ: نِعْمَ أَنتَ، نِعْمَ أَنتَ»[٥] فهذا الوصال لما كان أحب شيء إلى الله ورسوله كان أبغض شيء إلى عدو الله، فهو يسعى في التفريق بين المتحابين في الله المحبة التي يحبها الله، ويؤلف بين الاثنين في المحبة التي يبغضها الله ويسخطها. وأكثر العشاق من جنده وعسكره، ويرتقي بهم الحال حتى يصير هو من جندهم وعسكرهم، يقود لهم، ويزين لهم الفواحش، ويؤلف بينهم عليها كما قيل:

عجبت من إبليس في نَخْوتِهْ ... وقبحِ ما أظهر من سيرتهْ

تاه على آدم في سجدةٍ ... وصار قَوّادًا[٦] لذرّيتهْ

---

(١) سباتًا: راحة لأجسادكم. (٢) نشورًا: وقتًا للعمل والجد.

(٣) ضعيف: رواه أبو داود (٢١٧٨) وابن ماجه (٢٠١٨) والحاكم (٢/ ١٩٦) والبيهقي في «الكبرى» (٧/ ٣٢٢) وابن عدي (٤٠٢/ ٢٠٠١) وضعفه الألباني في «ضعيف أبي داود» (٣٧٣، ٣٧٤).

(٤) سراياه: جيوشه.

(٥) صحيح: رواه أحمد (٣/ ٣١٤) ومسلم (٢٨١٣) وأبو يعلى (١٩٠٩). (٦) قوّادًا: ديوثًا.

وقد أرشد النبى ﷺ الشبابَ الذين هم مظنة العشق إلى أنفع أدويتهم. ففى الصحيحين من حديث ابن مسعود ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: «يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمُ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلْبَصَرِ وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ» (١).

وفى لفظ آخر ذكره أبو عبيد: حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن علقمة، عن عبد الله ؓ، عن النبى ﷺ: «عَلَيْكُمْ بِالْبَاءَةِ» (٢). وذكر الحديث.

وبين اللفظين فرق، فإن الأول يقتضى أمر العزب بالتزويج، والثانى يقتضى أمر المتزوج بالباءة، والباءة: اسم من أسماء الوطء. وقوله: «من استطاع منكم الباءة فليتزوَّج» فُسرت الباءة بالوطء وفسرت بمؤن النكاح، ولا ينافى التفسير الأول إذ المعنى على هذا مؤن الباءة ثم قال: «وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ» (٣) فارشدهم إلى الدواء الشافى الذى وضع لهذا الأمر، ثم نقلهم عنه عند العجز إلى البدل وهو الصوم فإنه يكسر شهوة النفس ويضيق عليها مجارى الشهوة، فإن هذه الشهوة تقوى بكثرة الغذاء وكيفيته، فكمية الغذاء وكيفيته يزيدان فى توليدها، والصوم يضيق عليها ذلك فيصير بمنزلة وجاء الفحل، وقل من أدمن الصوم إلا وماتت شهوته أو ضعفت جداً، والصوم المشروع يعدلها. واعتدالها حسنة بين سيئتين، ووسط بين طرفين مذمومين، وهما العنة (٤) والغلمة (٥) الشديدة المفرطة، وكلاهما خارج عن الاعتدال وكلا طرفى قصد الأمور ذميم، وخير الأمور أوساطها، والأخلاق الفاضلة كلها وسط بين طرفى إفراط وتفريط، وكذلك الدين المستقيم وسط بين انحرافين، وكذلك السنة وسط بين بدعتين، وكذلك الصواب فى مسائل النزاع إذا شئت أن تحظى به فهو القول الوسط بين الطرفين المتباعدين، وليس هذا موضع تفصيل هذه الجملة، فإنا لم نقصد له، وبالله التوفيق.

---

(١) **صحيح**: رواه البخارى (١٩٠٥) ومسلم (١٤٠٠).
(٢) انظر ما قبله.
(٣) **وجاء**: أى وقاية، وأصل الكلمة من وجا أى: طعن.
(٤) **العنة**: ضعف الشهوة، مع عدم القدرة على جماع النساء.
(٥) **الغلمة**: عكس العنة، وهى: شدة الاشتياق للنساء.

الباب التاسع عشر:

فى ذكر فضيلة الجمال

وميل النفوس إليه على كل حال

اعلم أن الجمال ينقسم قسمين: ظاهر وباطن، فالجمال الباطن هو المحبوب لذاته، وهو جمال العلم والعقل والجود والعفة والشجاعة، وهذا الجمال الباطن هو محل نظر الله من عبده وموضع محبته، كما فى الحديث الصحيح: «إِنَّ اللهَ لا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُم وَأَعْمَالِكُمْ»(١) . وهذا الجمال الباطن يزين الصورة الظاهرة وإن لم تكن ذات جمال، فتكسو صاحبها من الجمال والمهابة والحلاوة بحسب ما اكتست رُوحه من تلك الصفات، فإن المؤمن يُعْطَى مهابة وحلاوة بحسب إيمانه، فمن رآه هابه، ومن خالطه أحبه. وهذا أمر مشهود بالعيان، فإنك ترى الرجل الصالح المحسن ذا الأخلاق الجميلة من أحلى الناس صورة وإن كان أسود أو غير جميل، ولا سيما إذا رزق حظًّا من صلاة الليل فإنها تنوّر الوجه وتحسنه.

وقد كان بعض النساء تكثر صلاة الليل، فقيل لها فى ذلك، فقالت: إنها تحسن الوجه وأنا أحب أن يحسن وجهى. ومما يدل على أن الجمال الباطن أحسن من الظاهر أن القلوب لا تنفك عن تعظيم صاحبه ومحبته والميل إليه.

فصل: وأما الجمال الظاهر فزينة خص الله بها بعض الصور عن بعض، وهى من زيادة الخلق التى قال الله تعالى فيها: ﴿يَزِيدُ فِى الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾ (فاطر: ١) قالوا: هو الصوت الحسن، والصورة الحسنة. والقلوب كالمطبوعة على محبته كما هى مفطورة على استحسانه.

وقد ثبت فى الصحيح عنه ﷺ أنه قال: «لا يَدْخُلِ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِى قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ» قالوا: يا رسول الله، الرجلُ يحبّ أن تكون نعله حسنة وثوبه حسنًا أفذلك من الكِبْر؟ فقال: «لا، إنّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الجَمَالَ، الكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ»(٢) .

---

(١) **صحيح:** رواه أحمد (٧/ ٤٨٥) ومسلم (٢٥٦٤) وابن ماجه (٤١٤٣).

(٢) **صحيح:** رواه أحمد (١/ ٤٥١) ومسلم (٩١) وأبو داود (٤٠٩١) والترمذى (١٩٩٨) وابن ماجه (٥٩).

فبطر الحق جحده ودفعه بعد معرفته، وغمط الناس النظر إليهم بعين الازدراء والاحتقار والاستصغار لهم. ولا بأس بهذا إذا كان لله. وعلامته أن يكون لنفسه أشد ازدراء واستصغاراً منه لهم. فأما إن احتقرهم لعظمة نفسه عنده فهو الذى لا يدخل صاحبه الجنة.

فصل: وكما أن الجمال الباطن من أعظم نعم الله تعالى على عبده، فالجمال الظاهر نعمة منه أيضًا على عبده يوجب شكرًا، فإن شكره بتقواه وصيانته، ازداد جمالاً على جماله، وإن استعمل جماله فى معاصيه سبحانه قلبه له شيئًا ظاهرًا فى الدنيا قبل الآخرة، فتعود تلك المحاسن وحشة وقبحًا وشينًا، وينفر عنه من رآه، فكل من لم يتق الله عَزَّ وجَلَّ فى حسنه وجماله انقلب قبحًا وشينًا يشينه به بين الناس، فحسن الباطن يعلو قبح الظاهر ويستره، وقبح الباطن يعلو جمال الظاهر ويستره.

يا حَسَنَ الوجه تَوَق الْخَنَا (١)   لا تُبْدلَنَّ الزَّيْنَ بالشَّيْنِ (٢)
ويَا قبيحَ الوَجهِ كن محسناً   لا تجمعنْ بين قبيحَيْنِ

وكان النبى ﷺ يدعو الناس إلى جمال الباطن بجمال الظاهر كما قال جرير بن عبد الله - وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يسميه يوسف هذه الأمة - قال: قال لى رسول الله ﷺ: «أنت امْرُؤٌ قَدْ حَسَّنَ اللهُ خَلْقَكَ فَأَحْسِنْ خُلُقَكَ» (٣). وقال بعض الحكماء: ينبغى للعبد أن ينظر كل يوم فى المرآة، فإن رأى صورته حسنة لم يشنها بقبيح فعله، وإن رآها قبيحة لم يجمع بين قبح الصورة وقبح الفعل.

ولما كان الجمال من حيث هو محبوبًا للنفوس، معظمًا فى القلوب، لم يبعث الله نبيًّا إلا جميل الصورة، حسن الوجه، كريم الحسب، حسن الصوت، كذا قال علىّ بن أبى طالب كرَّم الله وجهه (٤).

وكان النبى ﷺ أجمل خلق الله، وأحسنهم وجهًا كما قال البراء بن عازب رضي الله عنه وقد سئل: أكان وجه رسول الله ﷺ مثل السيف؟ قال: لا، بل مثل القمر (٥).

---

(١) فوق الخنا: كلمة من قبيح القول، والخنا: الفحش من الكلام.   (٢) الشين: العيب.

(٣) ضعيف: رواه الديلمى (٤/ ٣٥١) وابن عساكر، وضعفه الألبانى فى «ضعيف الجامع الصغير» (٢٠٣٢).

(٤) هذا الكلام ذاع وشاع، وقد قيل: إن سبب ذلك أن عليًّا ما سجد إلى صنم قط، وهذا لا دليل عليه، وقد وقع هذا الكلام من ابن القيم فى كثير من كتبه، فقد ذكر فى «إعلام الموقعين» (٢/ ٤٣، ١٩٧) هذا الكلام.

(٥) صحيح: رواه البخارى (٣٥٥٢) والترمذى (٣٦٣٦).

وفى صفته ﷺ: كأنَّ الشمس تجرى فى وجهه، يقول واصفه: لم أرَ قبلَه ولا بعدَه مثلَه.

وقال ربيعة الجُرَشى: قُسِّم الحسن نصفين: فبين سارة ويوسف نصف الحسن، ونصف الحسن بين سائر الناس. وفى «الصحيح» عنه ﷺ أنه رأى يوسف ليلة الإسراء وقد أُعطى شطر الحسن[١] وكان رسول الله ﷺ يستحب أن يكون الرسول الذى يرسل إليه حسن الوجه حسن الاسم، وكان يقول: «إِذَا أَبْرَدْتُمْ إِلَىَّ بَرِيداً فَلْيَكُنْ حَسَنَ الْوَجْهِ حَسَنَ الاسـم»[٢]، وقد روى الخرائطى من حديث ابن جريج عن ابن أبى مليكة، عن ابن عباس ﷺ يرفعه: «مَنْ آتَاهُ اللهُ وَجْهًا حَسَنًا واسْمًا حَسَنًا وَخُلقًا حَسَنًا وَجَعَلَهُ فِى مَوْضِعٍ غَيْرَ شَائِنٍ لَهُ فَهُوَ مِنْ صَفْوَةِ اللهِ مِنْ خَلْقِهِ»[٣]، وقال وهب: قال داود: يا رب أى عبادك أحب إليك؟ قال: مؤمن حسن الصورة، قال: فأى عبادك أبغض إليك؟ قال: كافر قبيح الصورة[٤].

ويذكر عن عائشة ﷺ أن رسول الله ﷺ كان ينتظره نفر من أصحابه على الباب، فجعل ينظر فى الماء ويسوى شعره ولحيته، ثم خرج إليهم، فقلت: يا رسول الله، وأنت تفعل هذا؟ قال: «نَعَمْ إِذَا خَرَجَ الرَّجُلُ إِلَى إِخْوَانِهِ فَلْيُهَيِّئْ مِنْ نَفْسِهِ فَإِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ»[٥]. وقال يحيى بن أبى كثير: دخل رجل على معاوية غمصًا، يعنى رمص[٦] العينين، فحطّ من عطائه فقال: ما يمنع أحدكم إذا خرج من منزله أن يتعاهد أديم[٧] وجهه؟ وكانت عائشة بنت طلحة من أجمل أهل زمانها، أو أجملهم، فقال أنس بن مالك: والله ما رأيت أحسن منك إلا معاوية على منبر رسول الله ﷺ فقالت: والله لأنا أحسن من النار فى عين المقرور فى الليلة القارة.

ودخل عليها أنس يومًا فى حاجة فقال: إن القوم يريدون أن يدخلوا عليك فينظروا إلى جمالك، قالت: أفلا قلت لى فألبس ثيابى؟[٨].

---

(١) صحيح: رواه البخارى (٣٨٨٧) ومسلم (١٦٢).

(٢) صحيح: رواه البزار (٢٤٢ - زوائده) وصححه الألبانى فى «صحيح الجامع» (٣٥٩).

(٣) ضعيف جدًا: رواه الطبرانى فى «الصغير» (١/ ٣٨٠) و«الأوسط» (٤٥٠٦).

(٤) هذا من الإسرائيليات التى لا يعتمد عليها.

(٥) رواه ابن السنى فى «عمل اليوم والليلة» (١٦٩) وشطره الثانى تقدم.

(٦) رمص: الرمص: وسخ العين، وهو: العماص.

(٧) أديم: جل.

(٨) هذا كلام لا يصح، ولا أدرى ما مستند هذا الكلام، فسبحانك هذا بهتان عظيم.

وكان مصعب بن الزبير من أجمل الناس وكان يحسد الناس على الجمال، فبينما هو يخطب يومًا إذ دخل ابن جودان من ناحية الأزد، وكان جميلاً، فاعرض بوجهه عن تلك الناحية إلى ناحية أخرى، فدخل ابن حمران من تلك الناحية، وكان جميلاً، فرمى ببصره إلى مؤخر المسجد، فدخل الحسن البصرى، وكان من أجمل الناس، فنزل مصعب عن المنبر.

وخرج نسوة يوم العيد ينظرون إلى الناس فقيل لهن: من أحسن من مر بكن؟ قلن: شيخ عليه عمامة سوداء، يعنين الحسن البصرى. وأخذ مصعب بن الزبير رجلاً من أصحاب المختار فأمر بضرب عنقه، فقال الرجل: أيها الأمير، ما أقبح من أن أقوم يوم القيامة إلى صورتك هذه الحسنة، ووجهك هذا الذى يستضاء به فأتعلق بأطرافك وأقول: يا رب سل مصعبًا فيم قتلنى؟ فقال مصعب: أطلقوه، فقال الرجل: أيها الأمير، اجعل ما وهبت لى من حياتى فى خفض [1] فقال مصعب: أعطوه مائة ألف درهم، فقال: إنى أشهد الله أن لعبد الرحمن بن قيس الرقيات نصفها، قال مصعب: ولم ذلك؟ قال لقوله:

إنما مصعبٌ شهابٌ من الـ ... ـلَه تجلَّت عن وجهه الظَّلْمَاءُ

فضحك مصعب وقال: إن فيك لموضعًا للصنيعة، وأمره بلزومه.

وقال الزبير بن بكار: حدثنا مصعب الزبيرى، حدثنا عبد الرحمن بن أبى الحسن قال: خرج أبو حازم يرمى الجمار ومعه قوم متعبدون وهو يكلمهم ويحدثهم ويقص عليهم، فبينما هو يمشى وهم معه إذ نظر إلى فتاة مستترة بخمارها، ترمى الناس بطرفها يمنة ويسرة، وقد شغلت الناس وهم ينظرون إليها مبهوتين، وقد خبط بعضهم بعضًا فى الطريق، فرآها أبو حازم فقال: يا هذه، اتقى الله فإنك فى مشعر [2] من مشاعر الله عظيم، وقد فتنت الناس، فاضربى بخمارك على جيبك، فإن الله عَزَّ وجَلَّ يقول: ﴿ **وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ** ﴾ (النور: ٣١) فاقبلت تضحك من كلامه وقالت: إنى والله:

مِن اللاء لم يَحْجُجْنَ يَبْغِينَ حِسْبَةً ... ولكن ليَقْتُلْنَ البَرِىءَ المُغَفَّلا

فاقبل أبو حازم على أصحابه وقال: تعالوا ندعو الله أن لا يعذب هذه الصورة الحسناء بالنار، فجعل يدعو وأصحابه يُؤَمِّنُونَ [3].

---

(١) **خفض**: يقال خفض العيش: سهل ولان، المعجم الوجيز (٢٠٤).
(٢) **مشعر**: مكان تادية العبادة والنسك.
(٣) **يؤمنون**: يقولون: آمين.

وقال ضمرة بن ربيعة، عن عبد الله بن شوذب: دخلت امرأة جميلة على الحسن البصرى فقالت: يا أبا سعيد، ينبغى للرجال أن يتزوَّجوا على النساء؟ قال: نعم، قالت: وعلى مثلى؟ ثم أسفرت عن وجه لم يُر مثله حسنًا وقالت: يا أبا سعيد، لا تُفتوا الرجال بهذا. ثم ولت، فقال الحسن: ما على رجل كانت هذه فى زاوية بيته ما فاته من الدنيا!.

وقال عبد الملك بن قريب(١): كنت فى بعض مياه العرب فسمعت الناس يقولون: قد جاءت قد جاءت. فتحول الناس فقمت معهم، فإذا جارية قد وردت الماء، ما رأيت مثلها قط فى حسن وجهها وتمام خلقها، فلما رأت تشوف(٢) الناس إليها أرسلت برقعها فكأنه غمامة غطت شمسًا، فقلت: لم تمنعيننا النظر إلى وجهك هذا الحسن؟ فانشأت تقول:

وكنتَ متى أرسلت طَرْفك رائدًا ... لقلبك يومًا أتعبتك المناظرُ
رأيتَ الذى لا كلُّه أنت قادرٌ ... عليه ولا عن بعضه أنت صابرُ

ونظر إليها أعرابى فقال: أنا والله ممن قل صبره، ثم قال:

أوَحْشيَّةَ العينين أين لك الأهلُ ... أبالحَزْن(٣) حَلُّوا أمْ محلُّهم السَّهْلُ
وأيَّة أرض أخرجتك فإننى ... أراك من الفردوس إن فُتِّش الأصلُ
ففى خبِّرينا ما طعمْت وما الذى ... شربت ومن أين استقل(٤) بك الرَّحْل
لأن علامات الجنان مُبينةٌ ... عليك وإن الشَّكل يشبهه الشكلُ
تناهيت حسنًا فى النساء فإن يكن ... لبدر الدُّجى نسْلٌ فأنت له نسلُ

وقال آخر:

يا مُنْسى المحزون أحزانَه ... لما أتته فى المعزِّينا
استقبلتهنَّ بتمثالها ... فقُمْن يضحكن ويبكينا
حق لهذا الوجه أن يَزْدَهى(٥) ... عن حُزْنه من كان محزونا

وقال آخر:

أنيرى مكانَ البدر إن أفَلَ(٦) البدرُ ... وقومى مقام الشمس ما استأخر الفجر
ففيك من الشمس المنيرة ضَوْؤُها ... وليس لها منك التبسُّم والثغر

---

(١) هو اللغوى المعروف بالأصمعى.
(٢) تشوُّف: أطال وآدام النظر.
(٣) أبالحزن: ضد السهل، وهو: الغليظ من الأرض.
(٤) استقل بك الرحل: استقل: رحل الرحل: ما يوضع على الدابة.
(٥) يزدهي: يفتخر.
(٦) أفل: غاب وغرب.

وقال آخر:

رقــــادىَ يا طـرفى علــيك حــرامُ ... فـخلٌ دمـوعًا فَـيْضُهُنَّ سِجَامُ (١)

فــفـى الدّمع إطفــاءٌ لنار صبــابــة ... لهــا بين أَحْناء الضلوع ضِــرَامُ (٢)

ويا كبدى الحرَّى (٣) التى قد تصدَّعـ ... ـت من الوجـد ذوبى مـا عليك مـلامُ

ويا وجــهَ من ذلّت وجـــوهٌ أعــزَّةٌ ... لـه وَزهـى عـــــزًا فـليـــس يُرامُ

أجِـرْ مـسـتـجـيـرًا فى الـهـوى باسطًا ... إليـك يديه والعـيـــونُ نيَـــامُ

وذكر الخرائطى عن بعض العَلَويين قال: بينا أنا عند الحسن بن هانئ وهو ينشد:

ويلى عَلَى ســـود العـيـــون ... النُّهَّـــد الضُّـــمْـــرِ البطـــون

الناطقـــاتِ عن الضــمــيـ ... ــر لنـا بأَلْسنَةِ الْجُــفـــون

فوقف عليه أعرابى ومعه بنية فقال: أعد على، فأعاد عليه فقال: يا بن أخى، ويلك أنت وحدك من هذا؟ ويلى أنا وأنت، وويلُ ابنى هذا، وويل هذه الجماعة، وويل جيراننا كلهم.

وقال الخرائطى: حدثنا يموت بن المزرع، حدثنا محمد بن حميد، حدثنا محمد ابن سلمة قال: حدثنى أبى قال: أتيت عبد العزيز بن المطلب أسأله عن بيعة الجن للنبى ﷺ بمسجد الأحزاب ما كان بدؤها، فوجدته مستلقيًا يتغنَّى:

فــمــا روضــةٌ بالْحَزْن طيـبــةُ الثـرى ... يَمُجُّ الندى جَثْجَاثُها (٤) وَعَرارُها (٥)

بأطيـــبَ من أردانِ عَــزَّةَ مــوهنــًا ... وقد أُوقدت بالمَنْدَل (٦) الرَّطْب نارُها

من الْخَفِرات (٧) البيضِ لم تَلْقَ شقْوَةً ... وبالحسَب المكنون صاف نجارُها (٨)

فــإن بــرزت كــانت لعــينيــك قُــرَّةً ... وإن غبتَ عنهـا لم يَعُـمّك عـارُهـا

فقلت له: أتُغنى أصلحك الله وأنت فى جلالك وشرفك؟ فقال: أما والله لأحملنَّها ركبانَ نجد، قال: فوالله ما اكترث بى وعاد يتغنى:

---

(١) سجام: كثير الصب والسيلان.

(٢) ضرام: نار مشتعلة.

(٣) الحرى: التى قد يبست من شدة العشق.

(٤) جثجاثها: نبات أخضر ينمو فى الربيع.

(٥) عرارها: العرار: نبات طيب الريح ينمو فى بلاد الحجاز.

(٦) المندل: نوع من الطيب ينسب إلى مندل: بلدة فى الهند.

(٧) الخضرات: شدة الحياء.

(٨) نجارها: أصلها وحسبها.

فما ظبيةٌ أدْماء(١) خَفَّاقةُ الحَشَا ... تجوب بظِلْفَيْها(٢) متونَ الخمائل(٣)

بأحسنَ منها إذ تقول تدلُّلاً ... وأدمُعُها تُذْرين حشوَ المكاحل

تمتَّعْ بذا اليوم القصير فإنه ... رهينٌ بأيام الصدود الأطاول

قال: فندمت عَلَى قولي وقلت له: أصلحك الله أتحدِّثني في هذا بشيء؟ قال: نعم حدَّثني أبي قال: دخلت على سالم بن عبد الله بن عمر ﷺ وأشعب يغنيه:

مغيريةٌ كالبدر سُنَّةُ وجهها ... مُطَهَّرةَ الأثواب والعِرضُ وافرُ

لها حسبٌ زاكٍ وعِرْضٌ مهذَّبٌ ... وعن كل مكروه من الأمر زاجرُ

من الخَفِرات البيض لم تلق ريبةً ... ولم يَسْتَمِلها عن تُقى الله شاعرُ

فقال له سالم: زدني، فغناه:

ألمت بنا والليل داج كأنه ... جناح غراب عنه قد نفض القطرا

فقلت أعطار ثوى(٤) في رحالنا ... وما احتملت ليلى سوى طيبها عطرا

فقال له سالم: والله لولا أن تتداوله الرُّواة لأجزلت جائزتك فإنك من هذا الأمر بمكان.

قال الخرائطي: حدثنا العباس بن الفضل، عن بعض أصحابه قال: حججت سنة من السنين فإني لبالرَّبَذَة(٥) إذ وقفت علينا جارية على وجهها برقع فقالت: يا معشر الحجيج، نفر من هذيل، ذهب بنعمهم السيل، وقعدت بهم الأيام، ما بهم نجعة(٦)، فمن يراقب فيهم الدار الآخرة ويعرف لهم حق الأخوة؟ جزاه الله خيرًا، قال: فرضخنا لها، فقلت لها: هل قلت في ذلك شيئًا؟ فانشأت تقول:

كَفُّ الزمان توسدتنا عَنْوَةً ... شَلَّت أناملُها عن الأعراب

قومٌ إذا حلَّ العُفَاة(٧) ببابهم ... ألْفَوْا نوافلَهم بغير حساب

فقلنا لها: لو أمتعتينا بالنظر إلى وجهك، فكشفت البرقع عن وجه، لا والله لا تهتدي العقول لوصفه، فلما رأتنا قد بهتنا لحسنها أنشأت تقول:

الدهرُ أبدى صفحةً قد صانها ... أبواي قبل تمرس الأيام(٨)

---

(١) أدماء: شدة السمرة.
(٢) بظلفيها: الظلف: الحافر.
(٣) الخمائل: الشجر.
(٤) ثوى: استقر.
(٥) الربذة: قرية من قرى المدينة، نُفي إليها أبو ذر الغفاري.
(٦) نجعة: الكلأ والماء.
(٧) العفاة: الذين يعفون عن الناس.
(٨) تمرس الأيام: تكالبها عليه بالمصائب.

فتمتَّعوا بعيونكم فى حسنها ... وانْهَوْا جوارحَكم عن الآثام

ثم انصرفت.

وكان محمد بن حميد الطوسى يهوى جارية فأرسل إليها مرَّةً أُتْرُجَّةً(١) فبكت بكاء شديداً، فقيل لها: يوجه إليك من تحبينه بهدية فتبكين هذا البكاء؟ فغنَّت:

أهدى له أحبابُه أُتْرُجَّةً ... فبكى وأشفق من عِيَافة زاجر(٢)

خاف التلوُّنَ والفراقَ لأنها ... لونان باطنُها خلافُ الظاهر

فلما جاءه الرسول أخبره عنها بما أغاظه، فكتب إليها:

ضيَّعتِ عهدَ فتى لغيبك حافظٍ ... فى حفظه عجبٌ وفى تضييعكِ

وصددتِ عنه وما له من حيلةٍ ... إلا الوقوفُ إلى أوان رجوعكِ

إن تقتليه وتذهبى بحياته ... فبحسن وجهكِ لا بحسن صنيعكِ

فلما وافتها الرّقعةُ بكت حتى رحمها من حولها ثم اندفعت تقول:

هل لعينى إلى الرُّقاد شفيعُ ... إن قلبى من السقام مَرُوعُ

لا ترانى بخلتُ عنكَ بدمعٍ ... لا وحقّ الحبيب ما لى دموعُ

إن قلبى إليكَ صبٌّ حزينٌ ... فاستراحت إلى الأنين الضلوعُ

ليس فى العطف يا حبيبى بدعٌ ... إنما هجر من يُحِبّ بديعُ

ثم كتبت إليه: أنا مملوكة لا أملك من أمرى شيئًا، فإذا كان لك فى حاجة فاشترنى لأكون طوعَ يديك، فاشتراها فمكثت عنده وكانت من أحظى إمائه، حتى قتل فى وقعة بابَك الخرمى، فكانت تتمثل فى رثائه بقول أبى تمام:

محمدُ بنُ حُمَيْدٍ أخلقت رِمَمُه(٣) ... أُرِيقَ ماءُ المعالى مذ أُريق دمُهْ

رأيتُه بِنجاد السيف(٤) مُحْتَبِياً(٥) ... فى النوم بدراً جلت عن وجهه ظُلَمُهْ

فقلت والدمعُ من حزنٍ ومن كَمَدٍ ... يجرى انسكابًا على الخدّين مُنْسَجِمُهْ

ألم تمت يا شقيقَ النفس مذ زمنٍ ... فقال لى لم يَمُت من لم يمت كَرَمُهْ

فصل: وهذا فصل فى ذكر حقيقة الحسن والجمال ما هى؟ وهذا أمر لا يُدْرَك إلا

---

(١) أترجة: ثمر يشبه الليمون.

(٢) عيافة زاجر: العيافة: التشاؤم والتفاؤل، الزاجر: الذى يزجر الطير فيتطير بها ويتشاءم بها.

(٣) رممة: الرمم: العظام البالية.

(٤) نجاد السيف: خمائله، المعجم الوجيز (٦٠٢).

(٥) محتبيًا: جالسًا.

بالوصف، وقد قيل: إنه تناسُبُ الخلقة واعتدالُها واستواؤها. ورب صورة متناسبة الخلقة، وليست في الحسن هناك. وقد قيل: الحسنُ في الوجه والملاحةُ في العينين. وقيل: الحسنُ أمرٌ مركَّبٌ من أشياءَ: وضاءة وصباحة وحسن تشكيل وتخطيط ودموية في البشرة.

وقيل: الحسنُ معنى لا تناله العبارة، ولا يحيط به الوصف، وإنما للناس منه أوصافٌ أمكن التعبير عنها. وقد كان رسول الله ﷺ في الذروة العُليا منه، ونظرت إليه عائشة ﵂ يومًا ثم تبسَّمت، فسألها ممَ ذاك؟ فقالت: كان أبا كبير الهذلي [١] إنما عناك بقوله:

مَبَرَّأ من كلِّ غُبَّرِ حَيْضَةٍ [٢] وفساد مُرْضِعَةٍ وداءِ مُغْيِلِ [٣]

وإذا نظرتَ إلى أسرَّةِ [٤] وجهه برقَت كبرق العارض المتهلل [٥]

ولقى بعضُ الصحابة راهبًا فقال: صف لى محمداً كأنى أنظر إليه فإنى رأيت صفته فى التوراة والإنجيل، فقال: لم يكن بالطويل البائن [٦] ولا بالقصير، فوق الربعة، أبيض اللون مُشْرَبًا بالحمرة جعدًا ليس بالقَطَط [٧]، جُمَّته [٨] إلى شحمة أذنه، صَلْت الجبين [٩]، واضحَ الخَدّ، ادْعج [١٠] العينين، أقنى [١١] الأنف، مفلج [١٢] الثنايا، كان عنقه إبريق فضَّة، ووجهه كدارة القمر. فأسلم الراهب.

وفى صفة هند بن أبى هالة له ﷺ: لم يكن بالطويل الممغط [١٣]، ولا بالقصير المتردد [١٤]، كان ربعة من الرجال، ولم يكن بالجعد القطط ولا بالسبط، ولم يكن بالمطهم [١٥] ولا بالمكلثم [١٦]، وكان فى الوجه تدوير، أبيض مشرب أدعج العينين، أهدب الأشفار [١٧]، جليل المشاش [١٨] والكتد [١٩]، شَثْنُ [٢٠] الكفين والقدمين،

---

(١) **أبو كبير الهذلي**: هو: عامر بن الحليس.
(٢) **غبر حيضة**: بقايا دم الحيض.
(٣) **وداء مغيل**: الغيلة: هو اللبن الذى يرتضعه الولد من أمه وهى حامل.
(٤) **أسرة وجهه**: الخطوط المتقطعة فى جبين الإنسان.
(٥) **المتهلل**: المتلألئ.
(٦) **البائن**: واضح الطول.
(٧) **القطط**: شدة جعودة الشعر.
(٨) **جمته**: الشعر الساقط على المنكبين من شعر الرأس.
(٩) **صلت الجبين**: واسعه.
(١٠) **أدعج**: شديد سواد العين مع شدة البياض.
(١١) **أقنى**: دقيق.
(١٢) **مفلج**: مباعد ما بين الأسنان.
(١٣) **الممغط**: الطول المعتدل.
(١٤) **المتردد**: القصير.
(١٥) **المطهم**: كثير اللحم.
(١٦) **المكلثم**: ذو الوجه الدائرى.
(١٧) **أهدب الأشفار**: طويل شعر الأجفان.
(١٨) **المشاش**: رءوس العظام.
(١٩) **الكتد**: الكامل.
(٢٠) **شثن**: غليظ.

دقيق المسربة(١)، إذا مشى تَقَلَّعَ(٢) كأنما ينحط من صبب(٣)، وإذا التفت التفت جميعًا. كان الشمس تجرى فى وجهه(٤). وكان ﷺ مع هذا الحسن قد أُلقيت عليه المحبة والمهابة، فمن وقعت عليه عيناه أحبه وهابه.

وكمل الله سبحانه له مراتب الجمال ظاهرًا وباطنًا. وكان أحسن خلق الله خَلْقًا وخُلُقًا، وأجملهم صورة ومعنًى. وهكذا كان يوسف الصديق ﷺ. ولهذا قالت امرأة العزيز للنسوة لما أرتهن إياه ليعذرنها فى محبته: ﴿فَذَلِكُنَّ الَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ﴾ (يوسف: ٣٢)، أى هذا هو الذى فتنت به وشغفت بحبه، فمن يلومنى على محبته وهذا حسن منظره؟ ثم قالت: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾ (يوسف: ٣٢)، أى فمنع هذا الجمال، فباطنه أحسن من ظاهره، فإنه فى غاية العفة والنزاهة والبعد عن الخنا، والمحب وإن غيب محبوبه فلا يجرى لسانه إلا بمحاسنه ومدحه. ويتعلق بهذا قوله تعالى فى صفة أهل الجنة: ﴿وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ (الإنسان: ١١) فجمل ظواهرهم بالنضرة وبواطنهم بالسرور، ومثله قوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ (القيامة: ٢٢، ٢٣)، فإنه لا شىء أشهى إليهم وأقرّ لعيونهم، وأنعم لبواطنهم من النظر إليه، فنضر وجوههم بالحسن، ونعم قلوبهم بالنظر إليه.

وقريب منه قوله تعالى: ﴿وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾ (الإنسان: ٢١)، فهذا زينة الظاهر ثم قال: ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ (الإنسان: ٢١)، أى مطهرًا لبواطنهم من كل أذى. فهذا زينة الباطن. ويشبهه قوله تعالى: ﴿يَا بَنِى آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِى سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا﴾ (الأعراف: ٢٥)، فهذا زينة الظاهر ثم قال: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ (الأعراف: ٢٥) فهذا زينة الباطن. وينظر إليه من طرف خفى قوله تعالى: ﴿وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا﴾ (فصلت: ١٢) فزين ظاهرَها بالمصابيح، وباطنَهَا بحفظها من الشياطين. وقريبٌ منه قوله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ (البقرة: ١٩٧) فذكر الزاد الظاهر والزاد الباطن. وهذا من زينة القرآن الباطنة المضافة إلى زينة ألفاظه وفصاحته وبلاغته الظاهرة. ومنه قوله تعالى لآدم: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى (١١٨) وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى﴾ (طه: ١١٨، ١١٩) فقابل بين الجوع والعُرْى دون الجوع والظمأ، وبين الظمأ والضحى دون

---

(١) المسربة: الشعر ما بين الصدر والسرة. (٢) تقلع: سار بقوة.

(٣) صبب: انحدر.

(٤) ضعيف: رواه الترمذى فى «الشمائل» (٧) والبيهقى فى «الدلائل» (١/ ٢٨٦) وابن سعد (١/ ٣١٦) والطبرانى فى «الكبير» (٢٢/ ١٥٥) وضعفه الألبانى «مختصر الشمائل».

الظمأ والجوع، فإن الجوع عُرى الباطن وذله، والعرى جوع الظاهر وذله. فقابل بين نفى ذلّ باطنه وظاهره، وجوع باطنه وظاهره، والظمأ حر الباطن، والضحى حر الظاهر، فقابل بينهما.

وسئل المتنبى عن قول امرئ القيس:

كأنِّىَ لَمْ أَرْكَبْ جواداً للذّةٍ ... ولم أتَبَطَّنْ كَاعِباً(١) ذات خَلْخَال

ولم أَسْبَإِ الزّقَّ(٢) الرَّوِىَّ ولم أقلْ ... لخيلىَ كُرِّى كَرَّةً بعد إجفال

فقيل له: إنه عيب عليه مقابلة سبى الزق الروى بالكر، وكان الأحسن مقابلته بتبطن الكاعب جمعًا بين اللذتين، وكذلك مقابلة ركوب الجواد للكر أحسن من مقابلته لتبطن الكاعب فقال: بل الذى أتى به أحسن فإنه قابل مركوب الشجاعة بمركوب اللذة واللهو، فهذا مركب الطرب وهذا مركب الحرب والطلب، وكذلك قابل بين السّباءين، سباء الزق وسباء الرق.

قلت: وأيضًا فإن الشارب يفتخر بالشجاعة كما قال حسان:

ونشربها فتتركنا ملوكًا ... وأُسْدًا ما يُنَهْنِهُنَا(٣) اللقاءُ

وهذه جملة اعتراضية من ألطف الاعتراض.

وقيل: الحسنُ ما استنطق أفواه الناظرين بالتسبيح والتهليل كما قيل:

ذى طلعةِ سبحان فالقِ صبحه ... ومعاطفٍ جلّت يمينُ الغارس

وقال على بن الْجَهْم:

طلعتْ فقال الناظرون إلى ... تصويرها ما أعظم اللّهَ

ودنت فلما سلّمتْ خجلت ... والتفَّ بالتفاح خداها

وكان دعصَ الرمل(٤) أسفلُها ... وكان غصنَ البان أعلاها

حتى إذا ثَمِلت بنشوتها ... قرأت كتاب الباه عيناها

وقال آخر:

ذو صورةٍ بَشَرِيَّةٍ قَمَرِيَّة ... تستنطق الأفواه بالتسبيح

وقال آخر:

وإذا بدت فى بعض حاجتها ... تستنطق الأفواه بالتسبيح

---

(١) كاعبا: ثديى الجارية

(٢) أسبإ الزق: اشرب، الزق: إناء الخمر.

(٣) ينهنهنا: يمنعنا.

(٤) دعص الرمل: قطعه المستديرة.

وقال بشار:

تُلْقَى بتسبيحة من حسن ما خُلقت ... وتستفز حشا الرائى بإرعاد

ولى من أبيات:

يا صورةَ البدر ولا الذى ... صَوَّر ليس البدرُ يحكيك

مُنّى عَلَى العين ولا تبخلى ... بنظرة فالعين تَفْديك

وإن تحرَّجت لهذا فكم ... قد سبح الرحمنَ رائيك

هذا بهذا فارتجى أجْرَ مَن ... إن غبت عنه ظلّ يبكيك

قال ابن شبرمة: كفاك من الحسن أنه مشتق من الحسنة. وقال عمر بن الخطاب ﵁: إذا تم بياض المرأة فى حسن شعرها فقد تم حسنها. وقالت عائشة ﵂: البياض شطر الحسن. وقال بعض السلف: جعل الله البهاء والهوج مع الطول، والدهاء والدمامة مع القصر، والخير فيما بين ذلك.

ومما يُذَمُّ فى النساء المرأةُ القصيرة الغليظة وهى التى عناها الشاعر بقوله:

وأنت التى حببّت كلّ قصيرة ... إلىّ ولم تَشْعُرْ بذاك القصائر

عَنَيْتُ قصيرات الحجال (١) ولم أُردْ ... قِصَارَ النّسَا شر النسا البَحَاتر

والبحاتر: هن النساء القصار الغلاظ. وبعضهم يبالغ فى هذا حتى يفضل المهازيل على السمان. أنشد الزمخشرى (٢):

لا أعشق الأبيض المنفوخ من سمن ... لكننى أعشق السُّمْر المَهَازيلا

إنى امْرُؤٌ أركب المُهْرَ المضمَّر فى ... يوم الرّهان فدعنى واركب الفيلا

وطائفة تفضل السِّمان وتقول: السمن نصف الحسن، وهو يستر كل عيب فى المرأة ويبدى محاسنها. وخيار الأمور أوساطها.

ومما يُستحسن في المرأة طولُ أربعةٍ وهنَّ: أطرافها، وقامتها، وشعرها، وعنقها. وقصرُ أربعة: يدها، ورجلها، ولسانها، وعينها، فلا تبذل ما فى بيت زوجها، ولا تخرج من بيتها، ولا تستطيل بلسانها، ولا تطمح بعينها. وبياض أربعة: لونها، وفرقها، وثغرها، وبياض عينها. وسوادُ أربعةٍ: أهدابها، وحاجبها، وعينها، وشعرها. وحمرةُ أربعة: لسانها، وخدها،

---

(١) **الحجال**: ستر مزين تجلس فيه العروس.

(٢) **الزمخشرى**: هو: جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشرى الخوارزمى المعتزلى، صاحب كتاب «الكشاف» «ربيع الأبرار» ولد سنة (٤٦٤ هـ) وتوفى سنة (٥٣٨ هـ) ودفن بمكة.

وشفتها مع لعس(١)، وإشرابُ بياضها بحمرة. ودقّة أربعة: أنفها، وبنانها، وخصرها، وحاجبها. وغلَظُ أربعة: ساقها، ومِعْصَمُها، وعجيزتها، وذاك منها(٢)، وسَعَة أربعة: جبينها، ووجهها، وعينيها، وصدرها. وضيقُ أربعة: فمها، ومنخرها، وخرق أذنها، وذاك منها. فهذه أحق النساء بقول كثير:

لو أن عَزّةَ خاصمت شمس الضُّحى ... فى الحسن عند مُوَفَّقٍ لقضى لها

وقال آخر:

لو أبصرَ الوجهَ منها وهو منهزمٌ ... ليلاً وأعداؤه من خلفه وقفا

وقال آخر:

يا طيبَ مَرْعى مُقلة لم تخفْ ... بوجنتيها زَجْرَ حُرّاس
حلّت بوجه لم يَغِض(٣) ماؤه ... ولم تَخُضْه(٤) أعينُ الناس

وقال آخر:

فلم يزل خدُّها رُكنًا ألوذ به ... والخالُ فى خدّها يغنى عن الحجر

وقول الآخر وأنشده المبرِّد:

وأحسنُ من ربع ومن وصف دِمْنَة(٥) ... ومن جَبَلَىْ طى ومن وصفكم سَلْعا(٦)
تَلاحُظُ عينَىْ عاشقين كلاهما ... له مُقلةٌ فى خد معشوقه تَرْعى

وأنشد ثعلب(٧):

خُزاعية الأطراف مُرّيةُ الحشا ... فَزارية العينين طائية الفمِ
ومكّيّةٌ فى الطيب والعِطرِ دائمًا ... تبدّت لنا بين الحَطيم وزَمْزَمِ

ثم قال: وصفها بما يستحسن من كل قبيلة.

وقال صالح بن حسان يومًا لأصحابه: هل تعرفون بيتًا من الغَزَل فى امرأة خَفِرة(٨)؟ قلنا: نعم بيتٌ لحاتم فى زوجته ماويّة:

---

(١) لعس: السواد الذى فى باطن الشفة.
(٢) وذاك منها: يريد فرجها.
(٣) لم يغض: لم تذهب نضارته.
(٤) تخضه: تقحمه.
(٥) دمنة: بقايا الديار.
(٦) سلعًا: اسم جبل بالمدينة.
(٧) ثعلب: هو أبو العباس أحمد بن يحيى بن يزيد الشيبانى البغدادى، ولد سنة (٢٠٠ هـ) وتوفى سنة (٢٩١ هـ).
(٨) خفرة: شديدة الحياء.

يضيء لها البيتُ الظليل خصاصه[١] إذا هي يومًا حاولت أن تبسّما

قال: ما صنعتم شيئًا، قلنا: فبيتُ الأعشى:

كأن مشيتَها من بيت جارتها مَرُّ السحابة لا رَيْثٌ ولا عَجَل

قال: جعلها تدخل وتخرج، قلنا: يا أبا محمد، فأى بيت هو؟ قال: قول أبى قيس بن الأسلت:

ويكرمها جاراتُها فيَزُرْنَها وتَعْتل عن إتيانهنّ فتُعْذَر

قلت: وأحسن من هذا كله ما قاله إبراهيم بن محمد الملقّب بِنفْطَوَيْه رحمه الله:

وخبرها الواشون أن خيالها إذا نمتُ يَغْشى مضجعى ووسادى

فخفرها فرطُ الحياء فأرسلت تعيرنى غَضْبى بطول رقادى

ومما يستحسن فى المرأة رقةُ أديمها[٢]، ونعومةُ مَلْمَسها كما قال قيس بن ذَريح:

تعلّق رُوحى رُوحها قبل خلقنا ومن بعد ما كنا نطافًا[٣] وفى المهد

فزاد كما زدنا فأصبح ناميًا فليس وإن متنا بمُنْفَصِم العهد

ولكنّه باقٍ عَلَى كل حادث ومؤْنِسُنا فى ظلمة القبر واللحد

يكاد مسيلُ الماء يَخْدش جلدها إذا اغتسلت بالماء من رقة الجلد

قلت: ومن المبالغة فى معنى البيت الأخير قولُ أبى نُوَاس:

تَوَهَّمَهُ قَلْبى فأصْبَحَ خَدُّه وفيه مكانُ الوَهْم من نظرى أثَرُ

ومَرَّ بِقَلْبى خَاطرٌ فجرحتُهُ ولم أرَ جِسْمًا قط يجرَحه الفكرُ

وصافحه كفّى فآلمَ كفَّه فمن غمز كفّى فى أنامله عقرُ[٤]

ولى من أبيات:

يُدمى الحريرُ أديمَها من مَسّه فأديمُها منه أرقُّ وأنعمُ

فصل: فيا أيها العاشق سمعُه قبل طرفه فإن الأذن تعشق قبل العين أحيانًا، وجيش المحبة قد يدخل المدينة من باب السمع كما يدخلها من باب البصر. والمؤمنون يشتاقون إلى الجنة وما رأوْها، ولو رأوها لكانوا أشد لها شوقًا، والصرورة[٥] يكاد قلبه يذوب شوقًا إلى رؤية البيت الحرام. فإن شاقتك هذه الصفات وأخذت بقلبك هذه المحاسن:

فاسْمُ بعينيك إلى نسْوَةٍ مُهُورُهنَّ العملُ الصالح

---

(١) خصاصه: فجواته.
(٢) أديمها: جلدها.
(٣) نطافًا: نطفة.
(٤) عقر: قتل.
(٥) الصرورة: من لم يحج بعد.

وحَـدِّث النفسَ بعـشـق الأُلى ... فـى عـشـقـهـنّ المَتْجرُ الرابح
واعمـلْ عَلَى الوصل فقد أمكنت ... أسـبـابُـه ووقـتـهـا رائـح

فـصل: وقد وصف الله سبحانه حُور الجنة بأحسن الصفات، وحلاهن بأحسن الحلى، وشوق الخُطاب إليهن حتى كأنهم يرونهن رؤية العين.

قال الطبرانى : حدثنا بكر بن سهل الدمياطى، حدثنا عمرو بن هشام البيرونى، حدثنا سليمان بن أبى كريمة، عن هشام بن حسان، عن الحسن، عن أُمه، عن أم سلمة رضي الله عنها قالت : قلت : يا رسول الله أخبرنى عن قول الله عَزَّ وجَلَّ: ﴿**حُورٌ عِينٌ**﴾ قال : « حُورٌ بِيضٌ، عِينٌ ضِخَامُ الْعُيُون، شعر الْحَوْرَاءِ بِمَنْزِلَةِ جَنَاحِ النِّسْرِ» قلت : أخبرنى عن قوله عز وجل: ﴿**كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ**﴾ (الواقعة : ٢٣) قال : « صفاؤهنَّ صفاء الدرّ الذى فى الأصداف الذى لم تَمَسَّه الأيدى » قلت : يا رسول الله، أخبرنى عن قوله : ﴿**فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ**﴾ (الرحمن : ٧٠)، قال : « خَيراتُ الأخلاق حِسَانُ الوجوه »، قلت : أخبرنى عن قوله : ﴿**كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ**﴾ (الصافات : ٤٩) قال : « رِقَّتُهُنَّ كرِقَّة الجلد الذى رأيتِ فى داخل البيضة ممَّا يلِى القِشْرَ وهو الغِرْقِىءُ ». قلت : يا رسول الله، أخبرنى عن قوله عز وجل : ﴿**عُرُبًا أَتْرَابًا**﴾ (الواقعة : ٣٧)، قال : « هُنَّ اللواتى قُبضن فى دار الدُّنيا عجائزَ رُمْصًا شُمْطًا خلقهن اللهُ بعد الكِبرِ فجعلهنَّ عذارى عُرُبًا متعشِّقَاتٍ متحَبِّبَاتٍ أترَابًا على ميلاد واحد » قلت : يا رسول الله، نساءُ الدنيا أفضل أم الحور العين؟ قال : « بل نساء الدنيا أفضلُ من الْحُور العِين كفضل الظهارة عَلَى البطانة » قلت : يا رسول الله، وبِمَ ذلك؟ قال : « بصلاتهنَّ وصيامهنَّ وعبادتهنَّ اللهَ أَلْبس الله وجوهَهنّ النور، وأجسادَهنّ الحرير، بيضُ الألوان، خُضْرُ الثياب، صُفْرُ الحلى، مَجَامِرُهُنَّ الدرّ، وأمشاطهنَّ الذهب يَقُلن : نحن الخالدات فلا نموت، نحن الناعمات فلا نَبْأَسُ أبدًا، نحن المقيمات فلا نَظْعن أبداً ، ألا ونحن الراضيات فلا نسخط أبدًا، طُوبى لمن كنّا له وكان لنا » قلت : يا رسول الله، المرأةُ منّا تتزوَّج الزوجين والثلاثة والأربعة ثم تموت فتدخل الجنة ويدخلون معها، مَن يكون زوجَهَا؟ قال : « يا أُمّ سَلَمَة إنها تُخَيَّر فتختار أحسنَهم خُلُقًا فتقول : أى ربّ إن هذا كان أحسنَهم معى خُلُقًا فى دار الدُّنيا فزوِّجْنِيه، يا أُمَّ سَلَمة ذهب حسنُ الْخُلُق بخيرى الدنيا والآخرة »(١).

فـصل: وقد وصفهنّ الله عز وجل بأنهن كواعب، وهو جمع كاعب، وهى المرأة التى

(١) ضعيف جدًا : رواه الطبرانى فى « الكبير » (٢٣/ ٨٧٠) و « الأوسط » (٣١٦١) وابن عدى (٣/ ٢٦٢) وفى سنده سليمان بن أبى كريمة، قال عنه الذهبى فى « الميزان » (٢/ ٤١١) ضعيف.

قد تكعب ثديها، واستدار ولم يتدل إلى أسفل، وهذا من أحسن خلق النساء، وهو ملازم لسن الشباب. ووصفهن بالحور وهو حسن ألوانهن وبياضه، قالت عائشة ﷺ: البياض نصف الحسن. وقال عمر بن الخطاب ﷺ: إذا تم بياض المرأة فى حسن شعرها فقد تم حسنها، والعرب تمدح المرأة بالبياض. قال الشاعر:

بِيضٌ أوانس ما هَمَمن بريبةٍ كظباء مكة صَيْدهنَّ حرامُ
يُحْسَبْنَ من لين الحديث زوانيًا ويَصُدُّهُنَّ عن الْخَنَا الإِسلامُ

والعِينُ: جمعُ عَيْناءِ، وهى المرأةُ الواسعة العَيْن مع شدَّة سوادها وصفاء بياضها وطولِ أهدابها وسوادها. ووصفهنَّ بأنهن خيرات حسان وهو جمع خيرة، وأصلها خيرة بالتشديد كطيبة ثم خفف الحرف، وهى التى قد جمعت المحاسن ظاهرًا وباطنًا فكمل خَلْقها وخُلُقها فهن خيرات الأخلاق حسان الوجوه، ووصفهنَّ بالطهارة فقال: ﴿**وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ**﴾ (البقرة: ٢٥) طَهُرْنَ من الحيض والبول والنَّجْو[١]، وكل أذى يكون فى نساء الدنيا، وطهرت بواطنُهن من الغيرة وأذى الأزواج وتجنيهن عليهم وإرادة غيرهم، ووصفهن بأنهن مقصورات فى الخيام، أى ممنوعات من التبرج والتبذل لغير أزواجهن، بل قد قصرن على أزواجهن لا يخرجن من منازلهم، وقصرن عليهم فلا يردن سواهم، ووصفهن سبحانه بأنهن قاصرات الطرف، وهذه الصفة أكمل من الأولى، ولهذا كن لأهل الجنتين الأوليين، فالمرأة منهن قد قصرت طرفها على زوجها من محبتها له ورضاها به، فلا يتجاوز طرفها عنه إلى غيره كما قيل:

أذود سَوَامَ الطَّرْف[٢] عنك وماله عَلَى أحدٍ إلا عليك طريق

وكذلك حال المقصورات أيضًا لكن أُولئك مقصورات، وهؤلاء قاصرات.

ووصفهنَّ سبحانه بقوله: ﴿**إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً ۝٣٥ فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا**﴾ (الواقعة: ٢٥، ٢٦) وذلك لفضل وَطْء البِكْر وحلاوته ولذاذته عَلَى وَطْءِ الثَّيِّب[٣]، قالت عائشة ﷺ: يا رسول الله لو مررت بشجرة قد رُعى منها وشجرة لم يُرْعَ منها ففى أيهما كنت ترتع بعيرك؟ فقال: «فى الَّتِى لَمْ يُرْعَ مِنْهَا» تعنى أنه لم يتزوَّج بكرًا غيرها، وصح عنه أنه قال لجابر لما تزوج امرأة ثيبًا: «هلا بِكْرًا تُلاعِبُهَا وَتُلاعِبُكَ»[٤]؟.

---

(١) النجو: الغائط.
(٢) سوام الطرف: طاف ببصره حولها.
(٣) الثيب: المرأة التى تزوجت مرة.
(٤) صحيح: رواه البخارى (٥٠٨٠) ومسلم (١٤٦٥) وأحمد (٣/ ٣٦٩).

فإن قيل: فهذه الصفة تزول بأوّل وَطْءٍ فتعود ثيِّبًا، **قيل**: الجواب من وجهين: **أحدُهما**: أن المقصود من وطء البكر أنها لم تذق أحدًا قبل وطئها فتنزرع محبته فى قلبها، وذلك أكمل لدوام العشرة، فهذه بالنسبة إليها، وأما بالنسبة إلى الواطئ فإنه يرعى روضة أنفًا لم يرعها أحد قبله، وقد أشار تعالى إلى هذا المعنى بقوله: ﴿**لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ**﴾ (الرحمن: ٥٦) ثم بعد هذا تستمر له لذة الوطء حال زوال البكارة. **والثانى**: أنه قد روى: «أن أَهل الجنة كلما وطئ أحدُهم امرأةً عادت بكرًا كما كانت، فكلما أتاها وجدها بكرًا» (١). وأما العُرُب: فجمع عروب، وهى التى جمعت إلى حلاوةِ الصورة حسن التأنى والتبعل والتحبب إلى الزوج بدلها (٢) وحديثها وحلاوةِ منطقها وحسن حركاتها، قال البخارى فى صحيحه (٣): وأما الأتراب فجمع ترب يقال: فلان تربى، إذا كنتما فى سن واحد، فهن مستويات فى سن الشباب لم يقصر بهن الصغر، ولم يزر بهن الكبر، بل سنهن سن الشباب، وشبههن تعالى باللؤلؤ المكنون، وبالبيض المكنون، وبالياقوت والمرجان. فخذ من اللؤلؤ صفاء لونه وحسن بياضه ونعومة ملمسه، وخذ من البيض المكنون وهو المصون الذى لم تنله الأيدى اعتدال بياضه وشوبه بما يحسنه من قليل صفرة، بخلاف الأبيض الأمهق (٤) المتجاوز فى البياض، وخذ من الياقوت والمرجان حسن لونه فى صفائه وإشرابه بيسير من الحمرة.

فصل: فاسمع الآن وصفهن عن الصادق المصدوق، فإن مالت النفس وحدثتك بالخطبة وإلا فالإيمان مدخول (٥)، فروى مسلم فى صحيحه من حديث أيوب، عن محمد ابن سيرين قال: إما تفاخروا وإما تذاكروا، الرجال فى الجنة أكثر أم النساء؟ فقال أبو هريرة ﷺ: أولم يقل أبو القاسم ﷺ: «إِنَّ أَوَّلَ زُمْرَةٍ تَدْخُلُ الْجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، وَالَّتِى تَلِيهَا عَلَى أَضْوَءِ كَوْكَبٍ دُرِّىٍّ فِى السَّمَاءِ إِضَاءَةً، لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ زَوْجَتَانِ اثْنَتَانِ يُرَى مُخُّ سُوقِهِمَا مِنْ وَرَاءِ اللَّحْمِ، وَمَا فِى الْجَنَّةِ أَعْزَب» (٦).

---

(١) **موضوع**: رواه البزار (٣٥٢٧) والطبرانى فى «الصغير» (٢٤٩) والخطيب (٦/ ٥٣) وابن الجوزى فى «العلل المتناهية» ٢/ ٩٣٠).

(٢) **بدلها**: **الدل**: قصد الدلال.

(٣) صحيح البخارى فى الباب (٣٨) تفسير سورة ص.

(٤) **الأمهق**: بياض لون الجير.

(٥) **مدخول**: خالطه الدخن والفساد.

(٦) **صحيح**: رواه البخارى (٣٢٤٦) ومسلم (٢٨٣٤) وأحمد (٢/ ٢٤٧).

وقال الطبراني في معجمه: حدثنا أحمد بن يحيى الحلواني والحسن بن علي الفسوي قالا: حدثنا سعيد بن سليمان: حدثنا فضلُ بن مرزوق، عن أبي إسحاق، عن عمرو بن ميمون، عن عبد الله ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «أَوَّلُ زُمْرَةٍ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ كَأَنَّ وُجُوهَهُمْ صُورَةُ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، وَالزُّمْرَةُ الثَّانِيَةُ عَلَى أَحْسَنِ كَوْكَبٍ دُرِّيٍّ فِي السَّمَاءِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ زَوْجَتَانِ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ عَلَى كُلِّ زَوْجَةٍ سَبْعُونَ حُلَّةً يُرَى مُخُّ سُوقِهِمَا مِنْ وَرَاءِ لُحُومِهِمَا وَحُلَلِهِمَا كَمَا يُرَى الشَّرَابُ الأَحْمَرُ فِي الزُّجَاجَةِ الْبَيْضَاءِ»(١). قال الحافظ أبو عبد الله المقدسي: هذا عندي على شرط الصحيح.

وفي الصحيحين من حديث همام بن منبه عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «أَوَّلُ زُمْرَةٍ تَلِجُ الْجَنَّةَ صُوَرُهُمْ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ لا يَبْصُقُونَ فِيهَا وَلا يَمْتَخِطُونَ فِيهَا وَلا يَتَغَوَّطُونَ فِيهَا، آنِيَتُهُمْ وَأَمْشَاطُهُمُ الذَّهَبُ وَالْفِضَّةُ وَمَجَامِرُهُمُ الأَلُوَّةُ(٢) وَرَشْحُهُمُ الْمِسْكُ، وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنهم زَوْجَتَانِ يُرَى مُخُّ سَاقِهِمَا مِنْ وَرَاءِ اللَّحْمِ مِنَ الْحُسْنِ، لا اخْتِلافَ بَيْنَهُمْ وَلا تَبَاغُضَ؛ قُلُوبُهُمْ عَلَى قَلْبٍ وَاحِدٍ يُسَبِّحُونَ اللهَ بُكْرَةً وَعَشِيَّةً»(٣).

وقال الإمام أحمد بن حنبل في مسنده: حدثنا يونس بن محمد، حدثنا الخزرج بن عثمان السعدي، حدثنا أبو أيوب مولى عثمان بن عفان ﷺ، عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «قِيدُ سَوْطِ أَحَدِكُمْ فِي الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمِثْلُهَا مَعَهَا، وَلَقَابُ قَوْسِ أَحَدِكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمِثْلُهَا مَعَهَا، وَلَنَصِيفُ امْرَأَةٍ مِنَ الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمِثْلُهَا مَعَهَا»(٤) قال: قلت: يا أبا هريرة وما النَّصيف؟ قال: الخمار، فإذا كان هذا قدر الخمار فما قدر لابسه؟.

وقال ابن وهب: أخبرنا عمرو أن دراجًا أبا السمح حدثه عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الرَّجُلَ فِي الْجَنَّةِ لَتَأْتِيهِ امْرَأَةٌ تَضْرِبُ عَلَى مَنْكِبِهِ فَيَنظُرُ وَجْهَهُ فِي خَدِّهَا أَصْفَى مِنَ الْمِرْآةِ وَإِنَّ أَدْنَى لُؤْلُؤَةٍ (عَلَيْهَا) لَتُضِيءُ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ فَتُسَلِّمُ عَلَيْهِ فَيَرُدُّ (عَلَيْهَا) السَّلامَ وَيَسْأَلُهَا مَنْ أَنْتِ فَتَقُولُ: أَنَا الْمَزِيدُ وَإِنَّهُ لَيَكُونُ

---

(١) صحيح: رواه الطبراني في «الكبير» (١٠٣٢١) و«الأوسط» (٩١٩) وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٢٥٦٤).

(٢) الألوة: أطيب البخور.

(٣) صحيح: رواه البخاري (٣٢٤٥) ومسلم (٢٨٣٤).

(٤) صحيح: رواه البخاري (٢٧٩٣) ومسلم (١٨٨٢) وأحمد (٢/ ٤٨٣).

عَلَيْهَا سَبْعُونَ ثوبًا أَدْنَاهَا مِثْلُ النعمان فَيَنفُذُهَا بَصَرَهُ حَتَّى يَرَى مُخَّ سَاقِهَا مِنْ وَرَاءِ ذَلِكَ وَإِنَّ عَلَيْهِمْ التِّيجَانَ وَإِنَّ أَدْنَى لُؤْلُؤَةٍ عَلَيْهَا لَتُضِيءُ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ»(١). وبعض هذا الحديث فى «جامع الترمذى» وهو على شرطه.

وفى «صحيح البخارى» من حديث أنس ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «لَغَدْوَةٌ فِي سَبِيلِ اللهِ أَوْ رَوْحَةٌ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، ولقَاب قَوْسِ أحدكُمْ أَوْ مَوْضِعُ قَيْدِهِ - يَعْنِي سَوْطَهُ - خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، وَلَوِ اطَّلَعَتِ امْرَأَةٌ مِنْ نِسَاءِ الْجَنَّةِ إِلَى الأَرْضِ لَمَلأَتْ مَا بَيْنَهُمَا رِيحًا وَأَضَاءَتْ مَا بَيْنَهُمَا، وَلَنَصِيفُهَا عَلَى رأْسِهَا خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا»(٢).

وفى «المسند» من حديث محمد بن سيرين عن أبى هريرة ﷺ عن النبى ﷺ: «لِلرَّجُلِ مِنْ (أَهْلِ) الْجَنَّةِ زَوْجَتَانِ مِنَ الحُورِ الْعِينِ عَلَى كُلِّ وَاحِدَةٍ سَبْعُونَ حُلَةً يُرَى مُخ ساقِهَا مِنْ وَرَاءِ الثِّيَابِ»(٣).

وقال ابن وهب: حدثنا عمرو أن دراجًا أبا السمح حدثه عن أبى الهيثم، عن أبى سعيد الخدرى ﷺ، عن النبى ﷺ قال: «إِن أَدْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةً الَّذى لَهُ ثَمَانُونَ أَلْفَ خَادِمٍ وَاثْنَتَانِ وَسَبْعُونَ زَوْجَة ويُنْصَبُ لَهُ قُبَّةٌ مِنْ لُؤْلُؤٍ وزبرْجَدٍ وَيَاقُوتٍ كَمَا بَيْنَ الْجَابِيَةِ وَصَنْعَاءَ» (رواه الترمذى)(٤).

وفى معجم الطبرانى من حديث أبى أمامة عن النبى ﷺ قال: «خُلِقَ الْحُورُ الْعِينُ مِنَ الزَّعْفَرَانِ»(٥).

فصل: إن أردت سماع غنائهن فاسمع خبره الآن، ففى «معجم الطبرانى» من حديث ابن عمر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَزْوَاجَ أَهْلِ الْجَنَّةِ لَيُغَنِّينَ أَزْوَاجَهُنَّ بِأَحْسَنِ أَصْوَاتِ مَا سَمِعَهَا أَحَدٌ قَطُّ. إِنَّ مِمَّا يُغَنِّينَ به: نَحْنُ الْخَيِّرَاتُ الْحِسَانُ، أَزْوَاجُ قَوْمٍ كِرامٍ، يَنْظُرُونَ بِقُرَّةِ أَعْيَانٍ. وَإِنَّ مِمّا يُغَنِّينَ بِهِ: نَحْنُ الْخَالِدَاتُ فَلا نَمُتْنَهْ، نَحْنُ الآمِنَاتُ فَلا نَخَفْنَهْ،

---

(١) ضعيف: رواه ابن حبان (٧٣٩٧) والحاكم (٢/ ٤٧٥) أما ما ورد فى «سنن الترمذى» فإسناده حسن (٢٥٦٢) ورواه أيضًا مع الترمذى، البغوى فى «شرح السنة» (٤٣٨١).

(٢) صحيح: رواه البخارى (٢٧٩٦) ومسلم (١٨٨٠) وأحمد (٣/ ١٣٢).

(٣) صحيح: رواه البخارى (٣٣٢٧) ومسلم (٢٨٣٤) وأحمد (٢/ ٢٤٧).

(٤) تقدم هذا برقم (١) من هذه الصفحة.

(٥) ضعيف: رواه الطبرانى فى «الكبير» (٨/ ٧٨١٣) و«الأوسط» (٢٩٠) وضعفه الألبانى فى «ضعيف الجامع» (٢٨٤٠).

نَحْـنُ الْمُقِـيمَاتُ فَـلا نَظْعَنّهْ»[١] ، وقد قيل فى قوله تعالى : ﴿ **فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ** ﴾ (الروم: ١٥) إنه السماع الطيب ولا ريب أنه من الحبرة[٢] .

وقال عبد الله بن محمد البغوى: حدثنا علىّ، أنبأنا زهير، عن أبى إسحاق، عن عاصم، عن على ﷺ قال: ﴿ **وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا** ﴾ (الزمر: ٧٣) حتى إذا انتهوا إلى باب من أبوابها وجدوا عنده شجرة يخرج من تحت ساقها عينان تجريان، فعمدوا إلى إحداهما فكأنما أمروا به فشربوا منها فأذهب الله ما فى بطونهم من قذى أو أذى أو بأس، ثم عمدوا إلى الأخرى فتطهروا منها فجرت عليهم نضرة النعيم، ولم تتغير أشعارهم بعدها أبداً ولم تشعث[٣] رءوسهم كأنما ادهنوا بالدهان، ثم انتهوا إلى (خزنة) الجنة فقالوا: ﴿ **سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ** ﴾ (الزمر: ٧٣) ثم تلقاهم الولدان يطيفون بهم كما يطيف ولدان أهل الدنيا بالحميم، يقدم عليهم من غيبته فيقولون له: أبشر بما أعد الله تعالى لك من الكرامة، ثم ينطلق غلام من أولئك الولدان إلى بعض أزواجه من الحور العين فيقول: جاء فلان، باسمه الذى كان يدعى به فى الدنيا، قالت: أنت رأيته؟ قال: أنا رأيته وهو بأثرى، فيستخف إحداهن الفرح حتى تقوم على أسكفة[٤] بابها، فإذا انتهى إلى منزله نظر إلى أساس بنيانه فإذا جندل[٥] اللؤلؤ فوقه صرح أخضر وأحمر وأصفر من كل لون، ثم رفع رأسه فنظر إلى سقفه فإذا مثل البرق، ولولا أن الله عز وجل قدره لألم[٦] أن يذهب بصره، ثم طأطأ رأسه فإذا أزواجه وأكواب موضوعة، ونمارق[٧] مصفوفة، وزرابى[٨] مبثوثة، ثم اتكأوا فقالوا: ﴿ **الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ** ﴾ (الأعراف: ٤٣) ثم ينادى منادٍ: تحيون فلا تموتون أبداً، وتقيمون فلا تظعنون أبداً، وتصحون فلا تمرضون أبداً».

وفى سنن ابن ماجه عن أسامة بن زيد ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «أَلا هَلْ مُشَمِّرٌ لِلْجَنَّةِ، فَإِنَّ الْجَنَّةَ لا خَطَرَ لَهَا، هِيَ وَرَبِّ الكَعْبَةِ نُورٌ يَتَلأْلأُ ورَيْحَانَةٌ تَهْتَزُّ وَقصْرٌ مشيدٌ وَنَهْرٌ مُطَّرِدٌ وَثَمَرَةٌ نضيجة وَزَوْجَةٌ حَسْنَاءُ جَمِيلَةٌ وَحُلَلٌ كَثِيرَةٌ وَمَقَامٌ فِي أَبدٍ فِي دَارٍ سَلِيمَةٍ وَفَاكِهَةٍ

---

(١) صحيح: رواه الطبرانى فى «الصغير» (١/ ٢٥٩) و«الأوسط» (٢٩١٧) وصححه الألبانى فى «صحيح الجامع» (١٥٦١).

(٢) الحبرة: السعادة.

(٣) تشعث: تلبد الشعر من أثر الغبار والتراب.

(٤) أسكفة: عتبة الباب.

(٥) جندل: الجندل: الحجر العظيم.

(٦) قدره لألم: يوشك أن يذهب بصره.

(٧) غارق: وسائد.

(٨) زرابى: بسط.

وَخُضْرَةٍ وَحَبْرَةٍ وَنِعْمَةٍ فِى مَحَلَّةٍ عَالِيَةٍ بَهِيَّةٍ » قالوا: نعم يا رسول الله، نحن المشمرون لها، قال: « قولوا إن شاء اللهُ » فقال القوم: إن شاء الله تعالى (١).

فصل: فهذا وصفهن وحسنهن فاسمع الآن لذة وصالهن وشأنه، ففى مسند أبى يعلى الموصلى من حديث أبى هريرة ﷺ قال: قال رسول الله... فذكر حديثًا طويلاً وفيه: « فأَقُولُ يا ربِّ وعدْتنى الشَّفَاعَةَ فَشَفَّعْتَنِى فِى أهل الجنة يدخلون الجنة فيقول الله تعالى قد شفعتك وأذنت لهم فى دخول الجنة ».

وكان رسول الله ﷺ يقول: « والذى بعثنى بالحق ما أنتم فى الدنيا بأعرف بأزواجكم ومساكنكم من أهل الجنة بأزواجهم ومساكنهم فيدخل رجل منهم على ثنتين وسبعين زوجة مما ينشئ الله، وثنتين من ولد آدم لهما فضل على من أنشأ الله بعبادتهما الله فى الدنيا، يدخل على الأولى منهما فى غرفة من ياقوتة على سرير من ذهب مكلل باللؤلؤ عليه سبعون زوجًا من سندس واستبرق وإنه ليضع يده بين كتفيها ثم ينظر إلى يده من صدرها ومن وراء ثيابها وجلدها ولحمها وإنه لينظر أحدكم إلى السلك فى قصبة الياقوت كبده لها مرآة - يعنى وكبدها له مرآة - فبينا هو عندها لا يملها ولا تمله ولا يأتيها من مرة إلا وجدها عذراء ما يفتر ذكره ولا يشتكى قُبُلُها فبينا هو كذلك إذ نودى إنا قد عرفنا أنك لا تَمَلُّ ولا تُمَلُّ إلا أنه لا منى ولا منية إلا أن يكون لك أزواج غيرها فيخرج فيأتيهن واحدة واحدة كلما جاء واحدة قالت: والله ما فى الجنة شىء أحسن منك وما فى الجنة شىء أحب إلىَّ منك » وهذا قطعة من حديث الصور الطويل الذى رواه إسماعيل بن رافع (٢).

وفى صحيح مسلم من حديث أبى موسى الأشعرى ﷺ، عن النبى ﷺ قال: « إن للمؤمن فى الجنة لخيمة من لؤلؤة واحدة مجوفة طولها ستون ميلاً للمؤمن فيها أهلون يطوف عليهم المؤمن فلا يرى بعضهم بعضًا ». رواه البخارى وقال: ثلاثون ميلاً (٣).

وفى « جامع الترمذى » من حديث أنس ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: « يعطى المؤمن فى الجنة قوة كذا وكذا من النساء » قلت: يا رسول الله، ويطيق ذلك؟ قال: « يعطى قوة مائة » قال: هذا حديث صحيح غريب (٤).

وفى « معجم الطبرانى » من حديث أبى هريرة ﷺ قال: قيل: يا رسول الله، هل نصل

---

(١) **ضعيف**: رواه ابن ماجه (٤٣٣٢) وابن حبان (٢٦٢٠) وضعفه الألبانى فى « الضعيفة » (٣٢٥٨).

(٢) مسنده ضعيف فى سنده إسماعيل بن رافع: متروك.

(٣) **صحيح**: رواه البخارى (٣٢٤٣) ومسلم (٢٨٣٨).

(٤) **صحيح**: رواه أحمد (٢/ ٤٠٠) والترمذى (٢٥٣٦) وابن حبان (٧٣٥٧) وصححه الألبانى فى « المشكاة » (٥٦٣٦).

إلى نسائنا فى الجنة؟ فقال: «إن الرجل ليصل فى اليوم إلى مائة عذراء» وفى لفظ: قلنا يا رسول الله نفضى إلى نسائنا فى الجنة؟ فقال: «إى والذى نفسى بيده إن الرجل ليفضى فى الغداة الواحدة إلى مائة عذراء»(١) . قال الحافظ أبو عبد الله المقدسى: ورجالُ هذا الحديث عندى على شرط الصحيح.

وفى حديث لقيط العقيلى الطويل الذى رواه الطبرانى، وعبد الله بن أحمد فى «السنة» وغيرهما أنه قال: قلت يا رسول الله، أوَلنا فيها أزواج مصلحات؟ قال: «الصالحات للصالحين تلذونهن مثل لذاتكم فى الدنيا يلذونكم غير أن لا توالد»(٢) .

وذكر ابن وهب عن عمرو بن الحارث، عن دراج، عن عبد الرحمن حجيرة، عن أبى هريرة ﷺ أنه قال: أنطأ فى الجنة؟ فقال رسول الله ﷺ: «نعم والذى نفسى بيده دحمًا دحمًا، فإذا قام عنها رجعت مطهرة بكرًا»(٣) قال الحافظ أبو عبد الله: دراج اسمه عبد الرحمن بن سمعان المصرى، وثقه يحيى بن معين، وأخرج عنه أبو حاتم بن حبان فى صحيحه وكان بعض الأئمة ينكر بعض حديثه، والله أعلم.

وفى «معجم الطبرانى» من حديث أبى المتوكل، عن أبى سعيد الخدرى ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أهل الجنة إذا جامعوا نساءهم عدن أبكارًا»(٤) .

وفيه أيضًا من حديث أبى أمامة ﷺ أنه سمع رسول الله ﷺ سُئل: هل يتناكح أهل الجنة؟ فقال: «بذكر لا يمل وشهوة لا تنقطع دحمًا دحمًا»(٥) .

وفيه أيضًا عنه أن رسول الله ﷺ سئل: أيجامع أهل الجنة؟ قال: «دحمًا دحمًا ولكن لا منى ولا منية».

---

(١) صحيح: رواه الطبرانى فى «الصغير» (٧٩٥) و «الأوسط» (٥٢٦٧) والبزار (٣٥٢٥).

(٢) ضعيف: رواه عبد الله بن أحمد فى «زوائد المسند» (٤/ ١٤) والطبرانى فى «الكبير» (١٩/ ٢١١) وابن خزيمة (١٢٢) وابن أبى عاصم فى «السنة» (٦٣٦).

(٣) حسن: رواه ابن حبان (٧٣٥٩) وأبو نعيم فى «صفة الجنة» (٣٩٣).

(٤) ضعيف: رواه الطبرانى فى «الصغير» (٢٥٩) وضعفه الألبانى فى «ضعيف الجامع» (١٨٣٠).

(٥) ضعيف: رواه الطبرانى فى «الكبير» (٧٦٧٤) وابن عدى (٣/ ٨٨٤) وأبو نعيم فى «صفة الجنة» (٣٦٧).

من قصيدة للمؤلف فى وصف الحور[١]

يا خاطبَ الحور الحسان وطالبًا ... لوصالهن بجنة الحَيَوَانِ
لو كنت تدرى من خطبت ومن طلبـ ... ـت بذلت ما تحوى من الأثمانِ
أو كنتَ تعرف أين مسكنها جعلـ ... ـت السعى منك لها عَلَى الأجفانِ
أسرع وحُثَّ السيرَ جُهدك إنما ... مسراك هذا ساعةٌ لزمانِ
فاعشق وحدّث بالوصال النفسَ وَابْـ ... ـذُل مهرها ما دمت ذا إمكانِ
واجعل صيامك دون لقياها ويو ... مَ الوصل يومَ الفطر من رمضانِ
واجعل نعوتَ جمالها الحادى وسر ... نحو الحبيب ولستَ بالمتوانِى
واسمع إذن أوصافها ووصالها ... واجعل حديثك ربَّةَ الإحسانِ
يا من يطوف بكعبة الحسن التى ... حُفَّت بذاك الحجر والأركانِ
ويَظَلُّ يسعى دائمًا حول الصفا ... ومُحَسَّر مسعاه كلَّ أوانِ
ويرومُ قُربان الوصال عَلَى مِنًى ... والْخَيْفُ يحجبه عن القُربانِ
فلذا تراه مُحْرِمًا أبداً ومو ... ضعُ حلَّةٍ منه فليس بدانِ
يبغى التمتُّع مفرداً عن حبه ... متجرِّدًا يبغى شفيعَ قِرانِ
ويظلّ بالجَمَرات يرمى قلَبه ... هذى مناسكه بكل زمانِ
والناس قد قَضَّوْا مناسكهم وقد ... حثوا ركائبهم إلى الأوطانِ
وحَدَت بهم هممٌ لهم وعزائمٌ ... نحو المنازل ربَّة الإحسانِ
رفعت لهم فى السير أعلامُ الوصا ... ل فشمَّروا يا خيبةَ الكسلانِ
ورأوا عَلَى بُعدٍ خيامًا مُشرفا ... تٍ مشرفاتِ النور والبرهانِ
فتيمّموا تلك الخيام فآنسوا ... فيهنَّ أقماراً بلا نقصانِ
من قاصراتِ الطرْفِ لا تبغى سوى ... محبوبها من سائر الشبّانِ
قَصَرَت عليه طَرْفَها من حسنه ... والطرْفُ منه مُطْلَقٌ بأمانِ
وَيحار منه الطرف فى الْحسن الذى ... قد أُعطيت فالطرفُ كالْحيرانِ
ويقول لما أن يشاهدَ حسنَها ... سبحان معطى الحسن والإحسانِ
والطرف يشرب من كئوس جمالها ... فتراه مثل الشارب النشْوانِ

---

(١) اسم هذه القصيدة: «الكافية الشافية».

كمُلت خلائقها وأكمل حسنُها كالبدر ليلَ الست بعد ثمانِ

*   *   *

والشمسُ تجرى فى محاسن وجهها والليلُ تحت ذوائب (١) الأغصانِ

فَيَظلّ يَعجب وهو موضعُ ذاك من ليلٍ وشمسٍ كيف يجتمعانِ

ويقول سبحان الذى ذا صنُعْه سبحان متقنِ صنعة الإنسانِ

لا الليل يُدرك شمسها فتغيب عنـ ـد مجيئه حتى الصباح الثانِى

والشمسُ لا تأتى بطرد الليل بل يتصاحبان كلاهما أخوَانِ

وكلاهما مرآةُ صاحبه إذا ما شاءَ يُبصر وجهه يَرَيَانِ

فيرى محاسنَ وجهه فى وجهها وترى محاسنهَا به بعيانِ

حُمْر الخدود ثغورُهن لآلِىءٌ سود العيون فواتر الأجفانِ

والبرقُ يبدو حين يَبْسِمُ ثغرها فيضىءُ سقف القصر بالجدرانِ

ريَّانة الأعطاف (٢) من ماء الشبا ب فغصنُها بالماء ذو جَرَيانِ

لما جرى ماء النعيم بغصنها حمل الثمارَ كثير الألوانِ

فالورد والتُّفاح والرُّمَّان فى غصنٍ تعالى غارسُ البستانِ

والقدّ منها كالقضيب اللَّدن (٣) فى حسن القوامِ كأوسط القضبانِ

فى مَغْرِس كالعاج تحسب أنه عالى النقا (٤) أو واحدُ الكثبانِ

لا الظهر يلحقه وليس ثُديُّها بلواحقٍ للبطن أو بدَوانِ

لكنهنَّ كواعبٌ ونواهدٌ فثُديُّهُنَّ كأحسن الرُّمانِ

والجيدُ ذو طولٍ وحسن فى بيا ضٍ واعتدال ليس ذا نكرانِ

يشكو الحُلِىُّ بعادَه فله مدى الـ ـأيام وَسواسٌ من الهجرانِ

والمِعْصَمان فإن تشأْ شبِّهْهما بسبيكتين عليهما كفَّانِ

كالزبد لينًا فى نعومة مَلْمَسٍ أَصداف درٌّ دُوّرت بوزانِ

والصدر متسعٌ على بطنٍ لها والخصرُ منهما مغرمٌ بثمانِ

وعليه أَحسن سُرّةٍ هى زينةٌ للبطن قد غارت من الأعكانِ (٥)

---

(١) **ذوائب**: أعلى كل شيء.

(٢) **اللدن**: كل ما لان من الحديد وسائر المعادن.

(٣) **الأعطاف**: الجوانب.

(٤) **النقا**: الرمل المعجوج.

(٥) **الأعكان**: ما انثنى من لحم البطن.

حُقٌّ(١) من العاج استدار وحشوهُ ... حبَّات مسكٍ جلَّ ذو الإتقانِ
وإذا نزلت رأيتَ أمراً هائلاً ... ما للصفات عليه من سلطانِ
لا الحيضُ يغشاه ولا بولٌ ولا ... شيءٌ من الآفات فى النِّسوانِ
فَخذان قد حُفّا به حرَسًا لهُ ... فجنابُه فى عزَّةٍ وصيَانِ
قاما بخدمته هو السلطان بيـ ... ـنهما وحق طاعةُ السلطانِ
وهو المطاعُ إذا هو استدعى الحبيـ ... ـب أتاه طوعًا وهو غيرُ جبانِ
وجماعُها فهو الشفاء لصبها ... فالصب(٢) منه ليس بالضَجْرَانِ
وإذا أتاها عادت الحسناء بكـ ... ـراً مثلَ ما كانت مدى الأزمانِ
وهو الشهى ألذُّ شىء هكذا ... قال الرسولُ لمن له أُذنانِ
يا ربّ غفراً قد طغت أقلامنا ... يا ربّ معذرةً من الطغيانِ
أَقدامُها من فضةٍ قد رُكِّبت ... من فوقها ساقان ملتفّانِ
والساقُ مثلُ العاج ملمومٌ به ... مُخٌّ العظام تناله العينانِ
والريحُ مسكٌ والجسومُ نواعمٌ ... واللونُ كالياقوت والمُرْجانِ
وكلامها يسبى العقول بنغمةٍ ... زادت على الأوتار والعيدانِ
وهى العَرُوب(٣) بشكلها وبَدَلِّها ... وتحبُّبٍ للزوج كل أوانِ
أتراب(٤) سِنٌّ واحدٍ متماثلٍ ... سنُّ الشباب لأجمل الشُّبَّانِ
بكرٌ(٥) فلم يأْخذ بكارتها سوى الـ ... ـمحبوب من إنسٍ ولا من جانِ
يُعْطى المُجامعُ قُوّةَ المائة التى اجـ ... ـتمعت لأقوى واحد الإنسانِ
ولقد أتانا أنه يَغْشى بيو ... مٍ واحدٍ مائةً من النسوانِ
ورجاله شرط الصحيح رَوَوْا لهم ... فيه وذا فى معجم الطبرانِى
وبذاك فُسّر شغلهم(٦) فى سورةٍ ... من بعد فاطر يا أخا العرفانِ
هذا دليلٌ أن قدر نسائهم ... متفاوتٌ بتفاوُتِ الإيمانِ
وبه يزول توهُّم الإشكال عن ... تلك النصوص بمنة الرحمنِ

---

(١) حق: الخشب المنحوت.
(٢) الصب: العاشق.
(٣) العروب: المرأة المتحببة لزوجها.
(٤) أتراب: متشابهات فى السن.
(٥) بكر: الجارية التى لم يفض بكارتها.
(٦) سورة «يس» فى قوله تعالى:
(يس: ٥٥).

في بعضها مائةٌ أتى وأتى بها … سبعون أيضًا ثم جائنتان
فتفاوُتُ الزوجات مثل تفاوت الـ … ـدرجات فالأمران مختلفان
وبقوة المائة التي حصلت له … أفضى إلى مائةٍ بلا خَوَرانِ [1]
وأعفُّهم في هذه الدنيا هو الـ … ـأقوى هناك لزهده في الفاني
فاجمع قواك لما هنا وغُضَّ منـ … ـك الطرف [2] واصبر ساعة زمانِ
ما ههنا والله ما يسوى قُلا … مةَ ظفر واحدةٍ من النِّسوانِ
ونصيفُها خيرٌ من الدُّنيا وما … فيها إذا كانت من الأثمانِ
لا تُؤْثِر الأدنى على الأعلى فإن … تفعل رجعت بذلة وهوانِ
وإذا بدت في حلة من لبسها … وتمايلت كتمايل النشوانِ
تهتز كالغصن الرطيب وحمله … وردٌ وتُفّاحٌ على رُمّانِ
وتبخترت [3] في مشيها ويحق ذا … ك لمثلها في جنة الرضوانِ
ووصائفٌ من خلفها وأمامها … وعلى شمائلها وعن أيمانِ
كالبدر ليلةَ تمِّه قد حُفّ في … غَسِق الدُّجى [4] بكواكب الميزانِ
فلسانهُ وفؤادُه والطرفُ في … دهش وإعجاب وفي سبحانِ
تستنطق الأفواهَ بالتسبيح إذ … تبدو فسبحان العظيم الشانِ
والقلب قبل زفافها في عرسه … والعرس إثرَ الغرس متصلانِ
حتى إذا واجهته تقابلا … أَرأَيت إذ يتقابلُ القمرانِ
فسل المُتَيَّمَ هل يَحِلُّ الصبرُ عن … ضمٍّ وتقبيل وعن فَلَتانِ
وسل المتيِّم أَين خلَّف صبره … في أَيِّ وادٍ أَم بأَيِّ مكانِ
وسل المتيم كيف حالته وقد … ملئت له الأذُنان والعينانِ
من منطقٍ رقَّت حواشيه ووجْـ … ـه كم به للشمس من جَرَيانِ
وسل المتيَّم كيف عيشتُه إذًا … وهما على فرشَيْهما خِلْوانِ
يتساقطان لآلئًا منثورةً … من بين منظوم كنظم جُمانِ [5]

---

[1] خوران: مفردها خور، والخور: الضعف.

[2] الطرف: العين.

[3] تبخترت: تمايل المرأة بدلال.

[4] غسق الدجى: أول ظلمة الليل.

[5] جمان: حبات من الفضة تشبه اللؤلؤ.

وسَلِ المتيم كيف مجلسهُ مع الـ ... ـمحبوب فى رَوْحٍ وفى رَيحانِ[١]

وتدور كاسات الرحيق عليهما ... بأكفّ أقمارٍ من الولدانِ

يتنازعان الكأسَ هذا مرةً ... والخوْد[٢] أخرى ثم يَتَّكئانِ

فيضمها وتضمه أرأيت مَعْـ ... ـشوقَين بعد البعد يلتقيانِ

غاب الرَّقيبُ وغاب كلٌّ منكّدٍ ... وهما بثوب الوصل مشتملانِ

أتراهما ضَجِرين من ذا العيش لا ... وحياةِ ربك ما هما ضَجِرانِ

* * *

يا عاشقًا هانت عليه نفسُه ... إذ باعها غَبْنًا بكل هَوَانِ

أترى يليق بعاقلٍ بيعُ الذى ... يبقى - وهذا وصفه - بالفانى

* * *

(١) ريحان: نبات طيب الرائحة، والمقصود هنا: السرور والفرح والراحة.

(٢) الخود: الشابة الحسناء الخلق.

الباب العشرون:

فى علامات المحبة وشواهدها

وقبل الخوض فى ذلك لا بد من ذكر أقسام النفوس ومحابها فنقول:

النفـــوس ثلاثة: نفس سماوية علوية: فمحبتها منصرفة إلى المعارف واكتساب الفضائل والكمالات الممكنة للإنسان واجتناب الرذائل، وهى مشغوفة بما يقرّبها من الرّفيق الأعلى، وذلك قوتها وغذاؤها ودواؤها، فاشتغالها بغيره هو داؤها.

ونفسٌ سبعية غضبية: فمحبتها منصرفة إلى القهر والبغى والعلو فى الأرض والتكبر والرئاسة على الناس بالباطل، فلذتها فى ذلك وشغفها به.

ونفس حيوانية شهوانية: فمحبتها منصرفةٌ إلى المأكل والمشرب والمنكح، وربما جمعت الأمرين فانصرفت محبتها إلى العلو فى الأرض والفساد كما قال الله تعالى: ﴿ **إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ** ﴾ (القصص: ٤) وقال فى آخر السورة: ﴿ **تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ** ﴾ (القصص: ٨٣).

والحبُّ فى هذا العالم دائرٌ بين هذه النفوس الثلاثة، فأىّ نفس منها صادفت ما يلائم طبعها استحسنته ومالت إليه ولم تصغ فيه لعاذل ولم تأخذها فيه لومة لائم. وكلُّ قسم من هذه الأقسام يرون أن ما هم فيه أولى بالإيثار، وأن الاشتغال بغيره والإقبال على سواه غَبْنٌ[1] وفوات حظّ، فالنفسُ السماوية بينها وبين الملائكة والرفيق الأعلى مناسبةٌ طَبعية بها مالت إلى أوصافهم وأخلاقهم وأعمالهم.

فالملائكة أولياء هذا النوع فى الدُّنيا والآخرة، قال الله تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠) نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ (٣١) نُزُلاً مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ** ﴾ (فصلت: ٣٠ - ٣٢).

فالملك يتولى من يناسبه بالنصح له والإرشاد والتثبيت والتعليم وإلقاء الصواب على لسانه، ودفع عدوّه عنه، والاستغفار له إذا زَلّ، وتذكيره إذا نسى، وتسليته إذا حزن، وإلقاء

(١) غبن: الغبن: النسيان.

السكينة فى قلبه إذا خاف، وإيقاظه للصلاة إذا نام عنها، وإيعاد صاحبه بالخير، وحَضّه على التصديق بالوعد، وتحذيره من الركون إلى الدنيا، وتقصير أمله وترغيبه فيما عند الله. فهو أنيسُه فى الوحدة، ووليُّه ومعلمه ومثبتُه ومسكِّن جأشه(١)، ومرغبه فى الخير، ومحذره من الشرّ، يستغفر له إن أساء، ويدعو له بالثبات إن أحسن، وإن بات طاهراً يذكر الله بات معه فى شعاره(٢)، فإن قصده عدو له بسوء وهو نائم دفعه عنه.

فـــصـل: والشياطين أولياء النوع الثانى يخرجونهم من النور إلى الظلمات، قال الله تعـــالى: ﴿**تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ**﴾ (النحل: ٦٣) وقال تعالى: ﴿**كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلاَّهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ**﴾ (الحج: ٤) وقال تعالى: ﴿**وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا (١١٩) يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا (١٢٠) أُوْلَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا**﴾ (النساء: ١١٩ - ١٢١) وقال تعالى: ﴿**وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً**﴾ (الكهف: ٥٠).

فهذا النوعُ بين نفوسهم وبين الشياطين مناسبة طبيعية، بها مالت إلى أوصافهم وأخلاقهم وأعمالهم، فالشياطين تتولاهم بضد ما تتولى الملائكة لمن ناسبهم، فتؤزهم إلى المعاصى أزًّا(٣)، وتزعجهم إليها إزعاجًا لا يستقرون معه ويزينون لهم القبائح ويخففونها على قلوبهم ويحلونها فى نفوسهم، ويثقلون عليها الطاعات، ويثبطونهم(٤) عنها، ويقبحونها فى أعينهم، ويلقون على ألسنتهم أنواع القبيح من الكلام وما لا يفيد، ويزينونه فى أسماع من يسمعه منهم، يبيتون معهم حيث باتوا، ويقيلون(٥) معهم حيث قالوا، ويشاركونهم فى أموالهم وأولادهم ونسائهم، يأكلون معهم، ويشربون معهم، ويجامعون معهم، وينامون معهم، قال تعالى: ﴿**وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا**﴾ (النساء)، وقال تعالى: ﴿**وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ (٣٦) وَإِنَّهُمْ**

---

(١) **جأشه**: نفسه.

(٢) **شعاره**: أول ما يمس جلد الإنسان من الثياب.

(٣) **أزًا**: إثارة.

(٤) **يثبطونهم**: يقعدونهم.

(٥) **يقيلون**: ينامون وقت القيلولة، وهى: النوم بعد الظهر.

لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ﴾ (الزخرف: ٣٦ - ٣٨).

فصل: وأما النوعُ الثالث فهم أشباه الحيوان، ونفوسُهم أرضيةٌ سفلية لا تبالى بغير شهواتها ولا تريد سواها.

إذا عرفت هذه المقدمة فعلامات المحبة قائمة فى كل نوع بحسب محبوبه ومراده. فمن تلك العلامات تعرف من أىّ هذه الأقسام هو، فنذكر فصولاً من علامات المحبة التى يستدل بها عليها:

فمنها: إدمانُ النظر إلى الشىء وإقبال العين عليه: فإن العين بابُ القلب وهى المعبرة عن ضمائره والكاشفة لأسراره. وهى أبلغ فى ذلك من اللسان، لأن دلالتها حالية بغير اختيار صاحبها، ودلالة اللسان لفظية تابعة لقصده، فترى ناظر المحبّ يدور مع محبوبه كيف ما دار، ويجول معه فى النواحى والأقطار كما قال:

أذود سَوامَ الطَّرْف عَنْكَ ومـا له ... عَلَى أحَدٍ إلا عَليكَ طَرِيقُ

بل المحبّ فى عين المحبوب تمثالُه، كما فى قلبه شخصُه ومثالُه كما قيل:

ومن عجب أنى أحنُّ إليهمُ ... وأسأل عنهم من لَقِيتُ وهم معى

وتطلبهم عينى وهم فى سوادها ... ويشتاقهم قلبى وهم بين أضلعى

فالمحب نظره وقفٌ على محبوبه كما قال:

فصل: ومنها: إغضاؤه[1] عند نظر محبوبه إليه ورميُه بطرفه نحو الأرض: وذلك من مهابته له، وحيائه منه وعظمته فى صدره، ولهذا يستهجن الملوك من يخاطبهم وهو يُحدُّ[2] النظر إليهم، بل يكون خافض الطرف إلى الأرض. قال الله تعالى مخبراً عن كمال أدب رسوله فى ليلة الإسراء: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ (النجم: ١٧) وهذا غاية الأدب، فإن البصر لم يزغ يميناً ولا شمالاً، ولا طمح متجاوزاً إلى ما هو رائيه ومقبل عليه كالمتشارف[3] إلى ما وراء ذلك، ولهذا اشتد نهى النبى ﷺ للمصلى أن يزيغ بصره إلى السماء، وتوعدهم على ذلك بخطف أبصارهم، إذ هذا من كمال الأدب مع مَن المصلى واقف بين يديه، بل ينبغى له أن يقف ناكس الرأس مطرقًا إلى الأرض[4]، ولولا أن عظمة

---

(١) إغضاؤه: غض بصره.
(٢) يحد: يدقق.
(٣) المتشارف: الناظر إلى أعلى.
(٤) معنى حديث: رواه البخارى (٧٥٠).

رب العالمين سبحانه فوق سماواته على عرشه، لم يكن فرقٌ بين النظر إلى فوق أو إلى أسفل.

فصل: ومنها: كثرة ذكر المحبوب واللهج(١) بذكره وحديثه: فمن أحب شيئًا أكثر من ذكره بقلبه ولسانه. ولهذا أمر الله سبحانه عباده بذكره على جميع الأحوال، وأمرهم بذكره أخوف ما يكونون فقال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾ (الأنفال: ٤٥) والمحبون يفتخرون بذكرهم أحبابهم وقت المخاوف وملاقاة الأعداء كما قال قائلهم:

ذكرتك والخَطىُّ(٢) يَخْطِرُ بيننا ... وقد نَهلت منَّا المثقَّفَةُ(٣) السُّمْرُ

وقال آخر:

ولقد ذكرتك والرِّماح كأنها ... أشطان بئر في لَبان الأدهم(٤)

فوددت تقبيل السيوف لأنها ... بَرَقت كبارق ثغرك المتبسِّم

وفي بعض الآثار الإلهية: «إن عبدي كل عبدي الذي يذكرني وهو ملاق قِرنه(٥)»، فعلامة المحبة الصادقة ذكر المحبوب عند الرغب والرهب. وقال بعض المحبين في محبوبه:

يذكِّرنيك الخيرُ والشرُّ والذي ... أخاف وأرجو والذي أتوقَّع

ومن الذكر الدّالّ على صدق المحبة سبقُ ذكر المحبوب إلى قلب المحبّ ولسانه عند أول يقظة من منامه، وأن يكون ذكره آخر ما ينام عليه كما قال قائلهم:

آخر شيء أنت في كلّ هجعة(٦) ... وأوّل شيء أنت وقتَ هبُوبي(٧)

وذكر المحبوب لا يكون عن نسيانٍ مستحكم، فإن ذكره بالقوّة في نفس المحبّ، ولكن لضيق المحل به يَرِد عليه ما يغيب ذكره، فإذا زال الوارد عاد الذكر كما كان، وأعلى أنواع ذكر الحبيب أن يحبس المحب لسانه على ذكره، ثم يحبس قلبه على لسانه، ثم يحبس قلبه ولسانه على شهود مذكورة. وكما أن الذكر من نتائج الحبّ فالحبّ أيضًا من نتائج الذكر، فكل منهما يثمر الآخر، وزرع المحبة إنما يسقى بماء الذكر، وأفضل الذكر ما صدر عن المحبة.

---

(١) **اللهج**: كثرة الذكر من فرط الولوع.
(٢) **الخطى**: الرماح.
(٣) **المثقفة**: الرماح المستقيمة.
(٤) **أشطان**: الحبال الطويلة.
(٥) **ضعيف**: رواه الترمذي (٣٥٧٥).
(٦) **هجعة**: النوم الخفيف.
(٧) **هبوبي**: الاستيقاظ من النوم.

فصل: ومن علاماتها: الانقيادُ لأمر المحبوب وإيثارُه على مراد المحب: بل يتَّحد مراد المحب والمحبوب. وهذا هو الاتحاد الصحيح لا الاتحاد الذى يقوله إخوان النصارى من الملاحدة، فلا اتحاد إلا فى المراد، وهذا الاتحاد علامة المحبة الصادقة بحيث يكون مراد الحبيب والمحبّ واحداً، فليس بمحب صادق من له إرادة تخالف مراد محبوبه منه، بل هذا مريد من محبوبه لا مريد له، وإن كان مريداً له فليس مريداً لمراده.

فالمحبون ثلاثة أقسام: منهم من يريد من المحبوب، ومنهم من يريد المحبوب، ومنهم من يريد مراد المحبوب مع إرادته للمحبوب. وهذا أعلى أقسام المحبين. وزهد هذا أعلى أنواع الزهد، فإنه قد زهد فى كل إرادة تخالف مراد محبوبه، وبين هذا وبين الزهد فى الدنيا أعظم مما بين السماء والأرض.

فالزهد خمسة أقسام: زهد فى الدنيا، وزهد فى النفس، وزهد فى الجاه والرئاسة، وزهد فيما سوى المحبوب، وزهد فى كل إرادة تخالف مراد المحبوب. وهذا إنما يحصل بكمال المتابعة لرسول الحبيب.

قال الله تعالى: **﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾** (آل عمران: ٣١) فجعل سبحانه متابعة رسوله سببًا لمحبتهم له، وكون العبد محبوبًا لله أعلى من كونه محبًّا لله، فليس الشأن أن تحب الله، ولكن الشأن أن يحبك الله. فالطاعة للمحبوب عنوان محبته كما قيل:

تَعصى الإله وأنت تزعم حبَّه ... هذا محالٌ فى القياس بديعُ
لو كان حبُّك صادقًا لأطعته ... إن المحبّ لمن يحبّ مطيعُ

فصل: ومن علاماتها: قلة صبر المحبّ عن المحبوب: بل ينصرف صبره إلى الصبر على طاعته، والصبر عن معصيته، والصبر على أحكامه، فهذا صبر المحبّ، وأما الصبرُ عنه فصبر الفارغ عن محبَّته، المشغول بغيره، قال:

والصبرُ يُحْمَدُ فى المواطن كلِّها ... وعن الحبيب فإنه لا يُحْمَدُ

فمن صبر عن محبوبه أدى به صبره إلى فوات مطلوبه. وقال بعض المحبين:

ما أحسنَ الصبرَ وأما على ... أن لا أرى وجهَك يومًا فلا
لو أن يومًا منك أو ساعةً ... تباع بالدُّنيا إذًا ما غلا

فصل: ومنها: الإقبال على حديثه وإلقاء سمعه كله إليه: بحيث يفرغ لحديثه سمعه

وقلبه، وإن ظهر منه إقبال على غيره فهو إقبال مستعار يستبين فيه التكلف لمن يرمقه[١] كما قال:

وأديم لحظ محدثي ليرى ... أن قد فهمت وعندكم عقلي

فإن أعوزه حديثهُ بنفسه فاحبُ شيء إليه الحديث عنه، ولا سيما إذا حدث عنه بكلامه فإنه يقيمه مقام خطابه كما قال القائل: المحبون لا شيء ألذ لهم ولقلوبهم من سماع كلام محبوبهم وفيه غاية مطلوبهم، ولهذا لم يكن شيء ألَذ لأهل المحبة من سماع القرآن، وقد ثبت في «الصحيح» عن ابن مسعود ﷺ قال: قال لي رسول الله ﷺ: «اقرأ عليَّ، قلت: أقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال: إني أحب أن أسمعه من غيري، فقرأت عليه من أول سورة النساء حتى إذا بلغت قوله تعالى: ﴿**فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا**﴾ (النساء: ٤١) قال: حَسْبُكَ الآن، فرفعت رأسي فإذا عيناه تذرفان»[٢].

وكان أصحاب رسول الله ﷺ إذا اجتمعوا أمروا قارئًا أن يقرأ وهم يستمعون، وكان عمر بن الخطاب ﷺ إذا دخل عليه أبو موسى يقول: يا أبا موسى، ذكرنا ربنا، فيقرأ أبو موسى وربما بكى عمر.

ومر رسول الله ﷺ بأبي موسى ﷺ وهو يصلي من الليل فأعجبته قراءته فوقف واستمع لها، فلما غدا على رسول الله ﷺ قال: «لقد مررت بك البارحة وأنت تقرأ فوقفت واستمعت لقراءتك» فقال: لو أعلم أنك كنت تسمع لحبرته[٣] لك تحبيرًا[٤]، والله سبحانه وهو الذي تكلم بالقرآن يأذن ويستمع للقارئ الحسن الصوت من محبته لسماع كلامه منه كما قال ﷺ: «لله أشد أذنًا إلى القارئ الحسن الصوت من صاحب القينة إلى قينته»[٥] والأذن بفتح الهمزة والذال مصدر أذن يأذن: إذا استمع.

قال الشاعر:

أيها القلبُ تَعَلَّلَ بدَدَنْ[٦] ... إنَّ قلبي في سماعٍ وأَذَنْ

---

(١) **يرمقه**: النظر للعبرة.

(٢) **صحيح**: رواه البخاري: (٥٠٤٩) ومسلم (٨٠٠).

(٣) **لحبرته**: لحسنته وزينته.

(٤) **صحيح**: رواه البخاري (٥٠٤٨).

(٥) **ضعيف**: رواه أحمد (٦/ ١٩) وابن ماجه (١٣٤٠) والحاكم (١/ ٥٧١) والبيهقي في «الكبرى» (١٠/ ٢٣٠) وضعفه الألباني في «الضعيفة» (٢٩٥١).

(٦) **بددن**: لعب ولهو.

وقال ﷺ: «زينوا القرآن بأصواتكم»[١]، وغلط من قال: إن هذا من المقلوب وإن المراد زينوا أصواتكم بالقرآن، فهذا وإن كان حقًا فالمراد تحسين الصوت بالقرآن، وصح عنه أنه قال: «ليس منا من لم يتغن بالقرآن»[٢]، ووهم من فسره بالغنى الذى هو ضد الفقر من وجوه: **أحدها**: أن ذلك المعنى إنما يقال فيه استغنى لا تغنى، **الثانى**: أن تفسيره قد جاء فى نفس الحديث يجهر به، هذا لفظه، قال أحمد: نحن أعلم بهذا من سفيان، وإنما هو تحسين الصوت به يحسنه ما استطاع، **الثالث**: أن هذا المعنى لا يتبادر إلى الفهم من إطلاق هذا اللفظ ولو احتمله، فكيف وبنية اللفظ لا تحتمله كما تقدم، وبعد هذا فإذا كان من التغنى بالصوت ففيه معنيان: **أحدهما**: يجعله له مكان الغناء لأصحابه من محبته له ولهجه به كما يحب صاحب الغناء لغنائه، **والثانى**: أنه يزينه بصوته ويحسنه ما استطاع كما يزين المتغنى غناءه بصوته، وكثير من المحبين ماتوا عند سماع القرآن بالصوت الشجى، فهؤلاء قتلى القرآن، لا قتلى عشاق المردان[٣] والنسوان.

فصل: ومنها: محبة دار المحبوب وبيته حتى محبة الموضع الذى حل به، وهذا هو السر الذى لأجله علقت القلوب على محبة الكعبة البيت الحرام، حتى استطاب المحبون فى الوصول إليها هَجْرَ الأوطان والأحباب. ولذَّ لهم فيها السفر الذى هو قطعةٌ من العذاب. فركبوا الأخطار، وجابوا المفاوز والقفار، واحتملوا فى الوصول غاية المشاق، ولو أمكنهم لسعوا إليها على الجفون والأحداق.

نعم أسعى إليك عَلى جفونى ... وإن بَعُدَت لمسراك الطريق

وسرُّ هذه المحبة هى إضافةُ الربِّ سبحانه له إلى نفسه بقوله: ﴿**وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ**﴾ (الحج: ٢٦) قال الشاعر:

لما انتسبتُ إليك صرْتُ معظَّمًا ... وعلوتُ قدراً دون من لم يُنْسَب

وكلُّ ما نُسب إلى المحبوب فهو محبوب: ﴿**وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ**﴾ (الجن: ١٩) ﴿**سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ**﴾ (الإسراء: ١) ﴿**تَبَارَكَ الَّذِى نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ**﴾ (الفرقان: ١)، ﴿**وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا**﴾ (البقرة: ٢٢)، ومن فهم هذا فهم

---

(١) **صحيح**: رواه أحمد (٤/ ٢٨٣) وأبو داود (١٤٦٨) والنسائى (٢/ ١٧٩) وابن ماجه (١٣٤٢) وصححه الألبانى فى «الصحيحة» (٧٧١).

(٢) **صحيح**: رواه البخارى (٧٥٢٧) وأبو داود (١٤٧١).

(٣) **المردان**: الشباب الذين بلغوا ولم تنبت لحاهم.

معنى قوله تعالى: ﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ﴾ (آل عمران: ٢٦)، وقول عبده ورسوله: «لبيك وسعديك والخير فى يديك والشر ليس إليك»(١)، وإذا كان من يحب مخلوقًا مثله يحب داره كما قال:

أمُرُّ عَلَى الدِّيارِ دِيارِ ليلى ... أُقَبِّل ذا الجدارَ وذا الجدارا
وما حبُّ الدِّيار شغفن قلبى ... ولكن حبُّ من سكن الديارا

فكيف بمن ليس كمثله شيء ومن ليس كمثل محبته محبة؟ ومنها: الإسراع إليه فى السير، وحث الركاب نحوه، وطى المنازل(٢) فى الوصول إليه، والاجتهاد فى القرب والدنو منه، وقطع كل قاطع يقطع عنه، واطراح الأشغال الشاغلة عنه، والزهد فيها، والرغبة عنها، والاستهانة بكل ما يكون سببًا لغضبه ومقته وإن جلّ، والرغبةُ فى كلّ ما يدنى إليه وإن شق(٣)، قال الشاعر:

ولو قلت طأْ فى النار أعلم أنه ... رضًا لك أو مُدْنٍ لنا من وصالك
لقدّمت رِجْلى نحوها فوطئْتها ... هدًى منك لى أو ضلّةً من ضلالك

فصل: ومنها: محبة أحباب المحبوب وجيرانه وخدمه وما يتعلق به: حتى حرفته وصناعته وآنيته وطعامه ولباسه قال:

أحبّ بنى العَوَّام طُرًا(٤) لحبها ... ومن أجلها أحببت أخوالها كلبا

وقال آخر:

يشتاق واديها ولولا حبُّكم ... ما شاقه وادٍ زهت أزهارُه

وقال الآخر:

فيا ساكنى أكناف(٥) طَيْبَة كلُّكم ... إلى القلب من أجل الحبيب حبيبُ

وفى أخبار العشاق أن عاشقًا عشق السراويلات من أجل سراويل معشوقه فوجد فى تركته اثنا عشر حملاً وفردة من السراويلات (ذكره البصرى)، وعشق آخرُ الهاوُونات(٦) من أجل صوت هاوُن محبوبته، فوجد فى تركته عدةُ آلافٍ منها، وعند الناس من هذا

---

(١) صحيح: رواه البخارى (٣٣٤٨) ومسلم (٧٧١) وأبو داود (٧٤٤) والترمذى (٣٤٢١) والنسائى (٢/ ١٢٩) وابن ماجه (١٠٥٤).
(٢) وطى المنازل: قطع المسافات الطويلة.
(٣) شق: المشقة والغبار.
(٤) طرًا: جميعًا.
(٥) أكناف: جمع كنف، وهو: الجنب.
(٦) الهاوونات: وعاء من النحاس يدق فيه التوابل.

عجائبُ كثيرةٌ. وكان أنس بن مالك ﷺ يحبّ الدباء[١] كثيرًا لما رأى النبى ﷺ يتتبعها من جوانب القصعة[٢].

فصل: ومنها: قصر الطريق حين يزوره: ويوافى إليه كأنها تطوى له، وطولها إذا انصرف عنه وإن كانت قصيرة قال:

وكنتُ إذا ما جئت ليلى أزورها ... أرى الأرضَ تُطوَى لى ويدنو بعيدُها
من الْخَفِرات البيض ودّ جليسُها ... إذا ما انقضت أُحدوثةٌ لو تعيدها

وقال آخر:

والله ما جئتكُمْ زائرًا ... إلا وجدت الأرض تُطوَى لى
ولا انثنى عزمى عن بابكم ... إلا تعثَّرتُ بأذيالى

وقال آخر:

وإذا قمت عنك لم أمش إلا ... مشىَ عان[٣] يقاد نحو الفناء
وإذا جئتُ كنتُ أسرعَ فى السيـ ... ـر من الطير نازلاً فى الهواء

وقال الآخر:

وتدنو الطريقُ إذا زرتكُمْ ... وتبعدُ إذ أنثنى راجعا

فصل: ومنها: انجلاء همومه وغمومه إذا زار محبوبه أو زاره: وعَوْدُها إذا فارقه كما قال:

يزور فتنجلى عنّى همومى ... لأن جلاء حزنى فى يديه
ويمضى بالمسرَّة حين يمضى ... لأن حوالتى فيها عليه

ومن المعلوم أنه ليس للمحبّ فرحةٌ ولا سرورٌ ولا نعيم إلا بمحبوبه، وبمفارقة محبوبه عذابه الآجل والعاجل.

فصل: ومنها: البَهَتُ[٤] والرَّوْعة التي تحصل عند مواجهة الحبيب أو عند سماع ذكره: ولا سيما إذا رآه فجاة أو طلع عليه بغتة كما قال الشاعر:

فما هو إلا أن أراها فجَاءَةً ... فأُبْهَتَ حتى ما أكاد أُجيب
فأرجع عن رأيى الذى كان أوّلاً ... وأذكر ما أعددتُ حين تغيب

---

(١) **الدباء**: القرع.
(٢) **صحيح**: رواه البخارى (٥٣٧٩) ومسلم (٢٠٤١) وأبو داود (٣٧٨٢) والترمذى (١٨٥٠).
(٣) **عان**: الخاضع الذليل.
(٤) **البهت**: حيرة ودهشة.

وقال آخر:

فـمـا هو إلا أن يراها فُـجَـاءَةً فتصطكُّ(١) رِجلاه ويسقط للجنب

وربما اضطرب عند سماع اسمه فَجْأةً كما قال:

وداعٍ دعـا إذ نحن بالْخَـيْفِ من مِنًى فـهـيَّجَ أشجـانَ الفـؤاد ومـا يـدرى

دعـا باسـم ليلـى غـيـرها فكأنـمـا أطار بليلى طائرًا كـان فى صـدرى

وقد اختلف فى سبب هذه الروعة والفزع والاضطراب فقيل: سببه أن للمحبوب سلطانًا على قلب محبه أعظم من سلطان الرعية، فإذا رآه فجأة راعه ذلك كما يرتاع من يرى من يعظمه فجاة، فإن القلب معظم لمحبوبه خاضع له، والشخص إذا فجأه المعظم عنده راعه ذلك، وقيل: سببه انفراج القلب له، ومبادرته إلى تلقيه فيهرب الدم منه فيبرد ويرعد ويحدث الاصفرار والرعدة، وربما مات. وبالجملة فهذا أمر ذوقى وجدانى، وإن لم يعرف سببه.

فصل: ومنها: غيرته لمحبوبه وعلى محبوبه: فالغيرة له أن يكره ما يكره، ويغار إذا عصى محبوبه وانتهك حقه وضيع أمره. فهذه غيرة المحب حقًّا، والدين كله تحت هذه الغيرة.

فأقوى الناس دينًا أعظمهم غيرة، وقد قال النبى ﷺ فى الحديث الصحيح: «أتعجبون من غيرة سعد! لأنا أغير منه والله أغير منى»(٢)، فمحب الله ورسوله يغار لله ورسوله على قدر محبته وإجلاله، وإذا خلا قلبه من الغيرة لله ولرسوله فهو من المحبة أخلى وإن زعم أنه من المحبين.

فكذب من ادّعى محبة محبوب من الناس وهو يرى غيره ينتهك حرمة محبوبه ويسعى فى أذاه ومساخطه ويستهين بحقه ويستخف بأمره وهو لا يغار لذلك. بل قلبه بارد، فكيف يصح لعبد أن يدعى محبة الله وهو لا يغار لمحارمه إذا انتهكت ولا لحقوقه إذا ضيعت. وأقل الأقسام أن يغار له من نفسه وهواه وشيطانه، فيغار لمحبوبه من تفريطه فى حقه وارتكابه لمعصيته.

وإذا ترحلت هذه الغيرة من القلب ترحلت منه المحبة، بل ترحل منه الدين وإن بقيت فيه آثاره وهذه الغيرة هى أصل الجهاد والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وهى الحاملة

---

(١) فتصطك: ترتعد.

(٢) صحيح: رواه البخارى (٥٢٢٠) ومسلم (١٤٩٩).

على ذلك، فإن خلت من القلب لم يجاهد ولم يأمر بالمعروف ولم ينه عن المنكر، فإنه إنما يأتي بذلك غيرة منه لربه، ولذلك جعل الله سبحانه وتعالى علامة محبته ومحبوبيته الجهاد فقال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (المائدة: ٥٤).

فصل: وأما الغيرة على المحبوب فإنما تحمد حيث يحمد الاختصاص بالمحبوب ويذم الاشتراك فيه شرعًا وعقلاً كغيرة الإنسان على زوجته وأمته والشيء الذي يختص هو به، فيغار من تعرض غيره لذكره ومشاركته له فيه، وهذه الغيرة تختص بالمخلوق ولا تتصور في حق الخالق، بل المحب لربه يحب أن الناس كلهم يحبونه ويذكرونه ويعبدونه ويحمدونه، ولا شيء أقر لعينه من ذلك، بل هو يدعو إلى ذلك بقوله وعمله.

ولما لم يميز كثير من الصوفية بين هاتين الغيرتين، وقع في كلامهم تخبيط قبيح وأحسن أمره أن يكون من السعي المغفور لا المشكور. وكان بعض جهلتهم إذا رأى من يذكر الله أو يحبه يغار منه وربما سكته إن أمكنه ويقول: غيرة الحب تحملني على هذا، وإنما ذلك حسد وبغي وعدوان ونوع معاداة لله، ومراغمة لطريق رسله أخرجوها في قالب الغيرة، وشبهوا محبة الله بمحبة الصور من المخلوقين.

ولا ريب أن هذه الغيرة محمودة في محبة من لا تحسن مشاركة المحب فيه، وسيأتي ذلك في باب الغيرة على المحبوب.

فصل: ومنها: بذل المحب في رضا محبوبه ما يقدر عليه مما كان يتمنع به بدون المحبة، وللمحب في هذا ثلاثة أحوال:

أحدها: بذله ذلك تكلفًا ومشقة، وهذا في أول الأمر، فإذا قويت المحبة بذله رضًا وطوعًا، فإذا تمكنت من القلب غاية التمكن بذله سؤالاً وتضرعًا كأنه يأخذه من المحبوب، حتى إنه ليبذل نفسه دون محبوبه كما كان الصحابة يقون[1] رسول الله ﷺ في الحرب بنفوسهم حتى يصرعوا حوله:

ولي فؤادٌ إذا لجّ[2] الغرامُ به ... هام اشتياقًا إلى لُقيا مُعَذِّبه
يَفديك بالنفس صب لو يكون له ... أعزُّ من نفسه شيءٌ فداك به

ومن آثر محبوبَه بنفسه فهو له بما له أشد إيثارًا قال الله تعالى: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ

---

(١) يقون: من الوقاية أي: الحماية.
(٢) لج: تمادى.

مِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ (الأحزاب: ٦) ولا يتم لهم مقام الإيمان حتى يكون الرسول أحب إليهم من أنفسهم فضلاً عن أبنائهم وآبائهم كما صحّ عنه ﷺ أنه قال: «لا يُؤْمِنُ أحدُكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين»، وقال له عمر : والله يا رسول الله لأنت أحب إلى من كل شيء إلا من نفسى، فقال: «لا يا عمر حتى أكون أحب إليك من نفسك» قال: فوالله لأنت الآن أحب إلىّ من نفسى فقال: «الآن يا عمر»(١).

فإذا كان هذا شأن محبّة عبده ورسوله فكيف بمحبته سبحانه؟ وهذا النوع من الحب لا يمكن أن يكون إلا لله ورسوله شرعًا ولا قدراً، وإن وُجد فى الناس من يؤثر محبوبه بنفسه وماله فذاك فى الحقيقة إنما هو لمحبة غرضه منه، فحمله محبة غرضه على أن بذل فيه نفسه وماله، وليست محبته لذلك المحبوب لذاته بل لغرضه منه، وهذا المحبوب له مثل ولمحبته مثل، وأما محبة الله ليس لها مثل ولا للمحبوب مثل، ولهذا حكم الصحابة رسول الله فى أنفسهم وأموالهم فقالوا(٢): هذه أموالنا بين يديك فاحكم فيها بما شئت، وهذه نفوسنا بين يديك لو استعرضت بنا البحر لخضناه، نقاتل بين يديك ومن خلفك وعن يمينك وعن شمالك(٣). قال قيس بن صرمة الأنصارى(٤):

ثوى فى قريشٍ بضعَ عشرة حِجَّةً ... يذكّر لو يَلْقى حبيبًا مؤاتيا
وَيعْرِض فى أهل المواسم نفسه ... فلم يَرَ من يُؤْوى ولم يَرَ داعيا
فلما أتانا واستقرّت به النوى ... وأصبح مسرُورًا بطَيْبَةً رَاضيا
بذلنا له الأموال من حِلّ مالنا ... وأنفسنا عند الوغى والتآسيا(٥)
نعادى الذى عادى من الناس كلهم ... جميعًا وإن كان الحبيب المصافيا
ونعلم أن الله لا ربّ غيره ... وأن رسولَ الله أصبح هاديا

فالمحب وصفه الإيثار، والمدعى طبعه الاستئثار.

فصل: ومنها: سروره بما يسر به محبوبه كائنًا ما كان: وإن كرهته نفسه فيكون عنده بمنزلة الدواء الكريه، يكرهه طبعًا ويحبه لما فيه من الشفاء. وهكذا المحبّ مع محبوبه، يسره ما يرضى به محبوبه، وإن كان كريهًا لنفسه. وأما من كان واقفًا مع ما تشتهيه نفسه

---

(١) صحيح: رواه البخارى (١٥) ومسلم (٤٤) وأحمد (٣/ ١٧٧) وابن ماجه (٦٧).

(٢) قائل ذلك هو: سعد بن معاذ .

(٣) إسناده مرسل: رواه ابن هشام فى «السيرة» (٢/ ٢٧٠) والطبرى فى «تاريخه» (٢/ ٤٣٤) وأصله فى «صحيح البخارى (٣٩٥٢) عن ابن مسعود.

(٤) هو: قيس بن مالك بن أوس المازنى، والأبيات فى «سيرة ابن هشام» (٢/ ١٢١).

(٥) التآسيا: من المواساة.

من مراضي محبوبه فليست محبته صادقة، بل هي محبة معلولة، حتى يسر بما ساءه وسره من مراضي محبوبه، وإذا كان هذا موجوداً في محبة الخلق بعضهم لبعض، فالحبيب لذاته أولى بذلك. قال أبو الشيص:

وقف الهوى بى حيث أنتِ فليس لى ... مُتَأخَّرٌ عنه ولا مُتَقَدَّم
وأهنتنى فأهنتُ نفسي جاهداً ... ما مَن يهون عليك ممن يُكرمُ
أشبهت أعدائى فصرتُ أحبهم ... إذ كان حظى منك حظى منهمُ
أجد الملامةَ فى هواكِ لذيذة ... حبّا لذكركِ فَلْيَلُمْنِى اللوَّمُ

وقريب من هذا البيت الأخير قول الآخر:

لئن ساءنى أن نِلْتِنى بمساءَةٍ ... لقد سرَّنى أنى خطرتُ ببالك

وقال الآخر:

صدودكِ عنى إن صددتِ يَسُرُّنى ... ولم أرَ قبلى عاشقًا سُرَّ بالصدّ[1]
سُرِرْتُ به أنى تيقّنت أنما ... دعاكِ إليه رغبةٌ منكِ فى ودى
ولو كنتِ فيه تزهدين لساءه ... ولكنما عَتْبُ المحبّ من الوجد
فيا فرحةً لى إذا رأيتكِ تَعْتِبى[2] ... علىّ لذنبٍ كان منى عَلَى عمد

وقال الآخر:

أهوى هواها وطولُ البُعد يعجبها ... فالبُعدُ قد صار لى فى حبّها أَرَبا
فمن رأى والهًا قبلى أخا كلَفٍ ... ينأى إذا حِبُّه من أرضه قربا

وقريبٌ من هذا قول أحمد بن الحسين[3]:

يا من يَعِزُّ علينا أن نفارقهم ... وجدانُنا كلَّ شيءٍ بعدكم عَدَم
إن كان سركم ما قال حاسدُنا ... فما لجُرْحٍ إذا أرضاكُم أَلم

واهتدمَ[4] بعضهم هذا فقال:

يا من يَعِزُّ علينا أن نُلمّ بهم ... إذ بُعدنا عنهم قد صار قصدَهم
إن كان يرضيكم هذا البعاد فما ... فيه لصبّكم جَرْحٌ ولا ألم

---

(١) الصد: منعه وصرفه.

(٢) تعتبى: من العتب، وهو: اللوم.

(٣) هو: المتنبى.

(٤) واهتدم: نوع من أنواع السرقات فى الشعر.

ولَعَمْرُ الله أكثر هذه دعاوى لا حقيقة لها، والصادقُ منهم يخبر عن علمه وإرادته، لا عن حاله وصفته. ولقد أحسن القائل(١):

رَضُـوا بالأمـانى وابْتُلوا بحظوظهم *** وخاضوا بحارَ الحب دعوى وما ابتلوا

فهم فى السُّرى لم يَبْرحوا من مكانهم *** وما ظعنوا فى السير عنه وقد كَلُّوا(٢)

وإن كان هذا هو وصف قائلها بعينه وحاله فإنه خاض بحارَ الحب وما ابتلّ فيه له قدم، وأخبر عن نفسه عند انكشاف غطائه وطلب الرسل له لقدومه على ربه فقال وصدق:

إن كـان منزلتى فى الحبِّ عندكم *** ما قد لَقِيتُ فقد ضيعت أيامى

أُمنيَّـةٌ ظفـرت نفـسى بهـا زمنًا *** فاليوم أحسبها أضغاث أحلام(٣)

وهذه حال كل من أحبَّ مع الله شيئًا سواه فإنه إلى هذه الغاية يصير ولا بد، وسيبدو له إذا انكشف الغطاء أنه إنما كان مغروراً مخدوعًا بأمنيَّة ظفرت نفسه بها مدة حياته ثم انقطعت وأعقبت الحسرة والندامة. قال الله تعالى: **﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ (١٦٦) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾** (البقرة: ١٦٦، ١٦٧) فالأسباب التى تقطعت بهم هى الوصل والعلائق والمودات التى كانت لغير الله وفى غير ذات الله، وهى التى يقدم إليها سبحانه فيجعلها هباء منثورًا، فكل محبة لغيره فهى عذاب على صاحبها حسرة عليه إلا محبته ومحبة ما يدعو إلى محبته، ويعين على طاعته ومرضاته، فهذه هى التى تبقى فى القلب يوم تبلى السرائر كما قال:

سيبقى لكم فى مُضْمَر القلب والحشا *** سريرةُ حبٍّ يوم تُبلى السرائر(٤)

وقال آخر:

إذا تصدّع شملُ الوصل بينهم *** فللمحبين شملٌ غيرُ منصدع

وإن تقطع حبلُ الوصل يومئذ *** فللمحبين حبلٌ غيرُ منقطع

فصل: ومنها: حب الوحدة والأنس بالخلوة والتفرد عن الناس، وكان المحبة قد ثبتت على ذلك، فلا شىء أحلى للمحب الصادق من خلوته وتفرده، فإنه إن ظفر بمحبوبه أحبّ خلوته به، وكره من يدخل بينهما غايةَ الكراهة، ولهذا السر - والله أعلم - أمر النبى

---

(١) هو عمر بن الفارض.

(٢) كلوا: تعبوا.

(٣) أضغاث أحلام: اخلاط لا تعبير لها كالكوابيس.

(٤) تبلى السرائر: كشف الأسرار يوم القيامة.

ﷺ برد المار بين يدى المصلى حتى أمر بقتاله(١)، وأخبر أنه لو يدرى ما عليه من الإثم لكان وقوفه أربعين خيراً من مروره بين يديه(٢)، ولا يجد ألم المرور وشدّته إلا قلب حاضرٌ بين يدى محبوبه مقبلٌ، وقد ارتفعت الأغيار بينه وبينه، فمرور المارّ بينه وبين ربه بمنزلة دخول البغيض بين المحبّ ومحبوبه، وهذا أمر الحاكم فيه الذوق فلا ينكره إلا من لم يذق.

وقال ابن مسعود : مرور المارّ بين يدى المصلى يُذهب نصفَ أجره. (ذكره الإمام أحمد) وأيضًا فإن المحبّ يستأنس بذكر محبوبه وكونه فى قلبه لا يفارقه، فهو أنيسه وجليسه لا يستأنس بسواه، فهو مستوحش ممن يشغله عنه. وحدثنى تقى الدين بن شقير، قال: خرج شيخ الإسلام ابن تيمية يومًا فخرجت خلفه، فلما انتهى إلى الصحراء وانفرد عن الناس بحيث لا يراه أحد سمعته يتمثل بقول الشاعر:

وأخـــرُجُ من بين البيـــوت لعلّنى ... أُحدّث عنك القلب بالسر خاليـا

فخلوة المحبّ لمحبوبه هى غايةُ أمنيته، فإن ظفر بها وإلا خلا به فى سره وأوحشه ذلك من الأغيار. وكان قيس بن الملوح إذا رأى إنسانًا هرب منه، فإذا أراد أن يدنو منه ويحادثه ذكر له ليلى وحديثها فيأنس به ويسكن إليه. وينبغى للمحب أن يكون كما قال يوسف لإخوته وقد طلب منهم أخاهم: **﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ﴾** (يوسف: ٦٠).

إذا لم تكُنْ فيكُنَّ سُعْدَى فلا أرَى ... لكنَّ وجوهًا أو أُغيَّبَ فى لحدى

ومنها: استكانة المحب لمحبوبه وخضوعه وذله له: والحب مبنى على الذل ولا يأنف العزيز الذى لا يذل لشيء من ذله لمحبوبه، ولا يعده نقصًا ولا عيبًا، بل كثير منهم يعد ذله عزًّا كما قال:

إذا كنتَ تهوى من تحبّ ولم تكن ... ذليلاً له فاقرا السلامَ عَلَى الوصلِ

تذلل لمن تهوى لتكسبَ عزّةً ... فكم عزّةٍ قد نالها المرءُ بالذُّلّ

وقال الآخر:

اخضع وَذِلَّ لمن تحبّ فليس فى ... شرع الهوى أنفٌ يُشَال ويُعقد(٣)

وقال الآخر:

ويعجبنى ذُلّى لديك ولم يكن ... ليُعْجِبُنِى لولا محبتك الذُّلّ

---

(١) صحيح: رواه البخارى (٥٠٩) ومسلم (٥٠٥) وأبو داود (٦٩٧) وابن ماجه (٩٥٤).
(٢) صحيح: رواه البخارى (٥١٠) ومسلم (٥٠٧).
(٣) يشال: يرفع.

وقال آخر:

يَلَذُّ له ذلُّ الهوى وخضوعُه ... ولولا الهوى ما لذّ للعاقل الذُّلّ

وقال الآخر:

مساكينُ أهلُ الحبِّ حتى قبورُهم ... عليها ترابُ الذُّلّ دون المقابر

ومتى استحكم الذل والحب صار عبودية، فيصير قلب المحب معبداً لمحبوبه، وهذه الرتبة لا يليق أن تتعلق بمخلوق، ولا تصلح إلا لله وحده.

فصل: ومنها: امتداد النفس وتردد الأنفاس وتصاعدها: وهذا نوعان:

أحدهما: ما يقارنه حزن ولهف(١) كما قال القائل:

رُبَّ ليل أمَدُّ من نَفَس العا ... شق طولاً قطعتُه بانتحاب

وقال آخر:

تردُّد أنفاس المحبِّ يَدُلُّنَا ... على كُنه(٢) ما أخفاه من ألم الحبِّ

إذَا خَطَرَاتُ الحبِّ خامرْنَ قلبه ... تنفَّس حتى ظلَّ منصدع القلب

والثاني: ما يكون سببه طرباً ولذة. وسبب وجود النوعين انحصار القلب وانفراجه بسبب الوارد الذى ورد عليه فأحدث للنفس الذى تروحه عليه الرئة كيفية مؤذية وطلب إخراجها فهو تنفس الصعداء، وأما تنفس الراحة فإن القلب ينبسط بعد انقباضه فيدفع الهواء المحيط به فيطلب الخروج.

فصل: ومنها: هجرُه كلَّ سبب يقصيه من محبوبه ويبغضه المحبوب: وارتياحه لكل سبب يدنيه منه ويستحمد به عنده إذا بلغه عنه. وفى الباب عجائب للمحبين، فكثير منهم هجر طعاماً أو لباساً أو أرضاً أو صناعة أو حالة من الحالات كان محبوبه يمقتها فلم يعد إليها أبداً، ولم تطاوعه نفسه بفعله البتة. وكثير منهم حمله الحب على اكتساب المعالى والفضائل وغيرها مما يعلم أن المحبوب يعظمه ويحبه. وهذا نوعان أيضاً:

أحدهما: أن يكون المحبوب مؤثراً لذلك محباً له، فالمحب يبذل جهده فيه لينال منه أعلاه إن أمكنه، فإن كان المحبوب مشغوفاً بجمع المال أثر ذلك فى محبه شغفاً أشد من شغفه، وإن كان مشغوفاً بالعلم اجتهد المحب فى طلبه أشد من اجتهاده، وإن كان مشغوفاً بحرفة أو صناعة حرص المحب على تعلمها إن وجد إلى ذلك سبيلاً، وإن كان مشغوفاً بالنوادر والحكايات الحسان والأخبار المستحسنة بالغ المحب فى تحفظها،

---

(١) لهف: حزن وتحسر.

(٢) كنه: أصل كل شيء.

فالمحبة النافعة أن تقع على عشق كامل يحملك عشقه على طلب الكمال، والبلية كل البلية أن تبتلى بمحبة فارغ بطال صفر من كل خير فيحملك حبه على التشبه به.

والثاني: أن يكون المحبوب فارغًا من محبة ذلك وإيثاره، ولكن المحبة تستخرج من قلب المحب عزمًا وإرادة وحرصًا على ما يعظم به فى عين المحبوب وقلبه، فتجده من أحرص الناس على ذلك بحسب استعداده كما قيل:

ويرتاح للمعروف فى طَلَب العُلى لتُحْمَد يومًا عند ليلى شمائُله[1]

وهذا قد يكون له سبب آخر وهو معاداة الناس له وتنقصهم إياه وازدراؤهم به، فيحمله الانتخاء لنفسه والغيرة لها ومحبتها على المنافسة فى المعالى واكتساب الحمد، وهذا من شرف النفس وعزتها كما قيل:

من كان يشكر للصديق فإننى أحبو[2] بصالح شكرىَ الأعداءَ

هم صيَّروا طلب المعالى دَيْدنى[3] حتى وطئْتُ بنعلىَ الجوزاءَ[4]

ولربما انتفع الفتى بعدوّه والسمُّ أحيانًا يكون شفاءَ

وقال الآخر:

عداى لهم فضلٌ علىَّ ومنَّة فلا أعدم الرحمن عنّى الأعاديا

همُ بحثوا عن زَلّتى فاجتنبتها وهم نافسونى فاكتسبتُ المعاليا

فصل: ومنها: الاتفاق الواقع بين المحبّ والمحبوب: ولا سيما إذا كانت المحبة محبة مشاكلة ومناسبة، فكثيرًا ما يمرض المحبّ بمرض محبوبه ويتحرّك بحركته ولا يشعر أحدهما بالآخر، ويتكلم المحبوب بكلام فيتكلم المحب به بعينه اتفاقًا، فانظر إلى قول النبى ﷺ لعمر بن الخطاب يوم الحديبية لما قال له: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: «بلى» قال: فعلام نعطى الدنية[5] فى ديننا؟ فقال: «إنِّى رَسُولُ الله وهو ناصرى ولست أعصيه» فقال: ألم تكن تحدثنا أنَّا نأتى البيت فنطوف به؟ فقال: «قلت لك إنك تأتيه العام؟» قال: لا، قال: «فإنك آتيه ومطوف به»[6] ثم جاء أبا بكر الصديق فقال له: يا أبا بكر ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: بلى، قال: فعلام نعطى الدنية فى ديننا ونرجع ولما يحكم الله بيننا؟ فقال له: إنه رسول الله وهو ناصره وليس

---

(١) **شمائله**: صفاته وأخلاقه.
(٢) **أحبو**: أجامل وأحابى.
(٣) **ديدنى**: وأبى.
(٤) **الجوزاء**: نجم فى السماء.
(٥) **الدنية**: الذل والصغار.
(٦) **صحيح**: رواه البخارى (٢٧٣٢) وأحمد (٤/ ٣٢٦) وأبو داود (١٧٥٤).

يعصيه، قال: ألم يكن يحدثنا أنَّا نأتى البيت فنطوف به؟ قال: أقال لك إنك تأتيه العام؟ قال: لا، قال: فإنك آتيه ومطوِّف به. فأجاب على جواب رسول الله ﷺ حرفًا بحرف من غير تواطؤ ولا تشاعر، بل موافقة محب لمحبوب. هكذا وقع فى صحيح البخارى.

ووقع فى بعض المغازى أنه أتى أبا بكر أولاً فقال له ذلك، ثم أتى رسول الله ﷺ بعده فقال له مثل ما قال أبو بكر.

قال السهيلى: وهذا هو الأولى ويشبه أن يكون المحفوظ، فإنه لا يظن بعمر أن رسول الله ﷺ يقول له قولاً فلا يرضى به حتى يأتى أبا بكر بعد ذلك والشبهة عنده لم تزل فيعيدها عليها، ولا يظن ذلك بعمر . ولعمرى لقد نزع أبو القاسم بذنوبٍ[1] صحيح، ولكن المحفوظ هو الذى وقع فى البخارى، وعليه عامة أهل السير والمسانيد والسنن. وأما ما نسب إليه عمر فقد أجيب عنه بأنه كان يرجو النسخ وموافقة ربه له فى ذلك كما تقدم له أمثالها، فإنه كان يقول القول فينزل به الوحى، والثانى أن المقام كان مقام محنة وابتلاء عجز عنه صبر أكثر الصحابة ولم يتسع له بطانهم، وداخلهم من الهم والقلق والتحرق على أعدائهم أمر عظيم. ولهذا لما أمرهم أن يحلقوا رءُوسهم وينحروا بدنهم لم يقم منهم رجل واحد حتى دخل ﷺ على أُم سلمة مغضبًا فقالت له: من أغضبك أغضبه الله، فقال: «ومَا لِى لا أغضب وأنا آمر بالأمر فلا أتبع»[2]؟ وهذا يرد تأويل من تأوله على أن القوم كانوا محسنين فى ذلك التثبت، وأنهم كانوا ينتظرون النسخ فلا لوم عليهم. وهذا خطأ قبيح من هذا المعتذر، بل كانت المبادرة إلى امتثال أوامره ﷺ أولى بهم، ولو كانوا محسنين فى التأخير لما اشتد غضبه عليهم ولكان أولى منهم بانتظار النسخ، بل هذا من سعيهم المغفور الذى غفره الله لهم بكمال إيمانهم ونصحهم لله ورسوله، وعذرهم الله سبحانه لقوة الوارد وضعفهم عن حمله حتى لم يحمله عمر ﷺ فى قوته وشدته، واحتمله رسول الله ﷺ وأبو بكر وكان جوابهما من مشكاة[3] واحدة.

ولما احتمل رسول الله ﷺ هذا الحكم الكونى الأمرى الذى حكم الله له به ورضى به وأقرَّ به ودخل تحته طوعًا وانقياداً – وهو الفتح الذى فتح الله له – أثابه الله عليه بأربعة أشياء: مغفرة ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وإتمام نعمته عليه، وهدايته صراطًا مستقيمًا، ونصر الله له نصراً عزيزاً. وبهذا يقع جواب السؤال الذى أورده بعضهم ههنا فقال: كيف

---

(١) ذنوب: دلو وجردل.

(٢) ضعيف: رواه أحمد (٤/ ٢٨٦) وابن ماجه (٢٩٨٢) وضعفه الألبانى فى «الضعيفة» (٤٧٥٣).

(٣) مشكاة: فتحة، أو طاقة واحدة.

يكون حكم الله له بذلك علة لهذه الأمور الأربعة إذ يقول الله تعالى: ﴿**إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ① لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ**﴾ (الفتح: ١، ٢) وجوابه ما ذكرنا أن تسليمه لهذا الحكم والرضا به والانقياد له والدخول تحته أوجب له أن آتاه الله ذلك، والمقصود إنما هو ذكر الاتفاق بين المحب والمحبوب، وهذا الذى جرى للصديق من أحسن الموافقة، ومن هذا موافقة عمر بن الخطاب لربه تعالى فى عدة أُمور قالها فنزل بها الوحى كما قال، وتوقى هذه الموافقة حتى يعلم المحب بكثير من أحوال محبوبه وهو غائب عنه، وهذا بحسب تعلق الهمة به وتوجه القلب إليه واتحاد مراده بمراده، وربما اقتضى ذلك اتفاقهما فى المرض والصحة والفرح والحزن والخلق، فإن كان مع ذلك بينهما تشابه فى الخلق الظاهر فهو الغاية فى الاتفاق. ولنقتصر من العلامات على هذا القدر، وبالله التوفيق.

الباب الحادى والعشرون:

فى اقتضاء المحبة إفراد الحبيب بالحب وعدم التشريك بينه وبين غيره فيه

هذا من موجبات المحبة الصادقة وأحكامها، فإن قوى الحب متى انصرفت إلى جهة لم يبق فيها متسع لغيرها. ومن أمثال الناس: ليس فى القلب حبان، ولا فى السماء ربان» ومتى تقسمت قوى الحب بين عدة محال ضعفت لا محالة وتأمل قوله سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (١) وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (٢) وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً﴾ (الأحزاب: ١ - ٣) كيف أمره بتقواه المتضمنة لإفراده بامتثال أمره ونهيه محبة له وخشية ورجاء، فإن التقوى لا تتم إلا بذلك، واتباع ما أُوحى إليه المتضمن لتركه ما سوى ذلك واتباع المنزل خاصة، وبالتوكل عليه وهو يتضمن اعتمادَ القلب عليه وحده وثقته به وسكونه إليه دون غيره ثم أتبع ذلك بقوله: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾ (الأحزاب: ٤) فأنت تجد تحت هذا اللفظ أن القلب ليس له إلا وجهة واحدة إذا مال بها إلى جهة لم يمل إلى غيرها، وليس للعبد قلبان يطيع الله ويتبع أمره ويتوكل عليه بأحدهما والآخر لغيره، بل ليس إلا قلب واحد، فإن لم يفرد بالتوكل والمحبة والتقوى ربه وإلا انصرف ذلك إلى غيره.

ثم استطرد من ذلك إلى أنه سبحانه لم يجعل زوجةَ الرجل أمه، واستطرد منه إلى أنه لم يجعل دعيه[١] ابنه؛ فانظر ما أحسن هذا التأصيل وهذا الاستطراد الذى تسجد له العقول والألباب، وله نظائر فى القرآن عديدة، فمنها قوله: ﴿هُوَ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (١٨٩) فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (الأعراف: ١٨٩، ١٩٠) فالنفس الواحدة وزوجها آدم وحواء، واللذان جعلا له شركاء فيما آتاهما المشركون من أولادهما، ولا يلتفت إلى غير ذلك مما قيل: إن آدم

---

(١) دَعِيهُ: هو من نسب إلى غير أبيه المتبنى.

وحواء كانا لا يعيش لهما ولد فأتاهما إبليس فقال: إن أحببتما أن يعيش لكما ولد فسمِّياه عبد الحارث ففعلا، فإن الله سبحانه اجتباه[١] وهداه فلم يكن ليشرك به بعد ذلك.

ونظير هذا الاستطراد قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ (البقرة: ١٨٩) ثم قال: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا﴾ فإنهمْ كانوا يفعلون ذلك في الإحرام، فلما ذكر لهم وقت الإحرام الذي هو من فوائد الأهلة استطرد منه إلى ذكر ما يفعلونه فيه، وهو كثير جداً.

والمقصود أن المحبة تستلزم توحيد المحبوب فيها، وقد بالغ أبو محمد بن حزم في إنكاره على من يزعم أنه يعشق أكثر من واحد وقال في ذلك شعراً، ونحن نذكر كلامه وشعره، قال بعد كلام طويل: ومن هذا دخل الغلط على من يزعم أنه يحب اثنين ويعشق شخصين متغايرين، وإنما هذا من جهة الشهوة التي ذكرنا آنفًا[٢]، وهي على المجاز تسمى محبة لا على التحقيق: وأما نفس المحب فما في الميل به فضل يصرفه من أسباب دينه، ودنياه، فكيف بالاشتغال بحب ثانٍ، وفي ذلك أقول:

كَذَبَ المدّعي هوى اثنين حتماً
مثلَ ما في الأصول أكذبَ ماني[٣]
ليس في القلب موضعٌ لحبيبيـ
ـن ولا أحدثُ الأمورَ اثنان
فكما العقلُ واحدٌ ليس يدري
خالقاً غير واحد رحمانِ
فكذا القلب واحدٌ ليس يقوى
غيرَ فردٍ مُباعدٍ أو مُدانِ
هو في شرعةِ المودةِ ذو شكـ
ـك بعيدٌ من صحة الإيمانِ
وكذا الدِّينُ واحدٌ مستقيمٌ
وكفورٌ مَنْ عنده دينانِ

---

(١) هذه القصة ذكرها ابن جرير في «جامع البيان» (١٥٥٢٤) وهي قصة مكذوبة سنداً ومتناً.

(٢) آنفًا: منذ قليل.

(٣) هو: ماني بن ماش الثنوي، عاش أيام ملك الفرس: سابور بن أردشير، وهو القائل: إن صانع العالم اثنان: أحدهما: فاعل للخير، والثاني: فاعل للشر، مات قتيلاً، قتله كسرى وصلبه، انظر: «الفهرست» (٤٥٦) لابن النديم.

وقد اختلف الناس في هذه المسألة فقالت طائفة: ليس للقلب إلا وجهة واحدة إذا توجه إليها لم يمكنه التوجه إلى غيرها، قالوا: وكما أنه لا يجتمع فيه إرادتان معًا فلا يكون فيه حبان، وكان الشيخ إبراهيم الرقي رحمه الله يميل إلى هذا.

وقالت طائفة: بل يمكن أن يكون له وجهتان فأكثر باعتبارين، فيتوجه إلى أحدهما ولا يشغله عن توجهه إلى الآخر، قالوا: والقلب حمال فما حملته تحمل، فإذا حملته الأثقال حملها، وإن استعجزته عجز عن حمل غير ما هو فيه، فالقلب الواسع يجتمع فيه التوجه إلى الله سبحانه وإلى أمره وإلى مصالح عباده، ولا يشغله واحد من ذلك عن الآخر، فقد كان رسول الله ﷺ قلبه متوجه في الصلاة إلى ربه وإلى مراعاة أحوال من يصلي خلفه، وكان يسمع بكاء الصبي فيخفف الصلاة خشية أن يشق على أمه[1] أفلا ترى قلبه الواسع الكريم كيف اتسع للأمرين؟ ولا يظن أن هذا من خصائص النبوة، فهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يجهز جيشه وهو في الصلاة، فيتسع قلبه للصلاة والجهاد في آنٍ واحد، وهذا بحسب سعة القلب وضيقه وقوته وضعفه .

قالوا: وكمال العبودية أن يتسع قلب العبد لشهود معبوده ومراعاة آداب عبوديته، فلا يشغله أحد الأمرين عن الآخر، وهذا موجود في الشاهد، فإن الرجل إذا عمل عملاً للسلطان مثلاً بين يديه وهو ناظر إليه يشاهده، فإن قلبه يتسع لمراعاة عمله وإتقانه، وشهود إقبال السلطان عليه ورؤيته له، بل هذا شأن كل محب يعمل لمحبوبه عملاً بين يديه أو في غيبته، قالوا: وهذا رسول الله ﷺ بكى يوم موت ابنه إبراهيم فكان بكاؤه رحمةً له، فاتسع قلبه لرحمة الولد وللرضا بقضاء الله، ولم يشغله أحدهما عن الآخر، لكن الفضيل لم يتسع قلبه يوم موت ابنه لذلك، فجعل يضحك، فقيل له: أتضحك وقد مات ابنك؟ فقال: إن الله سبحانه قضى بقضاء فأحببت أن أرضى بقضائه، ومعلوم أن بين هذه الحال وحال رسول الله ﷺ حينئذ تفاوت لا يعلمه إلا الله، ولكن لم يتسع قلبه لما اتسع له قلب رسول الله ﷺ ونظير هذا اتساع قلب رسول الله ﷺ لغناء الجويريتين اللتين كانتا تغنيان عند عائشة رضي الله عنها[2] فلم يشغله ذلك عن ربه، ورأى فيه من مصلحة إرضاء النفوس الضعيفة بما يستخرج منها من محبة الله ورسوله ودينه، فإن النفوس متى نالت شيئًا من حظها طوعت ببذل ما عليها من الحق، ولم يتسع قلب عمر لذلك لما دخل فأنكره، وكم بين من ترد عليه الواردات فكل منها يثير همته ويحرك قلبه إلى الله كما قال القائل:

---

(١) **صحيح**: رواه مسلم (٤٧٠) والترمذي (٢٣٦) والبيهقي في «الكبرى (٣/ ١١٧).

(٢) **صحيح**: رواه البخاري (٢٩٢١) ومسلم (٨٩٢).

يَذكِّرُنيك الخيرُ والشرُّ والذى أخافُ وأرجو والذى أتوقَّعُ

ومن يرد عليه من الواردات فيشغله عن الله ويقطعه عن سير قلبه إليه. فالقلب الواسع يسير بالخلق إلى الله ما أمكنه، فلا يهرب منهم ولا يلحق بالقفار[1] والجبال والخلوات، بل لو نزل به من نزل سار به إلى الله، فإن لم يسر معه سار هو وتركه، ولا ينكر هذا فالمحبة الصحيحة تقتضيه، وخذ هذا فى المغنى إذا طرب، فلو نزل به من نزل أطربهم كلهم، فإن لم يطربوا معه لم يدع طربه لغلظ أكبادهم وكثافة طبعهم. وكان شيخنا يميل إلى هذا القول وهو كما ترى قوته وحجته.

والتحقيق: أن المحبوب لذاته لا يمكن أن يكون إلا واحداً، ومستحيل أن يوجد فى القلب محبوبان لذاتهما، كما يستحيل أن يكون فى الخارج ذاتان قائمتان بنفسيهما كل ذات منهما مستغنية عن الأخرى من جميع الوجوه، وكما يستحيل أن يكون للعالم ربان متكافئان مستقلان، فليس الذى يحب لذاته إلا الإله الحق الغنى بذاته عن كل ما سواه، وكل ما سواه فقير بذاته إليه. وأما ما يحب لأجله سبحانه فيتعدد، ولا تكون محبة العبد له شاغلةً له عن محبة ربه ولا يشركه معه فى الحب، فقد كان رسول الله ﷺ يحب زوجاته وأحبهن إليه عائشة رضي الله عنها، وكان يحب أباها ويحب عمر رضي الله عنه، وكان يحب أصحابه وهم مراتب فى حبه لهم، ومع هذا فحبه كله لله وقوى حبه جميعها منصرفة إليه سبحانه.

فإن المحبة ثلاثة أقسام: محبة الله، والمحبة له وفيه، والمحبة معه.

فالمحبة له وفيه من تمام محبته وموجباتها لا من قواطعها، فإن محبة الحبيب تقتضى محبة ما يحب ومحبة ما يعين على حبه ويوصل إلى رضاه وقربه، وكيف لا يحب المؤمن ما يستعين به على مرضاة ربه، ويتوصل به إلى حبه وقربه؟ وأما المحبة مع الله فهى المحبة الشركية، وهى كمحبة أهل الأنداد لأندادهم كما قال تعالى: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ**﴾ (البقرة: ١٦٥)، وأصل الشرك الذى لا يغفره الله هو الشرك فى هذه المحبة، فإن المشركين لم يزعموا أن آلهتهم وأوثانهم شاركت الرب سبحانه فى خلق السموات والأرض، وإنما كان شركُهم بها من جهة محبتها مع الله فوالَوْا عليها وعادوا عليها وتألهوها وقالوا: هذه آلهة صغار تقربنا إلى الإله الأعظم. ففرق بين محبة الله أصلاً والمحبة له تبعًا والمحبة معه شركًا. وعليك بتحقيق هذا الموضع فإنه مفرق الطرق بين أهل التوحيد وأهل الشرك.

---

(١) القفار: الأرض الفضاء التى لا زرع فيها ولا ماء، أى الصحراء.

ويحكى أن الفضيل[1] دخل على ابنته فى مرضها فقالت له: يا أبت هل تحبنى؟ قال: نعم، قالت: لا إله إلا الله، والله ما كنت أظن فيك هذا، ولم أكن أظنك تحب مع الله أحداً، ولكن أفرد الله بالمحبة واجعل لى منك الرحمة، أى يكون حبك لى حب رحم جعلها الله فى قلب الوالد لولده لا محبة مع الله. فللّه حق من المحبة لا يشركه فيه غيره، وأظلم الظلم وضع تلك المحبة فى غير موضعها، والتشريك بين الله وغيره فيها. فليتدبر اللبيب هذا الباب فإنه من أنفع أبواب الكتاب إن شاء الله تعالى.

(١) هو أبو على الفضيل بن عياض التميمى، كان زاهداً ورعًا، كان قاطعًا للطريق، ثم تاب إلى الله عز وجل، وصار محدثًا، وجاور بيت الله الحرام إلى أن مات سنة (١٨٧ هـ).

الباب الثانى والعشرون:

فى غيرة المحبين على أحبابهم

لما كان هذا الباب متصلاً بإفراد المحبوب بالمحبة ومن موجباته فإن الغيرة بحسب قوة المحبة، وقوتها بحسب إفراد المحبوب حسن ذكره بعده، وأصل الغيرة: الحمية والأنفة[١]، **والغيرة نوعان**: غيرةٌ للمحبوب، وغيرة عليه، فأما الغيرة له فهى الحمية له والغضب له إذا استهين بحقه وانتقصت حرمته وناله مكروه من عدوّه، فيغضب له المحب ويحمى وتأخذه الغيرة له بالمبادرة إلى التغيير ومحاربة من آذاه، فهذه غيرة المحبين حقًّا، وهى من غيرةِ الرسل وأتباعهم لله ممن أشرك به واستحلّ محارمه وعصى أمره.

وهذه الغيرة هى التى تحمل على بذل نفس المحب وماله وعرضه لمحبوبه حتى يزول ما يكرهه، فهو يغار لمحبوبه أن تكون فيه صفة يكرهها محبوبه ويمقته عليها أو يفعل ما يبغضه عليه، ثم يغار له بعد ذلك أن يكون فى غيره صفة يكرهها ويبغضها، والدين كله فى هذه الغيرة بل هى الدين، وما جاهد مؤمن نفسه وعدوه ولا أمر بمعروف ولا نهى عن منكر إلا بهذه الغيرة، ومتى خلت من القلب خلا من الدين، فالمؤمن يغار لربه من نفسه ومن غيره إذا لم يكن له كما يحب، والغيرة تصفى القلب وتخرج خبثه كما يخرج الكير خبث الحديد.

فصل: وأما الغيرة على المحبوب فهى أنفة المحب وحميته أن يشاركه فى محبوبه غيره، وهذه أيضًا نوعان: غيرة المحب أن يشاركه غيره فى محبوبه، وغيره المحبوب على محبه أن يحب معه غيره، والغيرة من صفات الرب جل جلاله، والأصل فيها قوله تعالى: ﴿**قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ**﴾ (الأعراف: ٣٣).

ومن غيرته تعالى لعبده وعليه يحميه مما يضره فى آخرته، كما فى الترمذى وغيره مرفوعًا: «إن الله يحمى عبده المؤمن من الدنيا كما يحمى أحدكم مريضه من الطعام والشراب»[٢]، وفى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال فى خطبة الكسوف: «واللهِ يا أمة

---

(١) الأنفة: الاستكبار.

(٢) **صحيح**: رواه أحمد (٥/ ٤٢٨) والترمذى (٢٠٢٦) وابن حبان (٦٦٩) البخارى فى «الأدب المفرد» (٢٩١) والبيهقى فى «الشعب» (١٠٤٤٨) وصححه الألبانى فى «المشكاة» (٥٢٥٠).

محمد ما أحد أغير من الله أن يزنى عبده أو تزنى أمته»[(١)]، وفى ذكر هذا الذنب بخصوصه فى خطبة الكسوف سر بديع قد نبهنا عليه فى باب غض البصر وأنه يورث نوراً فى القلب، ولهذا جمع الله سبحانه وتعالى بين الأمر به وبين ذكر آية النور، فجمع الله سبحانه بين نور القلب بغض البصر وبين نوره الذى مثله بالمشكاة لتعلق أحدهما بالآخر، فجمع النبى ﷺ بين ظلمة القلب بالزنى وبين ظلمة الوجود بكسوف الشمس، وذكر أحدهما مع الآخر.

وفى الصحيحين من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس شيء أغير من الله، من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا أحد أحب إليه المدح من الله، من أجل ذلك أثنى على نفسه، ولا أحد أحب إليه العذر من الله، من أجل ذلك أرسل الرسل»[(٢)].

وروى الثورى عن حماد بن إبراهيم عن عبد الله قال: «إن الله عز وجل ليغار للمسلم فليغر»[(٣)]، وروى أيضاً عن عبد الأعلى، عن ابن عيينة، عن أمه، عن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله عز وجل يغار فليغر أحدكم»[(٤)].

وفى الصحيح عنه من حديث أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يغار والمؤمن يغار وغيرة الله أن يأتى المؤمن ما حرم عليه»[(٥)]، وروى القعنبى عن الدراوردى، عن العلاء، عن أبيه، عن أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «المؤمن يغار والله أشد غيرة»[(٦)].

فصل: وغيرة العبد على محبوبه نوعان: غيرة ممدوحة يحبها الله، وغيرة مذمومة يكرهها الله، فالتى يحبها الله أن يغار عند قيام الريبة، والتى يكرهها أن يغار من غير ريبة بل من مجرد سوء الظن. وهذه الغيرة تفسد المحبة وتوقع العداوة بين المحب ومحبوبه. وفى «المسند» وغيره عنه ﷺ قال: «الغيرة غيرتان: فغيرة يحبها الله وأخرى يكرهها الله»

---

(١) **صحيح**: رواه البخارى (٥٢٢١) ومسلم (٩٠١).

(٢) **صحيح**: رواه البخارى (٤٦٣٤) ومسلم (٢٧٦٠) وأحمد (١/ ٤٣٦) والترمذى (٣٥٣٠).

(٣) **ضعيف**: رواه أبو يعلى (٥٠٨٧) والطبرانى فى «الأوسط» (١٠٧٣) وضعفه الألبانى فى «ضعيف الجامع» (١٧٤٥).

(٤) **ضعيف**: وانظر الحديث السابق.

(٥) **صحيح**: رواه البخارى (٥٢٢٣) ومسلم (٢٧٦١) وأحمد (٢/ ٣٤٣) والترمذى (١١٦٨).

(٦) **صحيح**: رواه أحمد (١/ ٢٣٥) ومسلم (٢٧٦٣).

قلنا: يا رسول الله، ما الغيرة التى يحب الله ؟ قال: «أن تؤتى معاصيه أو تنتهك محارمه» قلنا: فما الغيرة التى يكره الله ؟ قال: «غيرة أحدكم فى غير كنهه»(١)، وفى «الصحيح» عنه ﷺ: «إن من الغيرة ما يحب الله ومنها ما يكره الله، فالغيرة التى يحبها الله الغيرة فى الريبة، والغيرة التى يكرهها الله الغيرة فى غير ريبة»(٢)، وفى الصحيح عنه ﷺ أنه قال: «أتعجبون من غيرة سعد لأنا أغير منه والله أغير منى»(٣)، وقال عبد الله بن شداد: الغيرة غيرتان: غيرة يصلح بها الرجل أهله، وغيرة تدخله النار.

وروى عبد الله بن لهيعة، عن يزيد بن أبى حبيب، عن عبد الرحمن بن شماسة المهرى، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ دخل على مارية القبطية وهى حامل بإبراهيم وعندها نسيب لها قدم معها من مصر فأسلم، وكان كثيرًا ما يدخل على أم إبراهيم وأنه جب(٤) نفسه فقطع ما بين رجليه حتى لم يبق قليل ولا كثير، فدخل رسول الله ﷺ يومًا عليها فوجد عندها قريبها فوجد(٥) فى نفسه من ذلك شيئًا كما يقع فى أنفس الناس، فخرج متغير اللون، فلقيه عمر بن الخطاب رضي الله عنه فعرف ذلك فى وجهه، فقال: يا رسول الله، أراك متغير اللون، فأخبره ما وقع فى نفسه من قريب مارية، فمضى بسيفه فاقبل يسعى حتى دخل على مارية فوجد عندها قريبها ذلك، فاهوى بالسيف ليقتله، فلما رأى ذلك منه كشف عن نفسه، فلما رآه عمر رضي الله عنه رجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره، فقال: إن جبريل أتانى فأخبرنى أن الله عز وجل قد برأها وقريبها مما وقع فى نفسى، وبشرنى أن فى بطنها غلامًا وأنه أشبه الخلق بى، وأمرنى أن أسميه إبراهيم»(٦).

وقال الواقدى عن محمد بن صالح، عن سعد بن إبراهيم، عن عامر بن سعد، عن أبيه قال: كانت سارة عند إبراهيم ﷺ فمكثت معه دهرًا لا ترزق منه ولدًا، فلما رأت ذلك وهبت له هاجر أَمَتَها(٧)، فولدت لإبراهيم، فغارت من ذلك سارة ووجدت فى نفسها

---

(١) حسن بشواهده: رواه أحمد (٤/ ١٥٤) والحاكم (١/ ٤١٧) والطبرانى فى «الكبير» (١٧/ ٣٤٠) وابن خزيمة (٢٤٧٨) صححه أبو الأشبال فى «المسند».

(٢) حسن: رواه أحمد (٥/ ٤٤٦) وأبو داود (٣٦٥٩) والنسائى (٣/ ٣٣) وابن ماجه (١٩٩٦) وابن حبان (١٣١٣) والبيهقى فى «الكبرى» (٩/ ٣٢٦).

(٣) تقدم.

(٤) جب نفسه: أى الخصى.

(٥) وجد: حزن.

(٦) ضعيف: رواه الطبرانى فى «الكبير» كما فى «مجمع الزوائد» (٩/ ١٦١).

(٧) أمتها: أى وصيفتها وخادمتها.

وعتبت على هاجر، فحلفت أن تقطع منها ثلاثة أعضاء، فقال لها إبراهيم: هل لك أن تبرَّ يمينك؟ قالت: كيف أصنع؟ قال: اثقبى أُذنيها واخفضيها، والخفض هو الختان، ففعلت ذلك بها، فوضعت هاجر فى أذنيها قرطين فازدادت بهما حسنًا، فقالت سارة: إنما زدتها جمالاً، فلم تقاره[1] على كونها معه، ووجد بها إبراهيم وجداً شديداً فنقلها إلى مكة، فكان يزورها كل يوم من الشام على البراق من شغفه بها وقلة صبره عنها.

وفى الصحيح من حديث حميد، عن أنس ﷺ قال: أهدى بعض نساء النبى ﷺ له قصعة فيها ثريد وهو فى بيت بعض نسائه، فضربت يد الخادم فانكسرت القصعة، فجعل النبى ﷺ يأخذ الثريد ويرده فى القصعة ويقول: «كلوا غارت أمكم»[2]، ثم انتظر حتى جاءت قصعة صحيحة فأعطاها التى كسرت قصعتها.

وقالت عائشة ﷺ: ما غرت على امرأة قط ما غرت على خديجة من كثرة ذكر النبى ﷺ إياها، ولقد ذكرها يومًا فقلت: ما تصنع بعجوز حمراء الشدقين قد أبدلك الله خيراً منها؟ قال: «والله ما أبدلنى الله خيراً منها»[3]، فانظر هذه الغيرة الشديدة على امرأةٍ بعدما ماتت، وذلك لفرط محبتها لرسول الله ﷺ كانت تغار عليه أن يذكر غيرها، وكذلك غيرتها من صفية ﷺ، فإن رسول الله ﷺ لما قدم بها المدينة وقد اتخذها لنفسه زوجة وعرس[4] بها فى الطريق، قالت عائشة ﷺ: تنكرت وخرّجت أنظر فعرفنى فأقبل إلىَّ فانقلبت فأسرع المشى فأدركنى فاحتضننى وقال: «كيف رأيتها»؟ قلت: يهودية بين يهوديات ـ تعنى السبى.

وفى المسند من حديث الأشعث بن قيس قال: تضيفت بعض أصحاب النبى ﷺ فقام إلى امرأته فضربها، قال: فحجزت بينهما، فرجع إلى فراشه فقال: يا أشعث احفظ عنى شيئًا سمعته من رسول الله ﷺ: «لا تسألن رجلاً فيم يضرب امرأته»[5]، وذكر حماد بن زيد عن أيوب، عن ابن أبى مليكة أن ابن عمر ﷺ سمع امرأته تكلم رجلاً من وراء جدار،

---

(١) تقاره: تقر عينه بالموافقة.

(٢) صحيح: رواه البخارى (٥٢٢٥) وأحمد (٣/ ١٠٥) وأبو داود (٣٥٦٧) والنسائى (٣/ ٧٣٩) وابن ماجه (٢٥٩٨).

(٣) صحيح: رواه البخارى (٣٨٢١) ومسلم (٢٤٣٨).

(٤) عرس بها: بنى بها، أو دخل بها.

(٥) ضعيف: رواه أحمد (١/ ٢٠) وأبو داود (٢١٤٧) وابن ماجه (١٩٨٦) وضعفه الألبانى فى «الضعيفة» (٤٧٧٦).

بينها وبينه قرابة لا يعلمها ابن عمر، فجمع لها جرائد[١] ثم ضربها حتى أضبت حسيسًا[٢]، وذكر الخرائطى عن معاذ بن جبل ﷺ أنه كان يأكل تفاحًا ومعه امرأته فدخل عليه غلام له فناولته تفاحة قد أكلت منها فأوجعها معاذ ضربًا. ودخل يومًا على امرأته وهى تطلع فى خباء أدم فضربها، وذكر الثورى عن أشعث عن الحسن أن امرأة جاءت تشكو زوجها إلى النبى ﷺ لطمها، فدعا الرجل ليأخذ حقها فأنزل الله عز وجل: ﴿**الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ**﴾ (النساء: ٣٤) فقال رسول الله ﷺ: «أردنا أمرًا وأراد الله أمرًا»[٣].

وكان عمر بن الخطاب ﷺ شديد الغيرة وكانت امرأته تخرج فتشهد الصلاة فيكره ذلك فتقول: إن نهيتنى انتهيت، فيسكت امتثالاً لقول رسول الله ﷺ: «لا تمنعوا إماء الله مساجد الله»[٤]، وهو الذى أشار على النبى ﷺ أن يحجب نساءه، وكان عادة العرب أن المرأة لا تحتجب لنزاهتهم ونزاهة نسائهم، ثم قام الإسلام على ذلك، فقال عمر: يا رسول الله، لو حجبت نساءك فإنه يدخل عليهن البر والفاجر، فأنزل الله عز وجل آية الحجاب، ورفع إلى عمر بن الخطاب ﷺ رجل قد قتل امرأته ومعها رجل آخر، فقال أولياء المرأة: هذا قتل صاحبتنا، وقال أولياء الرجل: إنه قد قتل صاحبنا، فقال عمر ﷺ: ما يقول هؤلاء؟ قال: ضرب الآخر فخذى امرأته بالسيف فإن كان بينهما أحد فقد قتلته، فقال لهم عمر: ما يقول؟ فقالوا: ضرب بسيفه فقطع فخذى المرأة فأصاب وسط الرجل فقطعه باثنتين، فقال عمر ﷺ: إن عادوا فعد، ذكره سعيد بن منصور فى سننه[٥]، وأخذ بهذا جماعة من الفقهاء منهم الإمام أحمد وأصحابه رحمهم الله تعالى، قالوا: لو وجد رجلاً يزنى بامرأته فقتلهما فلا قصاص عليه ولا ضمان، إلا أن تكون المرأة مكرهة فعليه القصاص بقتلها، ولكن لا يقبل قول الزوج إلا بتصديق الولى أو بينة، واختلفت الرواية عن الإمام أحمد فى عدد البينة فروى عنه أنها رجلان، ويروى عنه لا بد من أربعة، ووجه هذه الرواية ظاهر حديث سعد بن عبادة ﷺ أنه قال: يا رسول الله، أرأيت إن وجدت رجلاً مع امرأتى؟

---

(١) **جرائد**: عصا من قضبان النخل.

(٢) **أضبت حسيسًا**: جمعت يديها، ثم تكلمت بصوت خفى.

(٣) **مرسل**: رواه ابن جرير فى «جامع البيان» (٥/ ٣٥) وعزاه فى «الدر المنثور» (٢/ ١٥١) لابن أبى حاتم.

(٤) **صحيح**: رواه البخارى (٩٠٠) ومسلم (١٣٨) وأحمد (٢/ ١٦) وأبو داود (٥٦٥).

(٥) ضعيف، ذكره الحافظ فى «الفتح» (١٢/ ٢١٢) مقطوعًا على ابن سيرين.

أمهله حتى آتى بأربعة شهداء؟ فقال النبى ﷺ: «نعم» فقال: والذى بعثك بالحق إن كنت لأضربه بالسيف غير مصفح[١]، فقال النبى ﷺ: «ألا تعجبون من غيرة سعد؟ لأنا أغير منه، والله أغير منى»[٢].

وذكر سعيد بن منصور عن علىّ بن أبى طالب رضي الله عنه أنه سئل عن رجل دخل بيته فإذا مع امرأته رجل فقتلها وقتله، فقال على رضي الله عنه: إن جاء بأربعة شهداء وإلا دُفع برمته[٣].

ووجه رواية الاكتفاء باثنين أن البينة ليست على إقامة الحد، ولكن على وجوب السبب المانع من القصاص، فإن الزوج كان له أن يقتل المتعدى على أهله، ولكن لما أنكر أولياء القتيل طولب القاتل بالبينة فاكتفى برجلين. ورفع إلى عمر رضي الله عنه رجل قد قتل يهوديّا فسأله عن قصته فقال: إن فلانًا خرج غازيًا وأوصانى بامرأته، فبلغنى أن يهوديّا يختلف إليها فكمنت له حتى جاء، فجعل ينشد ويقول:

وأبيض غـــرّة الإســـلام منّى ... خَلَوْتُ بعـرْسـه ليل التِّمـام[٤]

أبيتُ عَلَى ترائبـهـا ويمـسـى ... عَلَى جَـرْدَاءَ لاحـقـة الْحِزَامِ

كَـأن مـواضعَ الرَّبلات[٥] مـنـه ... فِـئـامٌ ينهـضـون إلى فِـئَام[٦]

فقمت إليه فقتلته، فأهدر عمر دمه[٧] وليس فى هذين الأمرين مطالبة عمر رضي الله عنه القاتل بالبينة إذ لعله تيقن ذلك أو أقر به الولى، والصواب أنه متى قام على ذلك دلالة ظاهرة لا تحتمل الكذب أغنت عن البينة، وذكر سفيان بن عيينة عن الزهرى، عن القاسم بن محمد، عن عبيد بن عمير أن رجلاً أضاف إنسانًا من هذيل فذهبت جارية لهم تحتطب فأرادها عن نفسها، فرمته بفهر[٨] فقتلته، فرفع ذلك إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: ذاك قتيل الله لا يودى[٩] أبداً.

وذكر حماد بن سلمة عن القاسم بن محمد أن أبا السيارة أولع بامرأة أبى جندب يراودها عن نفسها، فقالت: لا تفعل فإن أبا جندب إن يعلم بهذا يقتلك، فأبى أن ينزع[١٠] فكلمت أخا أبا جندب فكلمه فأبى أن ينزع، فأخبرت بذلك أبا جندب، فقال

---

(١) غير مصفح: أى ضرب بعرض السيف.

(٢) تقدم.

(٣) برمته: خنق بحبله.

(٤) ليل التمام: أطول ليلة فى السنة.

(٥) الربلات: باطن الفخذ.

(٦) فئام: الهودج.

(٧) أهدر عمر دمه: أباح دمه.

(٨) فهر: ملء الكف من الأحجار.

(٩) لا يودى: أى لا دية له.

(١٠) ينزع: يترك الأمر.

أبو جندب: إنى مخبر القوم أنى أذهب إلى الإبل، فإذا أظلمت جئت فدخلت البيت فإن جاءك فادخليه عليَّ، فودع أبو جندب القوم وأخبرهم: أنى ذاهب إلى الإبل، فلما أظلم الليل جاء فكمن فى البيت. وجاء أبو السيارة وهى تطحن فى ظلها، فراودها عن نفسها فقالت: ويحك! أرأيت هذا الأمر الذى تدعونى إليه هل دعوتك إلى شىء منه قط؟ قال: لا، ولكن لا أصبر عنك، قالت: ادخل البيت حتى أتهيأ لك، فلما دخل البيت أغلق أبو جندب الباب ثم أخذه فدقه من عنقه إلى عجب[1] ذنبه، فذهبت المرأة إلى أخى أبى جندب فقالت: أدرك الرجل فإن أبا جندب قاتله، فجعل أخوه يناشده فتركه، وحمله أبو جندب إلى مدرجة الإبل فالقاه، فكان إذا مر به إنسان قال له: ما شانك؟ فيقول: وقعت من بكر[2] فحطمنى، وبلغ الخبر عمر ﷺ فارسل إلى أبى جندب فاخبره بالامر على وجهه، فارسل إلى أهل المرأة فصدقوه، فجلد عمر أبا السيارة مائة جلدة وأبطل ديته.

وذكر العباس بن هشام الكلبى عن أبيه عمرو بن حممة الدوسى أتى مكة حاجًا، وكان من أجمل العرب، فنظرت إليه امرأة فقالت: لا أدرى وجهه أحسن أم فرسه، وكانت له جمة[3] تسمى الزينة، فكان إذا جلس مع أصحابه نشرها، وإذا قام عقصها[4]، فقالت له المرأة: أين منزلك؟ قال: نجد، قالت: ما أنت بنجدى ولا تهامى فاصدقنى، فقال: رجل من أهل السراة فيما بين مكة واليمن، ثم أشار إليها ارتدفى[5] خلفى ففعلت، فمضى بها إلى السراة وتبعها زوجها فلم يلحقها فرجع، فلما استقرت عنده قطع عروقها وقال: والله لا تتبعين بعدى رجلاً أبداً، ثم ردها إلى زوجها على تلك الحال.

فصل: والله سبحانه وتعالى يغار على قلب عبده أن يكون معطلاً من حبه وخوفه ورجائه وأن يكون فيه غيره. فالله سبحانه وتعالى خلقه لنفسه واختاره من بين خلقه، كما فى الأثر الإلهى: «ابن آدم خلقتك لنفسى وخلقت كل شىء لك، فبحقى عليك لا تشتغل بما خلقته لك عن ما خلقتك له» وفى أثر آخر: «خلقتك لنفسى فلا تلعب، وتكفلت لك برزقك فلا تتعب، يا بن آدم اطلبنى تجدنى، فإن وجدتنى وجدت كل شىء، وإن فُتك

(١) عجب ذنبه: هو ما لا يفنى من الإنسان، وهو العصعص.
(٢) بكر: القوى من الإبل.
(٣) جمة: مجمع شعر الرأس.
(٤) عقصها: ضفرها.
(٥) ارتدفى: الركوب خلف الراكب.

فاتك كل شيء، وأنا خير لك من كل شيء» ويغار على لسانه أن يتعطل من ذكره ويشتغل بذكر غيره، ويغار على جوارحه أن تتعطل من طاعته وتشتغل بمعصيته، فيقبح بالعبد أن يغار مولاه الحق على قلبه ولسانه وجوارحه وهو لا يغار عليها.

وإذا أراد الله بعبده خيراً سلط على قلبه إذا أعرض عنه واشتغل بحب غيره أنواع العذاب حتى يرجع قلبه إليه، وإذا اشتغلت جوارحه بغير طاعته ابتلاها بأنواع البلاء. وهذا من غيرته سبحانه وتعالى على عبده، وكما أنه سبحانه وتعالى يغار على عبده المؤمن فهو يغار له ولحرمته، فلا يمكن المفسد أن يتوصل إلى حرمته غيرة منه لعبده، فإنه سبحانه وتعالى يدفع عن الذين آمنوا، فيدفع عن قلوبهم، وجوارحهم، وأهلهم، وحريمهم، وأموالهم، يتولى سبحانه الدفع عن ذلك كله غيرة منه لهم كما غاروا لمحارمه من نفوسهم ومن غيرهم، والله تعالى يغار على إمائه وعبيده من المفسدين شرعاً وقدراً، ومن أجل ذلك حرم الفواحش وشرع عليها أعظم العقوبات وأشنع القتلات لشدة غيرته على إمائه وعبيده، فإن عطلت هذه العقوبات شرعاً أجراها سبحانه قدراً.

فصل: ومن غيرته سبحانه وتعالى غيرته على توحيده ودينه وكلامه أن يحظى به من ليس من أهله، بل حال بينهم وبينه غيرة عليه، قال الله تعالى: ﴿ **وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا** ﴾ (الأنعام: ٢٥) ولذلك ثبط سبحانه أعداءه عن متابعة رسوله واللحاق به غيرة كما قال الله تعالى: ﴿ **وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ** ﴿٤٦﴾ **لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ** ﴾ (التوبة: ٤٦، ٤٧) فغار سبحانه على نبيه ﷺ وأصحابه أن يخرج بينهم المنافقون فيسعوا بينهم بالفتنة فثبطهم وأقعدهم عنهم، وسمع الشبلي رحمه الله تعالى قارئًا يقرأ: ﴿ **وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا** ﴾ (الإسراء: ٤٥) فقال: أتدرون ما هذا الحجاب؟ هذا حجاب الغيرة ولا أحد أغير من الله، يعني أنه سبحانه وتعالى لم يجعل الكفار أهلاً لمعرفته، وههنا نوع من غيرة الرب سبحانه وتعالى لطيف لا تهتدى إليه العقول، وهو أن العبد يفتح له باب من الصفاء والأنس والوجود، فيساكنه ويطمئن إليه وتلتذ به نفسه فيشتغل به عن المقصود، فيغار عليه مولاه الحق فيخليه منه ويرده حينئذ إليه بالفقر والذلة والمسكنة، ويشهده غاية فقره وإعدامه[1]، وأنه ليس معه من نفسه شيء البتة، فتعود عزة ذلك الأنس والصفاء والوجود

(١) إعدامه: من لا يملك أى شيء.

ذلة ومسكنة وفقراً وفاقة، وذرة من هذا أحب إليه سبحانه وتعالى وأنفع للعبد من الجبال الرواسي من ذلك الصفاء والأنس المجرد عن شهود الفقر والذلة والمسكنة، وهذا باب لا يتسع له قلب كل أحد.

فصل: ومن الغيرة: الغيرة على دقيق العلم وما لا يدركه فهم السامع أن يذكر له، ولهذه الغيرة قال عليّ بن أبي طالب ﷺ: حدثوا الناس بما يعرفون، أتحبون أن يكذب الله ورسوله؟ وقال ابن مسعود ﷺ: ما أنت بمحدث قومًا حديثًا لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة، فالعالم يغار على علمه أن يبذله لغير أهله، أو يضعه في غير محله كما قال عيسى ابن مريم صلى الله عليه وسلم: يا بني إسرائيل لا تمنعوا الحكمة أهلها فتظلموهم، ولا تبذلوها لغير أهلها فتظلموها.

وسئل ابن عباس ﷺ عن تفسير قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ (الطلاق: ١٢) فقال للسائل: وما يؤمنك أني إن أخبرتك بتفسيرها كفرت؟ فإنك تكذب به وتكذيبك بها كفرك بها، فالمسألة الدقيقة اللطيفة التي تبذل لغير أهلها كالمرأة الحسناء التي تهدى إلى ضرير مقعد كما قيل:

خَوْدٌ(١) تُزَفّ إلى ضرير مُقْعَد

وكان أبو عليّ إذا وقع شيء في خلال مجلسه من تشويش الوقت يقول: هذا من غيرة الحقّ، يريد أن لا يجري ما يجري من صفاء الوقت، قال الشاعر:

هَمَّت بإتيانـنا حتى إذا نظرت ... إلى المرآة نهاها وجهُهَا الحسنُ
ما كان هذا جزائي من محاسنها ... عُذّبت بالهجر حتى شفّني الْحَزَنُ

قال القشيري(٢): وقيل لبعضهم: أتحب أن تراهم؟ قال: لا، قيل: ولم؟ قال: أنزه ذلك الجمال عن نظر مثلي، وفي معناه أنشدوا:

إني لأحسُدُ ناظريّ عليكا ... حتى أغُضّ إذا نظرتُ إليكا
وأراك تخطر في شمائلك التي ... هي فتنتي فأغار منك عليكا

قلت: وهذه غيرة فاسدة وغاية صاحبها أن يعفى عنه وأن يعد ذلك في شطحاته المذمومة، وأما أن تعد في مناقبه وفضائله أن يقال: أتحب أن ترى الله فيقول: لا، ورؤيته

---

(١) خود: الجارية الناعمة الحسناء.

(٢) هو: أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري النيسابوري الشافعي، صاحب كتاب «الرسالة» توفي سنة (٤٦٥ هـ).

أعلى نعيم أهل الجنة، وهو سبحانه وتعالى يحب من عبده أن يسأله النظر إليه، وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه كان من دعائه: «اللَّهُمَّ إني أسألك لذة النظر إلى وجهك والشوق إلى لقائك»[١]، وقول هذا القائل: أنزه ذلك الجمال عن نظر مثلي من خدع الشيطان والنفس، وهو يشبه ما يحكى عن بعضهم أنه قيل له: ألا تذكره؟ فقال: أنزهه أن يجري ذكره على لساني، وطرد هذا التنزيه الفاسد أن ينزهه أن يجري كلامه على لسانه أو يخطر هو أيضًا على قلبه، وقد وقع بعضهم في شيء من هذا فلاموه فانشد:

يقولون زُرنا واقض واجب حقّنا ... وقد أسقطت حالي حقوقَهم عنّي
إذا هم رأوْا حالي ولم يأنَفُوا لها ... ولم يأنَفُوا منّي أنِفتُ لهم منّي

وطرد هذه الغيرة أن لا يزور بيته غيرة على بيته أن يزوره مثله. ولقد لمت شخصًا مرة على ترك الصلاة فقال لي: إني لا أرى نفسي أهلاً أن ادخل بيته، فانظر إلى تلاعب الشيطان بهؤلاء، ومن هذا ما ذكره القشيري قال: سئل الشبلي[٢] متى تستريح؟ فقال: إذا لم أر له ذاكرًا، ومات ابن له فقطعت أمه شعرها فدخل هو الحمام ونور لحيته[٣] حتى ذهب شعرها، فقيل له: لم فعلت هذا؟ فقال: إنهم يعزونني على الغفلة[٤]، ويقولون: آجرك الله، ففديت ذكرهم لله تعالى على الغفلة بلحيتي وموافقة لأهلي.

ونظير هذا ما يحكى عن النوري[٥] رحمه الله تعالى أنه سمع رجلاً يؤذن فقال: طعنة وسم الموت، وسمع كلبًا ينبح فقال: لبيك وسعديك، فسئل عن ذلك فقال: أما ذاك فكان يذكره على رأس الغفلة، واما الكلب فقال الله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ (الإسراء: ٤٤) وسمع الشبلي مرة رجلاً يقول: جل الله، فقال: أحب أن تجله عن هذا، ويا عجبًا ممن يعد هذا في مناقب رجل ويجعله قدوة ويزين به كتابه. وهل شيء أشد على قلب المؤمن وأمر عليه من أن لا يرى لربه ذاكرًا ؟ وهل شيء أقر لعينه من أن يرى ذاكرين الله بكل مكان، وعذر هذا القائل أنه لا يرى ذاكرًا لله بحق الذكر، بل لا يرى ذاكرًا إلا والغفلة والسهوة مستولية على قلبه، فيذكر ربه بلسان فارغ من القلب وحضوره في الذكر،

---

(١) تقدم.
(٢) الشبلي: هو أبو بكر دلف بن جحدر الشبلي البغدادي، صوفي، توفي سنة (٣٣٤ هـ).
(٣) نور لحيته: أعشاب تستخدم بعد خلطها لإزالة الشعر من اللحية.
(٤) هذا جهل واضح، وقلة عقل، فكيف يحلق لحيته الا يعلم أن حلق اللحية حرام.
(٥) النوري: هو أبو الحسن النوري الخراساني، من الزهاد في العراق، توفي سنة (٢٩٥ هـ).

وذلك ذكر لا يليق به، فيغار محبه أن يذكر بهذا الذكر فيحب أن لا يسمع أحداً يذكره هذه الذكر. ولما اشترك الناس فى هذا الذكر أخبر أن راحته أن لا يرى له ذاكراً، هذا أحسن ما يحمل عليه كلامه، وإلا فظاهره إلى العداوة أقرب منه إلى المحبة. وليس هذا حال الشبلى، رحمه الله تعالى، فإن المحبة كانت تغلب عليه، ومع ذلك فهو من شطحاته التى يرجى أن تغفر له بصدقه ومحبته وتوحيده، لا أنها مما يحمد عليه ويقتدى به فيه.

وقد أمر الله سبحانه وتعالى عباده أن يذكروه على جميع أحوالهم وإن كان ذكرهم إياه مراتب، فأعلاها ذكر القلب واللسان مع شهود القلب للمذكور وجمعيته بكليته بأحب الأذكار إليه، ثم دونه ذكر القلب واللسان أيضًا وإن لم يشاهد المذكور، ثم ذكر القلب وحده، ثم ذكر اللسان وحده، فهذه مراتب الذكر وبعضها أحب إلى الله من بعض.

وكان طرد قول الشبلى أن راحته أن لا يرى لله مصليًا، ولا لكلامه تاليًا، ولا يرى أحداً ينطق بالشهادتين، فإن هذا كله من ذكره بل هو أعلى أنواع ذكره، فكيف يستريح قلب المحب إذا لم ير من يفعل ذلك؟ والله سبحانه وتعالى يحب أن يذكر ولو كان من كافر.

وقال بعض السلف: إن الله يحب أن يذكر على جميع الأحوال إلا فى حال الجماع وقضاء الحاجة. وأوحى الله عز وجل إلى موسى صلى الله عليه وسلم أن اذكرنى على جميع أحوالك [١]، والله تعالى لا يضيع أجر ذكر اللسان المجرد، بل يثيب الذاكر وإن كان قلبه غافلاً، ولكن ثواب دون ثواب.

قال القشيرى: وسمعت الأستاذ أبا على يقول فى قول النبى ﷺ فى مبايعته فرسًا من أعرابى وأنه استقاله [٢] فأقاله، فقال له الأعرابى: عمرك الله فمن أنت؟ فقال له النبى ﷺ: «امرؤ من قريش» [٣] فقال له بعض الحاضرين: كفاك جفاء أن لا تعرف نبيك.

قال أبو على: فإنما قال امرؤ من قريش غيرة، وإلا كان واجبًا عليه التعرف إلى كل أحد أنه من هو، ثم إن الله أجرى على لسان ذلك الصحابى التعريف للأعرابى، فيقال: من العجب أن يقال: إن النبى ﷺ غار أن يذكر أنه رسول الله ﷺ للأعرابى الذى لا يعرفه، وهو كان دائمًا يذكر ذلك لأعدائه من الكفار سرًا وجهراً ليلاً ونهاراً ولا يغار من ذلك، فكيف يظن به أنه غار أن يعرف ذلك المسكين أنه رسول الله ﷺ؟ هذا من خيالات القوم

(١) ضعيف: رواه أحمد فى «الزهد» (٣٥٤).

(٢) استقاله: طلب منه الإقالة فى البيع، أى رد البيع.

(٣) موضوع: رواه البيهقى فى «الكبرى» (٥/ ٢٧٠) والشافعى فى «مسنده» (١٣٦٣).

وترهاتهم[١]، وإنما ستر عنه ذلك الوقت معرفته له لحكمة لطيفة فهمها الصحابى فصرح بها للاعرابى، وهى أن هذا الأعرابى كان جافيًا جلفًا[٢] فأحب النبى ﷺ أن يعرفه جفاءه وجلافته بطريق لا يبكته[٣] بها ويعرف من نفسه أنه أهل لذلك، فكأنه يقول بلسان الحال: كفاك جفاء أن تجهلنى فتسألنى من أنا، فلما فهم الصحابى ذلك بلطف إدراكه ودقة فهمه فباداه به وقال: كفاك جفاء أن لا تعرف نبيك.

ثم ذكر القشيرى كلام الشبلى أنه قال: غيرة الإلهية على الأنفاس أن تضيع فيما سوى الله، وهذا كلام حسن.

قال القشيرى: والواجب أن يقال: الغيرة غيرتان: غيرة الحق على العبد، وهو أن لا يجعله للخلق فيضن به عليهم، وغيرة العبد للحق، وهو أن لا يجعل شيئًا من أحواله وأنفاسه لغير الحق سبحانه، فلا يقال: أنا أغار على الله ولكن يقال: أنا أغار لله، قال: فإذًا الغيرة على الله جهل، وربما تؤدى إلى ترك الدين.

والغيرة لله توجب تعظيم حقوقه وتصفية الأعمال له، فمن سنة الحق مع أوليائه أنهم إذا ساكنوا غيرًا أو لاحظوا شيئًا أو صالحوا بقلوبهم شيئًا يشوش عليهم ذلك، فيغار على قلوبهم بأن يعيدها خالصة لنفسه فارغة، كآدم عليه السلام لما وطن نفسه على الخلود فى الجنة أخرجه من الجنة، وإبراهيم الخليل عليه السلام لما أعجبه إسماعيل أمره بذبحه حتى أخرجه من قلبه: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾[٤] وصفى سره منه أمره بالفداء عنه.

وقال بعضهم: احذروه فإنه غيور لا يحب أن يرى فى قلب عبده سواه. وقيل: الحق تعالى غيور ومن غيرته أنه لم يجعل إليه طريقًا سواه.

وقال السرى لرجل عارف: بى علة باطنة فما دواؤها ؟ قال: يا سرى، الله غيور لا يراك تساكن غيره فتسقط من عينه. فهذه غيرة صحيحة.

فصل: وههنا أقسام أخر من الغيرة مذمومة منها: غيرة يحمل عليها سوء الظن فيؤذى بها المحب محبوبه ويغرى عليه قلبه بالغضب، وهذه الغيرة يكرهها الله إذا كانت فى غير ريبة، ومنها غيرة تحمله على عقوبة المحبوب بأكثر مما يستحقه كما ذكر عن جماعة أنهم قتلوا محبوبهم. وكان ديك الجن الشاعر له غلام وجارية فى غاية الجمال وكان

---

(١) ترهاتهم: أوهامهم. (٢) جلفًا: غليظًا جافيًا.
(٣) لا يبكته: يوبخه.
(٤) تله للجبين: ألقاه على خده، والآية فى سورة الصافات (١٠٣).

يهواهما جميعًا، فدخل المنزل يومًا فوجد الجارية معانقة للغلام تقبله فشد عليهما فقتلهما، ثم جلس عند رأس الجارية فبكاها طويلاً ثم قال:

يا طلعةً طلع الْحِمامُ [١] عليها ... وجنى لها ثمرَ الردى [٢] بيديها
روّيتُ من دمها الثرى [٣] ولَطالما ... روّى الهوى شفتيّ من شفتيها
وأجلت سيفى فى مَجَالِ خِنَاقها ... ومدامعى تجرى عَلَى خدّيها
فَوَحَقِّ نَعْليها فما وطئ الثرى ... شيء أعزّ علىّ من نعليها
ما كان قَتْلِيها لأنى لم أكن ... أبكى إذا سقط الغبارُ عليها
لكن بخلتُ عَلَى سواى بحسنها ... وأنفْت من نظر الغلام إليها

ثم جلس عند رأس الغلام فبكى وأنشأ يقول:

أشفقتُ أن يَرِدَ الزمانُ بغدره ... أو أُبْتَلَى بعد الوفاء بهجره
قمرٌ أنا استخرجته من دَجْنِهِ [٤] ... بمودّتى وجنيتُه من خِدْره [٥]
فقتلته وله على كرامة ... مِلْءَ الحشا وله الفؤاد بأسره
عهدى به ميتًا كأحسن نائم ... والدّمعُ ينحر مُقلتى فى نحره
لو كان يدرى الْمَيْتُ ماذا بعده ... بالحىّ منه بكى له فى قبره
غُصَصٌ [٦] تكاد تَفيض منها نفسه ... ويكاد يخرج قلبهُ من صدره

فصل: وقد يغار المحب على محبوبه من نفسه، وهذا من أعجب الغيرة وله أسباب:

منها: خشية أن يكون مفتاحًا لغيره كما ذُكر أن الحسن بن هانئ وعلى بن عبد الله الجعفرى اجتمعا فتناشدا فأنشد الحسن:

ولما بدا لى أنها لا تَوَدُّنى ... وأن هواها ليس عنّى بمنجلى
تمنيّت أن تُبلى بغيرى لعلّها ... تذوق حرارات الهوى فترقّ لى

فأنشده علىّ:

ربما سرَّنى صدودُك عنّى ... فى طِلابِيك [٧] وامتناعك منّى
حذَرًا أن أكون مفتاحَ غيرى ... فإذا ما خلوتُ كنت التمنى

---

(١) الحمام: الهلاك والموت.
(٢) ثمر الردى: الهلاك.
(٣) الثرى: التراب.
(٤) دجنه: الدجن: الظلمة.
(٥) خدره: ستر المرأة تختبئ فيه.
(٦) غصص: ما يقف فى حلق الإنسان من الطعام.
(٧) طلابيك: طلبك.

وكان بعضهم يمتنع من وصف محبوبه وذكر محاسنه خشيةَ تعريضه لحبّ غيره له كما قال عليّ بن عيسى الرافقي:

ولست بواصفٍ أبدًا خليلاً — أعرضه لاهواء الرجال
وما بالى أشوّق قلبَ غيري — ودون وصاله سترُ الحجال[1]

وكثير من الجهال وصف امرأته ومحاسنها لغيره، فكان ذلك سبب فراقها له واتصالها به.

فصل: ومنها: أن يحمله فرط الغيرة على أن ينزل نفسه منزلة الأجنبى فيغار على المحبوب من نفسه، ولا ينكر هذا فإن فى المحبة عجائب، وقد قال أبو تمام الطائى:

بنفسى من أغار عليه منى — وأحسد أهْله نظرى إليه
ولو أنى قدَرتُ طمَستُ عنه[2] — عيونَ الناس من حذرى عليه
حبيبٌ بثّ[3] فى جسمى هواه — وأمسك مهجتى رهنًا لديه
فروحى عنده والجسمُ خالٍ — بلا رُوحٍ وقلبى فى يديه

وقال آخر:

يا من إذا ذُكر اسمُه فى مجلسٍ — لذّ الحديث به وطاب المجلس
إنى لمَن نظرى أغار وإننى — بك عن سوَاى من الانام لأنْفَس
نفسى فداؤك ولو رأيت تلددى[4] — خَضِلَ المدامع مطرقًا أتنفّس[5]
لعلمتَ أنى فى هواك مُعذّبٌ — ومن الحياة ورَوْحها مستيئس

وقال عليّ بن نصر:

أفاتك أنت فاتكةٌ بقلبى — وحسنُ الوجه يَفْتُكُ بالقلوب
أصونك عن جميع الناس يا من — بُليت بها فاضحت من نصيبى
وعن نفسى أصونك ليت نفسى — تقيك من الحوادث والخطوب[6]
وما حقُّ الحسان علىَّ إلا — صيانتهن من دَنَس[7] الذنوب

فصل: ومنها: شدة الموافقة للحبيب، والحبيب يكره أن ينسب محبته إليه وأن

---

(١) الحجال: ستر العروس.
(٢) طمست: ازالت ومحت.
(٣) بث: نشر.
(٤) تلددى: تحيرى.
(٥) مطرقًا: لينًا ضعيفًا.
(٦) الخطوب: المصائب.
(٧) دنس: وسخ.

يذكر ذلك، فهو لموافقته لمحبوبه يغار عليه من نفسه كما يسره هجر محبوبه إذا علم أن فيه مراده، قال الشاعر:

سُررتُ بهجرك لما علمـ ـت أن لقلبك فيه سرورا
ولولا سرورُك ما سرَّنى ولا كنتُ يومًا عليه صبورا

فصل: وملاك الغيرة وأعلاها ثلاثة أنواع: غيرة العبد لربه أن تنتهك محارمه وتضيع حدوده، وغيرته على قلبه أن يسكن إلى غيره وأن يأنس بسواه، وغيرته على حرمته أن يتطلع إليها غيره. فالغيرة التى يحبها الله ورسوله دارت على هذه الأنواع الثلاثة، وما عداها فإما من خدع الشيطان، وإما بلوى من الله كغيرة المرأة على زوجها أن يتزوج عليها.

فإن قيل: فمن أى الأنواع تعدون غيرة فاطمة ﷺ ابنة رسول الله ﷺ على علىّ بن أبى طالب ﷺ لما عزم على نكاح ابنة أبى جهل، وغيرة رسول الله ﷺ لها؟ **قيل:** من الغيرة التى يحبها الله ورسوله، وقد أشار إليها النبى ﷺ بأنها بضعة[١] منه وأنه يؤذيه ما آذاها، ويريبه ما أرابها[٢]، ولم يكن يحسن ذلك الاجتماع البتة، فإن بنت رسول الله ﷺ لا يحسن أن تجتمع مع بنت عدوه عند رجل، فإن هذا فى غاية المنافرة، مع أن ذكر النبى ﷺ صهره الذى حدثه فصدقه ووعده فوفى له دليل على أن عليًا ﷺ كان مشروطًا عليه فى العقد إما لفظًا وإما عرفًا وحالاً أن لا يريب فاطمة ولا يؤذيها بل يمسكها بالمعروف، وليس من المعروف أن يضم إليها بنت عدو الله ورسوله ويغيظها بها، ولهذا قال النبى ﷺ: «إلا أن يريد بن أبى طالب أن يطلق ابنتى ويتزوج ابنة أبى جهل»[٣]، والشرط العرفى الحالى كالشرط اللفظى عند كثير من الفقهاء كفقهاء المدينة وأحمد ابن حنبل وأصحابه، رحمهم الله تعالى، على أن رسول الله ﷺ خاف عليها الفتنة فى دينها باجتماعها وبنت عدو الله عنده، فلم تكن غيرته ﷺ لمجرد كراهية الطبع للمشاركة، بل الحامل عليها حرمة الدين. وقد أشار إلى هذا بقوله: «إِنِّى أَخَافُ أَنْ تُفْتَنَ فِى دِينِهَا»[٤]، والله أعلم بالصواب.

---

(١) **بضعة منه**: قطعة منه.

(٢) **أرابها**: أفزعها وأخافها.

(٣) **صحيح**: رواه البخارى (٥٢٣٠) ومسلم (٢٤٤٩) وأحمد (٤/ ٣٢٨) وأبو داود (٢٠٧١) والترمذى (٢٨٦٧) وابن حبان (٦٩٥٥) والبيهقى فى «الكبرى» (٧/ ٣٠٧).

(٤) **صحيح**: رواه البخارى (٣١١٠) ومسلم (٢٤٤٩) وأحمد (٤/ ٣٢٦) وأبو داود (٣٠٦٩) وابن حبان (٦٩٥٦).

الباب الثالث والعشرون:

فى عفاف المحبين مع أحبابهم

قال الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (٣) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (٤) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٥) إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٦) فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ (المؤمنون: ١ - ٧)، ولما أنزلت هذه الآيات على النبى ﷺ قال: «قد أنزلت على عشر آيات من أقامهن دخل الجنة»(١)، ثم قرأ هذه الآيات.

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ إلى قوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٢٩) إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٣٠) فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ (المعارج: ١٩ - ٢١) وقال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٣٠) وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ الآية (النور: ٣٠، ٣١) وقال تعالى: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ (النور: ٣٣) وقال تعالى: ﴿وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (النور: ٦٠) وقال تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ (التحريم: ١٢).

فإن قيل: فقد قال الله تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ (النور: ٣٢)، وقال فى الآية الأخرى: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ فأمرهم بالاستعفاف إلى وقت الغنى، وأمر بتزويج أولئك مع الفقر، وأخبر أنه تعالى يغنيهم، فما محمل كل من الآيتين؟ فالجواب أن قوله: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ فى حق الأحرار، أمرهم الله تعالى أن يستعفوا حتى يغنيهم الله من فضله، فإنهم إن تزوجوا مع الفقر التزموا حقوقًا لم يقدروا عليها وليس لهم من يقوم بها عنهم، وأما قوله: ﴿وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾ فإنه سبحانه أمرهم فيها أن ينكحوا الأيامى وهنَّ النساء اللواتى لا أزواج لهن، هذا هو المشهور من لفظ الأيم عند الإطلاق وإن استعمل فى حق الرجل

---

(١) صحيح: رواه أحمد (١ / ٣٣) والترمذى (٣١٧٣) وصححه الألبانى فى «المشكاة» (٢٤٩٤).

بالتقييد، كما أن العزب عند الإطلاق للرجل وإن استعمل فى حق المرأة. ثم أمرهم سبحانه أن يزوجوا عبيدهم وإماءهم إذا صلحوا للنكاح، فالآية الاولى فى حكم تزوجهم لانفسهم، والثانية فى حكم تزويجهم لغيرهم. وقوله فى هذا القسم: ﴿إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ﴾ يعم الانواع الثلاث التى ذكرت فيه، فإن الأيم تستغنى بنفقة زوجها وكذلك الأمة، وأما العبد فإنه لما كان لا مال له وكان ماله لسيده فهو فقير ما دام رقيقًا فلا يمكن ان يجعل لنكاحه غاية وهى غناه ما دام عبدًا، بل غناه إنما يكون إذا عتق واستغنى بهذا العتق، والحاجة تدعوه إلى النكاح فى الرق، فأمر سبحانه بإنكاحه وأخبر أنه يغنيه من فضله، إما بكسبه وإما بإنفاق سيده عليه وعلى امرأته، فلم يمكن أن ينتظر بنكاحه الغنى الذى ينتظر بنكاح الحر، والله أعلم.

وفى المسند وغيره مرفوعًا: «ثلاثة حق على الله عونهم: المتزوج يريد العفاف، والمكاتب يريد الاداء، وذكر الثالث»[(١)].

فصل: وقد ذكر الله سبحانه وتعالى عن يوسف الصديق ﷺ من العفاف أعظم ما يكون، فإن الداعى الذى اجتمع فى حقه لم يجتمع فى حق غيره، فإنه ﷺ كان شابًا والشباب مركب الشهوة، وكان عزبًا ليس عنده ما يعوضه، وكان غريبًا عن أهله ووطنه. والمقيم بين أهله وأصحابه يستحيى منهم أن يعلموا به فيسقط من عيونهم، فإذا تغرب زال هذا المانع، وكان فى صورة المملوك والعبد لا يأنف مما يأنف منه الحر، وكانت المرأة ذات منصب وجمال والداعى مع ذلك أقوى من داعى من ليس كذلك، وكانت هى المطالبة فيزول بذلك كلفة تعرض الرجل وطلبه وخوفه من عدم الإجابة، وزادت مع الطلب الرغبة التامة والمراودة التى يزول معها ظن الامتحان والاختبار لتعلم عفافه من فجوره، وكانت فى محل سلطانها وبيتها بحيث تعرف وقت الإمكان ومكانه الذى لا تناله العيون، وزادت مع ذلك تغليق الابواب لتأمن هجوم الداخل على بغتة، وأتته بالرغبة والرهبة، ومع هذا كله فعف لله ولم يطعها، وقدم حق الله وحق سيدها على ذلك كله، وهذا أمر لو ابتلى به سواه لم يعلم كيف كانت تكون حاله، فإن قيل: فقد هم بها، قيل: عنه جوابان: أحدهما: أنه لم يهم بها بل لولا أن رأى برهان ربه لهم، هذا قول بعضهم فى تقدير الآية.

---

(١) حسن: رواه أحمد (٢/ ٢٥١) والترمذى (١٦٥٥) والنسائى (٢/ ٣١٥) وابن ماجه (٣٥١٨) والحاكم (٢/ ١٦٠) وحسنه الألبانى فى «غاية المرام» (٢١٠).

والثاني: وهو الصواب أن همه كان هم خطرات فتركه لله فأثابه الله عليه، وهمها كان هم إصرار بذلت معه جهدها فلم تصل إليه فلم يستو الهمان.

قال الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه: الهم همان: هم خطرات وهم إصرار، فهم الخطرات لا يؤاخذ به، وهم الإصرار يؤاخذ به.

فإن قيل: فكيف قال وقت ظهور براءته: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي﴾؟ قيل: هذا قد قاله جماعة من المفسرين وخالفهم في ذلك آخرون أجل منهم وقالوا: إن هذا من قول امرأة العزيز لا من قول يوسف، عليه السلام، والصواب معهم لوجوه:

أحدها: أنه متصل بكلام المرأة وهو قولها: ﴿الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٥١) ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ (٥٢) وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي﴾ (يوسف: ٥١ - ٥٣) ومن جعله من قوله فإنه يحتاج إلى إضمار قول لا دليل عليه في اللفظ بوجه، والقول في مثل هذا لا يحذف لئلا يوقع في اللبس[1]، فإن غايته أن يحتمل الأمرين، فالكلام الأول أولى به قطعاً.

الثاني: أن يوسف عليه السلام لم يكن حاضراً وقت مقالتها هذه، بل كان في السجن لما تكلمت بقولها: ﴿الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ﴾ والسياق صريح في ذلك فإنه لما أرسل الملك إليه يدعوه قال للرسول: ﴿ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ (يوسف: ٥٠) فأرسل إليهن الملك وأحضرهن وسألهن وفيهن امرأته، فشهدن ببراءته ونزاهته في غيبته، ولم يمكنهن إلا قول الحق فقال النسوة: ﴿حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ﴾ (يوسف: ٥١) وقالت امرأة العزيز: ﴿أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (يوسف: ٥١) فإن قيل: لكن قوله: ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ (يوسف: ٥٢) الأحسن أن يكون من كلام يوسف عليه السلام، أي إنما كان تأخيري عن الحضور مع رسوله ليعلم الملك أني لم أخنه في امرأته في حال غيبته وأن الله لا يهدي كيد الخائنين، ثم إنه ﷺ قال: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (يوسف: ٥٣) وهذا من تمام معرفته صلى الله عليه وسلم بربه ونفسه، فإنه لما أظهر براءته ونزاهته مما قذف به، أخبر عن حال نفسه وأنه لايزكيها ولايبرئها، فردّ الأمر إلى الله بعد أن أظهر براءته، قيل: هذا وإن كان قد قاله طائفة فالصواب أنه من تمام كلامها، فإن الضمائر كلها في نسق واحد يدل عليه وهو قول

---

(١) اللبس: خلط الأمور.

النسوة: ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ﴾، وقول امرأة العزيز: ﴿أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٥١)﴾ فهذه خمسة ضمائر بين بارزٍ ومستتر ثم اتصل بها قوله: ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ فهذا هو المذكور أولاً بعينه فلا شئ يفصل الكلام عن نظمه ويضمر فيه قول لا دليل عليه، فإن قيل: فما معنى قولها: ﴿لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ قيل: هذا من تمام الاعتذار، قرنت الاعتذار بالاعتراف فقالت: ﴿ذَلِكَ﴾ أى قولى هذا وإقرارى ببراءته ﴿لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ﴾ بالكذب عليه فى غيبته وإن خنتُه فى وجهه فى أول الأمر، فالآن يعلم أنى لم أخنه فى غيبته، ثم اعتذرت عن نفسها بقولها: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي﴾ ثم ذكرت السبب الذى لأجله لم تبرئ نفسها، وهى أن النفس أمارة بالسوء، فتأمل ما أعجب أمر هذه المرأة ! أقرت بالحق واعتذرت عن محبوبها، ثم اعتذرت عن نفسها، ثم ذكرت السبب الحامل لها على ما فعلت، ثم ختمت ذلك بالطمع فى مغفرة الله ورحمته وأنه إن لم يرحم عبده وإلا فهو عرضة للشر، فوازن بين هذا وبين تقدير كون هذا الكلام كلام يوسف عليه السلام لفظًا ومعنًى، وتأمل ما بين التقديرين من التفاوت، ولا يستبعد أن تقول المرأة هذا وهى على دين الشرك فإن القوم كانوا يقرون بالرب سبحانه وتعالى وبحقه وإن أشركوا معه غيره، ولا تنس قول سيدها لها فى أول الحال: ﴿وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾.

فصل: وفى الصحيح من حديث أبى هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشأ فى عبادة الله، ورجل قلبه معلق بالمساجد، ورجلان تحابا فى الله اجتمعا على ذلك وتفرقا عليه، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إنى أخاف الله رب العالمين، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه»(١).

وفى الصحيح من حديث أبى هريرة وابن عمر ﷺ، عن النبى ﷺ قال: «بينما ثلاثة يمشون إذ أخذتهم السماء فأووا إلى غار فى الجبل فانحطت عليهم صخرة من الجبل فأطبقت عليهم فقال بعضهم لبعض: انظروا أعمالاً صالحة عملتموها فادعوا الله بها، فقال بعضهم: اللهم إنك تعلم أنه كان لى أبوان شيخان كبيران وامرأة وصبيان وكنت أرعى عليهم فإذا رحت عليهم حلبت فبدأت بوالدى أسقيهما قبل بنى وأنه نأى بى الشجر فلم آت حتى أمسيت فوجدتهما قد ناما فحلبت كما كنت أحلب فقمت عند رءوسهما أكره

(١) صحيح: رواه البخارى (١٤٢٣) ومسلم (١٠٣١) وأحمد (٢/ ٣٠٥) والترمذى (٢٣٩١) والنسائى (٨/ ٢٢٢).

أن أوقظهما من نومهما وأن أبدأ بالصبية قبلهما والصبية يتضاغون[١] عند قدمي فلم أزل كذلك حتى طلع الفجر فإن كنت تعلم أنى فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا فرجة نرى منها السماء ففرج الله لهم فرجة، وقال الآخر: اللهم إنه كانت لى ابنة عم فأحببتها كأشد ما يحب الرجال النساء فطلبت إليها نفسها فأبت حتى آتيها بمائة دينار فسعيت حتى جمعت مائة دينار فجئتها بها فلما قعدت بين رجليها قالت: يا عبد الله اتق الله ولا تفض الخاتم إلا بحقه، فقمت عنها وتركت المائة دينار، فإن كنت تعلم أنى فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج لنا من هذه الصخرة ففرج الله لهم فرجة، فقال الآخر: اللهم إنى كنت استأجرت أجيراً بفرق[٢] من أرز فلما قضى عمله قال: أعطنى حقى فأعطيته فأبى أن يأخذه فزرعته ونميته حتى اشتريت له بقراً ورعاءها[٣] فجاءنى بعد حين فقال: يا هذا اتق الله ولا تظلمنى وأعطنى حقى، فقلت: اذهب إلى تلك البقر ورعائها فهو لك، فقال: اتق الله ولا تهزأ بى، فقلت: لا أستهزئ بك فخذ ذلك، فأخذها وذهب فإن كنت تعلم أنى فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما بقى من الصخرة ففرج الله عنهم وخرجوا يمشون»[٤].

وقال عبيد الله بن موسى: حدثنا شيبان بن عبد الرحمن، عن الأعمش، عن عبد الله ابن عبد الله الرازى، عن سعد مولى طلحة، عن ابن عمر ﷺ قال: لقد سمعت من رسول الله ﷺ حديثًا لو لم أسمعه إلا مرة أو مرتين حتى عد سبع مرات ما حدثت به، ولكن سمعته أكثر من ذلك قال: «كان ذو الكفل من بنى إسرائيل لا يتورع من ذنب عمله فأتته امرأة فأعطاها ستين ديناراً على أن يطأها فلما قعد منها مقعد الرجل من المرأة أرعدت وبكت فقال: ما يبكيك أكرهتك؟ قالت: لا ولكن هذا عمل لم أعمله قط! قال: فتفعلين هذا ولم تفعليه قط؟ قالت: حملتنى عليه الحاجة فتركها ثم قال: اذهبى والدنانير لك ثم قال: والله لا يعص الله ذو الكفل أبداً فمات من ليلته فأصبح مكتوبًا على بابه: غفر الله لذى الكفل»[٥]، وفى مسند الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله من حديث عقبة بن عامر الجهنى ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «عجب ربك من الشاب ليست له صبوة»[٦].

---

(١) يتضاغون: يتضورون من شدة الجوع. (٢) فرق: مكيال قديم، يساوى (٣,١٥٦ ك).

(٣) رعاءها: مكان الرعى.

(٤) صحيح: رواه البخارى (٢٣٢٣) ومسلم (٢٧٤٢).

(٥) ضعيف: رواه أحمد (٢/ ٢٣) والترمذى (٢٤٩٦) والحاكم (١/ ٢٥٤) وابن حبان (٢/ ٣٨٧) وضعفه الألبانى فى «ضعيف الجامع» (٤٠٨٣).

(٦) ضعيف: رواه أحمد (٤/ ١٥١) وابن عدى (١٤٦٥، ١٤٦٦) وابن أبى عاصم فى «السنة» (٥٧١) وضعفه الألبانى فى «الضعيفة» (٢٤٢٦).

وذكر المبرد عن أبى كامل، عن إسحاق بن إبراهيم، عن رجاء بن عمرو النخعى، قال: كان بالكوفة فتى جميل الوجه شديد التعبد والاجتهاد فنزل فى جوار قوم من النخع، فنظر إلى جارية منهن جميلة فهويها وهام بها عقله، ونزل بالجارية ما نزل به فارسل يخطبها من أبيها، فأخبره أبوها أنها مسماة(١) لابن عم لها، فلما اشتد عليهما ما يقاسيانه من ألم الهوى أرسلت إليه الجارية: قد بلغنى شدة محبتك لى وقد اشتد بلائى بك، فإن شئت زرتك، وإن شئت سهلت لك أن تأتينى إلى منزلى، فقال للرسول: ولا واحدة من هاتين الخلتين ﴿إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (الأنعام: ١٥) أخاف نارًا لا يخبو(٢) سعيرها، ولا يخمد لهيبها، فلما أبلغها الرسول قوله قالت: وأراه مع هذا يخاف الله ؟ والله ما أحد أحق بهذا من أحد، وإن العباد فيه لمشتركون، ثم انخلعت من الدنيا وألقت علائقها(٣) خلف ظهرها وجعلت تتعبد، وهى مع ذلك تذوب وتنحل حبًّا للفتى وشوقًا إليه حتى ماتت من ذلك، فكان الفتى يأتى قبرها فيبكى عنده ويدعو لها، فغلبته عينه ذات يوم على قبرها فرآها فى منامه فى أحسن منظر فقال: كيف أنت وما لقيت بعدى؟ قالت:

نعمَ المحبة يا سُؤْلى(٤) محبتكم ... حب يقود إلى خير وإحسان

فقال: على ذلك إلامَ صرتِ؟ فقالت:

إلى نعيم وعيش لا زوال له ... فى جنَّة الخُلْد ملك ليس بالفانى

فقال لها: اذكرينى هناك فإنى لست أنساك، فقالت: ولا أنا والله أنساك، ولقد سألت مولاى ومولاك أن يجمع بيننا فأعنى على ذلك بالاجتهاد، فقال لها: متى أراك؟ فقالت: ستأتينا عن قريب فترانا، فلم يعش الفتى بعد الرؤيا إلا سبع ليال حتى مات رحمه الله تعالى.

وذكر الزبير بن بكار أن عبد الرحمن بن أبى عمار نزل مكة وكان من عباد أهلها فسمى القس، من عبادته، فمر يومًا بجارية تغنى فوقف فسمع غناءها فرآها مولاها فأمره أن يدخل عليها فأبى، فقال: فاقعد فى مكان تسمع غناءها ولا تراها، ففعل فأعجبته، فقال له مولاها: هل لك أن أحولها إليك ؟ فامتنع بعض الامتناع ثم أجابه إلى ذلك، فنظر إليها فأعجبته فشغف بها وشغفت به، وعلم بذلك أهل مكة، فقالت له ذات يوم: أنا والله أحبك، فقال: وأنا والله أحبك، قالت: فإنى والله أحب أن أضع فمى على فمك، قال: وأنا والله أحب

(١) مسماة: أى تم خطبتها.
(٢) يخبو: يخمد وينطفئ.
(٣) علائقها: علاقاتها.
(٤) يا سؤلى: يا حاجتى.

ذلك، قالت: فما يمنعك؟ فإن الموضع خال، قال لها: ويحك إنى سمعت الله يقول: ﴿الأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ (الزخرف: ٦٨) فانا والله أكره أن يكون صلة ما بينى وبينك فى الدنيا عداوة فى القيامة، ثم نهض وعيناه تذرفان بالدموع من حبها.

وقال عبد الملك بن قريب[١]: قلت لأعرابى: حدثنى عن ليلتك مع فلانة قال: نعم خلوت بها والقمر يرينيها فلما غاب أرتنيه، قلت: فما كان بينكما؟ قال: أقرب ما أحل الله مما حرم الله: الإشارة بغير ما باس، والدنو بغير إمساس، ولعمرى لئن كانت الأيام طالت بعدها لقد كانت قصيرة معها وحسبك بالحب:

مـا إن دعـانى الهـوى لفـاحـشـة ... إلا نهـانـى الحـيـاء والكـرم
فـلا إلى فـاحش مـددتُ يـدى ... ولا مَـشـتْ بى لريبـة قـدم

وقال آخر:

وَصَـفُـوها فلم أزل علـم اللـ ... ـهُ كئيبًا مُسْتولهًا[٢] مستهاما[٣]
هل عليـها فى نظرة من جناح ... من فـتًى لا يزور إلا لـمـامـا[٤]
حـال فـيـها الإسلامُ دون هواه ... فـهـو يهـوى ويحـفظ الإسلامـا
ويمـيل الهـوى به ثم يخـشـى ... أن يطيع الهـوى فـيلقى أثاما

وقال الحسين بن مُطَيْر:

أحـبُّك يا سلمى على غـيـر ريبـة ... ولا بأس فى حب تعَـفُّ سـرائرُهْ
أحـبُّك حـبـا لا أعنف بعـده ... مـحـبًّا ولكنى إذا ليم عـاذرُهْ
وقـد مـات قلبى أوّل الحب مرَّةً ... ولومتُ أضحى الحبُّ قد مات آخرهْ

وقال محمد بن أبى زُرعة الدمشقى:

إن حظّى ممن أحبّ كفاف[٥] ... لا صـدودٌ مُـقـصٍ ولا إنصافُك
لمـا قلت قـد أنابت إلى الوصـ ... ـل ثناها عـمـا أريد العـفـافُ
فكانـى بين الصـدود وبين الـ ... ـوصل ممن مقـامُـه الأعراف[٦]
فى مـحلٌ بين الجنان وبين النا ... ر أرجـو طَوْرًا وطَوْرًا أخـاف

(١) عبد الملك بن قريب هو: الأصمعى.
(٢) مستولهًا: ولهان.
(٣) مستهامًا: شديد الوجد والحب.
(٤) لمامًا: قليلاً.
(٥) كفاف: ما يسد الرمق.
(٦) الأعراف: سور بين الجنة والنار.

وقال عثمان بن الضحاك الحزامي: خرجت أريد الحج فنزلت بالأبواء، فإذا امرأة جالسة على باب خيمة فأعجبني حسنها فتمثلت بقول نصيب:

بزينبَ أَلْمِمْ(١) قبل أن يرحل الرَّكْبُ وقل إن تَمَلِّينا فــمـا مَلَّكِ القلبُ

فقالت: يا هذا أتعرف قائل هذا الشعر؟ قلت: نعم، نصيب، قالت: فتعرف زينبه؟ قلت: لا، قالت: فأنا زينبه، قلت: حياك الله، قالت: أما إن اليوم موعده من عند أمير المؤمنين، خرج إليه عام أول فوعدني هذا اليوم، لعلك لا تبرح حتى تراه، قال: فبينا أنا كذلك إذا أنا براكب، قالت: ترى ذلك الراكب؟ إني لأحسبه إياه، قال: فأقبل فإذا هو نصيب، فنزل قريبًا من الخيمة ثم أقبل فسلم حتى جلس قريبًا منها يسائلها وتسائله أن ينشدها ما أحدث فأنشدها، فقلت في نفسي: محبان طال التنائي بينهما لا بد أن يكون لأحدهما إلى صاحبه حاجة، فقمت إلى بعيري لأشد عليه، فقال: على رسلك إني معك، فجلست حتى نهض معي فتسايرنا ثم التفت إليَّ فقال: أقلت في نفسك محبان التقيا بعد طول التنائي فلا بد أن يكون لأحدهما إلى صاحبه حاجة؟ قلت: نعم، قد كان ذلك، قال: ورب هذه البنية ما جلست منها مجلسًا هو أقرب من هذا.

وقال عمر بن شبة: حدثنا أبو غسان قال: سمعت بعض المدنيين يقول: كان الرجل يحب الفتاة فيطوف بدارها حولاً يفرح أن يرى من يراها، فإن ظفر منها بمجلس تشاكيًا وتناشدًا الأشعار. واليوم يشير إليها وتشير إليه فيعدها وتعده فإذا التقيا لم يشك حبًّا ولم ينشد شعرًا، وقام إليها كأنه قد أشهد على نكاحها أبا هريرة ﷺ.

وقال محمد بن سيرين: كانوا يعشقون في غير ريبة، وكان الرجل يأتي إلى القوم فيتحدث عندهم لا يستنكر له ذلك. وقال هشام بن حسان: لكن اليوم لا يرضون إلا بالمواقعة.

وقيل لأعرابي: ما تعدون العشق فيكم؟ قال: القبلة والضمة والغمزة، وإذا نُكِح الحب فسد. وقال المبرد: كان العتبيُّ يحب جارية تسمى ملك، فكتب إليها:

يا مَلْك قــــد صــرت إلى خُطَّة رضــيتُ منهــا فــيكِ بالضَّــيْم(٢)

مــا اشــتــملت عــيني عَلَى رَقْــدة مــذ غــبتِ عن عَــيْنى إلى اليــوم

فــبتّ مــفــتــوقَ مَــجــارى البكــا مــعطَّــلَ العــيــن عن النــوم

---

(١) ألمم: انزل عليها.

(٢) الضيم: نقصان الحق.

ووجدى الدهرَ بكم غُلْمَـةٌ(١) فالموتُ من نفسى عَلَى سَوْم(٢)
يلومنى الناس عَلى حبِّكم والناس أولى فيكِ باللوم

قال: فكتبت إليه:

إن تكن الغُلْمَةُ هاجت بكم فعالج الغُلْمَةَ بالصوم
ليس بكَ الحبُّ ولكنّما تدور من هذا عَلَى كَوْم

يقال: كام الفحل يكوم كومًا إذا نزا على الحجرة(٣) وأرادت هذه المعشوقة قول النبى ﷺ: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء»(٤).

وقال أبو الحسن المدائنى: هوى بعض المسلمين جارية بمكة فأرادها فامتنعت عليه، فقال على لسان عطاء بن أبى رباح:

سألت الفتى المكّىَّ هل فى تعانُقٍ وقُبلةِ مُشتاقِ الفؤادِ جُناحُ
فقال معاذَ اللهِ أن يذهبَ التقى تلاصُقُ أكبادٍ بهنَّ جراحُ

فقالت: آللهِ سألتَ عطاءً عن ذلك فقال لك هذا؟ فقال: اللهم نعم، فزارته وجعلت تقول: إياك أن تتعدى ما أفتاك به عطاء.

وقال الزبير بن بكار عن عبد الملك بن عبد العزيز الماجشون قال: أنشدت محمد بن المنكدر قول وضاح اليمن:

فما نوَّلت حتى تضرَّعت حولهَا وأقرأتُها ما رخَّص اللهُ فى اللَّمَم(٥)

فضحك محمد وقال: إن كان وضاح لمفتيًا فى نفسه.

وقال الأصمعى: قيل لأعرابى: ما كنت صانعًا لو ظفرت بمن تهوى؟ قال: كنت أمتع عينى من وجهها، وقلبى من حديثها، وأستر منها ما لا يحبه الله، ولا يرضى كشفه إلا عند حله، قيل: فإن خفت أن لا تجتمعا بعد ذلك؟ قال: أكِلُ قلبى إلى حبها، ولا أصير بقبيح ذلك الفعل إلى نقض عهدها.

قال: وقيل لآخر وقد زوجت عشيقته من ابن عمها وأهلها على إهدائها إليه: أيسرك أن تظفر بها الليلة؟ قال: نعم والذى أمتعنى بها وأشقانى بطلبها، قيل: فما كنت صانعًا؟

---

(١) غلمة: شدة الشهوة وهيجانها. (٢) سوم: محط.
(٣) الحجرة: أنثى الفرس. (٤) تقدم.
(٥) اللمم: صغائر الذنوب.

قال: كنت أطيع الحب فى لثمها، وأعصى الشيطان فى إثمها، ولا أفسد عشق عشر سنين بما يبقى عاره، وتنشر بالقبيح أخباره، فى ساعة تنفد لذاتها، وتبقى تعبتها إنى إذًا للئيم، لم يغذنى أصل كريم.

وقال عباس الدورى: كان بعض أصحابنا يقول: كان سفيان الثورى كثيرًا ما يتمثل بهذين البيتين:

تَفْنى اللَّذاذةُ ممن نال صفوتَها ... من الحرام ويَبقى الوِزْرُ والعارُ
تبقى عواقبُ سوءٍ فى مَغَبَّتِها (١) ... لا خيرَ فى لذَّةٍ من بعدها النارُ

وقال الحسين بن مطير:

ونفسَك أكرِم عن أمورٍ كثيرةٍ ... فما لك نفسٌ بعدها تستعيرُها
ولا تقرَبِ المَرْعى الحرامَ فإنما ... حلاوتُه تفنى ويبقى مَريرُها

وقال الإمام أحمد بن حنبل ﷺ: الفتوة ترك ما تهوى لما تخشى.

وقال الخرائطى: حدثنا إبراهيم بن الجنيد، حدثنا عبد الله بن أبى بكر المقدمى، حدثنا جعفر بن سليمان الضبعى قال: سمعت مالك بن دينار يقول: بينا أنا أطوف إذ أنا بجارية متعبدة متعلقة بأستار الكعبة وهى تقول: يا رب كم من شهوة ذهبت لذتها، وبقيت تبعتها، أيا رب أما لك أدب إلا النار؟ فما زال مقامها حتى طلع الفجر، فلما رأيت ذلك وضعت يدى على رأسى خارجًا أقول: ثكلت مالكًا أمُّه، جويرية منذ الليلة قد بطلته (٢):

وطائفةٍ بالبيت والليلُ مظلمٌ ... تقول ومنها دمعُها يتسجَّمُ (٣)
أيا رب كم من شهوةٍ قد رُزِئْتُها (٤) ... ولذَّة عيشٍ حبلُها متصرِّمُ (٥)
أما كان يكفى للعباد عقوبةٌ ... ولا أدبًا إلا الجحيم المضرَّمُ (٦)
فما زال ذاك القول منها تضرُّعًا ... إلى أن بدا فجرُ الصباح المقدَّمُ
فشبَّكتُ منِّى الكفَّ أَهْتُف خارجًا ... عَلى الرأس ابدى بعضَ ما كنت أكتم
وقلت لنفسى إذ تطاول ما بها ... واعيا عليها وِرْدُها المتغنِّمُ
الا ثكلتك اليوم أمُّك مالكًا ... جُوَيريةٌ ألهاك منها التكلُّم

---

(١) مغبتها: العاقبة.
(٢) بطلته: أفسدته.
(٣) يتسجم: ينسكب.
(٤) رزئتها: مصيبتها.
(٥) متصرم: متهتك.
(٦) المضرم: المتوقد نارًا.

فـما زلت بَطالاً بهـا طـول ليلـة ... تنال بهـا حظًّا جسيمًا وتَغْنَمُ

وقال مخرمة بن عثمان: نبئت أن فتًى من العبَّاد هوى جارية من أهل البصرة فبعث إليها يخطبها فامتنعت وقالت: إن أردت غير ذلك فعلت، فارسل إليها: سبحان الله! أدعوك إلى ما لا إثم فيه وتدعينني إلى ما لا يصلح؟ فقالت: قد أخبرتك بالذى عندى فإن شئت فتقدم، وإن شئت فتأخر، فانشأ يقول:

وَأسألُهَا الحلاَل وتَدْعُ قلبى ... إلى ما لا أريد من الحرام

كداعى آل فرعون إليه ... وهم يدعونه نحو الآثام

فظلّ منعَّمًا فى الخُلْد يسعى ... وظلّوا فى الجحيم وفى السَّقام

فلما علمت أنه قد امتنع من الفاحشة أرسلت إليه: أنا بين يديك عَلَى الذى تحب، فارسل إليها: لا حاجة لنا فيمن دعوناه إلى الطاعة ودعانا إلى المعصية، ثم أنشد:

لا خيرَ فيمن لا يراقب ربَّه ... عند الهوى ويخافه إيمانا

حَجَبَ التُّقَى سُبُلَ الهوى فاخو التقى ... يخشى إذا وافى المَعَاد هوانا

وقال عبد الملك بن مروان لليلى الأخيليّة: بالله هل كان بينك وبين توبة سوء قط؟ قالت: والذى ذهب بنفسه وهو قادر على ذهاب نفسى ما كان بينى وبينه سوء قط، إلا أنه قدم من سفر فصافحته فغمز يدى فظننت أنه يخنع(١) لبعض الأمر فذلك معنى قولى:

وذى حاجة قلنا له لا تَبُح بها ... فليس إليها ما حَيِيت سَبيلُ

لنا صاحبٌ لا ينبغى أن نخونَه ... وأنت لأُخرى صاحبٌ وخليلُ

قالت: لا والذى ذهب بنفسه ما كلمنى بسوء قط حتى فرق بينى وبينه الموت.

وقال ابن أحمر: بينا أنا أطوف بالبيت إذ بصرت بامرأة متبرقعة تطوف بالبيت وهى تقول:

لا يقبل اللهُ من معشوقة عملاً ... يومًا وعاشقُها غضبانُ مهجورُ

ليست بمأجورة فى قتل عاشقها ... لكنّ عاشقَها فى ذاك مأجورُ

فقلت لها: فى هذا الموضع؟ فقالت: إليك عنى لا يعلقك الحب، قلت: وما الحب؟ قالت: جل والله عن أن يخفى، وخفى عن أن يرى، فهو كالنار فى أحجارها، إن حركته أورى(٢)، وإن تركته توارى(٣)، ثم أنشدت تقول:

غِيدٌ أوانسُ مَا هَمَمْنَ بريبةٍ ... كظباء مكةَ صيدُهُنّ حرامُ

---

(١) يخنع: يخضع. (٢) أورى: أشعل. (٣) توارى: احتجب.

يُحْسَبْنَ من لين الحديث أوانسًا ويَصُدُّهُنَّ عن الخَنَا الإسلامُ

وقد روى محمد بن عبد الله الأنصارى، حدثنا عبد الوارث، عن محمد بن جحادة، عن الوليد، عن عبد الرحمن بن عوف ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا صلت المرأة خمسها وصامت شهرها وحفظت فرجها وأطاعت زوجها دخلت الجنة»(١).

وقال هشام بن عمار: حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا أبى، حدثنا ابن لهيعة، عن موسى بن وردان، عن أبى هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «أيما امرأة اتقت ربها وأحصنت فرجها وأطاعت زوجها قيل لها يوم القيامة ادخلى من أى أبواب الجنة شئت»(٢).

وقال الزبير بن بكار: أخبرنى سعيد بن يحيى بن سعيد الأموى، حدثنى أبى أن امرأة لقيت كثير عزة فقالت: تسمع بالمعيدى خير من أن تراه، قال: مه رحمك الله! فأنا الذى أقول:

فإن أكُ معروقَ العظام فإننى إذا ما وزنت القومَ بالقوم أُوزَن

قالت: وكيف تُوزَن بالقوم وأنت لا تُعرف إلا بعزَّة؟ قال: والله لئن قلت ذاك لقد رفع الله بها قدرى، وزيَّن بها شعرى، وإنها لكما قلت:

وما روضةٌ بالحَزْن طاهرةُ الثرى يَمُجّ النَّدى جثجاثها وعَرارُها(٣)
بأطيب من أرْدانِ عزَّةَ مَوْهِنًا وقد أُوقدت بالمَنْدَل الرَّطب نارُها
من الخَفِرات البيضِ لم تلق شِقْوةً وبالحسب المكنون صاف نجارُها
فإن برزت كانت لعينيك قرة وإن غبت عنها لم يَغُمَّكَ عارُها

قالت: أرأيت حين تذكر طيبها فلو أن زنجية تخمرت بالمندل الرطب لطاب ريحها، ألا قلت كما قال امرؤ القيس:

خليليَّ مُرَّا بى عَلَى أمّ جُنْدَب نقضى لبانات(٤) الفؤاد المعذَّب
ألم تريانى كلما جئتُ طارقًا وجدتُ بها طيبًا وإن لم تَطَيَّب؟

---

(١) **صحيح**: رواه أحمد (١/ ١٩١) والبزار (٤٦٣) والطبرانى فى «الأوسط» (٨٨٠٥) وصححه الألبانى فى «آداب الزفاف» (٢١٤).

(٢) **ضعيف**: رواه الطبرانى فى «الأوسط» (٤٥٩٨) وفى سنده ابن لهيعة: سيئ الحفظ، وقد رواه ابن حبان، وصححه الألبانى فى «صحيح الجامع» (٦٦٠) بنحوه.

(٣) عرارها: العرار: نبات طيب الرائحة.

(٤) لبانات: حاجات القلب ومطالبه.

فقال: والله الحق خير ما قيل، هو والله أنعت لصاحبته منى.

ودخلت عزة على عبد الملك بن مروان - وهو لا يعرفها - ترفع مظلمة لها، فلما سمع كلامها تعجب منه، فقال له بعض جلسائه: هذه عزة كثير، فقال لها عبد الملك: إن أردت أن أرد عليك مظلمتك فانشديني ما قال فيك كثير، فاستحيت وقالت: والله ما أعرف كثيراً ولكني سمعتهم يحكون عنه أنه قال فيَّ:

قضى كلُّ ذى دَين فوفى غريمَه ... وعزَّةُ ممطولٌ مُعَنًّى غريمُها

فقال عبد الملك ليس عن هذا أسالك، ولكن أنشديني من قوله:

وقد زعمت أنى تغيَّرت بعدها ... ومن ذا الذى يا عزّ لا يتغيَّرُ

تغيَّر جسمي والخليقةُ كالذى ... عَهِدْتِ ولم يُخبر بسرّك مخبرُ

قالت: ما سمعت هذا ولكن سمعت الناس يحكون عنه أنه قال فيّ:

كأنى أنادى صخرةً حين أعرضت ... من الصُّمِّ لو تمشى بها العُصم زلَّتِ

صفوحٌ(١) فما تلقاك إلا بخيلةً ... فمن ملّ منها ذلك الوصل ملَّتِ

فقضى حاجتها وردَّ مظلمتها وقال: أدخلوها على الجوارى يأخذن من أدبها. وذكرت عنه أنه قال فيها أيضاً:

وما نلت منها محرمًا غير أننى ... أُقبِّل بسامًا من الثغر أفلجا(٢)

وأَلثَم فاهًا تارةً ثم تارةً ... وأترك حاجات النفوس تحرُّجا

وقال الزُّبير بن بكار، عن عباس بن سهل الساعدى قال: بينا أنا بالشام إذ لقينى رجل من أصحابى فقال: هل لكم فى جميل نعوده؟ فدخلنا عليه وهو يجود بنفسه وما يخيل إلى إلا أن الموت يكرثه(٣)، فنظر إليَّ ثم قال: يا بن سهل، ما تقول فى رجل لم يشرب الخمر قط، ولم يزن، ولم يقتل نفسًا؟ يشهد أن لا إله إلا الله؟ قلت: أظنه قد نجا وأرجو له الجنة، فمن هذا الرجل؟ قال: أنا، قلت: والله ما أحسبك سلمت وأنت تشبب(٤) منذ عشرين سنة فى بثينة، فقال: لا نالتنى شفاعة محمد ﷺ يوم القيامة، فإنى فى أول يوم من أيام الآخرة وآخر يوم من أيام الدنيا، إن كنت وضعت يدى عليها لريبة، فما برحنا حتى مات.

---

(١) صفوح: تعطى صفحة وجهها.

(٢) أفلجا: الفروق بين الأسنان.

(٣) يكرثه: الوصول إلى حد مفارقة الحياة.

(٤) تشبب: تغزل.

وقال عوانة بن الحكم: كان عبد المطلب لا يسافر إلا ومعه ابنه الحارث، وكان أكبر ولده، وكان شبيهاً به جمالاً وحُسناً، فاتى اليمن وكان يجالس عظيماً من عظمائهم فقال له: لو أمرت ابنك هذا يجالسنى وينادمنى، ففعل، فعشقت امرأته الحارث، فراسلته فأبى عليها، فألحت عليه، فأخبر بذلك أباه، فلما يئست منه سقته سم شهر(١)، فارتحل به عبد المطلب حتى إذا قدم مكة مات الحارث. وذكرها هشام بن محمد بن السائب الكلبى عن أبيه، وذكر رثاء أبيه له بقصيدته التى فيها:

والحارث الفيَّاض أكرم ماجد ... أيامَ نازعه الهمامُ الكاسا

ولما احتُضِرَ أبو سفيان بن الحارث هذا، وهو ابن عمِّ النبى ﷺ، قال لأهله: لا تبكوا على فإنى لم أتنطف(٢) بخطيئة منذ أسلمت.

ولما قدم عروة بن الزبير على الوليد بن عبد الملك خرجت برجله الآكلة فاجتمع رأى الأطباء على نشرها وأنه إن لم يفعل سرت إلى جسمه فهلك، فلما عزم على ذلك قالوا له: نسقيك مرقداً؟ قال: ولم؟ قالوا: لئلا تحس بما يصنع، قال: لا، بل شأنكم، فنشروا ساقه بالمنشار، فما أزال عضواً من عضوٍ حتى فرغوا منها ثم حسموها(٣)، فلما نظر إليها فى أيديهم تناولها وقال: الحمد لله، أما والذى حملنى عليك إنه ليعلم أنى ما مشيت بك إلى حرام قط.

ولما حضرت عمر بن أبى ربيعة(٤) الوفاة بكى عليه أخوه الحارث، فقال له عمر: يا أخى إن كان أسفك لما سمعت من قولى: قلت لها وقالت لى، فكل مملوك لى حر إن كنت كشفت حراماً قط، فقال الحارث: الحمد لله تعالى طيبت نفسى.

وقال سفيان بن محمد: دخلت يوماً عزة على أم البنين أخت عمر بن عبد العزيز فقالت: يا عزة ما قول كُثَيِّر:

قضى كلُّ ذى دَين فوفى غريمَه ... وعزَّة ممطولٌ(٥) معنًّى(٦) غريمُها؟

ما كان هذا الدين؟ فقالت: كنت وعدته بقبلة فتحرجت منها، فقالت أم البنين:

---

(١) سم شهر: أى يقتل بعد شهر. (٢) أتنطف: أتلطخ.

(٣) حسموها: أى الكى بالنار.

(٤) عمر بن أبى ربيعة: هو الشاعر الماجن أبو الخطاب عمر بن عبد الله بن أبى ربيعة المخزومى القرشى، ولد سنة (٢٣ هـ) وتوفى سنة (٩٣ هـ).

(٥) ممطول: مماطل.

(٦) معنى: حزين.

انجزيها وعليّ إثمها، قالت: فاعتقت أم البنين بكلمتها هذه أربعين رقبةً، وكانت إذا ذكرتها بكت وقالت: ليتني خرست ولم أتكلم بها.

ولما احتضر ذو الرمة(١) قال: لقد هممت بمى عشرين سنة فى غير ريبة ولا فساد.

وكان الحارث بن خالد بن هشام المخزومى عاشقًا لعائشة بنت طلحة وله فيها أشعار أفرد لها ابن المرزبان كتابًا، فلما قُتل عنها مصعب بن الزبير قيل للحارث: ما يمنعك الآن منها؟ قال: والله لا يتحدّث رجالات قريش أن تشبيبى بها كان لريبة ولشىء من الباطل.

وقال ابن علاثة(٢): دخلت على رجل من الأعراب خيمته وهو يئن فقلت: ما شأنك؟ قال: عاشق، فقلت له: ممن الرجل؟ قال: من قوم إذا عشقوا ماتوا عفةً، فجعلت أعذله(٣) وأزهده فيما هو فيه، فتنفس الصعداء ثم قال:

ليس لى مسعدٌ فأشكو إليه ... إنما يسعدُ الحزينَ الحزينُ

وقال سعيد بن عقبة لأعرابى: ممن الرجل؟ قال: من قوم إذا عشقوا ماتوا، قال: عذرى ورب الكعبة، فقلت له: ومم ذاك ؟ قال: فى نسائنا صباحة، وفى رجالنا عفة.

وقال سفيان بن زياد: قلت لامرأة من عذرة ورأيت بها هوى غالبًا خفت عليها الموت منه: ما بال العشق يقتلكم معاشر عذرة من بين أحياء العرب؟ فقالت: فينا جمال وتعفف والجمال يحملنا على العفاف، والعفاف يورثنا رقة القلوب، والعشق يفنى آجالنا، وإنا نرى عيونًا لا ترونها.

وقال أبو عبيدة معمر بن المثنى: قال رجل من بنى فزارة لرجل من بنى عذرة: ما يعد موتكم من الحب مزية، وإنما ذاك من ضعف البنية ووهن العقل وضيق الرئة، فقال له العذرى: أما لو رأيتم المحاجر البلج(٤)، ترشق بالأعين الدعج(٥)، من فوقها الحواجب الزج(٦)، والشفاه السمر، تفتر عن الثنايا الغر، كأنها نظم الدر، لجعلتموها اللات والعزى ونبذتم الإسلام وراء ظهوركم.

---

(١) حضرته: الوفاة.

(٢) ابن علاثة: هو أبو اليسير محمد بن عبد الله بن علاثة الجزرى، توفى سنة (١٦٨ هـ).

(٣) أعذله: أى الومه.

(٤) البلج: تباعد ما بين الحاجبين ونقاؤه من الشعر.

(٥) الدعج: شدة سواد العين مع شدة البياض.

(٦) الزج: دقة الحاجبين مع طول.

وقال بشر بن الوليد: سمعت أبا يوسف يقول في مرضه الذى مات فيه: اللهم إنك تعلم أنى لم أطأ فرجًا حرامًا قط وأنا أعلم، ولم آكل درهمًا حرامًا قط، وأنا أعلم.

وقال إسماعيل بن إسحاق القاضي: دخلت على المعتضد وعلى رأسه غلمان صباح الوجوه أحداث، فنظرت إليهم فرآنى المعتضد وأنا أتأملهم، فلما أردت القيام أشار إلىَّ، فمكثت ساعة فلما خلا قال لى: أيها القاضى، والله ما حللت سراويلى على حرام قط.

وقال اليـزيدى: جلس محمد بن منصور بن بسام وعلى رأسه عدة خدم لم ير قط أحسن منهم، ما منهم من ثمنه ألف دينار بل أكثر، فجعل الناس ينظرون إليهم فقال محمد: هم أحرار لوجه الله إن كان الله كتب علىّ ذنبًا مع واحد منهم، فمن عرف خلاف ذلك منهم فليمض فإنه قد عتق وهو فى حل مما يأخذ من مالى.

وقال إبراهيم بن أبى بكر بن عياش: شهدت أبى عند الموت فبكيت فقال: ما يبكيك؟ فما أتى أبوك فاحشةً قط.

وقال عمر بن حفص بن غياث: لما حضرت أبى الوفاة أُغمى عليه فبكيت عند رأسه، فقال لى حين أفاق: ما يبكيك؟ قلت: أبكى لفراقك ولما دخلت فيه من هذا الأمر - يعنى القضاء قال: لا تبك، فإنى ما حللت سراويلى على حرام قط، ولا جلس بين يدى خصمان فباليت على من توجه الحكم منهما.

وقال سفيان بن أحمد المصيصى: شهدت الهيثم بن جميل وهو يموت وقد سجى(١) نحو القبلة، فقامت جاريته تغمز رجليه فقال: اغمزيهما فإن الله يعلم أنهما ما مشتا إلى حرام قط.

وقال محمد بن إسحاق: نزل السرى بن دينار فى درب بمصر وكانت فيه امرأة جميلة فتنت الناس بجمالها، فعلمت به المرأة فقالت: لأفتننه، فلما دخلت من باب الدار تكشفت وأظهرت نفسها، فقال: ما لك؟ فقالت: هل لك فى فراش وطى وعيش رخى؟ فأقبل عليها وهو يقول:

وكم ذى معاصٍ نال منهنَّ لذَّةً ... ومات فخلاها وذاق الدواهيا
تَصَرَّمُ(٢) لذَّاتُ المعاصى وتنقضى ... وتبقى تِبَاعاتُ(٣) المعاصى كما هيا
فيا سَوْأتا واللهُ راءٍ وسامعٌ ... لعبدٍ بعين الله يَغْشى المعاصيا

(١) سجى: غطى.
(٢) تصرم: انقطع وزال.
(٣) تباعات: ظلامات.

وقال عمر بن بكير: قال أعرابي: علقتُ امرأةً كنت آتيها فأحدّثها سنين وما جرت بيننا ريبة قط، إلا أني رأيت بياض كفها في ليلة ظلماء فوضعت يدي على يدها، فقالت: مه[1]، لا تفسد ما بيني وبينك، فإنه ما نكح حب قط إلا فسد. قال: فقمت وقد تصببت عرقًا حياء منها ولم أعد إلى شيء من ذلك.

وذكر أبو الفرج وغيره أن امرأة جميلة كانت بمكة، وكان لها زوج، فنظرت يومًا إلى وجهها في المرآة فقالت لزوجها: أترى أحداً يرى هذا الوجه ولا يفتتن به؟ قال: نعم، قالت: من؟ قال: عبيد بن عمير، قالت: فَأْذَنْ لي فيه فلأفتننه، قال: قد أذنت لك، قال: فأتته كالمستفتية، فخلا معها في ناحية من المسجد الحرام فأسفرت عن وجه مثل فلقة القمر، فقال لها: يا أمة الله استتري، فقالت: إني قد فُتنت بك، قال: إني سائلك عن شيء فإن أنت صدقتني نظرت في أمرك، قالت: لا تسألني عن شيء إلا صدقتك قال: أخبريني لو أن ملك الموت أتاك ليقبض روحك، أكان يسرك أن أقضي لك هذه الحاجة؟ قالت: اللهم لا، قال: صدقت، قال: لو دخلت قبرك وأُجلست للمساءلة، أكان يسرك أني قضيتها لك؟ قالت: اللهم لا، قال: صدقت، قال: فلو أن الناس أُعطوا كتبهم ولا تدرين أتأخذين كتابك بيمينك أم بشمالك أكان يسرك أني قضيتها لك؟ قالت: اللهم لا، قال: صدقت، قال: فلو أردت الممر على الصراط ولا تدرين هل تنجين أو لا تنجين أكان يسرك أني قضيتها لك؟ قالت: اللهم لا، قال: صدقت، قال: فلو جيء بالميزان وجيء بك فلا تدرين أيخف ميزانك أم يثقل أكان يسرك أني قضيتها لك؟ قالت: اللهم لا، قال: فلو وقفت بين يدي الله للمساءلة أكان يسرك أني قضيتها لك؟ قالت: اللهم لا، قال: صدقت، قال: اتقي الله، فقد أنعم الله عليك وأحسن إليك، قال: فرجعت إلى زوجها فقال: ما صنعت؟ قالت: أنت بطال ونحن بطالون، فأقبلت على الصلاة والصوم والعبادة، فكان زوجها يقول: ما لي ولعبيد بن عمير أفسد عليَّ امرأتي، كانت في كل ليلة عروسًا فصيرها راهبة.

وقال سعيد بن عبد الله بن راشد: علقت فتاةٌ من العرب فتى من قومها، وكان عاقلاً، فجعلت تكثر التردد إليه، فلما طال عليها ذلك مرضت وتغيرت واحتالت في أن خلا لها وجهه، فتعرضت إليه ببعض الأمر فصرفها ودفعها عنه فتزايد المرض حتى سقطت على الفراش، فقالت له أمه: إن فلانة قد مرضت ولها علينا حق، قال: فعوديها وقولي لها: يقول

---

(١) مه: اسكت.

لك ما خبرك؟ فسارت إليها أمه وسألتها ما بك؟ قالت: وجع في فؤادي هو أصل علتي، قالت: فإن ابني يسألك عن علتك، فتنفست الصعداء ثم قالت:

يسـائلني عن علَّتي وهو علَّتي	عجيبٌ من الأنباء جاء به الخبر

فانصرفت إليه أمه وأخبرته وقالت له: تريد أن تصير إليك؟ فقال: نعم، فذكرت أمه لها ذلك فبكت وقالت:

ويبعـدني عن قربهُ ولقـائـه	فلما أذاب الجسمَ منيّ تعطَّفا
فلست بآتٍ موضعًا فيه قاتلي	كفاني سَقامًا أن أموت تلهفًا

وتزايدت بها العلَّة حتى ماتت.

وأحب رجل من أهل الكوفة يسمى أبا الشعثاء امرأة جميلة، فلما علمت به كتبت إليه وقالت:

لأبي الشعثـاء حبٌّ دائمٌ	ليس فيه تهمةٌ لمُتَّهَمْ
يا فؤادي فازدجر[1] عنه ويا	عَبَثَ الحبّ به فاقصد وقُمْ
جاءني منه كلامٌ صائدٌ	ورسالاتُ المحبين الكلِمْ
صائد يأمنه غزلانهُ	مثل ما يأمن غزلانُ الحَرَمْ
صلِّ إن أحببت أن تُعْطى المنى	يا أبا الشعثاء لله وصمْ
ثم ميعادُك بعد الموت في	جنة الخلد إن اللهَ رَحِمْ

وقال الأصمعي عن أبي سفيان بن العلاء قال: بصرت الثريا بعمر بن أبي ربيعة وهو يطوف حول البيت، فتنكرت وفي كفها خلوق[2] فزحمته فاثر الخلوق في ثوبه: فجعل الناس يقولون: يا أبا الخطاب ما هذا زي المحرم فانشأ يقول:

أدخل الله ربُّ موسى وعيسى	جنةَ الخلد مَن ملاني خَلُوقا
مسحت كفها بجيب قميصي	حين طُفنا بالبيت مسحًا رفيقا

فقال له عبد الله بن عمر: مثل هذا القول في هذا الموضع؟ فقال له: يا أبا عبد الرحمن قد سمعت مني ما قد سمعت، فورب هذه البنية ما حللت إزاري على حرام قط.

وقيل لليلى الأخيلية: هل كان بينك وبين توبة ما يكرهه الله؟ قالت: إذًا أكون منسلخة من ديني إن كنت ارتكبت عظيمًا ثم اتبعه بالكذب.

---

(١) ازدجر: ارتدع.

(٢) خلوق: طيب من الزعفران وغيره.

وقال العتبى: خرجت إلى المربد فإذا بأعرابى غزل فملت إليه فذكرت النساء فتنفس ثم قال: يا بن أخى، إن من كلامهن لما يقوم مقام الماء فيشفى من الظمأ. فقلت: صف لى نساءكم، فقال: نساء الحى تريد؟ قلت: نعم فانشد يقول:

رُجْحٌ[1] وَلَسْنَ من اللواتى بالضحى ... لذيولهنَّ عَلَى الطريق غبار

يأنسَ عند بعولهن إذا خَلَوْا ... وإذا همُ خرجوا فهن خِفارُ[2]

قال العتبى: فاخبرت به أبى قال: تدرى من أين أخذ قوله: وإن من كلامهن ما يقوم مقام الماء فيشفى من الظمأ؟ قلت: لا، قال: من قول القطامى:

يَقْتُلْنَنا بحديثٍ ليس يعلمه ... من يتّقينَ ولا مكنونُه بادى

فهنَّ يُبدين من قول يُصِبْنَ ... مواقع الماء من ذى الغُلَّة الصادى[3]

وهذه الطائفةُ لعفتهم أسباب أقواها إجلال الجبار، ثم الرغبة فى الحور الحسان فى دار القرار، فإن من صرف استمتاعه فى هذه الدار إلى ما حرم الله عليه منعه من الاستمتاع بالحور الحسان هناك، قال ﷺ: «من يلبس الحرير فى الدنيا لم يلبسه فى الآخرة»[4]، و«من شرب الخمر فى الدنيا لم يشربها فى الآخرة»[5]، فلا يجمع الله للعبد لذة شرب الخمر ولبس الحرير والتمتع بما حرم الله عليه من النساء والصبيان ولذة التمتع بذلك فى الآخرة، فليتخير العبد لنفسه إحدى اللذتين، وليطب نفسًا عن إحداهما بالأخرى؛ فلن يجعل الله من أذهب طيباته فى حياته الدنيا واستمتع بها كمن صام عنها ليوم فطره من الدنيا إذا لقى الله. ودون ذلك مرتبة أن يتركها خوف النار فقط، فإن تركها رغبة ومحبة أفضل من تركها لمجرد خوف العقوبة.

ثم أدنى من ذلك أن يحمله عليها خوف العار والشنار[6]، ومنهم من يحمله على العفة الإبقاء على محبته خشية ذهابها بالوصال، ومنهم من يحمله عليها عفة محبوبه ونزاهته، ومنهم من يحمله عليها الحياء منه والاحتشامُ له وعظمته فى صدره ومنهم من يحمله عليها الرغبة فى جميل الذكر وحسن الأحدوثة، ومنهم من يحمله عليها الإبقاء

---

(١) رجح: رزينة. (٢) خفار: شديدات الحياء.

(٣) الصادى: شدة العطش.

(٤) صحيح: رواه البخارى (٥٨٣٢) ومسلم (٢٠٧٣) وابن ماجه (٣٥٨٨).

(٥) صحيح: رواه البخارى (٥٥٧٥) ومسلم (٢٠٠٣) وأبو داود (٣٦٧٩) والترمذى (١٨٦١) والنسائى (٨/ ٣١٨) وابن ماجه (٣٣٧٣).

(٦) الشنار: الخزى والعار.

على جاهه ومروءته وقدره عند محبوبه وعند الناس، ومنهم من يحمله عليها كرم طبعه وشرف نفسه وعلو همته، ومنهم من يحمله عليها لذة الظفر بالعفة فإن للعفة لذة أعظم من لذة قضاء الوطر[١]، لكنها لذة يتقدمها ألم حبس النفس ثم تعقبها اللذة، وأما قضاء الوطر فبالضد من ذلك، ومنهم من يحمله عليها علمه بما تعقبه اللذة المحرمة من المضارّ والمفاسد، وجمع الفجور خلال الشر كلها، كما ستقف عليه في الباب الذى يلي هذا إن شاء الله تعالى.

فصل: ولم يزل الناس يفتخرون بالعفة قديمًا وحديثًا، قال إبراهيم بن هرمة:

ولربّ لـذّةِ ليلـة قـد نلتـهـا ... وحرامُـهـا بحلالـهـا مـدفـوعُ

وقال غيره:

إذا ما هممنا صدّنا وازعُ التقى ... فولى عَلَى أعقابه الهمُّ خاسئا

وقال آخر:

أتأذنـون لصـبٌّ فى زيارتكـم ... فعندكم شهواتُ السمع والبصر

لا يُضمـرُ السوءَ إن طالت إقامته ... عفُّ الضميرِ ولكن فاسقُ النظر

وقال مسلم بن الوليد[٢]:

الا ربّ يوم صادقِ العيش نلته ... بها وندامای العفافةُ[٣] والنُّهى[٤]

وقال آخر:

إن تَرَيْنى زانىَ العيـ ... ـنين فالفرجُ عفيفُ

ليس إلا النظرُ الفا ... تر والشعرُ الظريفُ

وقال الموسوى[٥]:

بتنا ضجيعَين فى ثوبَىْ هَوًى وتُقًى ... يَلُفُّنا الشوقُ من فَرْق[٦] إلى قدمِ

يَشِي بنا الطيبُ أحيانًا وآونةً ... يُضيئنا البرقُ مجتازاً عَلَى إضم[٧]

---

(١) قضاء الوطر: قضاء الحاجة، وهو كناية عن الجماع.

(٢) مسلم بن الوليد، هو: مسلم بن الوليد الأنصارى البغدادى، كان شاعراً مفوهًا، مات فى خلافة الرشيد.

(٣) العفافة: العفة. (٤) النهى: العقول.

(٥) الموسوى: هو ابو الحسن محمد بن الطاهر ابى احمد الحسينى الموسوى البغدادى، كان شاعراً، وكان علويًا شيعيًا طالبيًا، توفى سنة (٤٠٦ هـ).

(٦) فرق: الرأس. (٧) إضم: اسم لجبل.

ثم انثنينا وقد رابت[١] ظواهرنا ... وفى بواطننا بعدٌ عن التُّهَم

وقال نفطويه[٢]:

كم قد خلوتُ بمن أهوى فيمنعنى ... منه الحياءُ وخوفُ الله والحذرُ

أظفرت بمن أهوى فيقنعنى ... منه الفُكاهة والتجميش[٣] والنظرُ

هوى الحسان وأهوى أن أُجالسهم ... وليس لى فى حرامٍ منهمُ وطرُ

كذلك الحبُّ لا إتيانُ معصيةٍ ... لا خيرَ فى لذَّةٍ من بعدها سَقَرُ

وقال الشهاب محمود بن سليمان صاحب ديوان الإنشاء (الحلبى):

لله وقفة عاشقَيْن تلاقيا ... من بعد طول نَوًى وبُعْدِ مَزار

يتعاطيان من الغرام مُدامةً ... زادتهما بعداً من الأوزار

صدقا الغرامَ فلم يَمِلْ طَرْفٌ إلى ... فُحْشٍ ولا كفٌّ لحلِّ إزار

فتلاقيا وتفرّقا وكلاهما ... لم يَخْشَ مَطْعَنَ عائبٍ أو زار[٤]

وقيل لبثينة: هذا جميل لما به فهل عندك من حيلة تنفسين بها وجده؟ فقالت ما عندى أكثر من البكاء إلى أن ألقاه فى الدار الآخرى، أو زيارته وهو ميت تحت الثرى.

وقيل لعتبة بعد موت عاشقها: ما كان يضرك لو أمتعتيه بوجهك؟ قالت: منعنى من ذلك خوف العار، وشماتة الجار، ومخافة الجبار. وإن بقلبى اضعاف ما بقلبه غير أنى أجد ستره أبقى للمودة، وأحمد للعاقبة، وأطوع للرب، وأخف للذنب.

وهوى فتى امرأة وهوته وشاع خبرهما فاجتمعا يومًا خاليين فقال لها: هلمى نحقق ما يقال فينا فقالت: لا والله لا كان هذا أبداً وأنا أقرأ: ﴿**الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ**﴾ (الزخرف: ٦٧).

وقيل لبعضهم، وقد هوى جارية فطال عشقه بها: ما أنت صانع لو ظفرت بها ولا يراكما إلا الله؟ قال: والله لا جعلته أهون الناظرين إلىَّ، لا أفعل بها خاليًا إلا ما أفعله بحضرة أهلها، حنين طويل، ولحظ من بعيد، وأترك ما يسخط الرب، ويفسد الحب:

---

(١) رابت: من الريب وهو: الشك.

(٢) نفطويه: هو أبو عبد الله بن محمد بن عرفة الأزدى الواسطى، المعروف بنفطويه، ولد سنة (٢٤٤هـ) ومات سنة (٣٢٣ هـ).

(٣) التجميش: المغازلة بصوت منخفض.

(٤) زار: أى عاتب.

إذا كان حظُّ المرءِ ممن يحبه ... حرامًا فحظى ما يَحِلُّ ويَجْمُل

حديثٌ كماء المُزْن بين فصوله ... عتابٌ به حسنُ الحديث يُفَصَّل

وَلَثْم فَمٍ عذبِ اللثَات كأنما ... جناهن شهدٌ فُتَّ فيه القَرَنْفَل

وما العشقُ إلا عفةٌ ونزاهةٌ ... وأُنسُ قلوبٍ أُنْسُهُنّ التغزُّل

وإنى لأَستحى الحبيبَ من التى ... تَريب وأُدْعى للجميل فأُجمل

وقال آخر:

وإنى لمشتاقٌ إلى كل غايةٍ ... من المجد يكبو دونها المتطاول

بذولٌ لمالى حين يبخل ذو النُّهى ... عفيف عن الفحشاء قَرمٌ حلاحل (١)

وما ألطف قوله: حين يبخل ذو النهى فإن ذا النهى لا يبخل إلا فى موضع البخل، فأخبر هذا أنه يبذل ماله حين يبخل به ربه فى موضع البخل.

وقال عامر بن حذافة: رأيت بصحار (٢) جارية قد ألصقت خدها بقبر وهى تبكى وتقول:

خدى يَقيك خشونةَ اللحد ... وأقلُّ ما لك سيِّدى خدِّى

يا ساكن التُّرْب الذى بوفاته ... عَمِيَتْ علىّ مسالكُ الرشدِ

اسمع فديتُك قصَّتى فلعلَّنى ... أَشفى بذلك غُلّةَ الوجدِ

قال: فسألتها عن صاحب القبر، فقالت: فتًى رافقته فى الصبا، ثم أنشأت تقول:

كنا كزوج حمائمٍ فى أيكةٍ (٣) ... متنعمين بصحَّةٍ وشبابِ

فغدا الزمان مشتّتًا بفراقه ... إن الزمان مفرّقُ الأحبابِ

قال: فبكيت لرقة شعرها فأنشأت تقول:

تبكى عليه ولستَ تَعرف أمرَه ... فلأعلمنك حالَه ببيانِ

ما كان للعافين (٤) غيرُ نواله ... فإذا استُجير ففارس الفرسانِ

لا يُتْبِعُ الجيرانَ رفةَ طرفه ... ويتابع الإحسان للجيرانِ

عفٌّ السريرةِ والجَهِيرَةُ مثلُها ... فإذا استُضِيم (٥) أراك فَتْقَ طعانِ

---

(١) قرم حلاحل: القرم: السيد، والحلاحل: السيد فى قومه.

(٢) صحار: بلدة فى سلطنة عمان.

(٣) أيكه: الشجر الكثير الملتف.

(٤) العافين: طالبين للعفو.

(٥) استضيم: هضم حقه.

فقلت: أعلمينى من هو؟ قالت: سنان بن وبرة الذى يقول فيه الشاعر:

يا رائداً غيثاً لَنجْعَة قومه ... يكفيك من غيثٍ نوالُ سنان

ثم قالت: يا هذا والله لولا أنك غريب ما متعك من حديثى، قلت: فكيف كان حبه لك؟ قالت: ما كان يوسّدنى إذا نمت إلا يدَه، فمكثت معه أربعة أحوال[١] ما توسدت غيرها إلا فى حال يمنعه مانع.

وقال سعيد بن يحيى الأموى: حدثنى عمى محمد بن سعيد، حدثنا عبد الملك بن عمير قال: كان أخوان من ثقيف من بنى كُنَّةَ بينهما من التحاب شىء لا يعلمه إلا الله، وكل واحد منهما أخوه عنده عدل[٢] نفسه، فخرج الأكبر منهما إلى سفر له وله امرأة فاوصى أخاه بحاجة أهله، فبينا المقيم فى دار الظاعن إذ مرت امرأة أخيه فى درع تجوز من بيت إلى بيت، وكانت من أجمل البشر، فرأى شيئًا حيره، فلما رأته ولت ووضعت يدها على رأسها ودخلت بيتًا، ووقع حبها فى قلبه، فجعل يذوب وينحل جسمه ويتغير لونه. وقدم أخوه فقال: ما لك يا أخى متغيراً، ما وجعك ؟ قال: ما بى من وجع، فدعا له الأطباء فلم يقف أحد على دائه غير الحارث بن كلدة[٣] وكان طبيبًا فقال: أرى عينين صحيحتين وما أدرى ما هذا الوجع، وما أظنه إلا عاشقًا، فقال له أخوه: سبحان الله، أسألك عن وجع أخى وأنت تستهزئ بى، فقال: ما فعلت، وسأسقيه شرابًا عندى فإن كان عاشقًا فسيتبين لكم، فأتاه بشراب فجعل يسقيه قليلاً قليلاً، فلما أخذه الشراب هاج وقال:

ألِمَّا بى على الأبيا ... ت من خيفٍ نزورْهُنَّه

غزالٌ ما رأيت اليو ... م فى دُور بنى كُنَّهْ

أسيلُ الخدّ[٤] مربوب[٥] ... وفى منطقه غُنَّهْ

فقال: أنت طبيب العرب، فبمن؟ قال: سأعيد له الشراب ولعله يسمى، فأعاد له الشراب فسمى المرأة، فطلقها أخوه ليتزوجها فقال المريض: علىّ كذا وكذا إن تزوجتها، فقضى ولم يتزوجها.

وقال على بن المبارك السراج: حدثنا أبو مسهر، عن بكر بن عبد الله قال: عرض

---

(١) أحوال: أعوام وسنين.

(٢) عدل: شبيه ونظير.

(٣) هو طبيب العرب، الحارث بن كلدة بن عمرو الثقفى، قيل: له صحبة، توفى وأبو بكر الصديق فى ليلة واحدة.

(٤) أسيل الخد: لين الخد.

(٥) مربوب: ذو جسم جميل.

الحجاج بن يوسف سجنه يومًا فأُتى برجل فقال: ما كان جُرمك؟ فقال: أصلح الله الأمير أخذنى العسس[١] وأنا مخبرك بخبرى، فإن كان الكذب ينجي فالصدق أولى بالنجاة، قال: وما قصتك؟ قال: كنت أخًا لفلان فضرب الأمير عليه البعث إلى خراسان، فكانت امرأته تهوانى وأنا لا أشعر، فبعثت إلىّ ذات يوم رسولاً أن قد جاء كتاب صاحبك فهلم لتقرأه، فمضيت إليها فجعلت تشغلنى بالحديث حتى صلينا المغرب، ثم أظهرت لى ما فى نفسها منى ودعتنى إلى السوء، فأبيت ذلك فقالت: والله لئن لم تفعل لأصيحن ولأقولن إنك لص، فخفتها والله أيها الأمير على نفسى فقلت: أمهلينى حتى الليل، فلما صليت العتمة[٢] وثقت بشدة حرس الأمير فخرجت من عندها هاربًا، وكان القتل أيسر على من خيانة أخى. فلقينى عسس الأمير فأخذونى، وقد قلت فى ذلك شعرًا، قال: وما قلت؟ فقال:

ربّ بيضاءَ آنسٍ[٣] ذات دَلٍّ ... قد دعتنى لوصلها فأبيتُ
لم يكن شأنىَ العفاف ولكن ... كنت خِلا لزوجها فاستحَيْتُ

فأمر بإطلاقه.

وقال الربيع بن زياد: رأيت جاريةً عند قبرٍ وهى تقول:

بنفسى فتى أوفى البرية كلها ... وأقواهُم فى الموت صبرًا على الحب

فقلت لها: بم صار أوفاهم وأقواهم؟ قالت: هَوِيَنى، فكان أهلى إن جاهر بحبِّى لاموه، وإن كتمه عنفوه، فلما أخذه الأمر قال:

يقولون إن جاهرتُ قد عضك الهوى ... وإن لم أَبُحْ بالحبّ قالوا تصبرا
وليس لمن يهوى ويكتُم حبَّه ... من الأمر إلا أن يموتَ فيُعذرا

ولم يزل يردد هذين البيتين حتى مات، فوالله يا هذا لا أبرح أو يتصل قبرانا، ثم شهقت شهقة فصاح النساء وقلن: قضت، والذى اختار لها الوفاةَ فما رأيت أُسرعَ ولا أوْحى من أمرها.

قال ابن الدّمينة[٤]:

وبتنا فُوَيْقَ الحىّ لا نحن منهمُ ... ولا نحن بالأعداء مختلطان

---

(١) **العسس**: شرطة الليل. (٢) **العتمة**: العشاء.
(٣) **آنس**: الجارية التى تؤنس.
(٤) **ابن الدمينة**: هو عبيد الله بن عبد الله الخثعمى، أحد الشعراء الكبار.

وبات بقـــينا ســـاقطَ الطل والندى　　من الليل بُـرْدا يُـمْنَـةٍ[١] عَـطِـران
نذود بذكـر الله عنا غـوى الصـبـا　　إذا كـــان قلبــــانـــا له يَـردان
ونصــدر[٢] عن رِى العفـاف وربما　　نقـعنا غليل الحبّ بالرَّشَـفـان

قـال أبو الفـرج: وشت جارية بثينة بها إلى أبيها وأخيها وقالت لهما: إن جميلاً عندها، فأتيا مشتملين على سيفيهما فرأياه خاليًا حجرة منها يحدثها ويشكو إليها بثه[٣] ثم قال لها: يا بثينة أرأيت ما بى من الشغف والعشق ألا تجزينيه؟ قالت له: بماذا؟ قال: بما يكون من المتحابين، فقالت له: يا جميل أهذا تبغى؟ والله لقد كنت عندى بعيداً منه، فإذا عاودت تعريضاً بريبة لا رأيت وجهى أبداً، فضحك وقال: والله ما قلت لك هذا إلا لأعلم ما عندك، ولو علمت أنك تجيبننى إليه لعلمت أنك تجيبين غيرى، ولو رأيت منك مساعدة لضربتك بسيفى هذا ما استمسك فى يدى إن طاوعتنى نفسى، أو هجرتك أبداً، أما سمعت قولى:

وإنّى لأرضى من بُثَـيْـنَة بالذى　　لوَ أبصـره الواشى لقـرت بلابلُه[٤]
بلا وبأن لا أستطيع وبالمنى　　وبالأمل المـرجـوّ قـد خـاب آملُهْ
وبالنظرة العَجْلى وبالحول تنقضى　　أواخـرُه لا نلتقـى أوائـلُه؟

فقال أبوها لأخيها: قم بنا فما ينبغى لنا بعد هذا اليوم أن نمنع هذا الرجل من إتيانها.

(١) بردا يمنة: أى أثوابًا يمنية.
(٢) فصدر: ضد نرد، ومعناها: نعود.
(٣) بثه: حزنه وحاله.
(٤) لقرت بلابله: هواجسه وخواطره المزعجة.

الباب الرابع والعشرون:

فى ارتكاب سبيلى الحرام
وما يفضى إليه من المفاسد والآلام

حقيق بكل عاقل أن لا يسلك سبيلاً حتى يعلم سلامتها وآفاتها وما توصل إليه تلك الطريق من سلامة أو عطب، وهذان السبيلان هلاك الأولين والآخرين بهما، وفيهما من المعاطب والمهالك ما فيهما، ويفضيان بصاحبهما إلى أقبح الغايات وشرّ موارد الهلكات، ولهذا جعل الله سبحانه وتعالى سبيل الزنى شر سبيل فقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ (الإسراء: ٣٢) فإذا كانت هذه سبيل الزنى فكيف بسبيل اللواط التى تعدل الفعلة منه فى الإثم والعقوبة أضعافها وأضعاف أضعافها من الزنى؟ كما ستقف عليه إن شاء الله تعالى، فأما سبيل الزنى فاسوأ سبيل، ومقيل(١) أهلها فى الجحيم شر مقيل، ومستقر أرواحهم فى البرزخ فى تنور(٢) من نار يأتيهم لهبها من تحتهم، فإذا أتاهم اللهب ضجوا وارتفعوا، ثم يعودون إلى موضعهم، فهم هكذا إلى يوم القيامة كما رآهم النبى ﷺ فى منامه، ورؤيا الأنبياء وحى لا شك فيها.

فروى البخارى فى «صحيحه» من حديث سمرة بن جندب رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ مما يكثر أن يقول لأصحابه: «هل رأى أحد منكم من رؤيا؟» فيقص عليه ما شاء الله أن يقص، وإنه قال لنا ذات غداة: إنه أتانى الليلة آتيان وإنهما ابتعثانى وإنهما قالا لى: انطلق، وإنى انطلقت معهما، وإنا أتينا على رجل مضطجع وإذا آخر قائم عليه بصخرة، وإذا هو يهوى بالصخرة لرأسه فيثلغ(٣) رأسه فيتدهده(٤) الحجر ههنا، فيتبع الحجر فيأخذه فلا يرجع إليه حتى يصح رأسه كما كان، ثم يعود عليه فيفعل به مثل ما فعل المرة الأولى: قال: قلت لهما: سبحان الله ما هذان؟ قال: قالا لى: انطلق انطلق، فانطلقنا فأتينا على رجل مستلقٍ لقفاه، وإذا آخر قائم عليه بكلوب من حديد، وإذا هو يأتى أحد شقى وجهه فيشرشر شدقه إلى قفاه، ومنخره إلى قفاه، وعينه إلى قفاه، ثم يتحول إلى الجانب الآخر فيفعل به مثل ما فعل بالجانب الأول، فما يفرغ من ذلك الجانب حتى يصح ذلك الجانب

---

(١) مقيل: مقر وعاقبة. (٢) تنور: فرن.
(٣) يثلغ: يشدخه. (٤) فيتهده: ينحط من أعلى إلى أسفل.

كما كان، ثم يعود عليه فيفعل مثل ما فعل المرة الأولى قال: قلت: سبحان الله ما هذان؟ قال: قالا لى: انطلق انطلق، فانطلقنا فأتينا على مثل التنور، فإذا فيه لغط وأصوات، قال: فاطلعنا فيه فإذا فيه رجال ونساء عراة، وإذا هم يأتيهم لهب من أسفل منهم، فإذا أتاهم ذلك اللهب ضوضوا قال: قلت لهما: ما هؤلاء ؟ قال: قالا لى: انطلق انطلق. فانطلقنا فأتينا على نهر أحمر مثل الدم، وإذا فى النهر رجل سابح يسبح، وإذا على شط النهر رجل قد جمع عنده حجارة كثيرة، وإذا ذلك السابح يسبح ما يسبح، ثم يأتى ذلك الذى قد جمع عنده الحجارة فيفغر له فاه فيلقمه حجراً فينطلق يسبح ثم يرجع إليه كلما رجع إليه فغر له فاه فالقمه حجراً، قال: قلت لهما: ما هذان؟ قال: قالا لى: انطلق انطلق، فانطلقنا فأتينا على رجل كريه المرآة[1] كأكره ما أنت راءٍ رجلاً مرآة، وإذا عنده نار يحشها ويسعى حولها، قال: قلت لهما: ما هذا؟ قال: قالا لى: انطلق انطلق، فانطلقنا فأتينا على روضة معتمة[2] فيها من كل نور الربيع، وإذا بين ظهرى الروضة رجل طويل لا أكاد أرى رأسه طولاً فى السماء، وإذا حول الرجل من أكثر ولدان رأيتهم قط قال: قلت لهما: ما هؤلاء؟ قال: قالا لى: انطلق انطلق، فانطلقنا فأتينا على دوحة لم أر دوحة قط أعظم منها ولا أحسن، قال: قالا لى: ارق فيها، فارتقينا فيها إلى مدينة مبنية بلبن ذهب ولبن فضة، قال: فأتينا باب المدينة فاستفتحنا ففتح لنا فدخلناها فتلقانا فيها رجالٌ شطر من خلقهم كأحسن ما أنت راءٍ، وشطر كأقبح ما أنت راءٍ قال: قالا لهم: اذهبوا فقعوا فى ذلك النهر قال: وإذا نهر معترض يجرى كأن ماءه المحض فى البياض، فذهبوا فوقعوا فيه، ثم رجعوا إلينا قد ذهب ذلك السوء عنهم فصاروا فى أحسن صورة قال: قالا لى: هذه جنة عدن، وهذاك منزلك قال: فسما بصرى صعداً فإذا قصر مثل الربابة البيضاء قال: قالا لى: هذاك منزلك قال: قلت لهما: بارك الله فيكما ذرانى فادخله قالا: أما الآن فلا، وأنت داخله. قال: قلت لهما: فإنى قد رأيت منذ الليلة عجباً فما هذا الذى رأيت؟ قال: قالا لى: أما إنا سنخبرك، أما الرجل الأول الذى أتيت عليه يثلغ رأسه بالحجر فإنه الرجل يأخذ القرآن فيرفضه وينام عن الصلاة المكتوبة، وأما الرجل الذى أتيت عليه يشرشر شدقه إلى قفاه ومنخره إلى قفاه وعينه إلى قفاه فإنه الرجل يغدو من بيته فيكذب الكذبة تبلغ الآفاق، وأما الرجال والنساء العراة الذين هم فى مثل بناء التنور فإنهم الزناة والزوانى، وأما الرجل الذى أتيت عليه يسبح فى النهر ويلقم الحجر فإنه آكل الربا، وأما الرجل الكريه المرآة الذى عند

---

(١) **المرآة**: قبيح الصورة. (٢) **معتمة**: مظلمة من طول نباتها وكثرته.

النار يحشها ويسعى حولها فإنه مالك خازن جهنم، وأما الرجل الطويل الذى فى الروضة فإنه إبراهيم، وأما الولدان حوله فكل مولود مات على الفطرة، قال: فقال بعض المسلمين: يا رسول الله وأولاد المشركين؟ قال: وأولاد المشركين، وأما القوم الذين كانوا شطر منهم حسن وشطر منهم قبيح فإنهم قوم خلطوا عملاً صالحًا وآخر سيئًا تجاوز الله عنهم»[1].

وقال أبو مسلم الكجّى: حدثنا صدقة بن جابر، عن سليم بن عامر، قال: حدثنى أبو أمامة الباهلى قال: سمعت النبى ﷺ يقول: «بينا أنا نائم إذ أتانى رجلان فأخذا بضبعى[2] فأخرجانى فأتيا بى جبلاً وعرًا وقالا لى: اصعد فقلت: إنى لا أطيقه فقالا: سنسهله لك قال: فصعدت حتى إذا كنت فى سواء الجبل[3] إذا أنا بأصوات مديدة فقلت: ما هذه الأصوات؟ فقالا: هذا عواء أهل النار، ثم انطلق بى فإذا أنا بفوج أشد شىء انتفاخًا، وأنتنه ريحًا، وأسوأه منظرًا، فقلت: من هؤلاء؟ فقالا: هؤلاء قتلى الكفار، ثم انطلق بى فإذا بفوج أشد شىء انتفاخًا، وأنتنه ريحًا، كأن ريحهم المراحيض فقلت: من هؤلاء؟ قال: هؤلاء الزانون والزوانى»[4].

وقال قتيبة بن سعيد: حدثنا نوح بن قيس قال: حدثنى أبو هارون العبدى، عن أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ليلة أسرى بى انطلق بى إلى خلق من خلق الله كثير، نساء معلقات بشديهن ومنهن بأرجلهن منكسات، ولهن صراخ وخوار فقلت: يا جبريل من هؤلاء؟ قال: هؤلاء اللواتى يزنين ويقتلن أولادهن ويجعلن لأزواجهن ورثة من غيرهم».

وقال أبو نعيم الفضل بن دكين: حدثنا عبد السلام بن شداد، عن غزوان بن جرير، عن أبيه أنهم تذاكروا عند علىّ بن أبى طالب رضي الله عنه الفواحش فقال لهم: هل تدرون أى الزنى أعظم؟ قالوا: يا أمير المؤمنين كله عظيم قال: ولكن سأخبركم بأعظم الزنى عند الله، هو أن يزنى الرجل بزوجة الرجل المسلم فيصير زانيًا وقد أفسد على الرجل زوجته. ثم قال عند

---

(١) **صحيح**: رواه البخارى (٤٦٧٤) ومسلم (٢٢٧٥).

(٢) **ضبعى**: ما بين الإبط إلى نصف الساق.

(٣) **سواء الجبل**: أعلاه، أو منتصفه.

(٤) **صحيح**: رواه ابن حبان (٧٤٩١) والحاكم (١/ ٤٣٠) وابن خزيمة (١٩٨٦) والبيهقى فى «الكبرى» (٤/ ٢١٦) والطبرانى فى «الكبير» (٧٦٦٦) وصححه الحاكم وأقره الذهبى.

ذلك: إن الناس يرسل عليهم يوم القيامة ريح منتنة حتى يتأذى منها كل بر وفاجر، حتى إذا بلغت منهم كل مبلغ والمت[١] أن تمسك بأنفاس الأمم كلهم ناداهم مناد يسمعهم الصوت ويقول لهم: هل تدرون ما هذه الريح التي قد آذتكم؟ فيقولون: لا ندرى والله إلا أنها قد بلغت منا كل مبلغ، فيقال: ألا إنها ريح فروج الزناة الذين لقوا الله بزناهم ولم يتوبوا منه، ثم يصرف بهم، فلم يذكر عند الصرف بهم جنة ولا ناراً، وقال الخرائطى: حدثنا علىّ ابن داود القنطرى، حدثنا سعيد بن عفير، حدثنى مسلم بن على الخشنى، عن أبى عبد الرحمن، عن الأعمش، عن شقيق، عن حذيفة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «يا معشر المسلمين إياكم والزنى فإن فيه ست خصال: ثلاث فى الدنيا وثلاث فى الآخرة، فأما اللواتى فى الدنيا فذهاب البهاء، ودوام الفقر، وقصر العمر، وأما اللواتى فى الآخرة فسخط الله، وسوء الحساب، ودخول النار»[٢]، ويذكر عن أنس بن مالك ﷺ قال: «المقيم على الزنى كعابد وثن» ورفعه بعضهم، وهذا أولى أن يشبه بعابد الوثن من مدمن الخمر، وفى «المسند» وغيره مرفوعًا: «مدمن الخمر كعابد وثن» فإن الزنى أعظم من شرب الخمر، قال الإمام أحمد بن حنبل، رحمه الله تعالى: ليس بعد قتل النفس أعظم من الزنى، وفى الصحيحين من حديث أبى وائل عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: قلت: يا رسول الله أى الذنب أعظم عند الله؟ قال: «أن تجعل لله نداً وهو خلقك» قال: قلت: ثم أى؟ قال: «أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك» قال: قلت: ثم أى؟ قال: «أن تزنى بحليلة جارك»[٣] فأنزل الله تصديق ذلك فى كتابه: ﴿**وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا**﴾ (الفرقان: ٦٨).

وقال قتيبة بن سعيد: حدثنا ابن لهيعة، عن ابن أنعم، عن رجل، عن عبد الله بن عمرو ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «الزانى بحليلة جاره لا ينظر الله إليه يوم القيامة ولا يزكيه ويقول له: ادخل النار مع الداخلين»[٤].

وذكر سفيان بن عيينة، عن جامع بن شداد، عن أبى وائل، عن عبد الله قال: إذا بخس المكيال حبس القطر، وإذا ظهر الزنى وقع الطاعون، وإذا كثر الكذب كثر الهرج.

(١) **ألمت**: دنت وقربت.

(٢) **ضعيف جداً**: رواه ابن عدى (٦/ ٣١٧) وحكم عليه الألبانى، رحمه الله تعالى، فى «الضعيفة» (١٤١) بالوضع.

(٣) **صحيح**: رواه البخارى (٧٥٢٠) ومسلم (٨٦).

(٤) **ضعيف**: رواه الخرائطى فى مساوئ الأخلاق: ٤٨٠، وضعفه الألبانى فى ضعيف الجامع (٣١٨٨).

وفى الصحيحين من حديث الأعمش، عن أبى حازم، عن أبى هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم: شيخ زان، وملك كذاب، وعائل مستكبر»(١).

وذكر سفيان الثورى، عن منصور، عن ربعى بن حراش، عن أبى ذر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله يبغض ثلاثة: الشيخ الزانى، والمقل المختال، والبخيل المنان»(٢).

وذكر الأعمش، عن خيثمة، عن أبى عبد الرحمن، عن عبد الله بن عمرو ﷺ عن النبى ﷺ قال: «مثل الذى يجلس على فراش المغيبة مثل الذى ينهشه الأساود يوم القيامة»(٣). المغيبة هى التى قد سافر زوجها فى جهاد أو حج أو غيرهما.

وفى النسائى وغيره من حديث بريدة عن النبى ﷺ قال: «حرمة نساء المجاهدين على القاعدين كأمهاتهم، وما من رجل من القاعدين يخلف رجلاً من المجاهدين فى أهله إلا نصب له يوم القيامة فيقال: يا فلان هذا فلان فخذ من حسناته ما شئت، ثم التفت النبى ﷺ إلى أصحابه فقال: «ما ترون يدع له من حسناته شيئًا؟» وفى لفظ: «وإذا خلفه فى أهله فخانه قيل يوم القيامة: هذا خانك فى أهلك فخذ من حسناته ما شئت، فما ظنكم؟»(٤).

ويكفى فى قبح الزنى أن الله سبحانه وتعالى مع كمال رحمته شرع فيه أفحش القتلات وأصعبها وأفضحها، وأمر أن يشهد عباده المؤمنون تعذيب فاعله، ومن قبحه أن الله سبحانه فطر عليه بعض الحيوان البهيم الذى لا عقل له، كما ذكر البخارى فى «صحيحه» عن عمرو بن ميمون الأودى قال: رأيت فى الجاهلية قردًا زنى بقردة فاجتمع عليهما القرود فرجموهما حتى ماتا وكنت فيمن رجمهما.

فصل: والزنا يجمع خلال الشر كلها من قلة الدين وذهاب الورع وفساد المروءة وقلة الغيرة، فلا تجد زانيًا معه ورع، ولا وفاء بعهد، ولا صدق فى حديث، ولا محافظة على

---

(١) **صحيح**: رواه البخارى (٢٦٧٢) ومسلم (١٠٧) وأحمد (٢/ ٤٨٠) وأبو داود (٣٤٧٤) والترمذى (١٢١١) والنسائى (٥/ ٨١) وابن ماجه (٢٢٠٨).

(٢) **صحيح**: رواه أحمد (٥/ ١٥٣) والترمذى (٢٥٦٨) والنسائى (٥/ ٨٤) وابن حبان (٣٣٤٩) وابن خزيمة (٢٤٥٦) والحاكم (٢/ ١١٣).

(٣) **حسن**: رواه الطبرانى فى «الكبير» ورواته ثقات كما فى «مجمع الزوائد» (٦/ ٢٥٨).

(٤) **صحيح**: رواه أحمد (٥/ ٣٥٢) ومسلم (١٨٩٧) وأبو داود (٢٤٩٦) والنسائى (٣/ ٣٥٨).

صديق، ولا غيرة تامة على أهله. فالغدر والكذب والخيانة وقلة الحياء وعدم المراقبة وعدم الأنفة للحرم وذهاب الغيرة من القلب من شعبه وموجباته.

ومن موجباته: غضب الرب بإفساد حرمه وعياله، ولو تعرض رجل إلى ملك من الملوك بذلك لقابله أسوأ مقابلة.

ومنها: سواد الوجه وظلمته وما يعلوه من الكآبة والمقت الذى يبدو عليه للناظرين.

ومنها: ظلمة القلب وطمس نوره[١] وهو الذى أوجب طمس نور الوجه وغشيان الظلمة له.

ومنها: الفقر اللازم. وفى إثر يقول الله تعالى: أَنَا اللهُ مُهْلِكُ الطُّغاة، وَمُفقرُ الزُّناة[٢].

ومنها: أنه يذهب حرمة فاعله، ويسقطه من عين ربه ومن أعين عباده.

ومنها: أنه يسلبه أحسن الأسماء، وهو اسم العفة والبر والعدالة، ويعطيه أضدادها كاسم الفاجر والفاسق والزانى والخائن.

ومنها: أنه يسلبه اسم المؤمن كما فى الصحيحين عن النبى ﷺ أنه قال: «لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن»[٣]. فسلبه اسم الإيمان المطلق وإن لم يسلب عنه مطلق الإيمان.

وسئل جعفر بن محمد عن هذا الحديث فخط دائرة فى الأرض وقال: هذه دائرة الإيمان، ثم خط دائرة أخرى خارجة عنها وقال: هذه دائرة الإسلام، فإذا زنى العبد خرج من هذه، ولم يخرج من هذه. ولا يلزم من ثبوت جزء ما من الإيمان له أن يسمى مؤمنًا، كما أن الرجل يكون معه جزء من العلم والفقه ولا يسمى به عالمًا فقيهًا، ومعه جزء من الشجاعة والجود ولا يسمى بذلك شجاعًا ولا جوادًا، وكذلك يكون معه شئ من التقوى ولا يسمى متقيًا. ونظائره. فالصواب إجراء الحديث على ظاهره ولا يتأول بما يخالف ظاهره، والله أعلم.

ومنها: أن يعرض نفسه لسكنى التنور الذى رأى النبى ﷺ فيه الزُّناة والزوانى.

ومنها: أنه يفارقه الطيب الذى وصف الله به أهل العفاف ويستبدل به الخبيث الذى

---

(١) طمس نوره: ذهب وانمحى.

(٢) **ضعيف جدًا**: رواه ابن عساكر (١٧/ ٣٧٥) وانظره فى كتابى «موسوعة الأحاديث القدسية» (٥١٨).

(٣) **صحيح**: رواه البخارى (٢٤٧٥) ومسلم (٥٧).

وصف الله به الزناة كما قال الله تعالى: ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ﴾ (النور: ٢٦) وقد حرّم الله الجنة على كل خبيث، بل جعلها مأوى الطيبين، ولا يدخلها إلا طيب، قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (النحل: ٣٢) وقال تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ (الزمر: ٧٣) فإنما استحقوا سلام الملائكة ودخول الجنة بطيبهم، والزناة من أخبث الخلق، وقد جعل الله سبحانه جهنم دار الخبيث وأهله، فإذا كان يوم القيامة ميّز الخبيث من الطيب وجعل الخبيث بعضه على بعض ثم ألقاه وألقى أهله في جهنم فلا يدخل النار طيب، ولا يدخل الجنة خبيث.

ومنها: الوحشة التي يضعها الله سبحانه وتعالى في قلب الزاني، وهي نظير الوحشة التي تعلو وجهه، فالعفيف على وجهه حلاوة وفي قلبه أنس، ومن جالسه استأنس به، والزاني تعلو وجهه الوحشة ومن جالسه استوحش به.

ومنها: قلة الهيبة التي تنزع من صدور أهله وأصحابه وغيرهم له، وهو أحقر شيء في نفوسهم وعيونهم، بخلاف العفيف فإنه يرزق المهابة والحلاوة.

ومنها: أن الناس ينظرونه بعين الخيانة ولا يأمنه أحد على حرمته ولا على ولده.

ومنها: الرائحة التي تفوح عليه يشمها كل ذي قلب سليم، تفوح من فيه وجسده، ولولا اشتراك الناس في هذه الرائحة لفاحت من صاحبها ونادت عليه ولكن كما قيل:

كل به مثلُ ما بي غير أنهم ... من غيرة بعضُهم للبعض عُذّال

ومنها: ضيق الصدر وحرجه فإن الزناة يعاملون بضد قصودهم، فإن من طلب لذة العيش وطيبه بما حرّمه الله عليه عاقبه بنقيض قصده، فإن ما عند الله لا ينال إلا بطاعته، ولم يجعل الله معصيته سببًا إلى خير قط. ولو علم الفاجر ما في العفاف من اللذة والسرور وانشراح الصدر وطيب العيش لرأى أن الذي فاته من اللذة أضعاف أضعاف ما حصل له، دع ربح العاقبة والفوز بثواب الله وكرامته.

ومنها: أنه يعرض نفسه لفوات الاستمتاع بالحور العين في المساكن الطيبة في جنات عدن، وقد تقدم أن الله سبحانه وتعالى إذا كان قد عاقب لابس الحرير في الدنيا بحرمانه لبسه يوم القيامة، وشارب الخمر في الدنيا بحرمانه إياها يوم القيامة، فكذلك من تمتع بالصور المحرمة في الدنيا، بل كل ما ناله العبد في الدنيا فإن توسع في حلاله ضيق من حظه يوم القيامة بقدر ما توسع فيه، وإن ناله من حرام فاته نظيرهُ يوم القيامة.

ومنها: أن الزنى يجرئه على قطيعة الرحم وعقوق الوالدين وكسب الحرام وظلم الخلق وإضاعة أهله وعياله، وربما قاده قسرًا إلى سفك الدم الحرام، وربما استعان عليه بالسحر وبالشرك وهو يدرى أو لا يدرى، فهذه المعصية لا تتم إلا بأنواع من المعاصى قبلها ومعها، ويتولد عنها أنواع أخر من المعاصى بعدها، فهى محفوفة بجند من المعاصى قبلها وجند بعدها، وهى أجلب شيء لشر الدنيا والآخرة، وأمنع شيء لخير الدنيا والآخرة، وإذا علقت بالعبد فوقع فى حبائلها وأشراكها عز على الناصحين استنقاذه، وأعيى الأطباء دواؤه، فأسيرها لا يفدى، وقتيلها لا يودى[١]، وقد وكلها الله سبحانه بزوال النعم، فإذا ابتلى بها عبد فليودع نعم الله فإنها ضيف سريع الانتقال، وشيك الزوال، قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (الأنفال: ٥٣) وقال تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ﴾ (الرعد: ١١).

فصل: فهذا بعض ما فى هذه السبيل من الضرر، وأما سبيل الأمة اللوطية فتلك سبيل الهالكين المفضية بسالكها إلى منازل المعذبين الذين جمع الله عليهم من أنواع العقوبات ما لم يجمعه على أمة من الأمم، لا من تأخر عنهم ولا من تقدم، وجعل ديارهم وآثارهم عبرة للمعتبرين، وموعظة للمتقين.

وكتب خالد بن الوليد إلى أبى بكر الصديق ﷺ أنه وجد فى بعض ضواحى العرب رجلاً يُنكح كما تنكح المرأة، فجمع أبو بكر ﷺ لذلك ناسًا من أصحاب رسول الله ﷺ وفيهم على بن أبى طالب ﷺ فاستشارهم، فكان على ﷺ أشدهم قولاً فيه فقال: إن هذا لم يعمل به أمة من الأمم إلا أمة واحدة فصنع الله بهم ما قد علمتم، أرى أن تحرقوه بالنار، فاحرقوه بالنار[٢].

وقال عمر بن الخطاب ﷺ وجماعة من الصحابة والتابعين: يرجم بالحجارة حتى يموت أحصن أو لم يحصن، ووافقه على ذلك الإمام أحمد وإسحاق ومالك، وقال الزهرى: يرجم أحصن أو لم يحصن، سنة ماضية، وقال جابر بن زيد فى رجل غشى رجلاً فى دبره قال: الدبر أعظم حرمة من الفرج، يرجم أحصن أو لم يحصن، وقال الشعبى: يقتل أحصن أو لم يحصن.

---

(١) لا يودى: لا دية له.

(٢) مرسل: رواه البيهقى فى «الكبرى» (٨/ ٢٣٢) وعبد الرزاق فى «مصنفه» (٢/ ١٢٧).

وسئل ابن عباس عن اللوطى: ما حده؟ قال: ينظر أعلى بناء فى المدينة فيرمى منه منكسًا ثم يتبع بالحجارة، ورجم على لوطيًا وأفتى بتحريقه، وكأنه رأى جواز هذا وهذا.

وقال إبراهيم النخعى: لو كان أحد ينبغى له أن يرجم مرتين لكان ينبغى للوطى أن يرجم مرتين. وذهبت طائفة إلى أنه يرجم إن أحصن ويجلد إن لم يحصن. وهذا قول الشافعى وأحمد فى رواية عنه، وسعيد بن المسيب فى رواية عنه، وعطاء بن أبى رباح.

قال عطاء: شهدت ابن الزبير أتى بسبعة أخذوا فى اللواط: أربعة منهم قد أحصنوا، وثلاثة لم يحصنوا، فأمر بالأربعة فأخرجوا من المسجد الحرام فرجموا بالحجارة، وأمر بالثلاثة فضربوا الحد وفى المسجد ابن عمر وابن عباس، فالصحابة اتفقوا على قتل اللوطى وإنما اختلفوا فى كيفية قتله، فظنّ بعض الناس أنهم متنازعون فى قتله ولا نزاع بينهم فيه إلا فى إلحاقه بالزانى أو قتله مطلقًا، وقد اختلف الناس فى عقوبته على ثلاثة أقوال: **أحدها**: أنها أعظم من عقوبة الزنى كما أن عقوبته فى الآخرة أشد، **الثانى**: أنها مثلها، **الثالث**: أنها دونها، وذهب بعض الشافعية إلى أن عقوبة الفاعل كعقوبة الزانى، وعقوبة المفعول به الجلد مطلقًا بكرًا كان أو ثيبًا قال: لأنه لا يلتذ بالفعل به بخلاف الفاعل.

وذهب بعض الفقهاء إلى أنه لا حدّ على واحد منهما قال: لأن الوازع عن ذلك ما فى الطباع من النفرة عنه واستقباحه، وما كان ذلك لم يحتج إلى أن يزجر الشارع عنه بالحد كأكل العذرة[1] والميتة والدم وشرب البول، ثم قال هؤلاء: إذا أكثر منه اللوطى فللإمام قتله تعزيرًا[2]، صرح بذلك أصحاب أبى حنيفة.

والصحيح أن عقوبته أغلظ من عقوبة الزانى لإجماع الصحابة على ذلك ولغلظ حرمته وانتشار فساده، ولأن الله سبحانه وتعالى لم يعاقب أمة ما عاقب اللوطية.

قال ابن أبى نجيح فى تفسيره عن عمرو بن دينار فى قوله تعالى: ﴿**إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ**﴾ (العنكبوت: ٢٨) قال: ما نزا[3] ذكر على ذكر حتى كان قوم لوط[4].

وقال محمد بن مخلد: سمعت عباسًا الدورى يقول: بلغنى أن الأرض تعج[5] إذا ركب الذكر على الذكر. وذكر ابن أبى الدنيا بإسناده عن كعب قال: كان إبراهيم يشرف

---

(١) **العذرة**: الغائط. (٢) **تعذيرًا**: الضرب دون الحد كنوع من أنواع التأديب.
(٣) **ما نزا**: وثب على أنثاه أثناء الجماع.
(٤) رواه ابن جرير فى «جامع البيان» (٣٠/ ٩٣). (٥) **تعج**: العج: الصياح.

على سدوم(١) فيقول: ويل لك سدوم يومًا ما لك، فجاءت إبراهيم الرسل وكلمهم إبراهيم في أمر قوم لوط قالوا: ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾ قال: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ (هود: ٧٧) فذهب بهم إلى منزلة فذهبت امرأته فجاءه قومه يهرعون إليه فقال: ﴿يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ (هود: ٧٨) أزوجكم بهن ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ (هود: ٧٨) وجعل لوط الأضياف فى بيته وقعد على باب البيت وقال: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ (هود: ٨٠) قال: أى عشيرة تمنعنى، قال: ولم يبعث نبى بعد لوط إلا فى عز من قومه، فلما رأت الرسل ما قد لقى لوط فى سببهم: ﴿قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ (هود: ٨١) فخرج عليهم جبريل عليه السلام فضرب وجوههم بجناحه ضربة طمست أعينهم، قال: والطمس أن تذهب حتى تستوى، واحتمل مدائنهم حتى سمع أهل سماء الدنيا نبيح كلابهم وأصوات ديوكهم، ثم قلبها وأمطر الله عليهم حجارة من سجيل(٢)، قال: على أهل بواديهم وعلى رعاتهم وعلى مسافريهم، فلم ينفلت منهم إنسان. **وقال مجاهد**: نزل جبريل عليه السلام فأدخل جناحه تحت مدائن قوم لوط. فرفعها حتى سمع أهل السماء نبيح الكلاب وأصوات الدجاج والديكة، ثم قلبها فجعل أعلاها أسفلها ثم أتبعوا بالحجارة.

وفى «تفسير أبى صالح» عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: أغلق لوط على ضيفه الباب فخلعوا الباب ودخلوا، فطمس جبريل أعينهم فذهبت أبصارهم فقالوا: يا لوط، جئتنا بالسحرة؟ وتوعدوه، فأوجس فى نفسه خيفة قال: يذهب هؤلاء ونؤذى، فقالوا: لا تخف إنا رسل ربك إن موعدهم الصبح، قال لوط: الساعة، قال جبريل: أليس الصبح بقريب؟ قال: فرفعت المدينة حتى سمع أهل السماء نبيح الكلاب ثم أقلبت ورموا بالحجارة.

وقال حذيفة بن اليمان: لما أرسلت الرسل إلى قوم لوط لتهلكهم قيل لهم: لا تهلكوهم حتى يشهد عليهم لوط ثلاث مرات، وطريقهم على إبراهيم قال: فأتوا إبراهيم فبشروه بما بشروه: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ(٣) وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾ (هود: ٧٤) قال: كان مجادلته إياهم أن قال لهم: إن كان فيهم خمسون أتهلكونهم؟ قالوا:

---

(١) سدوم: القرية الأم من قرى قوم لوط.
(٢) سجيل: الحجارة المكتوب عليها اسم من ستلقى عليه.
(٢) الروع: الخوف والفزع.

لا، قال: أفرأيتم إن كان فيهم أربعون؟ قالوا: لا، قال: فثلاثون؟ قالوا: لا، حتى انتهى إلى عشرة أو خمسة، فأتوا لوطًا وهو فى أرض يعمل فيها فحسبهم ضيفًا، فأقبل بهم حين أمسى إلى أهله فأتوا معه فالتفت إليهم فقال: أما ترون ما يصنع هؤلاء؟ قالوا: وما يصنعون؟ قال: ما من الناس أحد شر منهم، قال: فانتهى بهم إلى أهله فانطلقت العجوز السوء امرأته فأتت قومه فقالت: لقد تضيف لوطًا الليلة قوم ما رأيت قط أحسن وجوهًا ولا أطيب ريحًا منهم، فاقبلوا يهرعون إليه حتى دفعوا الباب ثم كادوا أن يقلبوه عليهم، فقام ملك بجناحه فصفقه دونهم ثم أغلق الباب ثم علوا الاجاجير(١) فجعل يخاطبهم فقال: ﴿**هَؤُلاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ**﴾ (هود: ٧٨) حتى بلغ: ﴿**أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ۝ قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ**﴾ (هود: ٨٠، ٨١) فطمس جبريل أعينهم فما بقى أحد منهم تلك الليلة حتى عمى قال: فباتوا بشر ليلة عميًا ينتظرون العذاب. قال: وسار بأهله واستأذن جبريل عليه السلام فى هلاكهم فاذن له، فارتفع بالأرض التى كانوا عليه فالوى(٢) بها حتى سمع أهل السماء الدنيا ضغاء(٣) كلابهم، وأوقد تحتها نارًا ثم قلبها بهم قال: فسمعت امرأته الوجبة(٤) وهى معه فالتفتت فاصابها العذاب.

وفى تفسير العوفى عن ابن عباس ﷺ: جادل إبراهيم الملائكة فى قوم لوط أن يتركوا فقال: أرأيتم إن كان فيهم عشرة أبيات من المسلمين أتتركونهم؟ فقالت الملائكة: ليس فيها عشرة أبيات ولا خمسة ولا أربعة ولا ثلاثة ولا اثنان، فحزن إبراهيم على لوط وأهل بيته و ﴿**قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ**(٥)﴾ (العنكبوت: ٣٢) فذلك قوله: ﴿**فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ۝ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ**﴾ (هود: ٧٤، ٧٥) فقالت الملائكة: ﴿**يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ**﴾ (هود: ٧٦) فبعث الله إليهم جبريل فانتسف المدينة ومن فيها باحد جناحيه فجعل عاليها سافلها وتبعتهم الحجارة بكل أرض. فاهلك الله سبحانه الفاعل والمفعول به، والساكت الراضى، والدال المحصن منهم وغير المحصن، العاشق والمعشوق، وأخذهم وهم فى سكرة عشقهم يعمهون، وذكر ابن أبى داود فى تفسيره عن وهب بن منبه قال: إنّ الملائكة حين

---

(١) الأجاجير: السطح الذى ليس عليه سترة.
(٢) فالوى: اى ذهب مصعداً.
(٣) ضغاء: شدة الصياح.
(٤) الوجبة: صوت السقطة.
(٥) الغابرين: الباقين فى العذاب.

دخلوا على لوط ظن أنهم أضياف ضافوه فاحتفل لهم وحرص على كرامتهم، وخالفته امرأته إلى فساق قومه فأخبرتهم أنه ضاف لوطًا أحسن الناس وجهًا وأنضرهم جمالاً وأطيبهم ريحًا، فكانت هذه خيانتها التى ذكر الله عز وجل فى كتابه. وفيه عن ابن عباس ﷺ فى قوله: ﴿ **فَخَانَتَاهُمَا** ﴾ قال: والله ما زنتا ولا بغت امرأة نبى قط فقيل له: فما كانت خيانة امرأة نوح وامرأة لوط؟ فقال: أما امرأة نوح فكانت تخبر أنه مجنون، وأما امرأة لوط فإنها كانت تدل على الضيف[١].

وقال أبو مسلم الليثى فى مسنده: حدثنا سليمان بن داود، حدثنا عبد الوارث، حدثنا القاسم بن عبد الرحمن، حدثنا عبد الله بن محمد بن عقيل قال: سمعت جابر بن عبد الله ﷺ يقول: قال رسول الله ﷺ: «إن أخوف ما أخاف على أمتى من بعدى عمل قوم لوط»[٢]، وقال هشام بن عمار: حدثنا عبد العزيز الدراوردى عن عمرو بن أبى عمرو، عن عكرمة، عن ابن عباس ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «لعن الله من وقع على بهيمة، ولعن الله من عمل عمل قوم لوط»[٣] (رواه الإمام أحمد).

وقال القعنبى: حدثنا عبد العزيز الدراوردى، عن عمرو بن أبى عمرو مولى المطلب ابن عبد الله بن حنطب المخزومى، عن عكرمة، عن ابن عباس ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «لعن الله من تولى غير مواليه، ولعن الله من غير تخوم الأرض، ولعن الله من كمه أعمى عن السبيل، ولعن الله من لعن والديه، ولعن الله من عَملَ عَمَلَ قوم لوط، ولعن الله من عمل عمل قوم لوط، ولعن الله من عمل عمل قوم لوط ثلاثًا، ولعن الله من ذبح لغير الله، ولعن الله من وقع على بهيمة»[٤] هذا الإسناد على شرط البخارى.

وقال أبو داود الطيالسى: حدثنا بشر بن المفضل، عن خالد الحذاء، عن محمد بن سيرين، عن أبى موسى الأشعرى ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا باشر الرجل الرجل فهما زانيان» وفى لفظ: «إذا أتى الرجل الرجل...»[٥].

---

(١) **ضعيف**: رواه ابن جرير فى «جامع البيان» (١٨٢٥٩).
(٢) **حسن**: رواه أحمد (١٣/ ٧١) والترمذى (١٤٥٧) وابن ماجه (٢٥٦٣) والحاكم (٤/ ٣٥٧) وصححه الحاكم، ووافقه الذهبى.
(٣) **صحيح**: رواه أحمد (١/ ٣٠٩) والحاكم (٤/ ٣٥٦) والطبرانى فى «الكبير» (١١/ ٢١٨) والبيهقى فى «الكبرى» (٨/ ٢٣١) وابن حبان (٤٤١٧).
(٤) **صحيح**: رواه أحمد (١/ ٣٠٩) والبيهقى فى «الكبرى» (٨/ ٢٣١).
(٥) **ضعيف جدًا**: رواه الطبرانى فى «الكبير» والطيالسى كما فى «تلخيص الجبر» (٢/ ٥٥).

وفى المسند و السنن من حديث عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «اقتلوا الفاعل والمفعول به» وفى لفظ: «من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل المفعول به»(١) وإسناده على شرط البخارى.

وروى سهيل بن أبى صالح عن أبيه عن أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فارجموه أو قال: فاقتلوا الفاعل والمفعول به»(٢).

وحرق اللوطية بالنار أربعة من الخلفاء: أبو بكر الصديق، وعلى بن أبى طالب، وعبد الله بن الزبير، وهشام بن عبد الملك.

وقال حماد بن سلمة عن قتادة، عن خلاس، عن عبيد الله بن معمر قال: يُقتل اللوطى، وقال سعيد بن المسيب: عندنا على اللوطى الرجم، أحصن أو لم يحصن، سنة ماضية، وهذا يدل على أن ذلك سنة مضى عليها العمل.

وقال الشعبى: يقتل أحصن أو لم يحصن. وقال الزهرى وربيعة وابن هرمز ومالك بن أنس: عليه الرجم أحصن أو لم يحصن.

وقال بعض العلماء: وإنما قال سعيد بن المسيب: إن ذلك سنة ماضية لقول النبى ﷺ: «اقتلوا الفاعل والمفعول به» ولم يقل محصناً أو غير محصن.

وحرقهم أبو بكر رضي الله عنه بالنار بعد مشاورة الصحابة، وأشار عليه علىّ بن أبى طالب رضي الله عنه بذلك، وحرقهم علىّ وابن الزبير، كما ذكره الآجرى وغيره عن محمد بن المنكدر أن خالد ابن الوليد كتب إلى أبى بكر أنه وجد رجلاً فى بعض ضواحى العرب ينكح كما تنكح المرأة، فجمع أبو بكر لذلك أصحاب رسول الله ﷺ وفيهم علىّ بن أبى طالب ، فقال علىّ: إن هذا ذنب لم يعمل به إلا أُمة واحدة ففعل الله بهم ما قد علمتم، أرى أن تحرقوه بالنار، فاجتمع رأى أصحاب رسول الله ﷺ أن يحرق بالنار، فامر به أبو بكر أن يحرق.

قال: وقد حرقهم ابن الزبير وهشام بن عبد الملك، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: يرجم اللوطى بكرًا كان أو ثيبًا.

---

(١) صحيح: رواه أحمد (١/ ٣٠٠) وأبو داود (٤٤٦٢) والترمذى (١٤٥٦) وابن ماجه (٢٥٦١) والطبرانى فى «الكبير» (١١/ ٢٢) والحاكم (٤/ ٣٥٥) والبيهقى فى «الكبرى» (٨/ ٢٣٢) والدارقطنى (٣/ ١٢٢) وأبو نعيم فى «الحلية» (٣/ ٣٤٣) وصححه الألبانى فى «الإرواء» (٨/ ١٦).

(٢) انظر الحديث السابق.

وقال عمر بن الخطاب ﷺ : من عمل عمل قوم لوط فاقتلوه، ولم يفرق أحد منهم بين المحصن وغيره، وصرح بعضهم بعموم الحكم للمحصن وغير المحصن، فلذلك قال ابن المسيب : إن هذا سنة ماضية.

وفى مسائل إسحاق بن منصور الكوسج قلت لأحمد : يُرجم اللوطى أحصن أو لم يحصن؟ فقال : يرجم أحصن أو لم يحصن، قال إسحاق بن راهويه : هو كما قال.

والسنة فى الذى يعمل عمل قوم لوط أن يرجم محصنًا كان أو غير محصن لأن النبى ﷺ قال : « من عمل عمل قوم لوط فاقتلوه » رواه ابن عباس عن النبى ﷺ كذلك، ثم أفتى ابن عباس بعد النبى ﷺ فيمن يعمل عمل قوم لوط أنه يرجم، وإن كان بكرًا، فحكم فى ذلك بما رواه عن النبى ﷺ .

وكذلك روى عن علىّ بن أبى طالب مثل هذا القول : إن اللوطى يرجم، ولم يذكر محصنًا كان أو غير محصن، وكذلك فعل الله سبحانه بقوم لوط، وكذا يروى عن أبى بكر الصديق ﷺ أنه حرقهم بالنار، هذا كلام إسحاق رحمه الله.

وذكر الآجرى فى كتاب « تحريم اللواط » من حديث عبد الله بن عمر مرفوعًا : « سبعة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ويقول : ادخلوا النار مع الداخلين : الفاعل والمفعول به، والناكح يده، وناكح البهيمة، وناكح المرأة فى دبرها، والجامع بين المرأة وابنتها، والزانى بحليلة جاره، والمؤذى لجاره حتى يلعنه »[1] .

وذكر عن أنس مرفوعًا نحوه وقال : « ادخلوا النار أول الداخلين إلا أن يتوبوا، إلا أن يتوبوا، إلا أن يتوبوا، فمن تاب تاب الله عليه : الناكح يده، والفاعل، والمفعول به، ومدمن الخمر، والضارب أبويه حتى يستغيثا، والمؤذى جيرانه حتى يلعنوه، والزانى بحليلة جاره »[2] .

وقال مجاهد : لو أن الذى يعمل ذلك العمل - يعنى عمل قوم لوط - اغتسل بكل قطرة فى السماء وكل قطرة فى الأرض لم يزل نجسًا، وقد ذكر الله سبحانه عقوبة اللوطية وما حل بهم من البلاء فى عشر سور من القرآن وهى : سورة الأعراف، وهود، والحجر، والأنبياء،

---

(١) **ضعيف** : رواه أبو الشيخ فى « مجلس من حديثه » (٦٢ / ١، ٣) وابن بشران فى « الأمالى » (٨٦ / ١، ٢) وضعفه الألبانى فى « الإرواء » (٢٤٠١) .

(٢) **ضعيف** : رواه البيهقى فى « الشعب » (٥٠٨٧) والحسن بن عرفة فى « جزئه » (٤١) وابن الجوزى فى « العلل المتناهية » (١٠٤٦) وضعفه الألبانى فى « الضعيفة » (٣١٩) .

والفرقان، والشعراء، والنمل، والعنكبوت، والصافات، واقتربت الساعة، وجمع على القوم بين عمى الأبصار وخسف الديار، والقذف بالأحجار، ودخول النار. وقال محذرًا لمن عمل عملهم ما حل بهم من العذاب الشديد: ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ (هود: ٨٩).

وقال بعض العلماء: إذا علا الذكرُ الذكرَ هربت الملائكة، وعجَّت [١] الأرض إلى ربها، ونزل سخط الجبار جل جلاله عليهم، وغشيتهم اللعنة، وحفت بهم الشياطين، واستأذنت الأرض ربها أن تخسف بهم، وثقل العرش على حملته، وكبَّرت الملائكة، واستعرت [٢] الجحيم، فإذا جاءته رسل الله لقبض روحه نقلوها إلى ديار إخوانهم، وموضع عذابهم، فكانت روحه بين أرواحهم، وذلك أضيق مكانًا وأعظم عذابًا من تنور الزناة. فلا كانت لذة توجب هذا العذاب الأليم، وتسوق صاحبها إلى مرافقة أصحاب الجحيم. تذهب اللذات، وتعقب الحسرات، وتفنى الشهوة، وتبقى الشقوة. وكان الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى، ينشد:

تَفْنَى اللَّذَاذَةُ ممن نال صفوتَهَا ... من الحرام وَيَبْقَى الْخِزْيُ وَالْعَارُ
تَبْقَى عواقبُ سوء في مَغَبَّتِهَا ... لا خيرَ في لَذَّةٍ من بعدها النارُ

فصل: وأما إن كانت الفاحشة مع ذي رحم محرم فذلك الهلك كل الهلك، ويجب قتل الفاعل بكل حال عند الإمام أحمد وغيره.

واحتج أحمد بحديث عدي بن ثابت عن البراء بن عازب قال: لقيت خالي ومعه الراية فقلت: أين تريد؟ قال: «بعثني رسول الله ﷺ إلى رجل تزوج امرأة أبيه أضرب عنقه، وآخذ ماله» رواه الإمام أحمد واحتج به [٣].

وقال شعبة: حدثنا الركين بن الربيع عن عدي بن ثابت عن البراء قال: رأيت أناسًا ينطلقون فقلت: أين تذهبون؟ قالوا: بعثنا رسول الله ﷺ إلى رجل يأتي امرأة أبيه أن نقتله [٤].

وذكر عبد الله بن صالح: حدثنا يحيى بن أيوب، عن ابن جريج، عن عكرمة، عن

(١) **عجت**: علت أصوات الصياح.
(٢) **استعرت**: زاد سعيرها حين توقدت.
(٣) **صحيح**: رواه أحمد (٤/ ٢٩٢) وأبو داود (٤٤٥٧) والترمذي (١٣٦٢) والنسائي (٦/ ٤١٨) وابن ماجه (٢٦٠٧) وأبو يعلى (١٦٦٦) وصححه الألباني في «الإرواء» (٢٣٥١).
(٤) تقدم تخريجه.

ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «اقتلوا الفاعل والمفعول به والذى يأتى البهيمة والذى يأتى كل ذات محرم»[١].

وقال هشام بن عمار: حدثنا رفدة بن قضاعة، حدثنا صالح بن راشد قال: أُتى الحجاج برجل قد اغتصب أخته على نفسها فقال: احبسوه وسلوا من ههنا من أصحاب محمد ﷺ؟ فسألوا عبد الرحمن بن مطرف فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من تخطى الحرمتين فخطوا وسطه بالسيف»[٢] وأفتى ابن عباس رضي الله عنهما بمثل ذلك.

وقال عمر بن شبة: حدثنا معاذ بن هشام، حدثنا أبى عن قتادة قال: أُتى الحجاج برجل زنى بأخته، فسأل عنها عبد الله فقال: يضرب بالسيف، فأمر به الحجاج فضرب عنقه بالسيف، وذكر جماعة عن حماد بن سلمة، عن بكر بن عبد الله المزنى أن رجلاً تزوج خالته فرفع إلى عبد الملك بن مروان فقال: إنى ظننت أنها تحل لى فقال: لا جهالة فى الإسلام وأظن أنه أمر به فقتل. وفى مسائل صالح بن أحمد قال: سألت أبى عن الرجل الذى تزوج ذات محرم منه فقال: إن كان عمداً يقتل ويؤخذ ماله، وإن كان لا يعلم يفرق بينهما، وأستحب أن يكون لها ما أخذت منه ولا يرجع عليها بشىء. وفى صحيفة عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن النبى ﷺ قال: «لا يدخل الجنة من أتى ذات محرم»[٣].

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) **ضعيف**: رواه ابن عدى فى «الكامل» (٣/ ١٧٥) والطبرانى فى «الكبير» كما فى «مجمع الزوائد» (٦/ ٢٦٩).

(٣) **ضعيف**: رواه الطبرانى فى «الأوسط» (٣٩٣٦) ورواه الطبرانى أيضًا فى «الكبير» (١١/ ٥٧) وأبو نعيم فى «الحلية» (٤/ ٧٣) عن ابن عباس، وقال الهيثمى فى «مجمع الزوائد» (٦/ ٢٦٩): ورجاله رجال الصحيح».

الباب الخامس والعشرون:

فى رحمة المحبين والشفاعة لهم

إلى أحبابهم فى الوصال الذى يبيحه الدين

قال الله تعالى: ﴿مَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُ كِفْلٌ مِّنْهَا﴾ (النساء: ٨٥) وكل من أعان غيره على أمر بقوله أو فعله فقد صار شفيعًا له، والشفاعة للمشفوع له هذا أصلها، فإن الشافع يشفع صاحب الحاجة فيصير له شفعًا فى قضائها لعجزه عن الاستقلال بها، فدخل فى حكم هذه الآية كل متعاونين على خير أو شر بقول أو عمل، ونظيرها قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ (المائدة: ٢) وفى الصحيح عنه ﷺ أنه كان إذا جاءه طالب حاجة يقول: «اشفعوا تؤجروا ويقضى الله على لسان رسوله ما أحب»[1]، وفى صحيح البخارى أن بريرة لما عُتقت اختارت نفسها، فكان زوجها يمشى خلفها ودموعه تسيل على لحيته، فقال لها النبى ﷺ: «لو راجعتيه فإنه أبو ولدك» فقالت: أتأمرنى؟ قال: «لا، إنما أنا شافع» قالت: فلا حاجة لى فيه، فهذه شفاعة من سيد الشفعاء لمحب إلى محبوبه، وهى من أفضل الشفاعات وأعظمها أجرًا عند الله، فإنها تتضمن اجتماع محبوبين على ما يحبه الله ورسوله، ولهذا كان أحب ما لإبليس وجنوده التفريق بين هذين المحبوبين.

وتأمل قوله تعالى فى الشفاعة الحسنة: ﴿يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا﴾ وفى السيئة: ﴿يَكُن لَّهُ كِفْلٌ مِّنْهَا﴾ فإن لفظ الكفل يشعر بالحمل والثقل، ولفظ النصيب يشعر بالحظ الذى ينصب طالبه فى تحصيله، وإن كان كل منهما يستعمل فى الأمرين عند الانفراد، ولكن لما قرن بينهما حسن اختصاص حظ الخير بالنصيب وحظ الشر بالكفل.

وفى صحيفة عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رجلاً على عهد رسول الله ﷺ زوَّج ابنة له وكان خطبها قبل ذلك عم بنتها، فبلغ النبى ﷺ أنها كارهة هذا الذى زوجها أبوها، وأنه كان يعجبها أن يتزوجها عم بنتها، فاهدر النبى ﷺ نكاح أبيها وزوجها عم بنتها. وقد تقدم حديث عمرو بن دينار، عن طاوس، عن ابن عباس ﷺ أن رجلاً قال:

---

(١) صحيح: رواه البخارى (١٤٣٢) ومسلم (٢٧٢٧) وأحمد (٤/ ٤٠٠) وابو داود (٥١٣١) والترمذى (٢٦٧٢).

يا رسول الله، في حجري يتيمة قد خطبها رجل موسر ورجل معدم، فنحن نحب الموسر وهي تحب المعدم. فقال رسول الله ﷺ: «ليس للمتحابين مثل النكاح»(١) رواه سليمان ابن موسى عنه.

وقال مخلد بن الحسين: حدثنا هشام بن حسان، عن محمد بن سيرين قال: كان عمر بن الخطاب يعس(٢) بالليل فسمع صوت امرأة تغني وتقول:

هل من سبيل إلى خمر فأشربَها ... أم هل من سبيل إلى نصر بن حجّاج

فقال: أما وعمر حي فلا. فلما أصبح بعث إلى نصر بن حجاج، فإذا رجل جميل فقال: اخرج فلا تساكني بالمدينة، فخرج حتى أتى البصرة وكان يدخل على مجاشع بن مسعود، وكانت له امرأة جميلة فاعجبها نصر، فاحبها وأحبته فكان يقعد هو ومجاشع يتحدثان والمرأة معهما، فكتب لها نصر في الأرض كتابًا فقالت: وأنا، فعلم مجاشع أنها جواب كلام، وكان مجاشع لا يكتب والمرأة تكتب، فدعا بإناء فاكفاه على المكتوب ودعا كاتبًا فقراه فإذا هو: إني لاحبك حبًّا لو كان فوقك لاظلك ولو كان تحتك لاقلك(٣)، وبلغ نصرًا ما صنع مجاشع فاستحيا ولزم بيته وضنى جسمه حتى كان كالفرخ(٤)، فقال مجاشع لامرأته: اذهبي إليه فاسنديه إلى صدرك، وأطعميه الطعام بيدك، فابت، فعزم عليها فأتته فاسندته إلى صدرها وأطعمته الطعام بيدها، فلما تحامل خرج من البصرة.

إنّ الذين بخير كنتَ تذكرهم ... هم أهلكوك وعنهم كنتُ أنهاكا

لا تطلبنَّ شفاءً عند غيرهم ... فليس يُحْييك إلا من توقاكا

فإن قيل: فهل تبيح الشريعة مثل ذلك؟ **قيل**: إذا تعين طريقًا للدواء ونجاة العبد من الهلكة لم يكن باعظم من مداواة المرأة للرجل الأجنبي، ومداواته لها، ونظر الطبيب إلى بدن المريض ومسه بيده للحاجة. وأما التداوي بالجماع فلا يبيحه الشرع بوجه ما، وأما التداوي بالضم والقبلة فإن تحقق الشفاء به كان نظير التداوي بالخمر عند من يبيحه، بل هذا أسهل من التداوي بالخمر، فإن شربه من الكبائر، وهذا الفعل من الصغائر، والمقصود أن الشفاعة للعشاق فيما يجوز من الوصال والتلاقي سنة ماضية وسعي مشكور.

وقد جاء عن غير واحد من الخلفاء الراشدين ومن بعدهم أنهم شفعوا هذه الشفاعة.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) يعس: يسير ليلاً ليتعرف على أحوال الرعية.

(٣) لأقلك: لحملك.

(٤) الفرخ: صغار كل الطيور.

فقال الخرائطى: حدثنا على بن الأعرابى، حدثنا أبو غسان النهدى قال: مر أبو بكر الصديق ﷺ فى خلافته بطريق من طرق المدينة فإذا جارية تطحن برحاها وهى تقول:

وهَويتُـه من قـبـل قطع تمـائمى ... متمايسًا(١) مثل القضيب الناعم

وكـأنَّ نُورَ البَـدْرِ سُنَّةَ وَجْـهـه ... يَنْمِى ويصعد فى ذُؤابة(٢) هاشم

فدق عليها الباب فخرجت إليه فقال: ويلك، أحرة أنت أم مملوكة؟ فقالت: بل مملوكة يا خليفة رسول الله ﷺ، قال: فمن هويت: فبكت ثم قالت: بحق الله إلا انصرفت عنى، قال: لا أريم أو تعلمينى فقالت:

وأنا التى لعب الغـرامُ بقلبـهـا ... فبكت لحبِّ محمد بن القاسم

فصار إلى المسجد وبعث إلى مولاها فاشتراها منه، وبعث بها إلى محمد بن القاسم بن جعفر بن أبى طالب وقال: هؤلاء فتن الرجال، وكم قد مات بهن من كريم، وعطب عليهن من سليم.

ويذكر عن عثمان بن عفان ﷺ أنه جاءته جارية تستعدى على رجل من الأنصار فقال لها عثمان: ما قصتك؟ فقالت: يا أمير المؤمنين كلفت بابن أخيه، فما أنفك أراعيه، فقال له عثمان: إما أن تهبها لابن أخيك أو أعطيك ثمنها من مالى، فقال: أشهدك يا أمير المؤمنين أنها له.

وأتى علىّ بن أبى طالب بغلام من العرب وجد فى دار قوم بالليل فقال له: ما قصتك؟ فقال: لست بسارق ولكنى أصدقك:

تعلقتُ فى دار الرباحىّ خَـوْدَةً(٣) ... يَذلُّ لها من حسنها الشمسُ والبدرُ

لهـا فى بنات الرُوم حُـسْنٌ ومَنْصِبٌ ... إذا افتخرت بالحسن صدّقها الفخرُ

فلمـا طرَقتُ الدارَ من حَرِّ مُـهْـجَـة ... أتيت وفيـها من توقُّدها جمرُ

تبادر أهلُ الدار لى ثم صـيَّـحوا ... هو اللصُّ محتومًا له القتلُ والأسرُ

فلما سمع على شعره رق له وقال للمهلب بن رباح: اسمح له بها ونعوضك منها، فقال: يا أمير المؤمنين سله من هو لنعرف نسبه؟ فقال: النهاس بن عيينة العجلى، فقال: خذها فهى لك.

---

(١) متمايسًا: متمايلاً متبختراً.

(٢) ذؤابة: رئيسهم ومقدمهم.

(٣) خودة: الجارية الناعمة.

وذكر التميمى[١] فى كتابه المسمى بـ «امتزاج النفوس» أن معاوية بن أبى سفيان اشترى جارية من البحرين فأعجب بها إعجابًا شديدًا فسمعها يومًا تنشد أبياتًا منها:

وفارقتُه كالغصن يهتزُّ فِى الثرى … طَرِيرًا وَسِيمًا بعد ما طرّ[٢] شاربُه

فسألها فقالت: هو ابن عمى، فردها إليه وفى قلبه منها.

وقال سالم بن عبد الله: كانت عاتكة بنت زيد تحت عبد الله بن أبى بكر الصِّدِّيق ﷺ، وكانت قد غلبته على رأيه وشغلته عن سوقه، فأمره أبو بكر بطلاقها واحدة ففعل، فوجد عليها فقعد لأبيه على طريقه وهو يريد الصلاة فلما بصر بأبى بكر بكى وأنشأ يقول:

ولم أرَ مثلى طلّقَ اليومَ مثلها … ولا مثلَهَا فِى غير جُرْمٍ يُطلَّقُ

لها خُلُقٌ جَزْلٌ[٣] وَحلمٌ وَمَنْصِبٌ … وخَلْقٌ سَوِى فِى الْحيَاةِ ومَصْدَقُ

فرّق له أبو بكر ﷺ وأمره بمراجعتها، فلما مات قالت ترثيه:

آليتُ لا تنفكُّ عينى سخينةً … عليكَ ولا ينفكّ جلدىَ أغبرا

فللَّه عينا مَن رأى مثلَه فتًى … أعفَّ وأمضى فى الهِيَاجِ وأصبرا

إذا شرَعت[٤] فيه الأسنَّةُ خاضها … إلى الموت حتى يترك الرمحَ أحمرا

فلما حلّت تزوجها عمر بن الخطاب ﷺ، وأولم عليها[٥]، فقال له على بن أبى طالب ﷺ: أتأذن لى يا أمير المؤمنين أدخل رأسى إلى عاتكة أكلمها؟ قال: نعم، فأدخل علىٌّ رأسه إليها، وقال: يا عدية نفسها.

آليت لا تنفكُّ عينى قريرةً … عليكَ ولا ينفكُّ جلدى أصفرا

فبكت، فقال له عمر: ما دعاك إلى هذا يا أبا الحسن؟ كل النساء يفعلن هذا، فلما قُتل عمر قالت ترثيه:

عين جودى بعبرة ونحيب … لا تملى على الجواد النجيب[٦]

فجعتنى المنون بالفارس المعْـ … ـلَم يوم الهياج والتثويب

قل لأهل الضراء والبؤس موتوا … قد سقته المنون[٧] كأس شعوب[٨]

---

(١) التميمى: هو: أبو عبد الله محمد بن عيسى التميمى المغربى السبتى المالكى المذهب، توفى سنة (٥٠٥ هـ).

(٢) ما طر: ما نبت شاربه.

(٣) جزل: سهل لين.

(٤) شرعت: سُددت. الأسنة: الرماح.

(٥) أولم عليها: أقام لها وليمة، وهى طعام العرس.

(٦) النجيب: الكريم.

(٧) المنون: المصائب.

(٨) شعوب: فراق.

فلما حلّت تزوَّجها الزُّبير بن العوّام، فاستأذنت ليلة أن تخرج إلى المسجد فشق ذلك عليه وكره أن يمنعها لقول رسول الله ﷺ: «لا تمنعوا إماء الله مساجد الله»(١) فأذن لها ثم انكمى(٢) فى موضع مظلم من الطريق، فلما مرت وضع يده عليها، فكرت راجعة تسبح، فسبقها الزبير إلى المنزل، فلما رجعت قال لها: ما ردك عن وجهك؟ قالت: كنا نخرج والناس ناس، وأما اليوم فلا، وتركت المسجد، فلما قتل الزبير قالت ترثيه:

غدر ابن جُرموز بفارس بُهْمَةٍ(٣) ... يوم اللقاء وكان غير مُعَرِّدِ(٤)
يا عمرو لو نبَّهْتَه لوجدتَه ... لا طائشًا رعش السنان ولا اليدِ
ثكلتك أُمُّكَ إن ظفرت بمثله ... فيما مضى حتى تروحَ وتغتدى
كم غمرة(٥) قد خاضها لم يَثْنِه ... عنها طرادُك يا بن أُمِّ الفرقدِ(٦)
إن الزبير لذو بلاءٍ صادقٍ ... سمحٌ سجيتُه كريمُ المشهدِ

فلما حلت خطبها علىّ بن أبى طالب ﷺ فقالت: إنى لأضن بك على القتل.

وذكر الخرائطى أن المهدى خرجَ إلى الحج حتى إذا كان بزبالة(٧) جلس يتغدى فأتى بدوى فناداه: يا أمير المؤمنين، إنى عاشق، ورفع صوته، فقال للحاجب: ويحك ما هذا؟ قال: إنسان يصيح إنى عاشق، قال: أدخلوه، فأدخلوه عليه فقال: من عشيقتك؟ قال: ابنة عمى، قال: أولها أب؟ قال: نعم، قال: فما له لا يزوجك إياها؟ قال: ههنا شىء يا أمير المؤمنين، قال: ما هو؟ قال: إنى هجين - والهجين: الذى أمه أمة ليست عربية - قال له المهدى: فما يكون؟ قال: إنه عندنا عيب، فأرسل فى طلب أبيها فأتى به، فقال: هذا ابن أخيك؟ قال: نعم، قال: فلم لا تزوجه كريمتك؟ فقال له مثل مقالة ابن أخيه، وكان من ولد العباس عنده جماعة، فقال: هؤلاء كلهم بنو العباس وهم هجن ما الذى يضرهم من ذلك؟ قال: هو عندنا عيب، فقال له المهدى: زوجه إياها على عشرين ألف درهم، عشرة آلاف للعيب، وعشرة آلاف مهرها، قال: نعم، فحمد الله وأثنى عليه وزوجه إياها، فأتى ببدرتين فدفعهما إليه فأنشأ الشاب يقول:

ابْتَعْتُ ظَبْيَةً بِالْغَلاءِ وإنما ... يُعْطِى الغَلاءَ بمثلها أمثالى

---

(١) تقدم تخريجه.
(٢) الكمى: اختفى.
(٣) بهمة: القوى الذى لا يهاب أحداً فى أثناء المعركة.
(٤) مفرد: خائف.
(٥) غمرة: شدة.
(٦) أم الفرقد: نجم فى السماء.
(٧) زبالة: مكان بين مكة والكوفة.

وتركت أسواقَ القِباح لأهلها إن القِباح وإن رَخُصْنَ غَوَالِى

وذكر الخرائطى من حديث الهيثم بن عدى عن عوانة بن الحكم أن عمر بن أبى ربيعة كان قد ترك الشعر ورغب عنه ونذر على نفسه بكل بيت يقوله هدى بدنة، فمكث كذلك حينًا ثم خرج ليلة يريد الطواف بالبيت إذ نظر إلى امرأة ذات جمال تطوف، وإذا رجل يتلوها، كلما رفعت رجلها وضع رجله موضع رجلها، فجعل ينظر إلى ذلك من أمرهما، فلما فرغت المرأة من طوافها تبعها الرجل هنيهة ثم رجع، فلما رآه عمر وثب إليه وقال: لتخبرنى عن أمرك، قال: نعم، هذه المرأة التى رأيت ابنة عمى وأنا لها عاشق وليس لى مال، فخطبتها إلى عمى فرغب[1] عنى، وسألنى من المهر ما لا أقدر عليه، والذى رأيت هو حظى منها، وما لى من الدنيا أمنية غيرها، وإنما ألقاها عند الطواف وحظى ما رأيت من فعلى، فقال له عمر: ومن عمك؟ قال: فلان ابن فلان، قال: انطلق معى إليه، فانطلقا، فاستخرجه عمر فخرج مبادراً فقال: ما حاجتك يا أبا الخطاب؟ قال: تزوج ابنتك فلانة من ابن أخيك فلان، وهذا المهر الذى تسأله يساق إليك من مالى، قال: فإنى قد فعلت. قال عمر: إنى أحب أن لا أبرح حتى يجتمعا، قال: وذلك أيضًا، قال: فلم يبرح حتى جمعهما جميعًا، وأتى منزله فاستلقى على فراشه فجعل النوم لا يأخذه، وجعل جوفه يجيش[2] بالشعر، فأنكرت جاريته ذلك، فجعلت تسأله عن أمره وتقول: ويحك ما الذى قد دهاك؟ فلما أكثرت عليه جلس وأنشد:

تقول وَلِيدتى لمّا رأتنى طربتُ وكنت قد أقصرتُ حينا
أراك اليوم قد أحدثت شوقًا وهاج لك البكا داءً دفينا
بربك هل أتاك لها رسولٌ فشاقك أم رأيتَ لها خَدينا[3]
فقلت شكا إلىَّ أخٌ محب كبعض زماننا إذ تعلمينا
فعدَّ علىَّ ما يَلْقَى بهند فوافق بعضُ ما كنَّا لقينا
وذو القلب المصاب وإن تعزّى يُهَيَّجُ حين يلقى العاشقينا
وكم من خُلة[4] أعرضت عنها لغير قِلًى[5] وكنتُ بها ضنينا
رأيْتُ صدودها فصددت عنها ولو هام الفؤادُ بها جنونا

وعرض خالد بن عبد الله القسرى سجنه يومًا وكان فيه يزيد ابن فلان البجلى، فقال له خالد: فى أى شيء حُبست يا يزيد؟ قال: فى تهمة - أصلح الله الأمير - قال: أفتعود إن

(١) رغب: صد. (٢) بجيش: يفيض. (٣) خدينًا: صاحبًا.
(٤) خلة: صحبة. (٥) قلى: الكراهية والبغض.

أطلقتك؟ قال: نعم، وكره أن يعرض بقصته لئلا يفضح معشوقته، فقال خالد: أحضروا رجال الحى حتى نقطع يده بحضرتهم، وكان ليزيد أخ فكتب شعرًا ووجه به إلى خالد:

أخالدُ قد أُعطيتَ فِى الخلق رتبةً ... وما العاشقُ المسكينُ فينا بسارقِ
أَقَرَّ بما لم يَأْتِه المرءُ إنه ... رأى القطع خيرًا من فضيحة عاشقِ
ولولا الذى قد خِفْتُ من قطع كفّه ... لأُلْفِيتُ فِى شأن الهوى غيرَ ناطقِ
إذا بدت الرايات للسبق فى العُلى ... فأنت ابنَ عبد الله أوّلُ سابقِ

فلما قرأ خالد الأبيات علم صدق قوله، فأحضر أولياء الجارية فقال: زوجوا يزيد فتاتكم، فقالوا: أما وقد ظهر عليه ما ظهر فلا، فقال: لئن لم تزوجوه طائعين لتزوجنه كارهين، فزوجوه ونقد خالد المهر من عنده.

وذكر أبو العباس المبرد قال: كان رجل بالكوفة يدعى ليث بن زياد قد ربى جارية وأدبها فخرجت بارعة فى كل فن مع جمال وافر، فلم يزل معها مدة حتى تبينت منه الحاجة فقالت: يا مولاى لو بعتنى كان أصلح لك مما أراك به، وإن كنت لأظن أنى لا أصبر عنك، فقصد رجلاً من الأغنياء يعرفها ويعرف فضلها فباعها بمائة ألف درهم، فلما قبض المال وجه بها إلى مولاها وجزع عليها جزعًا شديداً، فلما صارت الجارية إلى سيدها نزل بها من الوحشة للأول ما لم تستطع دفعه ولا كتمه، فباحت به وقالت:

أتانى البلا حقًّا فما أنا صانعُ ... أمصطبرٌ للبين[1] أم أنا جازعُ
كفى حَزَنًا أنى عَلَى مثل جمر ... أقاسى نجومَ الليل والقلبُ نازعُ[2]
فإن يمنعونى أن أبوح بحبه ... فإنى قتيلٌ والعيونُ دوامعُ

فبلغ سيدها شعرها فدعا بها وأرادها فامتنعت عليه وقالت له: يا سيدى إنك لا تنتفع بى، قال: ولم ذاك؟ قالت: إنى لما بى، قال: وما بك؟ صفيه لى، قالت: أجد فى أحشائى نيرانًا تتوقد، لا يقدر على إطفائها أحد، ولا تسأل عما وراء ذلك، فرحمها ورق لها وبعث إلى مولاها فسأل عن خبره، فوجد عنده مثل الذى عندها، فأحضره فرد الجارية عليه، ووهب له من ثمنها خمسين ألفًا، فلم تزل عنده مدة طويلة. وبلغ عبد الله بن طاهر خبرهما وهو بخراسان، فكتب إلى خليفته بالكوفة يأمره أن ينظر فإن كان هذا الشعر الذى ذكر له من قبل الجارية أن يشتريها له بما ملكت يمينه، فركب إلى مولى الجارية فخبره بما كتب

---

(١) للبين: للفراق.
(٢) نازع: شدة الشوق.

إليه عبد الله بن طاهر، فلم يجد سيدها بداً من عرضها عليه وهو كاره فأراد الأمير أن يعلم ما عند الجارية فأنشأ يقول:

بديعُ حسْنٍ رشيقُ قدٍّ ... جعلت منِّى له ملاذا

فأجابته الجارية:

فعاتبوه فزاد عشقًا ... فمات شوقًا فكان ماذا

فعلم أنها تَصْلُح له، فاشتراها بمائتى ألف درهم، فجهَّزها وحملها إلى عبد الله بن طاهر إلى خراسان، فلما صارت إليه اختبرها فوجدها على ما أراد، فغلبته على عقله، ويقال: إنها أم محمد بن عبد الله بن طاهر، ولم تزل ألطافها[1] وجوائزها تأتى مولاها الأول حتى ماتت.

وقال عمر بن شبة: حدثنا أيوب بن عمر الغفارى قال: طلق عبد الله بن عامر امرأته ابنة سهل بن عمرو، فقدمت المدينة ومعها ابنة لها، ومعها وديعة جوهر استودعها إياه، فتزوجها الحسن بن على بن أبى طالب ﷺ، ثم أراد ابن عامر الحج فأتى المدينة فلقى الحسن فقال: يا أبا محمد، إن لى إلى ابنة سهل حاجة فأحب أن تأذن لى عليها، فقال الحسن: البسى ثيابك فهذا ابن عامر يستأذن عليك، فدخل عليها فسألها وديعته فجاءته بها عليها خاتمه. فقال لها: خذى ثلثها، فقالت: ما كنت لآخذ على أمانة ائتمنت عليها شيئًا أبداً، ثم أقبل عليها ابن عامر فقال: إن ابنتى قد بلغت فأحب أن تخلى بينى وبينها، فبكت وبكت ابنتها، فرقَّ ابن عامر فقال الحسن: فهل لكما؟ فوالله ما من محلل خير منى قال: فوالله لا أخرجها من عندك أبداً، فكفلها حتى مات.

وذكر الزمخشرى فى ربيع الأبرار: أن زبيدة بنت أبى جعفر قرأت فى طريق مكة على حائط:

أما فى عباد الله أو فى إمائه
كريمٌ يُجَلِّى[2] الهمَّ عن ذاهب العقل
له مقلةٌ أما المآقى[3] فقرحةٌ
وأما الحشا فالنارُ منه على رِجْل[4]

---

(١) **ألطافها**: عطاياها. (٢) **يجلى**: يوضح ويظهر.
(٣) **المآقى**: جمع ماق وهو: طرف العين مما يلى الأنف، المعجم الوجيز (٥٧١).
(٤) **رجل**: أقوى ما تكون.

فنذرت أن تحتال لقائلهما حتى تجمع بينه وبين من يحبه، قالت: فإنى لبمزدلفة(١) إذ سمعت من ينشدهما، فاستدعيت به فزعم أنه قالهما فى بنت عم له، وقد حلف أهلها أن لا يزوجوها منه، فوجهت إلى الحى وما زالت تبذل لهم المال حتى زوجوه. وإذا المرأة أعشق من الرجل، فكانت زبيدة تعده فى أعظم حسناتها وتقول: ما أنا بشىء أسر منى بجمعى بين ذلك الفتى والفتاة.

قال الزمخشرى: وهوى أحمد بن أبى عثمان الكاتب جارية لزبيدة اسمها: «نعم» حتى مرض وقال فيها أبياتًا منها:

وإنى لَيُرضينى المَمَرُّ ببابها ... واقنع منها بالشتيمة والزَّجْرِ

فوهبتها له.

وذكر الخرائطى أنه كان لبعض الخلفاء غلام وجارية من غلمانه وجواريه متحابين، فكتب الغلام إليها يومًا يقول:

ولقد رأيتك فى المنام كأنما ... عاطَيْتنى من ريق فيك البارِدِ

وكان كفك فى يدى وكأننا ... بِتْنا جميعًا فى فراشٍ واحدِ

فطفقتُ يومى كلَّه متراقدًا ... لأراكِ فى نومى ولستُ براقدِ

ثم انتبهت ومِعْصماك كلاهما ... بيدى اليمين وفى يمينك ساعدى

فأجابته الجارية:

خيرًا رأيتَ وكلُّ ما أبصرتَه ... ستناله منّى برغم الحاسد

إنى لأرجو أن تكون معانقى ... فتبيتَ منى فوق ثدْىٍ ناهد

وأراك بين خلاخلى(٢) ودَمالجى(٣) ... وأراك بين ترائبى(٤) ومَجَاسدى(٥)

ونَبيت ألطفَ عاشقَيْن تعاطيا ... طرف الحديث بلا مخافة راصد(٦)

فبلغ الخليفة فأنكحهما وأحسن إليهما على شدة غيرته.

وقال أبو الفرج بن الجوزى رحمه الله تعالى: سمع المهلب فتى يتغنى بشعر فى جارية له فقال المهلب:

---

(١) المزدلفة: مكان يأتى إليه الحجاج من عرفة فيبيتون به ثم ينصرفون إلى منى.
(٢) خلاخلى: حلى توضع فى الساق. (٣) دمالجى: حلى توضع على المعصم.
(٤) ترائبى: موضع وضع القلادة.
(٥) مجاسدى: ما يلبس مما يلى الجسد مباشرة. (٦) راصد: راقب.

لَعَمْرِىَ إنى للمحبِّين راحمٌ ... وإنى بسَتْرِ العاشقين حقيق
ساجمع منكم شمل وُدٌّ مبدَّد ... وإنى بما قد ترجُوَان خليق

ثم وهبها له ومعها خمسة آلاف دينار.

وقال الخرائطى: كان رجل نخاس[١] عنده جارية لم يكن له مال غيرها، وكان يعرضها فى المواسم فتغالى الناس فيها حتى بلغت مبلغًا كثيرًا من المال وهو يطلب الزيادة، فعلقها[٢] رجل فقير فكاد عقله أن يذهب، فلما بلغه ذلك وهبها له، فعوتب فى ذلك فقال: إنى سمعت الله تعالى يقول: **﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾** (المائدة: ٣٢) أفلا أُحى الناس جميعًا؟.

وقال على بن قريش الجرجانى:

شكوت بلاءً لا أُطيق احتماله ... وقلبى مطيعٌ للهوى غيرُ دافع
فأُقسم ما تركى عتابَك عن قِلًى[٣] ... ولكن لعلمى أنه غيرُ نافع
وإنى متى لم ألْزَم الصبرَ طائعًا ... فلا بدَّ منهُ مكرَهًا غيرَ طائع
إذا أنت لم يَعطفك إلا شفاعةٌ ... فلا خير فى ودٍّ يكون بشافع

وكان أبو السائب المخزومى أحد القراء والفقهاء، فرؤى متعلقًا بأستار الكعبة وهو يقول: اللَّهم ارحم العاشقين، واعطف عليهم قلوب المعشوقين، فقيل له فى ذلك، فقال: الدعاء لهم أفضل من عمرة من الجعرانة.

وذكر أحمد بن الفضل الكاتب أن غلامًا وجارية كانا فى كتاب فهويها الغلام، فلما كان فى بعض أيامه فى غفلة من الغلمان كتب فى لوح الجارية:

ماذا تقولين فيمن شَفَّه سَقَمٌ ... من طول حبُّك حتى صار حيرانا

فلما قرأته الجارية اغرورقت عيناها بالدُّموع رحمة له وكتبت تحته:

إذا رأينا محبًّا قد أضرَّ به ... طولُ الصبابة أوْلَيْنَاهُ إحسانا

وذكر الهيثم بن عدى، عن محمد بن زياد أن الحارث بن السليل الأزدى خرج زائرًا لعلقمة بن حزم الطائى وكان حليفًا له، فنظر إلى ابنة له تُدعى الرَّباب وكانت من أجمل النساء، فاعجب بها وعشقها عشقًا حال بينه وبين الانصراف إلى أهله، فقال لعلقمة: إنى أتيتك خاطبًا وقد ينكح الخاطب، ويدرك الطالب، ويمنح الراغب قال: عفو كريم فأقم

---

(١) **نخاس**: بائع الرقيق والعبيد.
(٢) **علقها**: تعلق قلبه بها.
(٣) **قلى**: الهجر والكره.

نتظر فى أمرك، ثم انكفأ[١] إلى أمّ الجارية فقال لها: إن الحارث سيد قومه حسبًا ومنصبًا وبيتًا فلا ينصرفن من عندنا إلا بحاجته، فشاورى ابنتك وأديريها عما فى نفسها، فقالت لها: أى بنية، أى الرجال أعجب إليك؟ الكهل الجحجاح[٢]، المفضل المياح[٣]، أم الفتى الوضاح[٤]، الملول الطماح؟ قالت: الفتى الوضاح، فقالت: إن الفتى يغيرك[٥]، وإن الشيخ يميرك[٦]، وليس الكهل الفاضل، الكثير النائل[٧]، كالحديث السن، الكثير المن، فقالت: يا أماه أحب الفتى، كحب الرعاء أنيق الكلا، قالت: يا بنية، إن الفتى شديد الحجاب، كثير العتاب. قالت: يا أماه أخشى من الشيخ أن يدنس ثيابى ويبلى شبابى، ويشمت بى أترابى[٨]، فلم تزل بها الأم حتى غلبتها على رأيها فتزوجها الحارث على خمسين ومائة من الإبل وخادم وألف درهم، فبنى بها وكانت عنده أحب شىء إليه، فارتحل بها إلى أهله، فإنه لجالس يومًا بفناء مظلته وهى إلى جانبه إذ أقبل فتية يعتلجون[٩] الصراع فتنفست الصعداء، ثم أرسلت عينيها بالبكاء فقال ما يبكيك؟ فقالت: ما لى وللشيوخ، الناهضين كالفروخ[١٠]، فقال: ثكلتك أمك قد تجوع الحرة ولا تأكل بثديها، فسارت مثلاً، أى لا تكون ظئرًا[١١]، وكان أول من نطق بها، ثم قال: أما وأبيك لرب غارة شهدتها، وسبية أردفتها، وخمرة شربتها، الحقى بأهلك فلا حاجة لى فيك، ثم أنشأ يقول:

وعيَّرَتْ أن رأتنى لابسًا كِبَرًا ... وغايةُ النفس بين الموت والكِبَر
فإن بقيتِ رأيتِ الشيبَ راغمَةً ... وفى التفرُّق ما يقضى من العِبَر
وإن يكن قد علا رأْسى وغيَّره ... صَرفُ الزمان[١٢] وتقتيرٌ من الشَّعَر
فقد أَروح للذّات الفتى جَذِلاً[١٣] ... وهمتى لم تُشَبْ[١٤] فاستخبرى أثرى

---

(١) انكفأ: ارتد وعاد.
(٢) الجحجاح: السيد السمح الكريم.
(٣) المياح: المعطاء.
(٤) الوضاح: البسام.
(٥) يغيرك: يجعلك تغارين.
(٦) يميرك: يزودك بالطعام.
(٧) النائل: كثير العطاء.
(٨) أترابى: مثيلاتى.
(٩) يعتلجون: يتقاتلون.
(١٠) الفروخ: الضعفاء.
(١١) ظئرًا: الظئر: المرضع.
(١٢) صدف الزمان: خطوبه وحوادثه.
(١٣) جذلاً: نشيطًا.
(١٤) تشب: ما زالت شابة، لم يصبها الشيب.

الباب السادس والعشرون:

فى ترك المحبين أدنى المحبوبين رغبة فى أعلاهما

هذا باب لا يدخل فيه إلا النفوس الفاضلة الشريفة الأبية التى لا تقنع بالدون، ولا تبيع الأعلى بالأدنى بيع العاجز المغبون، ولا يملكها لطخ جمال مُغش(١) على أنواع من القبائح، كما قال بعض الأعراب وقد نظر إلى امرأة مبرقعة:

إذا بارك الله فى مَلْبَس ... فلا بارك اللهُ فى البُرْقُع

يُريك عيونَ المَها مُسْبَلاً ... ويكشفُ عن منظرٍ فى أشنع

وقال الآخر:

لا يغرَّنْكَ ما ترى من نقاب ... إن تحت النقاب داءً دَوِيًا

فالنفس الأبية لا ترضى بالدُّون، وقد عاب الله سبحانه أقوامًا استبدلوا طعامًا بطعام أدنى منه، فنعى ذلك عليهم وقال: ﴿**أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِى هُوَ خَيْرٌ**﴾ (البقرة: ٦١) وذلك دليل على وضاعة النفس وقلة قيمتها.

وقال الأصمعى: خلا رجل من الأعراب بامرأة فهمَّ بالريبة، فلما تمكن منها تنحى سليمًا وجعل يقول: إن امرءًا باع جنة عرضها السموات والأرض بفتر(٢) ما بين رجليك لقليل البصر بالمساحة، **وقال أبو أسماء**: دخل رجل غيضة(٣) فقال: لو خلوت ههنا بمعصية من كان يرانى؟ فسمع صوتًا ملأ ما بين لابتى(٤) الغيضة: ﴿**أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ**﴾ (الملك: ١٤) **وقال الإمام أحمد**: حدثنا هيثم ـ هو ابن خارجة ـ حدثنا إسماعيل بن عياش، عن عبد الرحمن بن عدى البهرانى، عن يزيد بن ميسرة قال: إن الله تعالى يقول: أيها الشاب التارك شهوته لى، المتبذل(٥) شبابه من أجلى، أنت عندى كبعض ملائكتى(٦).

وذكر إبراهيم بن الجنيد أن رجلاً راود امرأة عن نفسها فقالت له: أنت قد سمعت

---

(١) **جمال مغش**: جمال يخفى ما فيه من القبائح والعيوب.

(٢) **فتر**: مسافة ما بين الإبهام وطرف السبابة.

(٣) **غيضة**: الغابة ذات الشجر الكثيف.

(٤) **لابتى**: جانبى.

(٥) **المتبذل**: المتواضع.

(٦) **ضعيف**: رواه ابن المبارك فى «الزهد» (٣٤٧).

القرآن والحديث فانت أعلم، قال: فأغلقى الأبواب فأغلقتها، فلما دنا منها قالت: بقى باب لم أغلقه، قال: أى باب؟ قالت: الباب الذى بينك وبين الله، فلم يتعرض لها.

وذكر أيضًا عن أعرابى قال: خرجت فى بعض ليالى الظلم، فإذا أنا بجارية كأنها علم[١] فأردتها عن نفسها فقالت: ويلك أما كان لك زاجر[٢] من عقل، إذ لم يكن لك ناهٍ من دين؟ فقلت: إنه والله ما يرانا إلا الكواكب، قالت: فأين مكوكبها؟.

وجلس زياد مولى ابن عياش ﷺ إلى بعض إخوانه فقال له: يا عبد الله، فقال له: قل ما تشاء، قال: ما هى إلا الجنة أو النار؟ قلت: نعم، قال: وما بينهما منزل ينزله العباد؟ قلت: لا والله، فقال: والله إن نفسى لنفس أضن بها على النار، والصبر اليوم عن معاصى الله خير من الصبر على الأغلال.

وقال وهب بن منبه: قالت امرأة العزيز ليوسف عليه السلام: ادخل معى القيطون، تعنى الستر، قال: إن القيطون لا يسترنى من ربى.

وقال اليزيدى: دخلت على هارون الرشيد فوجدته مكبًّا[٣] على ورقة ينظر فيها مكتوبة بالذهب، فلما رآنى تبسم فقلت: فائدة أصلح الله أمير المؤمنين؟ قال: نعم، وجدت هذين البيتين فى بعض خزائن بنى أمية فاستحسنتهما فأضفت إليهما ثالثًا، فقال: ثم أنشدنى:

إذا سُدّ بابٌ عنك من دون حاجةٍ ... فَدَعْهُ لأخرى ينفتحْ لك بابُها
فإن قُراب[٤] البطن يكفيك مَلأَه ... ويكفيك سوْءاتِ الأمور اجتنابها
فلاتكُ مِبْذالاً لدينك واجتنب ... ركوبَ المعاصى يَجْتنِبْك عِقابُها

وقال أبو العباس الناشئ:

إذا المرء يحمى نفسه حِلَّ شهوةٍ ... لصحّة أيَّامٍ تبيد وتَنْفَدُ
فما بَالُه لا يحتمى من حرامها ... لصحّة ما يبقى له وَيُخَلَّدُ

وقيل: إن على بن أبى طالب ﷺ كان ينشد هذين البيتين:

اقدع[٥] النفسَ بالكَفاف وإلا ... طلبتْ منك فوق ما يكفيها
إنما أنتَ طولَ عمرك ما عُمّـ ... ـمِرْتَ فى الساعة التى أنت فيها

---

(١) علم: ما ينير الطرق.
(٢) زاجر: رادع.
(٣) مكبًّا: ملازمًا.
(٤) قراب: غمد السيف.
(٥) اقدع: امنع.

ومن أحسن شعر العرب وكان عمرو بن العاص يتمثل بهما:

إذا المرءُ لم يترك طعامًا أَحبَّهُ ... ولم يَنْهَ قلبًا غاويًا حيث يمَّما(١)

قضى وطَرًا منه وغادر سُبَّةً ... إذا ذكرت أمثالُها تملأ الفما

وقال شعبة: عن منصور، عن إبراهيم، كلم رجل من العباد امرأة فلم يزل بها حتى وضع يده على فخذها فانطلق فوضع يده على النار حتى نشت(٢).

وقال زيد بن أسلم عن أبيه: كان عابدٌ فى صومعة يتعبد فأشرف ذات يوم فرأى امرأة ففتن بها، فأخرج إحدى رجليه من الصومعة يريد النزول إليها، ثم فكر وادكر فأناب، فأراد أن يعيد رجله إلى الصومعة فقال: والله لا أدخل رجلاً خرجت تريد أن تعصى الله فى صومعتى أبداً، فتركها خارجة من الصومعة فأصابها الثلج والبرد والرياح حتى تقطعت.

وقال بعض السلَف: من كان له واعظ من قلبه زاده الله عز وجل عزًّا، والذل فى طاعة الله أقرب من العز فى معصيته، وقال أبو العتاهية(٣): لقيت أبا نواس فى المسجد الجامع فعذلته(٤) وقلت له: أما آن لك أن ترعوى(٥) وتنزجر؟ فرفع رأسه إلى وقال:

أتراني يا عَتَاهي(٦) ... تاركًا تلك الملاهي

أتراني مفسداً بالنْـ ... ـنُسك عنْد القوم جاهي

فلما ألححت عليه فى العذل أنشأ يقول:

لا ترْجع الأنْفسُ عن غَيِّها ... ما لم يكن منها لها زاجرُ

فوددت أنى قلت هذا البيت بكل شئ قلته.

وقال ابن السماك عن امرأة كانت تسكن البادية: لو طالعت قلوب المؤمنين بفكرها ما ذخر(٧) لها فى حجب الغيوب من خير الآخرة، ولم يصف لهم فى الدنيا عيش، ولم تقر لهم عين، **وقال ضيغم لرجل**: إن حبه عز وجل شغل قلوب محبيه عن التلذذ بمحبة غيره،

---

(١) **يمما**: توجهها. (٢) **نشت**: خفتت.

(٣) **أبو العتاهية هو**: أبو إسحاق إسماعيل بن قاسم العنزى الكوفى، من فحول الشعراء، ولد سنة (١٤٨ هـ) وتوفى سنة (٢٢١ هـ).

(٤) **مزلته**: لمته. (٥) **ترعوى**: ترتدع.

(٦) **عتاهي**: نقص عقله من غير مس جنون، كذا فى «المعجم الوجيز» (٤٠٥) ولعله يقصد أبى العتاهية الشاعر.

(٧) **ذخر**: ادخر وخبا.

فليس لهم فى الدنيا مع محبته عز وجل لذة تدانى محبته، ولا يأملون فى الآخرة من كرامة الثواب أكبر عندهم من النظر إلى وجه محبوبهم، فسقط الرجل مغشيًّا عليه.

وفى مسند الإمام أحمد من حديث عبد الرحمن بن جبير بن نفير، عن أبيه عن النواس ابن سمعان ﷺ، عن رسول الله ﷺ قال: «ضرب الله مثلاً صراطًا مستقيمًا وعلى جنبتى الصراط سوران، وفى السورين أبواب مفتحة، وعلى الأبواب ستور مرخاة، وعلى رأس الصراط داع يقول: يا أيها الناس ادخلوا الصراط ولا تعرجوا، وداع يدعو فوق الصراط فإذا أراد أحد فتح شيء من تلك الأبواب، قال: ويحك لا تفتحه فإنك إن فتحته تلجه، فالصراط الإسلام، والستور المرخاة حدود الله، والأبواب المفتحة محارم الله، والداعى على رأس الصراط كتاب الله عز جل، والداعى من فوق الصراط واعظ الله فى قلب كل مسلم»[١].

وقال خالد بن معدان: ما من عبد إلا وله عينان فى وجهه يبصر بهما أمر الدنيا، وعينان فى قلبه يبصر بهما أمر الآخرة، فإذا أراد الله بعبد خيرًا فتح عينيه اللتين فى قلبه فابصر بهما ما وعده الله بالغيب، وإذا أراد الله به غير ذلك تركه على ما هو فيه، ثم قرأ: ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ (محمد: ٢٤).

وفى الترمذى عنه ﷺ: «الكيِّس من دان نفسَه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسَه هواها وتمنى على الله الأمانى»[٢].

وفى المسند من حديث فضالة بن عبيد عن النبى ﷺ: «المجاهد من جاهد نفسه فى ذات الله والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله»[٣].

وقال الإمام أحمد، رحمه الله تعالى: حدثنا عبد الرحمن بن مهدى، حدثنا عبد العزيز ابن مسلم، عن الربيع بن أنس، عن أبى العالية، عن أبى بن كعب ﷺ قال: «من أصبح وأكثر همه غير الله فليس من الله»[٤].

---

(١) **صحيح**: رواه أحمد (٤/ ١٨٢، ١٨٣) والترمذى (٢٨٥٩) والحاكم (١/ ٧٣) وابن أبى عاصم فى «السنة» (١٩) وصححه الألبانى فى «ظلال الجنة».

(٢) **ضعيف**: رواه أحمد (٤/ ١٢٤) والترمذى (٢٤٥٩) وابن ماجه (٤٢٦٠) والحاكم (١/ ٥٧) والبغوى فى «شرح السنة» (٤٠١٢).

(٣) **صحيح**: رواه أحمد (٦/ ٢٠، ٢٢) وأبو داود (٢٥٠٠) والترمذى (١٦٢١) والحاكم (٢/ ١٤٤) والطبرانى فى «الكبير» (١٨/ ٨٠٢) وصححه الألبانى فى «صحيح أبى داود» (١٢٥٨).

(٤) **موضوع**: رواه الطبرانى فى «الأوسط» (٤٧٤) والحاكم (٤/ ٣٢٠) وأبو نعيم فى «الحلية» (٣/ ٤٨) وحكم عليه الألبانى بالوضع فى «ضعيف الجامع» (٥٤٢٩).

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن، عن هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن عطاء بن يسار قال: قال موسى عليه السلام: يا رب من أهلك الذين تظلهم فى ظل عرشك؟ قال: «هم البريئة أيديهم، الطاهرة قلوبهم، الذين يتحابون بجلالى، الذين إذا ذُكرت ذُكروا بى، وإذا ذُكروا بى ذُكرت بذكرهم، الذين يسبغون[1] الوضوء فى المكاره، وينيبون إلى ذكرى كما تنيب النسور إلى وكورها، ويكلفون بحبى كما يكلف الصبى بحب الناس، ويغضبون لمحارمى إذا استحلت كما يغضب النمر إذا حَرِب»[2].

وقال أحمد: حدثنا إبراهيم بن خالد، حدثنى عبد الله بن يحيى قال: سمعت وهب ابن منبه يقول: قال موسى عليه السلام: «أى رب أى عبادك أحب إليك؟ قال: من أذكر برؤيته».

وقال أحمد: حدثنا سيار، حدثنا جعفر، حدثنا هشام الدستوائى قال: بلغنى أن فى حكمة عيسى ابن مريم عليه السلام: «تعملون للدنيا وأنتم ترزقون فيها بغير عمل، ولا تعملون للآخرة وأنتم لا ترزقون فيها إلا بالعمل، ويحكم علماء السوء، الأجر تأخذون والعمل تضيعون، توشكون أن تخرجوا من الدنيا إلى ظلمة القبر وضيقه، والله عز وجل نهاكم عن المعاصى كما أمركم بالصوم والصلاة، كيف يكون من أهل العلم مَنْ دنياه آثر عنده من آخرته وهو فى الدنيا أعظم رغبة؟ كيف يكون من أهل العلم من مسيره إلى آخرته وهو مقبل على دنياه، وما يضره أشهى إليه مما لا يضره؟ كيف يكون من أهل العلم من اتهم الله عز وجل فى قضائه فليس يرضى بشىء أصابه؟ كيف يكون من أهل العلم من طلب العلم ليتحدث به ولم يطلبه ليعمل به؟».

وقال عبد الله بن المبارك، عن معمر، قال الصبيان ليحيى بن زكريا: اذهب بنا نلعب، قال: أوَلِلعب خلقنا؟.

وقال أحمد: حدثنا أبو بكر الحنفى، حدثنا عبد الحميد بن جعفر، حدثنى الحسن ابن الحسن بن على بن أبى طالب أن أُمه فاطمة حدثته أن رسول الله ﷺ قال: «إن من شرار أمتى الذين غذوا بالنعيم، الذين يطلبون ألوان الطعام، وألوان الثياب، ويتشدقون بالكلام»[3]، **وقال أحمد**: حدثنا أبو قطن، حدثنا شعبة، عن أبى مسلمة، عن أبى نضرة

---

(١) **يسبغون**: يتوضؤون وضوءاً كاملاً.

(٢) **ضعيف**: رواه أحمد فى «الزهد» (٣٨٩) وابن المبارك فى «الزهد» (٢٠٤).

(٣) **صحيح**: رواه أحمد فى «الزهد» (٣٩٧) وابن عدى (٥/ ٣١٩) وابن عساكر (٩/ ٦٠/ ٣) وصححه الألبانى فى «الصحيحة» (١٨٩١).

قال: قال عمر بن الخطاب ﷺ لأبى موسى: يا أبا موسى شوقنا إلى ربنا، قال: فقرأ، فقالوا: الصلاة، فقال عمر: أولسنا فى الصلاة؟.

فصل: وملاك الأمر كله الرغبة فى الله وإرادة وجهه والتقرب إليه بأنواع الوسائل، والشوق إلى الوصول إليه وإلى لقائه، فإن لم يكن للعبد همةٌ إلى ذلك فالرغبة فى الجنة ونعيمها وما أعد الله فيها لأوليائه، فإن لم تكن له همة عالية تطالبه بذلك فخشية النار وما أعد الله فيها لمن عصاه، فإن لم تطاوعه نفسه بشىء من ذلك فليعلم أنه خلق للجحيم لا للنعيم، ولا يقدر على ذلك بعد قدر الله وتوفيقه إلا بمخالفة هواه، فهذه فصول أربعة هن: ربيع المؤمن وصيفه وخريفه وشتاؤه، وهن منازله فى سيره إلى الله عز وجل، وليس له منزلة غيرها.

فأما مخالفة الهوى فلم يجعل الله للجنة طريقًا غير مخالفته، ولم يجعل للنار طريقًا غير متابعته، قال الله تعالى: ﴿ **فَأَمَّا مَن طَغَىٰ (٣٧) وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٣٨) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ (٣٩) وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ** ﴾ (النازعات: ٣٧ - ٤١) وقال تعالى: ﴿ **وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ** ﴾ (الرحمن: ٤٦) قيل: هو العبد يهوى المعصية فيذكر مقام ربه عليه فى الدنيا، ومقامه بين يديه فى الآخرة فيتركها لله.

وقد أخبر سبحانه أن اتباع الهوى يضل عن سبيله، فقال الله تعالى: ﴿ **يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ** ﴾ (سورة ص: ٢٦) ثم ذكر مآل[1] الضالين عن سبيله ومصيرهم فقال: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ** ﴾ (سورة ص: ٢٦).

وأخبر سبحانه أنه باتباع الهوى يطبع على قلب العبد فقال: ﴿ **أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ** ﴾ (محمد: ١٦) وقد أخبر النبى ﷺ أن العاجز هو الذى اتبع هواه وتمنى على الله، وذكر الإمام أحمد من حديث راشد بن سعد، عن أبى أمامة الباهلى ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «ما تحت ظل السماء إله يعبد أعظم عند الله من هوًى متبع»[2]، وذكر من حديث جعفر بن حيان، عن أبى الحكم، عن أبى برزة الأسلمى ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «أخوف ما أخاف عليكم شهوات الغى فى بطونكم وفروجكم ومضلات

---

(١) مآل: مصير ومرجع.

(٢) موضوع: رواه الطبرانى فى «الكبير» (٧٥٠٢) وأبو نعيم فى «الحلية» (٦/ ١٨) وابن أبى عاصم فى «السنة» (١/ ٨) وابن الجوزى فى «الموضوعات» (٣/ ١٣٩).

الهـوى» [(١)] وفى نسخة كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف المزنى، عن أبيه، عن جده ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أخوف ما أخاف على أمتى حكم جائر، وزلة عالم، وهوى متبع» [(٢)].

وقيل لبعض الحكماء: أى الأصحاب أبر؟ قال: العمل الصالح، قيل: فأى شىء أضر؟ قال: النفس والهوى.

وقال بعض الحكماء: إذا اشتبه عليك أمران فانظر أقربهما من هواك فاجتنبه.

وأتى بعض الملوك بأسير عظيم الجرم فقال: لو كان هواى فى العفو عنك لخالفت الهوى إلى قتلك، ولكن لما كان هواى فى قتلك خالفته إلى العفو عنك.

وقال الهيثم بن مالك الطائى: سمعت النعمان بن بشير يقول على المنبر: إن للشيطان فخوخًا ومصالى [(٣)] وإن من مصالى الشيطان وفخوخه البطر بأنعم الله، والفخر بإعطاء الله، والكبرياء على عباد الله، واتباع الهوى فى غير ذات الله.

وفى المسند وغيره من حديث قتادة، عن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث مهلكات، وثلاث منجيات، فالمهلكات: شح مطاع، وهوًى متبع، وإعجاب المرء بنفسه، والمنجيات: تقوى الله تعالى فى السر والعلانية، والعدل فى الغضب والرضى، والقصد فى الفقر والغنى» [(٤)].

وفى جامع الترمذى من حديث أسماء بنت عميس ﷺ قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «بئس العبد عبد تجبر واعتدى، ونسى الجبار الأعلى، بئس العبد عبد تخيل واختال، ونسى الكبير المتعال، بئس العبد عبد سها ولها، ونسى المقابر والبلى، بئس العبد عبد بغى وعتا، ونسى المبدأ والمنتهى [بئس العبد عبد يختل الدنيا بالدين] بئس العبد عبد يختل الدين بالشبهات، بئس العبد عبد طمع يقوده، بئس العبد عبد هوى يضله [بئس العبد عبد رغب يذله]» [(٥)].

---

(١) صحيح: رواه أحمد (٤/ ٤٢٠، ٤٢٣) والطبرانى فى «الكبير» (١/ ٨٨) وابن أبى عاصم فى «السنة» (١٤).

(٢) ضعيف: رواه البزار (١٨٢) والطبرانى فى «الكبير» (١٧/ ١٧).

(٣) مصالى: جمع مصلاة، وهى: الفخاخ، مفرد: فخ.

(٤) صحيح: رواه البزار (٨٠) والعقيلى فى «الضعفاء» (٣٥٢) والطبرانى فى «الأوسط» (٥٤٥٣) وأبو نعيم فى «الحلية» (٢/ ٣٤٣) وصححه الألبانى فى «صحيح الجامع» (٣٠٣٩).

(٥) ضعيف: رواه الترمذى (٢٤٤٨) وابن أبى عاصم فى «السنة» (١٠) وضعفه الألبانى فى «ظلال الجنة».

وقد أقسم النبى ﷺ أنه لا يؤمن العبد حتى يكون هواه تبعًا لما جاء به، فيكون هواه تابعًا لا متبوعًا، فمن اتبع هواه فهواه متبوع له، ومن خالف هواه لما جاء به الرسول ﷺ فهواه تابع له، فالمؤمن هواه تابع له، والمنافق الفاجر هواه متبوع له(١).

وقد حكم الله لتابع هواه بغير هدى من الله أنه أظلم الظالمين، فقال الله عز وجل: ﴿**فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**﴾ (القصص: ٥٠) وأنت تجد تحت هذا الخطاب أن الله لا يهدى من اتبع هواه، وجعل سبحانه وتعالى المتَّبَع قسمين لا ثالث لهما: إما ما جاء به الرسول ﷺ، وإما الهوى، فمن اتبع أحدهما لم يمكنه اتباع الآخر، والشيطان يطيف بالعبد من أين يدخل عليه فلا يجد عليه مدخلاً ولا إليه طريقًا إلا من هواه. فلذلك كان الذى يخالف هواه يفرق(٢) الشيطان من ظله، وإنما تطاق مخالفة الهوى بالرغبة فى الله وثوابه، والخشية من حجابه وعذابه، ووجد حلاوة الشفاء فى مخالفة الهوى، فإن متابعته الداء الأكبر، ومخالفته الشفاء الأعظم. وقيل لأبى القاسم الجنيد: متى تنال النفوس مناها؟ فقال: إذا صار داؤها دواها، فقيل له: ومتى يصير داؤها دواها؟ فقال: إذا خالفت هواها، ومعنى قوله: يصير داؤها دواها أن داءها هو الهوى، فإذا خالفته تداوت منه بمخالفته.

وقيل: إنما سُمى هوًى لأنه يهوى بصاحبه إلى أسفل السافلين. والهوى ثلاثة أرباع الهوان، وهو شارع النار الأكبر كما أن مخالفته شارع الجنة الأعظم، وقال أبو دلف العجلى:

واسوأتا لفتًى له أدبٌ ... يُضحى هواه قاهرًا أدَبَهْ
يأتى الدنيَّة وهو يعرفها ... فيشين عرضًا صائنا أَرَبَهْ
فإذا ارْعَوَى(٣) عادت بصيرتُه ... فبكى عَلَى الحين الذى سلبه

وقال ابن المرتفق الهذلى:

أين لى ما ترى والمرءُ يأتى ... عزيمته ويغلِبُهُ هواه
فيعمى ما يرى فيه عليه ... ويحسب من يراه لا يراه

فصل: وأما الرغبة فى الله وإرادة وجهه، والشوق إلى لقائه فهى رأس مال العبد وملاك أمره وقوام حياته الطيبة، وأصل سعادته وفلاحه ونعيمه وقرة عينه، ولذلك خُلق، وبه أمر، وبذلك أرسلت الرسل، وأنزلت الكتب، ولا صلاح للقلب ولا نعيم إلا بأن تكون رغبته إلى

---

(١) ضعيف: رواه ابن أبى عاصم فى «السنة» (١٥).
(٢) يفرق: يهاب ويخاف.
(٣) ارعوى: انزجر وارتدع.

الله عز وجل وحده، فيكون هو وحده مرغوبه ومطلوبه ومراده كما قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۝ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ (الشرح: ٧، ٨) وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ (التوبة: ٥٩).

والراغبون ثلاثة أقسام: راغب في الله، وراغب فيما عند الله، وراغب عن الله، فالمحب راغب فيه، والعامل راغب فيما عنده، والراضي بالدنيا من الآخرة راغب عنه، ومن كانت رغبته في الله كفاه الله كل مهم، وتولاه في جميع أموره، ودفع عنه ما لا يستطيع دفعه عن نفسه، ووقاه وقاية الوليد، وصانه من جميع الآفات. ومن آثر الله على غيره آثره الله على غيره. ومن كان لله كان الله له حيث لا يكون لنفسه، ومن عرف الله لم يكن شيء أحب إليه منه، ولم تبق له رغبة فيما سواه، إلا فيما يقربه إليه ويعينه على سفره إليه.

ومن علامات المعرفة: «الهيبة»: فكلما ازدادت معرفة العبد بربه ازدادت هيبته له وخشيته إياه كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ (فاطر: ٢٨) أي العلماء به. وقال النبي ﷺ: «أنا أعرفكم بالله وأشدكم له خشية»(١).

ومن عرف الله صفا له العيش، وطابت له الحياة، وهابه كل شيء، وذهب عنه خوف المخلوقين، وأنس بالله، واستوحش من الناس، وأورثته المعرفة الحياء من الله، والتعظيم له، والإجلال والمراقبة والمحبة والتوكل عليه، والإنابة إليه والرضا به والتسليم لأمره. وقيل للجنيد رحمه الله تعالى: إن ههنا أقوامًا يقولون: إنهم يصلون إلى البر بترك الحركات، فقال: هؤلاء تكلموا بإسقاط الأعمال وهو عندي عظيم، والذي يزني ويسرق أحسن حالاً من الذي يقول هذا، فإن العارفين بالله أخذوا الأعمال عن الله، وإلى الله رجعوا فيها، ولو بقيت ألف عام لم أنقص من أعمال البر شيئًا.

وقال: لا يكون العارف عارفًا حتى يكون كالأرض يطؤه البر والفاجر، وكالمطر يسقى ما يحب وما لا يحب.

وقال **يحيى بن معاذ**: يخرج العارف من الدنيا ولا يقضي وطره(٢) من شيئين: بكاؤه على نفسه، وشوقه إلى ربه. وقال بعضهم: لا يكون العارف عارفًا حتى لو أعطى ملك سليمان لم يشغله عن الله طرفة عين. وقيل: العارف أنس بالله فاستوحش من غيره، وافتقر إلى الله فأغناه عن خلقه، وذل لله فأعزه في خلقه.

---

(١) صحيح: رواه البخاري (٦١٠١) ومسلم (٢٣٥٦) وأحمد (٦/ ١٨١).
(٢) وطره: حاجته، والجمع أوطار.

وقال أبو سليمان الدارانى: يفتح للعارف على فراشه ما لا يفتح له وهو قائم يصلى.

وقال ذو النون: لكل شىء عقوبة، وعقوبة العارف انقطاعه عن ذكر الله.

وبالجملة فحياة القلب مع الله لا حياة له بدون ذلك أبداً، ومتى واطا اللسان القلب فى ذكره، وواطا القلب مراد حبيبه منه، واستقل له الكثير من قوله وعمله، واستكثر له القليل من بره ولطفه، وعانق الطاعة وفارق المخالفة، وخرج عن كله لمحبوبه فلم يبق منه شىء، وامتلأ قلبه بتعظيمه وإجلاله وإيثار رضاه، وعز عليه الصبر عنه، وعدم القرار دون ذكره والرغبة إليه والاشتياق إلى لقائه، ولم يجد الأنس إلا بذكره، وحفظ حدوده، وآثره على غيره، فهو المحب حقًا.

وقال الجنيد: سمعت الحارث المحاسبى يقول: المحبة ميلك إلى الشىء بكليتك، ثم إيثارك له على نفسك وروحك ومالك، ثم موافقتك له سرًا وجهرًا، ثم علمك بتقصيرك فى حبه. وقيل: المحبة نار فى القلب تحرق ما سوى مراد الحبيب من محبه وقيل: بل هى بذل المجهود فى رضا الحبيب، ولا تصح إلا بالخروج عن رؤية المحب إلى رؤية المحبوب.

وفى بعض الآثار الإلهية: عبدى أنا وحقك لك محب فبحقى عليك كن لى محبًا.

وقال عبد الله بن المبارك: من أعطى شيئًا من المحبة ولم يعط مثله من الخشية فهو مخدوع.

وقال يحيى بن معاذ: مثقال خردلة من الحب أحب إلى من عبادة سبعين سنة بلا حب، وقال أبو بكر الكتانى: جرت مسألة فى المحبة بمكة أيام الموسم، فتكلم الشيوخ فيها، وكان الجنيد أصغرهم سنًا فقالوا: هات ما عندك يا عراقى، فاطرق رأسه ودمعت عيناه ثم قال: عبد ذاهب عن نفسه، متصل بذكر ربه، قائم باداء حقوقه، ناظراً إليه بقلبه، أحرق قلبه أنوار هويته، وصفا شربه من كاس وده، فإن تكلم فبالله، وإن نطق فمن الله، وإن تحرك فبأمر الله، وإن سكت فمع الله، فهو بالله ولله ومع الله، فبكى الشيوخ وقالوا: ما على هذا مزيد، جبرك الله يا تاج العارفين.

وقيل: أوحى الله إلى داود عليه السلام: يا داود، إنى حرمت على القلوب أن يدخلها حبى وحب غيرى، فأجمع العارفون كلهم أن المحبة لا تصح إلا بالموافقة حتى قال بعضهم: حقيقة الحب موافقة المحبوب فى مراضيه ومساخطه، واتفق القوم أن المحبة لا تصح إلا بتوحيد المحبوب، ويحكى أن رجلاً ادعى الاستهلاك (١) فى محبة شخص

(١) الاستهلاك: التعب والإعياء.

فقال له: كيف وهذا أخى أحسن منى وجهًا وأتم جمالاً؟ فالتفت الرجل إليه فدفعه الشاب وقال: من يدعى هوانا ينظر إلى سوانا؟ وذكرت المحبة عند ذى النون فقال: كفوا عن هذه المسألة لا تسمعها النفوس فتدعيها، ثم أنشأ يقول:

الخـوف أولى بـالمسـيء إذا تـألـه[١] والحـزنْ
والحـبُّ يحـمُـل بـالتـ ـقـيّ وبالنقـى من الـدَّرَن[٢]

وقال سمنون: ذهب المحبون لله بشرف الدنيا والآخرة. إن النبى ﷺ قال: «المرء مع من أحب»[٣]، فهم مع الله فى الدنيا والآخرة، وقال يحيى بن معاذ: ليس بصادق من ادعى محبته ثم لم يحفظ حدوده.

فصل: فالمحبة شجرة فى القلب عروقها الذل للمحبوب، وساقها معرفته، وأغصانها خشيته، وورقها الحياء منه، وثمرتها طاعته، ومادتها التى تسقيها ذكره، فمتى خلا الحب عن شىء من ذلك كان ناقصًا.

وقد وصف الله سبحانه نفسه بأنه يحب عباده المؤمنين، ويحبونه، فأخبر أنهم أشد حبًّا لله، ووصف نفسه بأنه الودود وهو الحبيب، قاله البخارى. والود خالص الحب، فهو يود عباده المؤمنين ويودونه.

وقد روى البخارى فى صحيحه من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ فيما يروى عن ربه عز وجل أنه قال: «من أهان لى وليًّا فقد بارزنى بالمحاربة، وما تقرب إلىَّ عبدى بمثل أداء ما افترضت عليه، ولا يزال عبدى يتقرب إلىَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به، ويده التى يبطش بها، ورجله التى يمشى بها، فبى يسمع وبى يبصر وبى يبطش وبى يمشى، ولئن سألنى لأعطيته ولئن استعاذ بى لأعيذنه، وما ترددت عن شىء أنا فاعله ترددى عن قبض نفس عبدى المؤمن يكره الموت وأكره مساءته ولا بد له منه»[٤]، وفى لفظ فى غير البخارى: «فإذا أحببته كنت له سمعًا وبصرًا ويدًا ومؤيدًا»، فتأمل كمال الموافقة فى الكراهة كيف اقتضى كراهة الرب تعالى لمساءة عبده بالموت لما كره العبد مساخط ربه، وكمال الموافقة فى الإرادة

---

(١) تأله: توله أو تعبد. (٢) الدرن: الوضر أو الوسخ والقذر.
(٣) صحيح: رواه البخارى (٦١٦٧) ومسلم (١٦٣).
(٤) صحيح: رواه البخارى (٦٥٠٢) وقد توسعت فى تخريجه فى كتابى «موسوعة الأحاديث القدسية» فانظره غير مأمور.

كيف اقتضى موافقته فى قضاء حوائجه وإجابة طلباته وإعاذته مما استعاذ به، كما قالت عائشة رضي الله عنها للنبى ﷺ: ما أرى ربك إلا يسارع فى هواك، وقال له عمه أبو طالب: يا بن أخى، ما أرى ربك إلا يطيعك، فقال له: وأنت يا عم لو أطعته أطاعك[١]، وفى تفسير ابن أبى نجيح عن مجاهد فى قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً﴾ (النساء: ١٢٥) قال: حبيبًا قريبًا إذا سأله أعطاه، وإذا دعاه أجابه، وأوحى الله تعالى إلى موسى عليه الصلاة والسلام: يا موسى كن لى كما أريد أكن لك كما تريد. وتأمل هذه الباء فى قوله: فبى يسمع وبى يبصر وبى يبطش وبى يمشى كيف تجدها مبنية لمعنى قوله: كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصره به... إلى آخره، فإن سمع سمع بالله، وإن أبصر أبصر به، وإن بطش بطش به، وإن مشى مشى به. وهذا تحقيق قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ (النحل: ١٢٨) وقوله ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (العنكبوت: ٦٩) وقوله: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الأنفال: ١٩) وقوله فيما رواه عنه رسوله من قوله: «أنا مع عبدى ما ذكرنى وتحركت بى شفتاه» وهذا ضد قوله: ﴿أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ﴾ (الأنبياء: ٤٣) فالصحبة التى نفاها ههنا هى التى أثبتها لأحبابه وأوليائه، فتأمل كيف جعل محبته لعبده متعلقة بأداء فرائضه، وبالتقرب إليه بالنوافل بعدها لا غير، وفى هذا تعزية لمدعى محبته بدون ذلك أنه ليس من أهلها، وإنما معه الأمانى الباطلة والدعاوى الكاذبة.

وفى الصحيحين من حديث أبى هريرة رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال: «إذا أحب الله العبد نادى جبريل إن الله يحب فلانًا فأحبوه فيحبه أهل السماء ثم يوضع له القبول فى الأرض»[٢]، وفى لفظ لمسلم: «إن الله إذا أحب عبداً دعا جبريل فقال: إنى أحب فلانًا فأحبه، قال: فيحبه جبريل، ثم ينادى فى السماء فيقول: إن الله يحب فلانًا فأحبوه فيحبه أهل السماء، قال ثم يوضع له القبول فى الأرض، وإذا أبغض عبداً دعا جبريل فيقول: إنى أبغض فلانًا فأبغضه، قال: فيبغضه جبريل، ثم ينادى فى السماء إن الله يبغض فلانًا فأبغضوه، ثم يوضع له البغضاء فى الأرض»[٣]، وفى لفظ آخر لمسلم عن سهيل بن أبى صالح قال: كنا بعرفة فمر عمر بن عبد العزيز وهو على الموسم، فقام الناس ينظرون إليه

---

(١) حسن: رواه أحمد (١٨/ ١٧٠) والخطيب (٨/ ٣٧٨) والبيهقى فى «الدلائل» (٦/ ١٨٤).
(٢) صحيح: رواه البخارى (٣٢٠٩) ومسلم (٢٦٣٧).
(٣) صحيح: رواه مسلم (٢٦٣٧).

فقلت لأبى: يا أبت إنى أرى الله يحب عمر بن عبد العزيز، قال: وما ذاك؟ قلت: لما له من الحب فى قلوب الناس، فقال: إنى سمعت أبا هريرة ﷺ يحدث عن رسول الله ﷺ ... ثم ذكر الحديث(١)، وأخرجه الترمذى ثم زاد فى آخره فذلك قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ (مريم: ٩٦) انتهى. وقال بعض السلف فى تفسيرها: يحبهم ويحببهم إلى عباده.

وفى الصحيحين من حديث أنس ﷺ أن رجلاً سأل النبى ﷺ عن الساعة فقال: «وما أعددت لها؟» قال لا شىء إلا أنى أحب الله ورسوله؟ فقال: «أنت مع من أحببت»(٢) قال أنس ﷺ: فما فرحنا بشىء فرحنا بقول النبى ﷺ: «أنت مع من أحببت» قال أنس: فأنا أحب النبى ﷺ وأبا بكر وعمر وأرجو أن أكون معهم بحبى إياهم وإن لم أعمل أعمالهم.

وفى الترمذى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «المرء مع من أحب وله ما اكتسب»(٣) وفى سنن أبى داود عنه قال: رأيت أصحاب النبى ﷺ فرحوا بشىء لم أرهم فرحوا بشىء أشد منه، قال رجل: يا رسول الله الرجل يحب الرجل على العمل من الخير يعمل به ولا يعمل بمثله، فقال رسول الله ﷺ: «المرء مع من أحب»(٤)، وهذه المحبة لله توجب المحبة فى الله قطعًا، فإن من محبة الحبيب المحبة فيه والبغض فيه.

وقد روى مسلم فى صحيحه من حديث أبى هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى يوم القيامة أين المتحابون بجلالى؟ اليوم أظلهم فى ظلى يوم لا ظل إلا ظلى»(٥)، وفى جامع أبى عيسى الترمذى من حديث معاذ بن جبل ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله عز وجل: المتحابون بجلالى لهم منابر من نور يغبطهم النبيون والشهداء»(٦)، وفى لفظ لغيره: «المتحابون بجلال الله يكونون يوم القيامة على منابر من نور يغبطهم أهل الجمع»(٧)، وفى الموطأ من حديث أبى إدريس الخولانى قال:

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٦٣٧) والترمذى (٢٣٨٦).
(٢) صحيح: رواه البخارى (٣٦٨٨) ومسلم (١٦٣).
(٣) صحيح: رواه الترمذى (٢٣٨٦).
(٤) صحيح: رواه أبو داود (٥١٢٧).
(٥) صحيح: رواه أحمد (٢/ ٣٣٨) ومسلم (٢٥٦٦) ومالك (٢/ ٦٥٢) وابن حبان (٢/ ٥٧٤) والدارمى (٢٧٥٧).
(٦) صحيح: رواه أحمد (٥/ ٣٢٨) والترمذى (٢٣٩٠).
(٧) انظر الحديث السابق.

دخلت مسجد دمشق فإذا فتًى برَّاق الثنايا والناس حوله فإذا اختلفوا فى شىء أسندوه إليه وصدروا [١] عن رأيه فسألت عنه فقالوا: هذا معاذ بن جبل، فلما كان الغد هجرت [٢] إليه فوجدته قد سبقنى بالتهجير [٣]، ووجدته يصلى، فانتظرته حتى قضى صلاته، ثم جئته من قبل وجهه فسلمت عليه ثم قلت: والله إنى لأحبك فى الله، فقال: آلله؟ قلت: الله، فقال: آلله؟ فقلت: الله، فأخذ بحبوة [٤] ردائى فجبذنى [٥] إليه وقال: أبشر، فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله تبارك وتعالى: وجبت محبتى للمتحابين فىَّ، والمتجالسين فىَّ، والمتزاورين فىَّ، والمتباذلين فىَّ» [٦].

وفى سنن أبى داود من حديث أبى ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أفضل الأعمال الحب فى الله والبغض فى الله» [٧]، وفيه أيضًا عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من عباد الله لأناسًا ما هم بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة بمكانهم من الله» قالوا: يا رسول الله تخبرنا من هم؟ قال: «هم قوم تحابوا بروح الله على غير أرحام بينهم ولا أموال يتعاطونها، فوالله إن وجوههم لنور وإنهم لعلى نور ولا يخافون إذا خاف الناس ولا يحزنون إذا حزن الناس» [٨] وقرأ هذه الآية: ﴿**أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾ (يونس: ٦٢) وفى لفظ لغيره «إن لله عبادًا ليسوا بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء بمكانهم من الله» قالوا يا رسول الله صفهم لنا، حلهم لنا لعلنا نحبهم؟ قال: «هم قوم تحابوا بروح الله على غير أموال تباذلوها ولا أرحام تواصلوها، هم نور ووجوهم نور وعلى كراسى من نور، لا يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس» [٩] ثم قرأ هذه الآية: ﴿**أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾.

---

(١) صدروا: عادوا وقد عملوا برأيه.

(٢) هجرت: بكرت.

(٣) التهجير: المشى ساعة الهاجرة، أى: وقت الحر.

(٤) بحبوة ردائى: أى ما اشتمل عليه كالمنطق.

(٥) جبذنى: شدنى إليه.

(٦) صحيح: رواه أحمد (٥/ ٢٢٩) ومالك (٢/ ٩٥٢) والحاكم (٤/ ١٦٨).

(٧) ضعيف: رواه أحمد (٥/ ١٤٦) وأبو داود (٤٥٩٩).

(٨) صحيح: رواه أحمد (٥/ ٣٤٣) وأبو داود (٣٥٢٧) وابن حبان (٢٥١٠).

(٩) رجاله ثقات: رواه أحمد (٥/ ٣٤١) والبغوى فى «شرح السنة» (٣٤٦٤) وعبد الرزاق (٢٠٣٢٤) وقال الهيثمى فى «الزوائد» (١٠/ ٢٧٦) «ورجاله وثقوا».

وفى صحيح مسلم من حديث أبى هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «إن رجلاً زار أخًا له فى قرية أخرى فأرصد الله على مدرجته[١] ملكًا فلما أتى عليه قال: أين تريد؟ قال: أريد أخًا لى فى هذه القرية، قال: لك عليه من نعمة تَرُبُّها[٢]؟ قال: لا غير أنى أحبه فى الله تعالى، قال: فإنى رسول الله إليك أن الله قد أحبك كما أحببته فيه»[٣].

وقال رجل لمعاذ بن جبل: إنى أحبك فى الله، قال: أحبك الذى أحببتنى له.

وفى سنن أبى داود أن رجلاً كان عند رسول الله ﷺ فمر رجل فقال: يا رسول الله إنى لأحب هذا، فقال له رسول الله ﷺ: «أعلمته؟» قال: لا، قال: «أعلمه» فلحقه فقال: إنى أحبك فى الله، قال: أحبك الذى أحببتنى له[٤].

وفيها أيضًا عن المقدام بن معدى كرب ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «إذا أحب الرجل أخاه فليخبره أنه يحبه»[٥].

وفى الترمذى من حديث يزيد بن نعامة الضبى ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا آخى الرجلُ الرجلَ فليسأله عن اسمه واسم أبيه وممن هو فإنه أوصل للمودة»[٦].

وفى صحيح مسلم من حديث أبى هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «والذى نفسى بيده لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أولا أدلكم على شىء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم»[٧].

وقال الإمام أحمد: حدثنا حجاج بن محمد الترمذى، حدثنا شريك، عن أبى سنان، عن عبد الله بن أبى الهذيل، عن عمار بن ياسر أن أصحابه كانوا ينتظرونه، فلما خرج قالوا: ما أبطأك عنا أيها الأمير؟ قال: أما إنى سوف أحدثكم أن أخًا لكم ممن كان قبلكم وهو موسى صلى الله عليه وسلم قال: يا رب حدثنى بأحبِّ الناس إليك، قال: ولم؟ قال لأحبه بحبك إياه، قال: عبد فى أقصى الأرض أو طرف الأرض سمع به عبد آخر فى أقصى أو

---

(١) مدرجته: مساره وطريقه. (٢) تَرُبُّها: تقدم إليه بسببها.

(٣) صحيح: رواه أحمد (٢/ ٤٠٨) ومسلم (٢٥٦٧).

(٤) صحيح: رواه أحمد (٣/ ١٥٦) وأبو داود (٥١٢٥) والحاكم (٤/ ١٧١) والبغوى فى «شرح السنة» (١٣/ ٦٦).

(٥) صحيح: رواه أبو داود (٥٢٤) والترمذى (٢٣٩٢) وصححه الألبانى فى «الصحيحة» (٤١٧).

(٦) ضعيف: رواه الترمذى (٢٣٩٢) وأبو نعيم فى «الحلية» (٦/ ١٨١) وضعفه الألبانى فى «الضعيفة» (١٧٢٦).

(٧) صحيح: رواه مسلم (٣٥) وأبو داود (٥١٩٣).

طرف الأرض لا يعرفه، فإن أصابته مصيبة فكأنما أصابته، وإن شاكته شوكة فكأنما شاكته، لا يحبـه إلا لي، فـذلك أحب خلقي إلي، قـال: يا رب خلقت خلقًـا تدخلهم النار أو تعذبهم، فأوحى الله إليه كلهم خلقي، ثم قال: ازرع زرعاً فزرعه، فقال: اسقه فسقاه، ثم قال: قم عليه، فقام عليه ما شاء الله من ذلك، فحصده ورفعه فقال: ما فعل زرعك يا موسى؟ قال: فرغت منه ورفعته، قال: ما تركت منه شيئًا؟ قال: ما لا خير فيه أو ما لا حاجة لي فيه، قال: فكذلك أنا لا أعذب إلا من لا خير فيه[١].

فصل: ولو لم يكن في محبة الله إلا أنها تنجي محبه من عذابه لكان ينبغي للعبد أن لا يتعوض عنها بشيء أبداً، وسئل بعض العلماء أين تجد في القرآن أن الحبيب لا يعذب حبيبه؟ فقال: في قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾ الآية (المائدة: ١٨).

وقال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل بن يونس عن الحسن ﷺ أن النبي ﷺ قال: «والله لا يعذب الله حبيبه ولكن قد يبتليه في الدنيا»[٢].

وقال الإمام أحمد[٣]: حدثنا سيار، حدثنا جعفر، حدثنا أبو غالب قال: بلغنا أن هذا الكلام في وصية عيسى ابن مريم صلى الله عليه وسلم: «يا معشر الحواريين تحببوا إلى الله ببغض أهل المعاصي، وتقربوا إليه بالمقت لهم، والتمسوا رضاه بسخطهم» قالوا: يا نبي الله فمن نجالس؟ قال: «جالسوا من يزيد في أعمالكم منطقه، ومن تذكركم بالله رؤيته، ويزهدكم في دنياكم علمه» ويكفي في الإقبال على الله تعالى ثوابًا عاجلاً أن الله سبحانه وتعالى يقبل بقلوب عباده إلى من أقبل عليه، كما أنه يعرض بقلوبهم عمن أعرض عنه، فقلوب العباد بيد الله لا بأيديهم.

وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن في تفسير شيبان عن قتادة قال: ذكر لنا أن هرم بن حيان كان يقول: ما أقبل عبد على الله بقلبه إلا أقبل الله عز وجل بقلوب المؤمنين إليه حتى يرزقه مودتهم ورحمتهم[٤].

وقد روى هذا مرفوعاً ولفظه: «وما أقبل عبد على الله بقلبه إلا أقبل الله عز وجل عليه

---

(١) ضعيف: رواه أحمد في «الزهد» (١٤٠) وابن المبارك (٤/ ٨٣١) بمعناه.

(٢) ضعيف: رواه أحمد في «الزهد» (٢٩٨).

(٣) حسن: رواه أحمد في «الزهد» (٢٩٩) وابن المبارك (٣٥٥).

(٤) ضعيف: رواه أحمد في «الزهد» (١٣٠٠) والطبراني في «الوسط» (٥٠٢٥).

بقلوب عباده وجعل قلوبهم تفد[١] إليه بالود والرحمة وكان الله بكل خير إليه أسرع »[٢]، وإذا كانت القلوب مجبولة على حب من أحسن إليها وكل إحسان وصل إلى العبد فمن الله عز وجل كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ (النحل: ٥٣) فلا ألام ممن شغل قلبه بحب غيره دونه.

قال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية قال: حدثنى الأعمش، عن المنهال، عن عبد الله ابن الحارث قال: أوحى الله إلى داود عليه السلام: يا داود أحببنى وحبب عبادى إلى وحببنى إلى عبادى، قال: يا رب هذا أنا أحبك وأحب عبادك إليك فكيف أحببك إلى عبادك؟ قال: تذكرنى عندهم، فإنهم لا يذكرون منى إلا الحسن[٣].

ومن أفضل ما سئل الله عز وجل حبه وحب من يحبه وحب عمل يقرب إلى حبه، ومن أجمع ذلك أن يقول: « اللَّهم إنى أسألك حبك وحب من يحبك وحب عمل يقربنى إلى حبك، اللَّهم ما رزقتنى مما أحب فاجعله قوة لى فيما تحب، وما زويت[٤] عنى مما أحب فاجعله فراغًا لى فيما تحب، اللَّهم اجعل حبك أحب إلى من أهلى ومالى ومن الماء البارد على الظمأ، اللهم حببنى إليك وإلى ملائكتك وأنبيائك ورسلك وعبادك الصالحين، واجعلنى ممن يحبك ويحب ملائكتك وأنبياءك ورسلك وعبادك الصالحين، اللَّهم أحى قلبى بحبك واجعلنى لك كما تحب، اللَّهم اجعلنى أحبك بقلبى كله، وأرضيك بجهدى كله، اللهم اجعل حبى كله لك، وسعيى كله فى مرضاتك »[٥]، وهذا الدعاء هو فسطاط خيمة الإسلام الذى قيامها به، وهو حقيقة شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، والقائمون بحقيقة ذلك هم الذين هم بشهادتهم قائمون. والله سبحانه تعرف إلى عباده من أسمائه وصفاته وأفعاله بما يوجب محبتهم له، فإن القلوب مفطورة على محبة الكمال ومن قام به، والله سبحانه وتعالى له الكمال المطلق من كل وجه الذى لا نقص فيه بوجه ما، وهو سبحانه الجميل الذى لا أجمل منه بل لو كان جمال الخلق كلهم على رجل واحد منهم وكانوا جميعهم بذلك الجمال لما كان لجمالهم قط نسبة إلى جمال الله، بل كانت النسبة أقل من نسبة سراج ضعيف إلى حذاء جرم الشمس: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَى﴾ (النحل: ٦٠).

وقد روى عن النبى ﷺ قوله: « إن الله جميل يحب الجمال »[٦] عبد الله بن عمرو بن

---

(١) تفد: تحن إليه أو تأتى إليه.
(٢) تقدم.
(٣) ضعيف جداً: رواه أحمد فى « الزهد » (٣٧٤).
(٤) زويت: أبعدت.
(٥) ضعيف: رواه الترمذى (٣٤٩٠/ ٣٤٩١) وضعفه الألبانى.
(٦) صحيح: رواه مسلم (٨٩) وأحمد (١/ ٣٣٩).

العاص، وأبو سعيد الخدرى، وعبد الله بن مسعود، وعبد الله بن عمر بن الخطاب، وثابت ابن قيس، وأبو الدرداء، وأبو هريرة، وأبو ريحانة ﷺ .

ومن أسمائه الحسنى: «الجميل» ومن أحق بالجمال من كل جمال فى الوجود فهو من آثار صنعه، فله جمال الذات، وجمال الأوصاف، وجمال الأفعال، وجمال الأسماء، فأسماؤه كلها حسنى، وصفاته كلها كمال، وأفعاله كلها جميلة فلا يستطيع بشر النظر إلى جلاله وجماله فى هذه الدار، فإذا رأوه سبحانه فى جنات عدن أنستهم رؤيته ما هم فيه من النعيم، فلا يلتفتون حينئذ إلى شىء غيره، ولولا حجاب النور على وجهه لأحرقت سبحات[١] وجهه سبحانه وتعالى ما انتهى إليه بصره من خلقه، كما فى صحيح البخارى من حديث أبى موسى ﷺ قال: قام فينا رسول الله ﷺ بخمس كلمات فقال: «إن الله لا ينام ولا ينبغى له أن ينام، يخفض القسط[٢] ويرفعه، يُرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار وعمل النهار قبل عمل الليل، حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه»[٣] .

وقال عبد الله بن مسعود ﷺ: ليس عند ربكم ليل ولا نهار، نور السموات من نور وجهه، وإن مقدار كل يوم من أيامكم عند الله اثنتا عشرة ساعة، فتعرض عليه أعمالكم بالأمس [فتعرض عليه] أول النهار أو اليوم فينظر فيها ثلاث ساعات، فيطلع منها على بعض ما يكره فيغضبه ذلك، فأول من يعلم بغضبه الذين يحملون العرش يجدونه يثقل عليهم فيسبحه الذين يحملون العرش وسرادقات العرش والملائكة المقربون وسائر الملائكة، وينفخ جبريل فى القرن فلا يبقى شىء إلا الثقلين الجن والإنس، فيسبحونه ثلاث ساعات حتى يمتلئ الرحمن رحمة، فتلك ست ساعات، ثم يؤتى بما فى الأرحام فينظر فيها ثلاث ساعات فيصوركم فى الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم، فتلك تسع ساعات، ثم ينظر فى أرزاق الخلق كلهم ثلاث ساعات، فيبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إنه بكل شىء عليم، ثم قرأ: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾(الرحمن: ٢٩) ثم قال عبد الله: هذا من شأنكم وشأن ربكم تبارك وتعالى (رواه عثمان بن سعيد الدارمى).

حدثنا موسى بن إسماعيل ، حدثنا حماد بن سلمة، عن الزبير بن عبد السلام، عن أيوب بن عبد الله الفهرى عن ابن مسعود ﷺ، ورواه الحسن بن إدريس، عن خالد بن الهياج، عن أبيه، عن عباد بن كثير، عن جعفر بن الحارث، عن معدان، عن

(١) سبحات: جمع سبحة، والمعنى: نور وجهه. (٢) القسط: الميزان.
(٣) صحيح: رواه أحمد (٤/ ٣٩٥) ومسلم (١٧٩) وابن ماجه (١٩٥).

ابن مسعود ﷺ قال: إن ربكم ليس عنده نهار ولا ليل، وإن السموات مملوءات نوراً من نور الكرسى، وإن يومًا عند ربك اثنتا عشرة ساعة، فترفع فيها أعمال الخلائق فى ثلاث ساعات، فيرى فيها ما يكره فيغضبه ذلك، وإن أول من يعلم بغضبه حملة العرش يرونه يثقل عليهم فيسبحون له ويسبح له سرادقات العرش فى ثلاث ساعات من النهار، حتى يمتلئ ربنا رضًا فتلك ست ساعات من النهار، ثم يأمر بأرزاق الخلائق فيعطى من يشاء فى ثلاث ساعات من النهار، فتلك تسع ساعات، ثم يرفع إليه أرحام كل دابة فيخلق فيها ما يشاء، ويجعل المدة لمن يشاء فى ثلاث ساعات من النهار، فتلك اثنتا عشرة ساعة، ثم تلا ابن مسعود ﷺ هذه الآية: ﴿ **كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ** ﴾ (الرحمن: ٢٩)هذا من شأن ربنا تبارك وتعالى [١].

وفى دعاء النبى ﷺ الذى دعا به يوم الطائف [٢]: «أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن يحل على غضبك أو ينزل على سخطك لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك»، وإذا جاء سبحانه وتعالى يوم القيامة لفصل القضاء بين عباده تشرق لنوره الأرض كلها كما قال الله تعالى: ﴿ **وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ** ﴾ (الزمر: ٦٩)وقول عبد الله بن مسعود ﷺ: نور السموات والأرض من نور وجهه، تفسير لقوله تعالى: ﴿ **اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ** ﴾ (النور: ٣٥).

وفى الصحيحين من حديث أبى بكر ﷺ فى استفتاح النبى ﷺ قيام الليل: «اللهم لك الحمد أنت نور السموات والأرض ومن فيهن» [٣].

وفى سنن ابن ماجه وحرب الكرمانى من حديث الفضل بن عيسى الرقاشى، عن محمد ابن المنكدر، عن جابر بن عبد الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «بينا أهل الجنة فى نعيمهم إذ سطع لهم نور فرفعوا رءُوسهم فإذ الرب قد أشرف عليهم من فوقهم فيقول: السلام عليكم يا أهل الجنة وذلك قوله: ﴿ **سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ** ﴾ (يس: ٥٨)فيرفعون رءُوسهم فينظرون إليه وينظر إليهم ولا يلتفتون إلى شىء من النعيم حتى يحتجب عنهم فيبقى نوره وبركته عليهم وعلى ديارهم ومنازلهم» [٤]، لفظ حديث حرب: «فما ظن

---

(١) ضعيف جدًّا :رواه أبو داود (١٦٨) والبيهقى فى «الأسماء والصفات» (٦٧٤) وضعفه الألبانى فى «ضعيف أبى داود».

(٢) ضعيف جدًّا :رواه الطبرانى فى «الكبير» (٢٦، ٢٧) وقال الهيثمى فى «مجمع الزوائد» (٦/ ٣٥): «فيه ابن إسحاق وهو مدلس ثقة، وبقية رجاله ثقات.

(٣) صحيح :رواه البخارى (٦٣١٧) ومسلم (٧٦٩).

(٤) ضعيف :رواه ابن ماجه (١٨٤) وابن عدى فى «الكامل» (٦/ ١٣) وضعفه الألبانى فى «المشكاة» (٥٦٦٤).

المحبين بلذة النظر إلى وجهه الكريم في جنات النعيم»؟ وقد كان من دعاء النبي ﷺ: «أسألك لذة النظر إلى وجهك والشوق إلى لقائك»(١)، ذكره الإمام أحمد والنسائي وابن حبان في صحيحه فاسمع الآن شأن أوليائه وأحبائه عند لقائه ثم اختر لنفسك:

أنت القـــتـــيلُ بكـــلّ من أحـــبـــبـــتَـــه
فـــاخـــتـــر لنفـسك في الهـوى من تصطفي(٢)

قال هشام بن حسان عن الحسن: إذا نظر أهل الجنة إلى الله تعالى نسوا نعيم الجنة.

وقال هشام بن عمار: حدثنا محمد بن سعيد بن سابور، حدثنا عبد الرحمن بن سليمان، حدثنا سعيد بن عبد الله الجرشي القاضي أنه سمع أبا إسحاق الهمداني يحدث عن الحارث الأعور، عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه رفعه قال: «إن الله إذا أسكن أهل الجنة الجنة وأهل النار النار بعث إلى أهل الجنة الروح الأمين فيقول: يا أهل الجنة إن ربكم يقرئكم السلام ويأمركم أن تزوروه إلى فناء الجنة، وهو أبطح(٣) الجنة، تربته المسك وحصباؤه(٤) الدر والياقوت وشجره الذهب الرطب وورقه الزمرد، فيخرج أهل الجنة مستبشرين مسرورين، فثمَّ يجمعهم وثمَّ كرامة الله والنظر إلى وجهه، وهو موعد الله أنجزه لهم، فيأذن الله لهم في السماع والأكل والشرب، ويكسون حلل الكرامة ثم ينادي مناد: يا أولياء الله هل بقي مما وعدكم الله [ربكم] شيء؟ فيقولون: لا، وقد أنجزنا ما وعدنا فما بقي شيء إلا النظر إلى وجهه، فيتجلى لهم الرب (تبارك وتعالى) في حجب فيقول: يا جبريل، ارفع حجابي لعبادي كي ينظروا إلى وجهي، قال: فيرفع الحجاب الأول فينظرون إلى نور من نور الرب فيخرون له سجداً فيناديهم الرب: يا عبادي، ارفعوا رءُوسكم فإنها ليست بدار عمل إنما هي دار ثواب، فيرفع الحجاب الثاني فينظرون أمراً هو أعظم وأجل فيخرون لله حامدين ساجدين، فيناديهم الرب: أن ارفعوا رءُوسكم إنها ليست بدار عمل إنما هي دار ثواب ونعيم مقيم، فيرفع الحجاب الثالث فعند ذلك ينظرون إلى وجه رب العالمين، فيقولون حين ينظرون إلى وجهه: سبحانك ما عبدناك حق عبادتك، فيقول كرامتي أمكنتكم من النظر إلى وجهي وأحلتكم داري، فيأذن الله للجنة أن تكلمي فتقول: طوبى لمن سكنني وطوبى لمن يخلد فيَّ وطوبى لمن أعددت له(٥)، وذلك قوله تعالى: ﴿طُوبَىٰ لَهُمْ

---

(١) صحيح: رواه أحمد (٤/ ٢٦٤) والنسائي (٣/ ٥٥) وابن حبان (١٩٧١) والحاكم (١/ ٥٢٤) وأبو يعلى (١٦٢٤).

(٢) تصطفي: تختار.

(٣) أبطح الجنة: المكان المتسع يمر به السيل فيترك فيه الرمل والحصى الصغار.

(٤) حصباؤه: الحصيات الصغار.

(٥) ضعيف: في سنده الحارث الأعور: كذاب.

وَحُسْنُ مَئَابٍ﴾ (الرعد: ٢٩) وقوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾، (القيامة: ٢٢، ٢٣).

وفى الصحيحين من حديث أبى موسى ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «جنتان من ذهب آنيتهما وحليتهما وما فيهما، وجنتان من فضة آنيتهما وحليتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه فى جنة عدن»(١).

وذكر عثمان بن سعيد الدارمى: حدثنا أبو الربيع، حدثنا جرير بن عبد الحميد، عن يزيد بن أبى زياد، عن عبد الله بن الحارث، عن كعب قال: ما نظر الله إلى الجنة إلا قال: طيبى لأهلك فزادت طيبًا على ما كانت، وما من يوم كان عيداً فى الدنيا إلا يخرجون فى مقداره إلى رياض الجنة، ويبرز لهم الرب تبارك تعالى وينظرون إليه، وتسفى(٢) عليهم الريح بالطيب والمسك فلا يسألون ربهم تبارك وتعالى شيئًا إلا أعطاهم، فيرجعون إلى أهلهم وقد ازدادوا على ما كانوا عليه من الحسن والجمال سبعين ضعفًا.

وقال عبد بن حميد: أخبرنى شبابة عن إسرائيل، حدثنا ثوير بن أبى فاختة سمعت ابن عمر ﷺ يقول: قال رسول الله ﷺ: «إن أدنى أهل الجنة منزلة من ينظر إلى خدمه ونعيمه وسرره مسيرة ألف سنة، وأكرمهم على الله من ينظر إلى وجهه غدوة وعشية(٣) ثم تلا هذه الآية: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾» رواه الترمذى فى جامعه عنه.

وذكر عثمان بن سعيد الدارمى، عن ابن عمر ﷺ رفعه إلى النبى ﷺ قال: «إن أهل الجنة إذا بلغ منهم النعيم كل مبلغ وظنوا أن لا نعيم أفضل منه تجلى لهم الرب تبارك وتعالى فنظروا إلى وجه الرحمن فنسوا كل نعيم عاينوه حين نظروا إلى وجه الرحمن»(٤).

وقال الحسن البصرى فى قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ قال: حسّنها الله تعالى بالنظر إليه سبحانه، وحق لها أن تنضر(٥) وهى تنظر إلى ربها عَزَّ وجَلَّ(٦)، قال أبو سليمان الدارانى: لو لم يكن لأهل المحبة - أو قال المعرفة - إلا هذه الآية: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ لاكتفوا بها.

---

(١) صحيح: رواه البخارى (٤٨٧٨) ومسلم (١٨٠) وأحمد (٤/ ٤١١) والترمذى (٢٥٢٨) وابن ماجه (١٨٦).

(٢) تسفى: تذروه الرياح. (٣) صحيح: رواه البخارى (٧٥١١) ومسلم (١٨٦).

(٤) ضعيف: رواه الدارقطنى فى «الرؤية» (١٧٦) والدارمى فى «الرد على المريسى» (٤٣١).

(٥) تنضر: تشرق كأنها الزرع.

(٦) صحيح: رواه البخارى (٦٥٧٣) ومسلم (٢٩٦٨) وأحمد (٣/ ٨٨) والترمذى (٢٥٥٢).

وذكر النسائى من حديث الزهرى، عن سعيد بن المسيب، عن أبى هريرة ﷺ قال: قلنا: يا رسول الله، هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال: «هل تضامون فى رؤية الشمس فى يوم لا غيم فيه، وفى القمر ليلة البدر لا غيم فيها؟» قلنا: لا، قال: «فإنكم سترون ربكم حتى إن أحدكم ليحاضره محاضرة فيقول: عبدى هل تعرف ذنب كذا وكذا؟ فيقول: يا رب، ألم تغفر لى؟ فيقول: بمغفرتى صرت إلى هذا» [١].

وفى الصحيحين من حديث مالك، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن أبى سعيد الخدرى ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة، فيقولون: لبيك ربنا وسعديك والخير فى يديك فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك، فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: يا رب وأى شىء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحل عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم أبداً».

وفى الصحيح والسنن والمسانيد من حديث ثابت البنانى، عن عبد الرحمن بن أبى ليلى، عن صهيب ﷺ، عن النبى ﷺ قال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة نادى مناد: يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه، فيقولون: ما هو؟ ألم يبيض وجوهنا ويثقل موازيننا ويدخلنا الجنة ويجرنا [٢] من النار؟ فيكشف الحجاب فينظرون إليه، فوالله ما أعطاهم الله شيئًا أحب إليهم من النظر إليه ولا أقر لأعينهم» [٣].

وفى صحيح البخارى من حديث جرير بن عبد الله قال: كنا جلوسًا عند النبى ﷺ إذ نظر إلى القمر ليلة البدر فقال: «إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون فى رؤيته فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا» [٤].

وفى الصحيحين من حديث الزهرى، عن عطاء بن يزيد الليثى، عن أبى هريرة ﷺ أن الناس قالوا: يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال رسول الله ﷺ: «هل تضارُّون [٥]

---

(١) صحيح رواه البخارى (٦٥٤٩) ومسلم (٢٨٢٩) وأحمد (٤/ ٣٣٢) والترمذى (٣١٠٥) وابن ماجه (١٨٧).

(٢) يُجرنا: يحمينا.

(٣) صحيح رواه أحمد (٤/ ٣٣٢) ومسلم (١٨١) والترمذى (٢٥٥٢) وابن ماجه (١٨٧).

(٤) صحيح رواه البخارى (٥٥٤) ومسلم (٦٣٣) وأبو داود (٤٧٢٩) والترمذى (٢٥٥٤) وابن ماجه (١٧٧).

(٥) لاتضارون: لا تقع الأضرار فى رؤيته ومشاهدته.

في القمر ليلة البدر؟» قالوا: لا يا رسول الله، قال: «فهل تضارُّون في الشمس ليس دونها سحاب؟» قالوا: لا يا رسول الله، قال: «فإنكم ترونه كذلك» وفي لفظ: «فإنكم لا تضارون في رؤية ربكم إلا كما تضارون في رؤيتهما»[١] .

وقال الترمذي: حدثنا قتيبة، حدثنا عبد العزيز بن محمد، عن العلاء بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يجمع الله الناس يوم القيامة في صعيد واحد ثم يطلع عليهم رب العالمين تبارك وتعالى فيقول: ليتبع كل إنسان ما كان يعبد، فيمثل لصاحب الصليب صليبه، ولصاحب التصاوير تصاويره، ولصاحب النار ناره، فيتبعون ما كانوا يعبدون ويبقى المسلمون فيطلع عليهم رب العالمين تبارك وتعالى فيقول: ألا تتبعون الناس؟ فيقولون: نعوذ بالله منك نعوذ بالله منك، الله ربنا هذا مكاننا حتى نرى ربنا، وهو يأمرهم ويثبتهم، ثم يتوارى ثم يطلع عليهم فيقول: ألا تتبعون الناس؟ فيقولون: نعوذ بالله منك نعوذ بالله منك، الله ربنا، وهذا مكاننا حتى نرى ربنا، وهو يأمرهم ويثبتهم، قالوا: وهل نراه يا رسول الله؟ قال: وهل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر؟ قالوا: لا يا رسول الله قال: فإنكم لا تضارون في رؤيته تلك الساعة. قال: ثم يتوارى ثم يطلع فيعرفهم نفسه ثم يقول: أنا ربكم فاتبعوني، فيقوم المسلمون ويوضع الصراط فيمرون عليه مثل جياد الخيل والركاب، وقولهم عليه: سلم سلم، ويبقى أهل النار فيطرح منهم فيها فوج فيقال: هل امتلأت؟ فتقول: هل من مزيد؟ ثم يطرح فيها فوج فيقال: هل امتلأت؟ فتقول: هل من مزيد؟ حتى إذا أوعبوا[٢] فيها وضع الرحمن تبارك وتعالى فيها قدمه فأزوى[٣] بعضها إلى بعض وقالت: قط قط، فإذا أدخل الله أهل الجنة الجنة وأهل النار، أتي بالموت ملبيًّا فيوقف على السور الذي بين أهل الجنة وأهل النار، ثم يقال: يا أهل الجنة فيطلعون خائفين، ثم يقال: يا أهل النار فيطلعون مستبشرين يرجون الشفاعة، فيقال لأهل الجنة والنار: هل تعرفون هذا؟ فيقولون - هؤلاء وهؤلاء: قد عرفناه، هو الموت الذي وكل بنا، فيضجع فيذبح ذبحًا على السور، ثم يقال: يا أهل الجنة خلود ولا موت، ويا أهل النار خلود ولا موت»[٤] .

---

(١) صحيح: رواه البخاري (٣٤٣٧) ومسلم (١٨٢) وأبو داود (٤٧٢٩) والترمذي (٢٥٥٤) وابن ماجه (١٧٧).

(٢) أوعبوا: استوعبوا. (٣) فأزوى: ضم بعضهم إلى بعض.

(٤) صحيح: رواه البخاري (٣٣٤٠) ومسلم (٢٨٤٨) والنسائي (٢/ ٢٢٩).

قال الترمذى: هذا حديث حسن صحيح وأصله فى الصحيحين لكن هذا السياق أجمع وأخصر. وفى لفظ الترمذى: «فلو أن أحداً مات فرحًا لمات أهل الجنة، ولو أن أحداً مات حزنًا لمات أهل النار»[١].

وفى مسند الحارث بن أبى أسامة من حديث قرة، عن مالك، عن زياد بن سعد، حدثنا أبو الزبير قال: سمعت جابر بن عبد الله ﷺ يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا كان يوم القيامة جمعت الأمم ودعى كل أناس بإمامهم فجئنا آخر الناس فيقول قائل من الناس: من هذه الأمة؟ قال: فيشرف إلينا الناس فيقال: هذه الأمة الأمينة، هذه أمة محمد، وهذا محمد فى أمته، فينادى مناد إنكم الآخرون الأولون، قال: فنأتى فنتخطى رقاب الناس حتى نكون أقرب الناس إلى الله تعالى منزلة، ثم يدعى الناس كل أناس بإمامهم، فيدعى اليهود فيقال: من أنتم؟ فيقولون: نحن اليهود، فيقول: من نبيكم؟ فيقولون: نبينا موسى، فيقول: ما كتابكم؟ فيقولون: كتابنا التوراة، فيقول: ما تعبدون؟ فيقولون: نعبد عزيراً ونعبد الله، فيقول للملإ حوله: اسلكوا بهم فى جهنم، ثم يدعى النصارى فيقول: من أنتم؟ فيقولون: نحن النصارى، فيقول: من نبيكم؟ فيقولون: نبينا عيسى، فيقول: ما كتابكم؟ فيقولون: كتابنا الإنجيل، فيقول: ما تعبدون؟ فيقولون: نعبد عيسى وأمه والله. فيقول للملإ حوله: اسلكوا بهؤلاء فى جهنم، فيدعى عيسى فيقول لعيسى: يا عيسى: ﴿**أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ**﴾ (المائدة: ١١٦) فيقول: ﴿**سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ**﴾ (المائدة: ١١٦) إلى قوله تعالى: ﴿**الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾ (المائدة: ١١٨) ثم يدعى كل أناس بإمامهم وما كانوا يعبدون ثم يصرخ الصارخ: أيها الناس من كان يعبد إلهًا فليتبعه، تقدمهم آلهتهم منها الخشب والحجارة، ومنها الشمس والقمر، ومنها الدجال، حتى تبقى المسلمون فيقف عليهم فيقول: من أنتم؟ فيقولون: نحن المسلمون، قال: قال: خير اسم وخير داعية، فيقول: من نبيكم؟ فيقولون: محمد، فيقول: ما كتابكم؟ فيقولون: القرآن، فيقول: ما تعبدون؟ فيقولون: نعبد الله وحده لا شريك له، قال: سينفعكم ذلك إن صدقتم، قالوا: هذا يومنا الذى وعدنا فيقول: أتعرفون الله إذا رأيتموه؟ فيقولون: نعم، فيقول: وكيف تعرفونه ولم تروه؟ فيقولون: نعلم أنه لا عدل له، قال: فيتجلى لهم تبارك وتعالى فيقولون: أنت ربنا تباركت أسماؤك، ويخرون له سجداً، ثم يمضى النور بأهله»[٢].

---

(١) صحيح: رواه البخارى (٤٧٣٠) ومسلم (٢٨٤٩) والترمذى (٢٥٥٧). (٢) صحيح.

وفى مسند الإمام أحمد رضي الله عنه من حديث أبى الزبير قال: سألت جابراً عن الورود فأخبرنى أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «تجيء يوم القيامة على كوم[١] فوق الناس، فتدعى الأمم بأوثانها وما كانت تعبد، الأول فالأول، ثم يأتينا ربنا بعد ذلك فيقول: ما تنتظرون؟ فيقولون: ننتظر ربنا، فيقول: أنا ربكم، فيقولون: حتى ننظر إليك، فيتجلى لهم يضحك فيتبعونه»[٢].

وذكر عثمان بن سعيد الدارمى أن أبا بردة بن أبى موسى الأشعرى أتى عمر بن عبد العزيز فقال: حدثنا أبو موسى الأشعرى رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يجمع الله الأمم يوم القيامة فى صعيد واحد فإذا بدا له أن يصدع بين خلقه مثل لكل قوم ما كانوا يعبدون فيتبعونهم حتى يقحموهم[٣] النار، ثم يأتينا ربنا ونحن فى مكان فيقول: من أنتم؟ فنقول: نحن المؤمنون، فيقول: ما تنتظرون؟ فنقول: ننتظر ربنا، فيقول: من أين تعلمون أنه ربكم؟ فنقول: حدثتنا الرسل أو جاءتنا الكتب، فيقول: هل تعرفونه؟ فيقولون: نعلم أنه لا عدل، فيتجلى لنا ضاحكًا، ثم يقول: أبشروا معشر المسلمين فإنه ليس منكم أحد إلا وقد جعلت مكانه فى النار يهوديًا أو نصرانيًا»[٤] فقال عمر لأبى بردة: آلله، لقد سمعت أبا موسى يحدث بهذا الحديث عن رسول الله؟ قال: إى والله الذى لا إله إلا هو لقد سمعت أبى يذكره عن رسول الله ﷺ غير مرة ولا مرتين ولا ثلاثًا، فقال عمر بن عبد العزيز: ما سمعت فى الإسلام حديثًا هو أحب إلىَّ منه.

وفى الترمذى من حديث الأوزاعى حدثنى حسان بن عطية، عن سعيد بن المسيب أنه لقى أبا هريرة رضي الله عنه فقال أبو هريرة: أسأل الله تعالى أن يجمع بينى وبينك فى سوق الجنة، فقال سعيد: أوَفيها سوق؟ قال: نعم أخبرنى رسول الله ﷺ: «أن أهل الجنة إذا دخلوها نزلوا فيها بفضل أعمالهم فيؤذن لهم فى مقدار يوم الجمعة من أيام الدنيا فيزورون الله تبارك وتعالى، فيبرز لهم عرشه ويتبدى لهم فى روضة من رياض الجنة، فتوضع لهم منابر من نور ومنابر من لؤلؤ ومنابر من ياقوت ومنابر من زبرجد ومنابر من ذهب ومنابر من

---

(١) كوم: مكان مرتفع.

(٢) صحيح: رواه أحمد (٣/ ٣٤٥) ومسلم (١٩١).

(٣) يقحموهم: يدخلونهم ويلقونهم.

(٤) صحيح: رواه أحمد (٤/ ٣٩١) ومسلم (٢٧٦٧) وابن ماجه (٤٣٩١) والدارمى فى «الرد على الجهمية» (٤٨) وابن خزيمة فى «التوحيد» (١٥٣).

فضة، ويجلس أدناهم وما فيهم دنىء على كثبان[١] المسك والكافور ما يرون أن أهل الكراسى أفضل منهم مجلسًا»[٢] .

قال أبو هريرة: قلت: يا رسول الله وهل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال: «نعم هل تمارون فى رؤية الشمس والقمر ليلة البدر؟» قلنا: لا، قال: «كذلك لا تمارون فى رؤية ربكم ولا يبقى فى ذلك المجلس أحد إلا حاضره الله تعالى محاضرة، حتى يقول للرجل منهم: يا فلان ابن فلان أتذكر يوم كذا عملت كذا وكذا؟ فيذكره ببعض غدراته[٣] فى الدنيا فيقول: يا رب ألم تغفر لى؟ فيقول: بلى فبسعة مغفرتى بلغت منزلتك هذه، فبينا هم على ذلك غشيتهم سحابة من فوقهم فأمطرت عليهم طيبًا لم يجدوا مثل ريحه شيئًا قط، ثم يقول: قوموا إلى ما أعددت لكم من الكرامة فخذوا ما اشتهيتم، فنأتى سوقًا قد حفت به الملائكة، فيه ما لم تنظر العيون إلى مثله ولم تسمع الآذان ولم يخطر على القلوب، فيحمل إلينا ما اشتهينا ليس يباع فيه شىء ولا يشترى، وفى ذلك السوق يلقى أهل الجنة بعضهم بعضًا فيقبل الرجل ذو المنزلة الرفيعة فيلقى من هو دونه وما فيهم دنى فيروعه ما يرى عليه من اللباس فما ينقضى آخر حديثه حتى يتمثل عليه أحسن منه، وذلك أنه لا ينبغى لأحد أن يحزن فيها، ثم ننصرف إلى منازلنا فتتلقانا أزواجنا فيقلن مرحبًا وأهلاً لقد جئت وإن بك من الجمال والطيب أكثر مما فارقتنا عليه، فيقول: إنا جالسنا اليوم ربنا الجبار ويحقنا أن ننقلب بمثل ما انقلبنا» .

وقال يعقوب بن سفيان فى مسنده: حدثنا ابن المصفى، حدثنا سويد بن عبد العزيز، حدثنا عمرو بن خالد، عن زيد بن على، عن أبيه، عن جده، عن على بن أبى طالب ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «يزور أهل الجنة الرب تبارك وتعالى فى كل يوم جمعة وذكر ما يعطون قال: ثم يقول الله تعالى: اكشفوا الحجب، فيكشفوا حجابًا ثم حجابًا حتى يتجلى لهم عن وجهه تبارك وتعالى وكأنهم لم يروا نعمة قبل ذلك[٤] ، وهو قول الله تعالى: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾(سورة ق: ٣٥) ».

وذكر عثمان بن سعيد الدارمى من حديث الحسن ﷺ عن النبى ﷺ مرسلاً أنه

---

(١) كثبات: جمع كثيب وهو تلال الرمال.

(٢) ضعيف: رواه الترمذى (٢٥٤٩) وابن ماجه (٤٣٣٦) وابن حبان (٧٤٣٨) وابن أبى عاصم فى «السنة» (٥٨٧).

(٣) غدراته: جمع غدرة وهى الآثام والذنوب.

(٤) ضعيف: رواه الدارمى فى «الرد على المريسى» (٤٦٥) وضعفه الألبانى فى «الضعيفة» (١٧٢٢).

قال: «يأتينا ربنا يوم القيامة ونحن على مكان رفيع فيتجلى لنا ضاحكًا» [(١)] (مرسل صحيح).

وقال عثمان الدارمي: حدثنا أبو موسى، حدثنا أبو عوانة، حدثنا الأجلح حدثنا الضحاك بن مزاحم قال: إن الله يأمر السماء يوم القيامة فتنشق بمن فيها فيحيطون بالأرض ومن فيها، ثم يأمر السماء الثانية حتى ذكر سبع سموات فيكونون سبعة صفوف قد أحاطوا بالناس، ثم ينزل الملك الأعلى جل جلاله فى بهائه وجماله ومعه ما شاء من الملائكة [(٢)].

وقال عثمان بن سعيد: حدثنا هشام بن خالد الدمشقى، وكان ثقة، حدثنا محمد بن شعيب بن شاور، حدثنا عمر بن عبد الله مولى غفره، عن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «جاءنى جبريل وفى كفه مرآة فيها نكتة سوداء، فقلت: ما هذه يا جبريل؟ قال: هذه الجمعة أرسل بها إليك ربك فتكون هدًى لك ولأمتك من بعدك، فقلت: وما لنا فيها؟ قال: لكم فيها خير كثير، أنتم الآخرون السابقون يوم القيامة، وفيها ساعة لا يوافقها عبد مؤمن يصلى يسأل الله خيرًا هو له قسم إلا أتاه، ولا خيرًا ليس له بقسم إلا دخر له أفضل منه، ولا يستعيذ بالله مما هو مكتوب عليه إلا دفع عنه أكثر منه، قلت: ما هذه النكتة السوداء؟ قال: هذه الساعة يوم تقوم القيامة وهو سيد الأيام ونحن نسميه عندنا يوم المزيد، قلت: ولم تسمونه يوم المزيد يا جبريل؟ قال: لأن ربك اتخذ فى الجنة واديًا أفيح [(٣)] من مسك أبيض فإذا كان يوم الجمعة من أيام الآخرة هبط الجبار عن عرشه إلى كرسيه إلى ذلك الوادى وقد حف الكرسى بمنابر من نور يجلس عليها الصديقون والشهداء يوم القيامة ثم يجيء أهل الغرف حتى يحفوا بالكثيب، ثم يبدو لهم ذو الجلال والإكرام تبارك وتعالى فيقول: أنا الذى صدقتكم وعدى وأتممت عليكم نعمتى وأحللتكم دار كرامتى فسلونى، فيقولون بأجمعهم: نسألك الرضا عنا، فيشهد لهم على الرضا ثم يقول لهم: سلونى، فيسألونه حتى ينتهى [(٤)] نهمة [(٥)] كل عبد منهم ثم يقول: سلونى، فيقولون: حسبنا ربنا رضينا، فيرجع الجبار جل جلاله إلى عرشه فيفتح لهم بقدر إشراقهم من يوم الجمعة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، ويرجع أهل الغرف إلى غرفهم وهى غرفة من لؤلؤة بيضاء وياقوتة حمراء وزمردة خضراء ليس فيها

---

(١) صحيح: رواه ابن خزيمة فى «التوحيد» (١٥٣) وأحمد (٤/ ٤٠٧) عن أبى موسى، كذا فى «الصحيحة» (٧٥٥) أما سند الحديث هنا فهو: موضوع.

(٢) ذكر المحاسبى فى «التوهم» (٥).

(٣) أفيح: أخصب.

(٤) ينتهى: يفرغ.

(٥) نهمه: شهوته.

قصم(١) ولا وصم(٢) مطردة أنهارها متدلية فيها ثمارها، فيها أزواجها وخدمها ومساكنها فليسوا إلى يوم أحوج منهم إلى يوم الجمعة ليزدادوا فضلاً من ربهم ورضوانًا»(٣).

رواه عن أنس جماعة منهم عثمان بن عمير بن اليقظان ومن طريقه رواه الشافعى فى «مسنده» وعبد الله ابن الإمام أحمد فى «السنة» ومنهم أبو صالح، والزبير بن عدى وعلى ابن الحكم البنانى، وعبد الملك بن عمير، ويزيد الرقاشى وعبد الله بن بريدة، كلهم عن أنس وصححه جماعة من الحفاظ، وزاد الشافعى فى مسنده فى آخره: «وهو اليوم الذى استوى فيه ربكم على العرش» وساقه عثمان بن أبى شيبة من طرق، وقال فى بعضها: «ثم يتجلى لهم ربهم تبارك وتعالى فيقول: أنا الذى صدقتكم وعدى وأتممت عليكم نعمتى وهذا محل كرامتى» إلى أن قال: «ثم يرتفع على كرسيه ويرتفع معه النبيون والصديقون والشهداء ويرجع أهل الغرف إلى غرفهم».

وروى **محمد بن الزبرقان**، عن مقاتل بن حيان، عن أبى الزبير، عن جابر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أهل الجنة ليحتاجون إلى العلماء فى الجنة كما يحتاجون إليهم فى الدنيا وذلك أنهم يزورون ربهم فى كل جمعة فيقول لهم: تمنوا، فيقولون: وما نتمنى وقد أدخلتنا الجنة وقد أعطيتنا ما أعطيتنا، فيقال لهم: تمنوا، فيلتفتون إلى العلماء...» وذكر الحديث فى قصة الجمعة.

وروى ابن منده من حديث الأعمش، عن أبى وائل، عن حذيفة ﷺ، عن النبى ﷺ قصة الجمعة بطولها وفيها يقول: «سلونى فيقولون: أرنا وجهك رب العالمين ننظر إليك، فيكشف الله تبارك وتعالى تلك الحجب ويتجلى لهم فينظرون إليه»(٤).

وذكر عثمان الدارمى، عن محمد بن كعب القرظى، أنه حدث عمر بن عبد العزيز قال: إذا فرغ الله من أهل الجنة والنار أقبل فى ظلل من الغمام والملائكة فيسلم على أهل الجنة فى أول درجة فيردون عليه السلام(٥)، قال القرظى: وهذا فى القرآن: ﴿**سَلَامٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ**﴾ (يس: ٥٨) فيقول: سلونى، يفعل بهم ذلك فى درجهم حتى يستوى على عرشه، ثم تأتيهم التحف من الله تحمله الملائكة إليهم.

---

(١) قصم: كسر. (٢) وصم: عيب.

(٣) حسن بطرقه: رواه ابن جرير فى «تفسيره» (٢٦/ ١٠٩) وأبو يعلى (٤٢٢٨) والبزار (٣٥١٩) والآجرى فى «الشريعة» (٢/ ٣١).

(٤) موضوع: كما فى «إتحاف السادة المتقين» (٥/ ٣٧).

(٥) ضعيف: رواه ابن جرير فى « »تفسيره» (٢٣/ ١٥).

وقال عبد الواحد بن زيد، عن الحسن: لو علم العابدون أنهم لا يرون ربهم فى الآخرة لذابت أنفسهم فى الدنيا[١]، وقال هشام بن حسان عنه أنه تبارك وتعالى يتجلى لأهل الجنة، فإذا رأوه نسوا نعيم الجنة.

اعجب الصبر صبر المحبين.

قال الشاعر:

والصبرُ يُحْمَد فى المواطن كلِّها ... إلا عليك فإنه لا يُحْمَدُ

وقف رجل على الشبلى فقال: أى الصبر أشد على الصابرين؟ قال: الصبر فى الله، فقال السائل: لا، فقال: الصبر لله، قال: لا، قال: فالصبر مع الله، قال: لا، قال: فما هو؟ قال: الصبر عن الله، فصرخ الشبلى صرخة كادت روحه تزهق. قال الشاعر:

والصبرُ عنك فمذمومٌ عواقبُهُ ... والصبرُ فى سائر الأشياء محمودُ

الخوف يبعدك عن معصيته، والرجاء يخرجك إلى طاعته، والحب يسوقك إليه سوقًا.

لما علم الله سبحانه أن قلوب المشتاقين إليه لا تهدأ إلا بلقائه ضرب لهم أجلاً للقاء تسكينًا لقلوبهم فقال الله تعالى: ﴿مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ﴾ (العنكبوت: ٥).

يا من شكى شوقَه من طول فُرقته ... اصبر لعلّك تَلْقَى من تحبُّ غدا

وسِرْ إليه بنار الشوق مجتهداً ... عساك تلقى على نار الغرام هُدًى

المحب الصادق كلما قرب من محبوبه زاد شوقًا إليه.

وأعظمُ ما يكون الشوقُ يومًا ... إذا دَنَت الخِيَامُ من الخيامِ

كلما وقع بصر المحب على محبوبه أحدثت له رؤيته شوقًا على شوقه:

ما يَرْجعُ الطَّرْفُ عنه حين يبصره ... حتى يعودَ إليه الطرفُ مشتاقا

المحب الصادق إذا سافر طرفُه فى الكون لم يجد له طريقًا إلا على محبوبه، فإذا انصرف بصرُه عنه رجع إليه خاسئًا[٢] وهو حسير[٣].

ويَسْرَحُ طرفى فى الأنام وينثنى ... وإنسانُ عينى[٤] بالدُّموع غريق

فَيَرْجِعُ مردوداً إليك وما له ... على أحدٍ إلا عليكَ طريق

---

(١) ضعيف: رواه عبد الله بن أحمد فى «السنة» (٤٨٦) والآجرى فى «الشريعة» (٦١٢).

(٢) خاسئًا: خائبًا ذليلاً.

(٣) حسير: متعب كليل.

(٤) إنسان عينى: هو الذى يرى فى السواد.

أقر شيء لعيون المحب خلوته بسره مع محبوبه. حدثني من رأى شيخنا في عنفوان أمره، خرج إلى البرية بكرة فلما أصحر(١) تنفس الصعداء ثم تمثل بقول الشاعر:

وأَخـرُجُ من بين البيـوت لعلّني ... أُحدّث عنك القلبَ بالسرّ خاليا

الشوق يحمل المحب على العجلة في رضا المحبوب والمبادرة إليها على الفور ولو كان فيها تلفه: ﴿ **وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَىٰ (٨٣) قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَىٰ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ** ﴾ (طه: ٨٣، ٨٤) قال بعضهم: أراد شوقًا إليك فستره بلفظ الرضا:

ولـو قلـتِ طَـأْ فـي النـارِ أعلـمُ أَنـه
رضًـا لكِ أو مُـدْنٍ لنا من وصالكِ
لقـدّمْت رجلي نحـوها فـوطئْتُـه
هـدًى منك لي أو ضلَّـةً من ضلالكِ
لِيَهْنِكِ إمساكي بكفّي على الحشا
ورَقراقُ(٢) عيني خشيةً من زِيالِكِ(٣)
وإِن ساءني أن نِلتِني بمساءةٍ
لقد سرّني أني خطرتُ ببالكِ

من علامات المحبة الصادقة أن المحب لا يتم له سرور إلا بمحبوبه، ما دام غائبًا عنه فعيشه كله منغص(٤).

نحن في أكمل السرور ولكن ... ليس إلا بكم يَتِمُّ السرورُ
عيبُ ما نحن فيه يا أهل ودي(٥) ... أنكم غُيَّبٌ ونحن حضورُ

وقال آخر:

من سرّه العيدُ الجديـ ... ـد فقد عَدِمْتُ به السرورا
كان السرور يَتِمُّ لي ... لو كان أحبابي حضورا

لو قيل للمحبّ على الدوام: ما تتمنى؟ لقال: لقاء المحبوب:

ولما نزلنا منزلاً طَلّهُ الندى ... أنيقًا وبستانًا من النَّوْرِ حاليا(٦)
أجدَّ(٧) لنا طيبُ المكان وحسنُه ... مُنًى فتمنَّينا فكنت الأمانيا

---

(١) أصحر: أخرج متجهًا نحو الصحراء.
(٢) رقراق عيني: دمعها.
(٣) زيالك؛ مزايلتك وبعدك.
(٤) منغص: مهموم حتى النهاية.
(٥) ودى: الود: الحب.
(٦) حاليًا: محلى مزين.
(٧) أجد: جاء به جديداً.

وقال الجنيد: سمعت السرى يقول: الشوق أجل مقام العارف إذا تحقق فيه، وإذا تحقق بالشوق لها عن كل ما يشغله عمن يشتاق إليه.

وقيل: أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: قل لشبان بنى إسرائيل لم تشغلون نفوسكم بغيرى وأنا مشتاق إليكم؟ ما هذا الجفاء؟ ولو يعلم المدبرون عنى كيف انتظارى لهم ورفقى بهم، ومحبتى لترك معاصيهم، لماتوا شوقًا إليَّ، وانقطعت أوصالهم من محبتى. هذه إرادتى للمدبرين عنى فكيف إرداتى للمقبلين عليَّ؟.

وسئل الجنيد: من اى شيء بكاء المحب إذا لقى المحبوب؟ فقال: إنما يكون ذلك سرورًا به ووجدًا من شدة الشوق إليه.

قال: ولقد بلغنى أن أخوين تعانقا فقال أحدهما: واشوقاه، وقال الآخر: واوجداه.

وكانت عجوز لها غائب فقدم من السفر فاظهر أهلها الفرح والسرور به. فجعلت تبكى فقيل لها: ما هذا البكاء؟ فقالت: ذكرنى قدوم هذا الفتى يوم القدوم على الله.

وقال بعض المحبين: قلوب المشتاقين منورة بنور الله، فإذا تحرك اشتياقهم أضاء النور ما بين السماء والارض، فيعرضهم الله سبحانه وتعالى على الملائكة فيقول: هؤلاء المشتاقون إليّ أشهدكم أنى إليهم أشوق.

فصل: قال ابن أبى الحوارى رحمه الله تعالى: سئل أبو سليمان الدارانى، رحمه الله، وأنا حاضر: ما أقرب ما يتقرب به إلى الله عز وجل؟ فبكى ثم قال: مثلى يسأل عن هذا؟ أقرب ما يتقرب به إليه أن يطلع على قلبك وأنت لا تريد من الدنيا والآخرة إلا هو.

وقال يحيى بن معاذ: النسك هو العناية بالسرائر وإخراج ما سوى الله من القلب.

وقال سهل بن عبد الله: ما من ساعة إلا والله سبحانه يطلع فيها على قلوب العباد، فأى قلب رأى فيه غيره سلط عليه إبليس.

وقال سهل بن عبد الله: من نظر إلى الله عز وجل قريبًا منه بعد عن قلبه كل شيء سوى الله، ومن طلب مرضاته أرضاه الله سبحانه وتعالى، ومن أسلم قلبه إلى الله تولى الله جوارحه.

وقال سهل أيضًا: حرام على قلب أن يشم رائحة اليقين وفيه سكون إلى غير الله، وحرام على قلب أن يدخله النور وفيه شيء مما يكره الله.

وسئل بعضهم عن أفضل الاعمال فقال: رعاية السر عن الالتفات إلى شيء سوى الله عز وجل.

وقال مسلم: تركتموه وأقبل بعضكم على بعض، لو أقبلتم عليه لرأيتم العجائب.

فصل: فإن تقاصرت(١) همتك الدنية عن ترك الفواحش محبة لهذا المحبوب الأعلى ولست هناك فاتركها محبة للنساء اللاتى وصفهن الله فى كتابه، وبعث رسوله داعيًا إلى وصالهن فى جنة المأوى. وقد تقدم ذكر بعض صفاتهن ولذة وصالهن، فإن تقاصرت همتك عنهن ولم تكن كفوًا لخطبتهن ودعتك نفسك إلى إيثار ما ههنا عليهن فكن من عقوبته العاجلة والآجلة على حذر، واعلم أن العقوبات تختلف، فتارة تعجل، وتارة تؤخر، وتارة يجمع الله على العاصى بينهما، وأشد العقوبات العقوبة بسلب الإيمان، ودونها العقوبة بموت القلب ومحو لذة الذكر والقراءة والدعاء والمناجاة منه، وربما دبت عقوبة القلب فيه دبيب الظلمة إلى أن يمتلئ القلب بهما فتعمى البصيرة، وأهون العقوبة ما كان واقعًا بالبدن فى الدنيا، وأهون منها ما وقع بالمال، وربما كانت عقوبة النظر فى البصيرة أو فى البصر أو فيهما.

قال الفضيل: يقول الله تعالى: ابن آدم إذا كنت أقلبك فى نعمتى وأنت تتقلب فى معصيتى فاحذر لئلا أصرعك بين معاصيك، ابن آدم اتقنى ونم حيث شئت، إنك إن ذكرتنى ذكرتك، وإن نسيتنى نسيتك، والساعة التى لا تذكرنى فيها عليك لا لك.

وقال الفضيل أيضًا: ما يؤمنك أن تكون بارزت الله تعالى بعمل مقتك عليه فأغلق عنك أبواب المغفرة وأنت تضحك؟ وقال علقمة بن مرثد: بينا رجل يطوف بالبيت إذ برق له ساعد امرأة فوضع ساعده على ساعدها فالتذ به فلصقت ساعداهما، فأتى بعض أولئك الشيوخ فقال: ارجع إلى المكان الذى فعلت هذا فيه فعاهد رب البيت أن لا تعود، ففعل فخلى عنه، وقال ابن عباس وأنس ﷺ: إن للحسنة نوراً فى القلب، وزينا فى الوجه، وقوة فى البدن، وسعة فى الرزق، ومحبة فى قلوب الخلق، وإن للسيئة ظلمة فى القلب، وشينا فى الوجه، ووهنًا فى البدن، ونقصًا فى الرزق، وبغضة فى قلوب الخلق.

وقال الحسن: ما عصى الله عبد إلا أذله الله، وقال المعتمر بن سليمان: إن الرجل ليصيب الذنب فى السر فيصبح وعليه مذلته. وقال الحسن: هانوا عليه فعصوه ولو عزوا عليه لعصمهم. وكان شيخ من الأعراب يدور على المجالس ويقول: من سره أن تدوم له العافية فليتق الله، وقال أبو سليمان الدارانى: من صفا صفا له، ومن كدر كدر عليه، ومن أحسن فى ليله كفى فى نهاره، ومن أحسن فى نهاره كفى فى ليله، ومن ترك لله شهوة من

(١) تقاصرت: ضعفت.

قلبه فالله أكرم أن يعذب بها قلبه، وكتبت عائشة أم المؤمنين ﷺ إلى معاوية: أما بعد، فإن العامل إذا عمل بمعصية الله عاد حامده من الناس ذامًا.

وقال محارب بن دثار: إن الرجل ليذنب الذنب فيجد له في قلبه وهنًا.

وقال الحسين بن مطير:

ونفسَك أكْرِمْ عن أُمورٍ كثيرةٍ ... فما لك نفسٌ بعدها تستعيرُها

ولا تقرَبِ الأمرَ الحرامَ فإنما ... حلاوتُه تفنى ويبقى مَريرُها

وكان سفيان الثورى يتمثل بهذين البيتين:

تفنى اللّذاذةُ ممن ذاق صفوتَها ... من الحرام ويبقى الإثم والعارُ

تبقى عواقبُ سوءٍ فى مَغَبَّتِها ... لا خيرَ فى لذّة من بعدها النارُ

فصل: واعلم أن الجزاء من جنس العمل، والقلب المعلق بالحرام كلما هم أن يفارقه ويخرج منه عاد إليه، ولهذا يكون جزاؤه فى البرزخ(١) وفى الآخرة هكذا.

وفى بعض طرق حديث سمرة بن جندب الذى فى صحيح البخارى أن النبى ﷺ قال: «رأيت الليلة رجلين أتيانى فأخرجانى فانطلقت معهما فإذا بيت مبنى على مثل بناء التنور أعلاه ضيق وأسفله واسع يوقد تحته نار فيه رجال ونساء عراة فإذا أوقدت النار ارتفعوا حتى يكادوا أن يخرجوا فإذا أخمدت رجعوا فيها فقلت: من هؤلاء؟ قال: هم الزناة»(٢) فتأمل مطابقة هذا العذاب لحال قلوبهم فى الدنيا فإنهم كلما هموا بالتوبة والإقلاع والخروج من تنور الشهوة إلى فضاء التوبة أركسوا(٣) فيه وعادوا بعد أن كادوا يخرجون.

ولما كان الكفار فى سجن الكفر والشرك وضيقه وكانوا كلما هموا بالخروج منه إلى فضاء الإيمان وسعته وروحه رجعوا على حوافرهم كان عقوبتهم فى الآخرة كذلك، قال الله تعالى: ﴿ **كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا** ﴾ (السجدة: ٢٠) وقال فى موضع آخر: ﴿ **كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا** ﴾ (الحج: ٢٢).

فالكفر والمعاصى والفسوق كله غموم، وكلما عزم العبد أن يخرج منه أبت عليه نفسه وشيطانه ومالفه، فلا يزال فى غم ذلك حتى يموت، فإن لم يخرج من غم ذلك فى الدنيا بقى فى غمه فى البرزخ وفى القيامة، وإن خرج من غمه وضيقه ههنا خرج منه هناك،

---

(١) البرزخ: الحاجز بين شيئين، أو ما بين الموت والبعث.

(٢) صحيح: رواه البخارى (٧٠٤٧) ومسلم (٢٢٧٥).

(٣) أركسوا: ارتكسوا وارتدوا.

فما حبس العبد عن الله في هذه الدار حبسه عنه بعد الموت، وكان معذبًا به هناك كما كان قلبه معذبًا به في الدنيا، فليس العشاق والفجرة والظلمة في لذة في هذه الدار، وإنما هم يعذبون فيها وفي البرزخ وفي القيامة، ولكن سكر الشهوة وموت القلب حال بينهم وبين الشعور بالألم، فإذا حيل بينهم وبين ما يشتهون أحضرت نفوسهم الألم الشديد، وصار يعمل فيها بعد الموت نظير ما يعمل الدود في لحومهم. فالآلام تأكل أرواحهم غير أنها لا تفنى، والدود يأكل جسومهم.

قال الإمام أحمد ﷺ: حدثنا إسماعيل بن عبد الكريم قال: حدثني عبد الصمد بن معقل، حدثني وهب بن منبه قال: كان حزقيل قائمًا فأتاه ملك فذكر حديثًا طويلاً وفيه أنه مر بقوم أموات فقيل له: ادعهم فدعاهم فأحياهم الله له فقال: سلهم فيم كنتم؟ فقالوا: لما فارقنا الحياة لقينا ملكًا يقال له ميكائيل فقال: هلموا أعمالكم وخذوا أجوركم فذلك سنتنا فيكم وفيمن كان قبلكم وفيمن هو كائن بعدكم، فنظروا في أعمالنا فوجدونا نعبد الأوثان، فسلط الدود على أجسادنا وجعلت الأرواح تألم، وسلط الغم على أرواحنا وجعلت الأجساد تألم، فلم نزل كذلك نعذب حتى دعوتنا.

الباب السابع والعشرون:

فيمن ترك محبوبه حرامًا فبذل له حلالاً
أو أعاضه الله خيرًا منه

عنوان هذا الباب وقاعدته أن من ترك لله شيئًا عوضه الله خيراً منه، كما ترك يوسف الصديق عليه السلام امرأة العزيز لله واختار السجن على الفاحشة فعوضه الله أن مكنه فى الأرض يتبوأ[١] منها حيث يشاء، وأتته المرأة صاغرة سائلة راغبة فى الوصل الحلال فتزوجها، فلما دخل بها قال: هذا خير مما كنت تريدين، فتأمل كيف جزاه الله سبحانه وتعالى على ضيق السجن أن مكنه فى الأرض ينزل منها حيث يشاء، وأذل له العزيز وامرأته، وأقرت المرأة والنسوة ببراءته، وهذه سنته تعالى فى عباده قديمًا وحديثًا إلى يوم القيامة.

ولما عقر سليمان بن داود عليهما السلام الخيل التى شغلته عن صلاة العصر حتى غابت الشمس سخر الله له الريح يسير على متنها[٢] حيث أراد، ولما ترك المهاجرون ديارهم لله وأوطانهم التى هى أحب شىء إليهم أعاضهم الله أن فتح عليهم الدنيا وملكهم شرق الأرض وغربها، ولو اتقى الله السارق وترك سرقة المال المعصوم لله لآتاه الله مثله حلالاً، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ﴾ (الطلاق: ٢، ٣) فأخبر الله سبحانه وتعالى أنه إذا اتقاه بترك أخذ ما لا يحل له رزقه الله من حيث لا يحتسب، وكذلك الزانى لو ترك ركوب ذلك الفرج حرامًا لله لأثابه الله بركوبه أو ركوب ما هو خير منه حلالاً.

وقال الإمام أحمد: حدثنا هشيم، حدثنا عبد الرحمن بن إسحاق، عن محارب بن دثار، عن صلة، عن حذيفة بن اليمان ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «النظرة إلى المرأة سهم من سهام إبليس مسموم من تركه خوف الله أثابه الله إيمانًا يجد حلاوته فى قلبه»[٣].

وقال عمر بن شيبة: حدثنا أحمد بن عبد الله بن يونس، حدثنا عنبسة بن عبد الرحمن، حدثنا أبو الحسن المدنى، عن على ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ «نظر الرجل فى

---

(١) يتبوأ: يتخذ مسكنًا ومقامًا. (٢) متنها: ظهرها.
(٣) تقدم تخريجه.

محاسن المرأة سهم من سهام إبليس مسموم، فمن أعرض عن ذلك السهم أعقبه الله عبادة تسره»[(١)].

وقال أبو الفرج بن الجوزي، رحمه الله تعالى: بلغني عن بعض الأشراف أنه اجتاز بمقبرة فإذا جارية حسناء عليها ثياب سواد، فنظر إليها فعلقت بقلبه فكتب إليها:

قد كنتُ أحسبُ أن الشمس واحدةٌ ... والبدرَ في منظرٍ بالحسن موصوفُ
حتى رأيتُكِ في أثواب ثاكلة[(٢)] ... سُود وصدغُك[(٣)] فوقَ الخدّ معطوفُ
فَرُحت والقلبُ مني هائمٌ دَنِفٌ[(٤)] ... والكِبْدُ حَرَّى ودمعُ العين مَذْروفُ
رُدّي الجواب ففيه الشكرُ واغتنمي ... وصلَ المحبّ الذي بالحبّ مشغوفُ

ورمى بالرقعة إليها، فلما قرأتها كتبت:

إن كنت ذا حسبٍ زاكٍ وذا نسب ... إن الشريفَ بغضٍ[(٥)] الطّرف معروفُ
إن الزّناة أُناسٌ لا خَلاقَ لهم ... فاعلم بأنك يومَ الدّين موقوفُ
واقطع رَجاكَ لحاك الله[(٦)] من رجلٍ ... فإن قلبي عن الفحشاء مصروف

فلما قرأ الرقعة زجر نفسه وقال: أليس امرأة تكون أشجع منك؟ ثم تاب ولبس مدرعة[(٧)] من الصوف والتجأ إلى الحرم، فبينا هو في الطواف يومًا وإذا بتلك الجارية عليها درع من صوف فقالت له: ما أليق هذا بالشريف، هل لك في المباح؟ فقال: قد كنت أروم هذا قبل أن أعرف الله وأحبه، والآن قد شغلني حبه عن حب غيره، فقالت له: أحسنت، ثم طافت وهي تنشد:

فطفنا فلاحت في الطواف لوائحٌ ... غَنينا بها عن كل مَرأى ومَسْمَع

وقال الحسن البصري: كانت امرأة بغي[(٨)] قد فاقت أهل عصرها في الحسن لا تمكن من نفسها إلا بمائة دينار، وإن رجلاً أبصرها فأعجبته. فذهب فعمل بيديه وعالج[(٩)] فجمع مائة دينار، فجاء فقال: إنك قد أعجبتني فانطلقت فعملت بيدي

---

(١) تقدم تخريجه. (٢) **ثاكلة**: الثكل: الفقد والهلاك.
(٣) **صدغك**: الصدغ: جانب الوجه من العين إلى الأذن، والجمع أصداغ.
(٤) **دنف**: صريع المرض. (٥) **غض**: يقال: غض بصره: كفه وخفضه.
(٦) **لحاك الله**: لعنك وقبحك.
(٧) **مدرعة**: الدراعة: ثوب من صوف المعجم الوجيز (٢٢٦).
(٨) **بغي**: زانية فاجرة.
(٩) **عالج**: عاني وزاول.

وعالجت حتى جمعت مائة دينار فقالت: ادفعها إلى القهرمان[١] حتى ينقدها ويزنها، فلما فعل قالت: ادخل، وكان لها بيت منجد وسرير من ذهب فقالت: هلم لك، فلما جلس منها مجلس الخائن تذكر مقامه بين يدى الله فأخذته رعدة وطفئت شهوته فقال: اتركينى لاخرج ولك المائة دينار، فقالت: ما بدا لك، وقد رأيتنى كما زعمت فاعجبتك فذهبت فعالجت وكدحت[٢] حتى جمعت مائة دينار فلما قدرت علىَّ فعلت الذى فعلت؟ فقال: ما حملنى على ذلك إلا الفَرَقُ[٣] من الله، وذكرت مقامى بين يديه، قالت: إن كنت صادقًا فمالى زوج غيرك، قال: ذرينى[٤] لاخرج، قالت: لا إلا أن تجعل لى عهدًا أن تتزوجنى فقال: لا حتى أخرج، قالت: عليك عهد الله إن أنا أتيتك أن تتزوجنى، قال: لعل، فتقنع بثوبه ثم خرج إلى بلده، وارتحلت المرأة بدنياها نادمة على ما كان منها حتى قدمت بلده، فسالت عن اسمه ومنزله فدُلت عليه، فقيل له: الملكة جاءت بنفسها تسأل عنك، فلما رآها شهق شهقة فمات، فأُسقط[٥] فى يدها فقالت: أما هذا فقد فاتنى، أما له من قريب؟ قيل: بلى أخوه رجل فقير، فقالت: إنى أتزوجك حبًا لاخيك، قال: فتزوجته فولدت له سبعة أبناء.

وقال يحيى بن عامر التيمى: خرج رجل من الحى حاجًّا فورد بعض المياه ليلاً، فإذا هو بامرأة ناشرة شعرها، فأعرض عنها فقالت له: هلم إلى فلم تعرض عنى؟ فقال: إنى أخاف الله رب العالمين، فتجلببت[٦] ثم قالت: هبت والله مهابًا، إن أولى من شركك فى الهيبة لمن أراد أن يشركك فى المعصية، ثم ولت فتبعها، فدخلت بعض خيام الأعراب، قال: فلما أصبحت أتيت رجلاً من القوم فسألته عنها وقلت: فتاة صفتها كذا وكذا فقال: هى والله ابنتى، فقلت: هل أنت مزوجى بها؟ فقال: على الأكفاء فمن أنت؟ فقلت: رجل من تيم الله، قال: كفء كريم، فما رمت حتى تزوجتها ودخلت بها، ثم قلت: جهزوها إلى قدومى من الحج، فلما قدمنا حملتها إلى الكوفة، وها هى ذى، ولى منها بنون وبنات، قال: فقلت لها: ويحك ما كان تعرضك لى حينئذ؟ فقالت: يا هذا ليس للنساء خير من الأزواج، فلا تعجبن من امرأة تقول هويت، فوالله لو كان عند بعض السودان ما تريده من هواها لكان هو هواها.

---

(١) القهرمان: القواد الذى ييسر للزانية أعمالها.
(٢) كدحت: جدت وتعبت.
(٣) الفرق: الوجل والخوف.
(٤) ذرينى: اتركينى.
(٥) أسقط: ترددت.
(٦) تجلببت: ارتدت الجلباب.

وقال الحسن بن زيد: ولينا بديار مصر رجل فوجد[١] على بعض عماله فحبسه وقيده، فأشرفت عليه ابنة الوالي فهويته فكتبت إليه:

أيها الرامي بعينيـ ـه وفي الطرف الحتُوفُ[٢]
إن تُرِدْ وصلاً فقد أمْـ ـكَنَكَ الظبيُ الأَلُوفُ

فأجابها الفتى:

إن تَرَيْني زانيَ العَيْـ ـنَيْنِ فالفرجُ عفيفُ
ليس إلا النظر الفا تِرُ والشعرُ الظريفُ

فأجابته:

قد أردناك فألفيـ ـنَاك إنسانًا عفيفا
فتأبَّيت فلا زلْـ ـتَ لقيدَيْك حليفا

فأجابها:

ما تأبَّيت لأني كنت للظبي عَيوفا[٣]
غير أني خِفْتُ ربًّا كان بي بَرًّا لطيفا

فذاع الشعر وبلغت القصة الوالي فدعا به فزوجه إياها ودفعها إليه.

وذكر أن رجلاً أحب امرأة وأحبته، فاجتمعا فراودته المرأة عن نفسه فقال: إن أجلي ليس بيدى، وأجلك ليس بيدك، فربما كان الأجل قد دنا فنلقى الله عاصيين، فقالت: صدقت، فتابا وحسنت حالهما وتزوجت به.

وذكر بكر بن عبد الله المزني أن قصابًا ولع بجارية لبعض جيرانه، فأرسلها أهلها إلى حاجة في قرية أخرى، فتبعها فراودها عن نفسها، فقالت: لا تفعل، لأنا أشد حبًّا لك مني، ولكني أخاف الله، قال: فأنت تخافينه وأنا لا أخافه؟ فرجع تائبًا، فأصابه العطش حتى كاد ينقطع عنقه، فإذا هو برسول لبني إسرائيل، فسأله فقال: مالك؟ قال: العطش، فقال: تعال حتى ندعو الله حتى تظلنا سحابة حتى ندخل القرية، قال: مالي من عمل فادعوه، قال: فأنا أدعوه وأمن[٤] أنت، فدعا وأمن الرجل، فأظلتهما سحابة حتى انتهيا إلى القرية، فذهب القصاب إلى مكانه فرجعت السحابة معه، فرجع إليه الرسول فقال: زعمت أن ليس لك

---

(١) وجد: غضب.

(٢) الحتوف: جمع حتف وهو: الموت.

(٣) عيوفًا: العيوف: الكره.

(٤) أمن: أي قول: آمين.

عمل وأنا الذى دعوت وأنت أمنت، فأظلتنا سحابة ثم تبعتك، لتخبرنى ما أمرك، فأخبره، فقال الرسول: إن التائب إلى الله بمكان ليس أحد من الناس بمكانه.

وقال يحيى بن أيوب: كان بالمدينة فتى يعجب عمر بن الخطاب ﷺ شأنه، فانصرف ليلة من صلاة العشاء فتمثلت [١] له امرأة بين يديه، فعرضت [٢] له بنفسها ففتن بها ومضت، فاتبعها حتى وقف على بابها فابصر وجلا عن قلبه وحضرته هذه الآية: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ**﴾ (الأعراف: ٢١٠) فخر مغشيًا عليه، فنظرت إليه المرأة فإذا هو كالميت، فلم تزل هى وجارية لها يتعاونان عليه حتى ألقياه على باب داره، فخرج أبوه فرآه مُلقىً على باب الدار لما به فحمله وأدخله فأفاق، فساله ما أصابك يا بنى؟ فلم يخبره، فلم يزل به حتى أخبره، فلما تلا الآية شهق شهقة فخرجت نفسه، فبلغ عمر ﷺ قصته فقال: ألا آذنتمونى [٣] بموته؟ فذهب حتى وقف على قبره فنادى: يا فلان: ﴿**وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ**﴾ (الرحمن: ٤٦) فسمع صوتًا من داخل القبر: قد أعطانى ربى يا عمر.

وذكر الحسن هذه القصة عن عمر ﷺ على وجه آخر قال: كان شاب على عهد عمر ابن الخطاب ﷺ ملازمًا للمسجد والعبادة، فهويته جارية فحدث نفسه بها، ثم إنه تذكر وأبصر فشهق شهقة فغشى عليه منها، فجاء عم له فحمله إلى بيته، فلما أفاق قال: يا عم انطلق إلى عمر فاقرئه منى السلام وقل له: ما جزاء من خاف مقام ربه؟ فأخبر عمر فأتاه وقد مات فقال: لك جنتان.

وفى جامع الترمذى من حديث ابن عمر ﷺ قال: قال رسول الله: «كان ذو الكفل لا يتورع من ذنب عمله، فأتته امرأة فأعطاها ستين دينارًا على أن يطاها، فلما قعد منها مقعد الرجل من امرأته أرعدت [٤] وبكت، فقال ما يبكيك؟ أكرهتك؟ قالت: لا، ولكن هذا عمل لم أعمله وإنما حملتنى عليه الحاجة، قال: فتفعلين هذا وأنت لم تفعليه [قط؟ ثم قال: اذهبى والدنانير لك، ثم قال: والله لا يعصى الله ذو الكفل أبدًا، فمات من ليلته فاصبح مكتوبًا على بابه: قد غفر الله لذى الكفل» [٥] قال الترمذى: هذا حديث حسن.

وقال أبو هريرة، وابن عباس ﷺ: خطب رسول الله ﷺ قبل وفاته فقال فى خطبته:

---

(١) تمثلت: بدت وظهرت.
(٢) عرضت: أغرته.
(٣) آذنتمونى: اخبرتمونى وأعلمتمونى.
(٤) أرعدت: الرعدة: الرعشة.
(٥) تقدم تخريجه.

«ومن قدر على امرأة أو جارية حراماً فتركها مخافة من الله أمنه الله يوم الفزع الأكبر وحرمه على النار وأدخله الجنة»[١] .

وقال مالك بن دينار: جنات النعيم بين الفردوس وبين جنات عدن، فيها جوار خلقن من ورد الجنة، يسكنها الذين هموا بالمعاصي فلما ذكروا الله عز وجل راقبوه، فانثنت[٢] رقابهم من خشية الله عز وجل.

قال ميمون بن مهران: الذكر ذكران: فذكر الله عز وجل باللسان حسن، وأفضل منه أن تذكر الله عز وجل عندما تشرف[٣] على معاصيه.

وقال قتادة ﷺ: ذكر لنا أن نبي الله ﷺ كان يقول: «لا يقدر رجل على حرام ثم يدعه ليس به إلا مخافة الله عز وجل إلا أبدله في عاجل الدنيا قبل الآخرة ما هو خير له من ذلك»[٤] .

وقال عبيد بن عمير: صدق الإيمان وبره أن يخلو الرجل بالمرأة الحسناء فيدعها لا يدعها إلا لله عز وجل.

وقال أبو عمران الجوني: كان رجل من بني إسرائيل لا يمتنع من شيء، فجهد[٥] أهل بيت من بني إسرائيل فأرسلوا إليه جارية منهم تسأله شيئاً فقال: لا أو تمكنيني من نفسك، فخرجت فجهدوا جهداً شديداً فرجعت إليه فقالت: أعطنا، فقال: لا، أو تمكنيني من نفسك، فرجعت، فجهدوا جهداً كثيراً فأرسلوها إليه فقال لها ذلك، فقالت: دونك، فلما خلا بها جعلت تنتفض كما تنتفض السعفة[٦] ، قال لها: ما لك؟ قالت: إني أخاف الله رب العالمين، هذا شيء لم أصنعه قط، قال: أنت تخافين الله ولم تصنعيه وأفعله؟ أعاهد الله أني لا أرجع إلى شيء مما كنت فيه، فأوحى الله إلى نبي من أنبيائهم أن فلاناً أصبح في كتب أهل الجنة.

وذكر أن شاباً في بني إسرائيل لم يكن فيهم شاب أحسن منه كان يبيع المكاتل[٧] ، فبينا هو ذات يوم يطوف بمكاتله إذ خرجت امرأة من دار ملك من ملوك بني إسرائيل، فلما

---

(١) ذكره المتقي الهندي في «كنز العمال» (٤٣١٢) وسنده ضعيف جداً.
(٢) فانثنت: تلوت. (٣) تشرف: تطلع.
(٤) ضعيف: رواه ابن جرير في «تفسيره» (٢٢٣٠٦).
(٥) فجهد: تعب. (٦) السعفة: جريد النخل وورقه.
(٧) المكاتل: المكتل: الزنبيل الذي يوضع فيه العنب.

رآنه رجعت مبادرة فقالت لابنة الملك: إني رأيت شابًا بالباب يبيع المكاتل لم أر شابًا قط أحسن منه، قالت: أدخليه، فخرجت فقالت: ادخل فدخل، فأغلقت الباب دونه، ثم قالت: ادخل فدخل، فأغلقت بابًا آخر دونه، ثم استقبلته بنت الملك كاشفة عن وجهها ونحرها[١]، فقال لها: استترى عافاك الله، فقالت: إنا لم ندعك لهذا، إنما دعوناك لكذا وراودته عن نفسه، فقال لها: اتقى الله، قالت: إنك إن لم تطاوعني على ما أريد أخبرت الملك أنك إنما دخلت تكابرني[٢] على نفسي، قال لها: فضعي لي وضوءًا، فقالت: أعليَّ تعلل؟ يا جارية ضعي له وضوءًا فوق الجوسق[٣] مكانًا لا يستطيع أن يفر منه، فلما صار في الجوسق قال: اللهم إني دعيت إلى معصيتك وإني أختار أن ألقي نفسي من هذا الجوسق ولا أركب معصيتك، ثم قال: باسم الله، وألقى نفسه من أعلاه، فأهبط الله ملكًا أخذ بضبعيه[٤] فوقع قائمًا على رجليه، فلما صار في الأرض قال: اللهم إن شئت رزقتني رزقًا يغنيني عن بيع هذه المكاتل، فأرسل الله عليه رِجْلاً[٥] من جراد من ذهب فأخذ منه حتى ملأ ثوبه، فلما صار في ثوبه قال: اللهم إن كان هذا رزقًا رزقتنيه من الدنيا فبارك لي فيه، وإن كان ينقصني مما لي عندك في الآخرة فلا حاجة لي فيه، فنودي إن هذا الذي أعطيناك جزء من خمسة وعشرين جزءًا لصبرك على إلقائك نفسك، فقال: اللهم فلا حاجة لي فيما ينقصني مما لي عندك في الآخرة، فرجع الجراد.

وذكر أبو الفرج بن الجوزي عن رجل من بعض المياسير[٦] قال: بينا أنا يومًا في منزلي إذ دخل عليَّ خادم لي فقال لي: رجل بالباب معه كتاب، فقلت: أدخله أو خذ كتابه، فأخذ الكتاب منه فإذا فيه:

تجنبّك الردى ولقيت خيرًا	وسلّمك المليكُ من الغموم
شكونَ بنات أحشائي إليكم	وما إن تشتكين إلى ظلوم
وسَألتني الكتابَ إليك فيما	يخامرها - فدَتْك - من الهموم
وهنّ يقلن يا بن الجود إنا	بَرِمنا[٧] من مراعاة النجوم
وعندك لو مَنَنْتَ[٨] شفاءُ سُقْمٍ	لأعضاءٍ دمِينَ من الكلُوم[٩]

(١) نحرها: النحر: العنق.
(٢) تكابرني: تراودني.
(٣) الجوسق: القلعة المهجورة.
(٤) ضبعيه: ما بين الإبط إلى الكتف.
(٥) رجلا: كم هائل من الجراد.
(٦) المياسير: الأغنياء.
(٧) برمنا: ضجرنا.
(٨) مننت: أنعمت.
(٩) الكلوم: الجراح.

قال: فلما قرأت الأبيات قلت: عاشق، فقلت للخادم: أدخله، فخرج فلم يره فارتبت فى أمره، فجعل الفكر يتردد فى قلبى، فدعوت جوارىَّ كلهن فجمعتهن فقلت لهن: ما قصة هذا الكتاب؟ فحلفن لى وقلن: يا سيدنا ما نعرف لهذا الكتاب سببًا، فمن جاءك به؟ فقلت: قد فاتنى وما أردت سؤالكن إلا أنى ظننت له هوى فى بعضكن، فمن عرفت منكن أنها صاحبته فهى له، فلتذهب إليه ولتأخذ كتابى إليه، وكتبتُ كتابًا أشكره على فعله وأسأله عن حاله، ووضعت الكتاب فى موضع من الدار، فمكث الكتاب فى موضعه حينًا لا يأخذه أحد ولا أرى الرجل، فاغتممت غمًّا شديداً، ثم قلت: لعله بعض فتياننا، ثم قلت: إن هذا الفتى قد أخبر عن نفسه بالورع، وقد قنع ممن يحبه بالنظر، فدبرت[1] عليه فحجبت جوارى عن الخروج، فما كان إلا يوم وبعض الآخر إذ دخل على الخادم ومعه كتاب قال: أرسل به إليك فلان، وذكر بعض أصدقائى ففضضته[2] فإذا فيه مكتوب:

ماذا أردتَ إلى روحٍ معلّقةٍ ... عند التراقى[3] وحادى الموت يَحْدُوها

حَثَثْتُ[4] حادَيها ظلمًا فجدَّ بها ... فى السير حتى تولّت عن تراقيها

حجبت مَن كان تحيا عند رؤيتها ... روحى ومن كان يشفينى ترائبها

فالنفسُ تجنَحُ نحو الظلم جاهلةً ... والقلبُ منى سليمٌ ما يؤاتيها

واللهِ لو قيل لى تأتى بفاحشةٍ ... وإن عقباك دنيانا وما فيها

لقلت لا والذى أخشى عقوبتَه ... ولا بأضعافها ما كنتُ آتيها

لولا الحياء لبُحْنا بالذى كتمت ... بنتُ الفؤاد وأبدينا تَمَنّيها

قال: فبهت[5] وقلت: لا أدرى ما أحتال فى أمر هذا الرجل، وقلت للخادم: لا يأتيك أحد بكتاب إلا قبضت عليه حتى تدخله علىَّ، ثم لم أعرف له خبرًا بعد ذلك، فبينا أنا أطوف بالكعبة إذا فتى قد أقبل نحوى وجعل يطوف إلى جنبى ويلاحظنى، وقد صار مثل العود، فلما قضيت طوافى خرجت وأتبعنى فقال: يا هذا أتعرفنى؟ قلت: لا أنكرك لسوء، قال: أنا صاحب الكتابين، فما تمالكت أن قبلت رأسه وبين عينيه وقلت: بأبى أنت وأمى، والله لقد شغلت قلبى وأطلت غمى بشدة كتمانك لأمرك، فهل لك فيما سألت وطلبت؟ قال: بارك الله لك وأقر عينيك، إنما أتيتك أستحلك[6] من نظرة كنت نظرتها على غير

---

(١) دبرت: احتالت عليه.

(٢) فضضته: الفض: الفتح.

(٣) التراقى: العظمة الواقعة بين النحر والعاتق.

(٤) حثثت: سلطت.

(٥) فبهت: أخذ بالحجة فشحب لونه.

(٦) أستحلك: أطلب منك أن تكونى حلا لى.

حكم الكتاب والسنة، والهوى داع إلى كل بلاء، وأستغفر الله العظيم، فقلت: يا حبيبى أحب أن تصير معى إلى منزلى فآنس بك وتجرى الحرمة بينى وبينك، قال: ليس إلى ذلك سبيل، فقلت: غفر الله لك ذنبك وقد وهبتها لك ومعها مائة دينار، ولك فى كل سنة كذا وكذا، قال: بارك الله لك فيها، فلولا عهود عاهدت الله عليها وأشياء أكدتها على لم يكن فى الدنيا شىء أحب إلى من هذا الذى تعرضه على، ولكن ليس إلى ذلك سبيل والدنيا منقطعة، فقلت له: فإذا أبيت أن تقبل منى ذلك فأخبرنى من هى حتى أكرمها لأجلك ما بقيت، فقال: ما كنت لأذكرها لأحد، ثم قام وتركنى.

وذكر عبد الملك بن قريب قال: هوى رجل من النساء جارية فاشتد حبه لها. فبعث إليها يخطبها. فامتنعت وأجابته إلى غير ذلك، فأبى وقال: لا إلا ما أحل الله، ثم إن محبته ألقيت فى قلبها فبذلت له ما سأل، فقال: لا والله لا حاجة لى بمن دعوتها إلى طاعة الله ودعتنى إلى معصيته.

وحكى المبرد عن شيخه أبى عثمان المازنى أنه قصده بعض أهل الذمة[1] ليقرأ عليه «كتاب سيبويه» وبذل له مائة دينار، فامتنع ورده، فقلت له: أترد هذا القدر مع شدة فاقتك؟ فقال: إن هذا الكتاب يشتمل على ثلاثمائة وكذا وكذا آية من كتاب الله، ولست أرى تمكين هذا الذمى منها غيرة على القرآن. فاتفق أن غنت جارية بحضرة الواثق بقول العرجى:

أظلومُ إن مصابَكم رجلاً ... أهدى السلامَ تحيَّةً ظلمُ؟

فاختلف أهل مجلسه فى إعراب رجل، فمنهم من قال: هو نصب وجعله اسم إن، ومنهم من رفعه على أنه خبرها، والجارية أصرت على النصب وقالت: لقننى[2] إياه كذلك شيخى أبو عثمان المازنى، فأمر الواثق بإحضاره إلى بين يديه، قال: فلما مثلت بين يديه قال: ممن الرجل؟ قلت: من بنى مازن، قال: أى الموازن؟ أمازن تميم أم مازن قيس أم مازن ربيعة؟ قلت: من مازن ربيعة، فكلمنى بكلام قومى؟ فقال لى: با اسمك؟ (وقومى يقلبون الميم باء والباء ميمًا، فكرهت أن أواجهه بلفظة مكر) فقلت: بكر يا أمير المؤمنين، ففطن لما قصدته وأعجب به فقال: ما تقول فى قول الشاعر:

أظلومُ إن مصابكم رجلاً ... أهدى السلامَ تحيةَ ظلمُ؟

---

(١) أهل الذمة: اليهود والنصارى.

(٢) لقننى: أملاه علىَّ.

أترفع رجلاً أم تنصبه؟ فقلت: الوجه النصب يا أمير المؤمنين، فقال: ولم ذلك؟ فقلت: لأن مصابكم مصدر بمعنى إصابتكم، فأخذ اليزيدى فى معارضتى، فقلت: هو بمنزلة قولك: إن ضربك زيداً ظلم، فرجلاً مفعول مصابكم ومنصوب به، والدليل عليه أن الكلام معلق إلى أن تقول ظلم فيتم، فاستحسنه الواثق وقال: هل لك من ولد؟ قلت: نعم يا أمير المؤمنين بنية، قال: فما قالت لك عند مسيرك إلينا؟ قلت: أنشدت قول الأعشى:

أيا أبتا لا تَرِمْ[1] عندنا
فإنا بخير إذا لم ترم
ترانا إذا أضمرتك[2] البلا
دُ نُجْفَى وتُقطع منَّا الرَّحِمْ

قال: فما قلتَ لها؟ قال: قلت قول جرير:

ثقى بالله ليس له شريكٌ
ومن عند الخليفة بالنجاح

فقال: عليّ النجاح إن شاء الله، ثم أمر لى بألف دينار، وردَّنى إلى البصرة مكرمًا، فقال أبو العباس المبرد: فلما عاد إلى البصرة قال لى: كيف رأيت يا أبا العباس؟ رددنا لله مائة دينار فعوضنا الله ألفًا.

---

(١) لا ترم: لا تفارق.
(٢) أضمرتك: اخفتك فلم نرك.

الباب الثامن والعشرون:

فيمن آثر عاجل العقوبة والآلام على لذة الوصال الحرام

هذا باب إن ما يدخل منه رجلان:

أحدهما: من تمكن من قلبه الإيمان بالآخرة وما أعد الله فيها من الثواب والعقاب لمن عصاه، فآثر أدنى الفوتين، واختار أسهل العقوبتين.

والثاني: رجل غلب عقله على هواه فعلم ما فى الفاحشة من المفاسد، وما فى العدول عنها من المصالح، فآثر الأعلى على الأدنى.

وقد جمع الله سبحانه وتعالى ليوسف الصديق صلوات الله وسلامه عليه بين الأمرين، فاختار عقوبة الدنيا بالسجن على ارتكاب الحرام، فقالت المرأة: ﴿ **وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ (٣٢) قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ** ﴾ (يوسف: ٣٢، ٣٣) فاختار السجن على الفاحشة، ثم تبرأ إلى الله من حوله وقوته، وأخبر أن ذلك ليس إلا بمعونة الله له وتوفيقه وتأييده لا من نفسه فقال: ﴿ **وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ** ﴾ (يوسف: ٢٣) فلا يركن(١) العبد إلى نفسه وصبره وحاله وعفته، ومتى ركن إلى ذلك تخلت عنه عصمة الله وأحاط به الخذلان. وقد قال الله تعالى لأكرم الخلق عليه وأحبهم إليه: ﴿ **وَلَوْلا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً** ﴾ (الإسراء: ٧٤) ولهذا كان من دعائه: «يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك»(٢)، وكانت أكثر يمينه: «لا ومقلب القلوب»(٣) كيف وهو الذى أنزل عليه: ﴿ **وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ** ﴾ (الأنفال: ٢٤) وقد جرت سنة الله تعالى فى خلقه أن من آثر الألم العاجل على الوصال الحرام أعقبه ذلك فى الدنيا المسرة التامة، وإن هلك فالفوز العظيم، والله تعالى لا يضيع ما تحمل عبده لأجله.

وفى بعض الآثار الإلهية يقول الله سبحانه وتعالى: «بعينى ما يتحمل المتحملون من أجلى» وكل من خرج عن شىء منه لله حفظه الله عليه أو أعاضه الله ما هو أجل منه، ولهذا

---

(١) يركن: يميل.

(٢) صحيح: رواه أحمد (٣/ ١١٢) والترمذى (٢١٤٠) وابن ماجه (٣٨٣٤) وصححه الألبانى.

(٣) صحيح: رواه البخارى (٦٦١٧) والترمذى (١٥٤٠) والنسائى (٣/ ٦٥٤) وأحمد (٢/ ٢٠٥).

لما خرج الشهداء عن نفوسهم لله جعلهم الله أحياء عنده يرزقون، وعوضهم عن أبدانهم التى بذلوها له أبدان طير خضر جعل أرواحهم فيها تسرح فى الجنة حيث شاءت، وتاوى إلى قناديل معلقة بالعرش(١)، ولما تركوا مساكنهم له عوضهم مساكن طيبة فى جنات عدن ذلك الفوز العظيم.

وقال وهب بن منبه: كان عابد من عباد بنى إسرائيل يتعبد فى صومعة، فجاء رجل من بنى إسرائيل إلى امرأة بغى فبذل لها مالاً وقال: لعلك أن تفتنيه، فجاءته فى ليلة مطيرة فنادته فأشرف عليها، فقالت: آونى إليك، فتركها وأقبل على صلاته، فقالت: يا عبد الله آونى إليك، أما ترى الظلمة والمطر؟ فلم تزل به حتى آواها، فاضطجعت(٢) قريبًا منه فجعلت تريه محاسنها حتى دعته نفسه إليها، فقال: لا والله حتى أنظر كيف صبرك على النار، فتقدم إلى المصباح فوضع إصبعًا من أصابعه حتى احترقت، ثم عاد إلى صلاته فدعته نفسه إليها، فعاود المصباح فوضع إصبعه الأخرى حتى احترقت، فلم يزل تدعوه نفسه وهو يعود إلى المصباح حتى احترقت أصابعه جميعًا وهى تنظر، فصعقت(٣) وماتت.

وقال الإمام أحمد: حدثنا إبراهيم بن خالد، حدثنا أمية بن شبل، عن عبد الله بن وهب قال: لا أعلمه إلا ذكره عن أبيه أن عابداً من بنى إسرائيل كان فى صومعته(٤) يتعبد، فإذا نفر من الغواة(٥) قالوا: لو استنزلناه بشىء فذهبوا إلى امرأة بغى فقالوا لها: تعرضى له، فجاءته فى ليلة مظلمة مطيرة فقالت: يا عبد الله آونى إليك، وهو قائم يصلى ومصباحه ثاقب(٦)، فلم يلتفت إليها، فقالت: يا عبد الله الظلمة والغيث(٧)، آونى إليك، فلم تزل به حتى أدخلها إليه فاضجعت وهو قائم يصلى، فجعلت تتقلب وتريه محاسن خلقها حتى دعته نفسه إليها، فقال: لا والله حتى أنظر كيف صبرك على النار، فدنا إلى المصباح فوضع إصبعًا من أصابعه فيه حتى احترقت، قال: ثم رجع إلى مصلاه، قال: فدعته نفسه أيضًا، فعاد إلى المصباح فوضع إصبعه أيضًا حتى احترقت أصابعه وهى تنظر إليه فصعقت

(١) صحيح: رواه مسلم (١٨٨٧) والترمذى (٣٠١١) وابن ماجه (٢٨٠١).
(٢) فاضطجعت: اتكأت أو وضع جنبه على الأرض أو نحوها.
(٣) فصقعت: أغمى عليها.
(٤) صومعته: الصومعة: مكان مسكن الرهبان وعبادتهم.
(٥) الغواة: المضلون.
(٦) ثاقب: مضىء.
(٧) الغيث: المطر.

فماتت، فلما أصبحوا غدوا لينظروا ما صنعت، فإذا بها ميتة، فقالوا: يا عدو الله يا مرائى[١] ! وقعت عليها[٢] ثم قتلتها، قال: فذهبوا به إلى ملكهم فشهدوا عليه، فأمر بقتله، فقال: دعونى حتى أصلى ركعتين، قال: فصلى ثم دعا فقال: أى رب إنى أعلم أنك لم تكن لتؤاخذنى بما لم أفعل، ولكن أسألك أن لا أكون عاراً على القرى بعدى، قال: فرد الله نفسها فقالت: انظروا إلى يده، ثم عادت ميتة.

وقال الإمام أحمد رحمه الله تعالى: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن منصور، عن إبراهيم قال: بينما رجل عابد عند امرأة إذ عمد فضرب بيده على فخذها، فأخذ يده فوضعها فى النار حتى نشت[٣] .

وقال حصين بن عبد الرحمن: بلغنى أن فتى من أهل المدينة كان يشهد الصلوات كلها مع عمر بن الخطاب ﷺ، وكان عمر يتفقده إذا غاب، فعشقته امرأة من أهل المدينة، فذكرت ذلك لبعض نسائها، فقالت: أنا أحتال لك فى إدخاله عليك، فقعدت له فى الطريق، فلما مر بها قالت له: إنى امرأة كبيرة السن ولى شاة لا أستطيع أن أحلبها، فلو دخلت فحلبتها لى، وكانوا أرغب شىء فى الخير، فدخل فلم ير شاة، فقالت: اجلس حتى آتيك بها، فإذا المرأة قد طلعت عليه، فلما رأى ذلك عمد إلى محراب[٤] فى البيت فقعد فيه فأرادته[٥] عن نفسه فأبى وقال: اتقى الله أيتها المرأة، فجعلت لا تكف عنه ولا تلتفت إلى قوله، فلما أبى عليها صاحت عليه فجاءوا فقالت: إن هذا دخل على يريدنى عن نفسى، فوثبوا عليه وجعلوا يضربونه، وأوثقوه، فلما صلى عمر الغداة فقده، فبينا هو كذلك إذ جاءوا به فى وثاق، فلما رآه عمر قال: اللهم لا تخلف ظنى به، قال: مالكم؟ قالوا: استغاثت امرأة بالليل فجئنا فوجدنا هذا الغلام عندها فضربناه وأوثقناه، فقال عمر ﷺ: اصدقنى، فأخبره بالقصة على وجهها، فقال له عمر ﷺ: أتعرف العجوز؟ فقال: نعم إن رأيتها عرفتها، فأرسل عمر إلى نساء جيرانها وعجائزهن فجاء بهن فعرضهن، فلم يعرفها فيهن، حتى مرت به العجوز فقال: هذه يا أمير المؤمنين، فرفع عمر عليها الدرة[٦] وقال: اصدقينى، فقصت عليه القصة كما قصها الفتى. فقال عمر: الحمد لله الذى جعل فينا شبيه يوسف.

---

(١) مرائى: المنافق المخادع.
(٢) وقعت عليها: زنيت بها.
(٣) نشت: احترقت.
(٤) محراب: مكان العبادة.
(٥) أرادته: طلبت منه الزنا.
(٦) الدرة: العصا.

وقال أبو الزناد: كان راهب يتعبد في صومعته فأشرف (١) منها فرأى امرأة ففتن بها، فأخرج رجله من الصومعة لينزل إليها، فنزلت عليه العصمة فقال: رجل خرجت من الصومعة لتعصى الله والله لا تعود معي في صومعتي، فتركها معلقة خارج الصومعة يسقط عليها الثلوج والأمطار حتى تناثرت وسقطت، فشكر الله ذلك من صنعه، ومدحه في بعض كتبه بذي الرجل، وقال مصعب بن عثمان: كان سليمان بن يسار من أحسن الناس وجهًا فدخلت عليه امرأة بيته، فسألته نفسه فامتنع عليها، فقالت: إذن أفضحك، فخرج هاربًا عن منزله وتركها فيه، وقال جابر بن نوح: كنت بالمدينة جالسًا عند رجل في حاجة، فمر بنا شيخ حسن الوجه حسن الثياب، فقام إليه ذلك الرجل فسلم عليه وقال: يا أبا محمد أسأل الله أن يعظم أجرك، وأن يربط على قلبك بالصبر، فقال الشيخ:

وكــان يمــينى فى الوغى (٢) ومــسـاعـدى
فــأصــبـحتُ قــد خــانت يمــينى ذراعُــهـا
وقــد صِرْتُ حــيـرانًا من الثُّكـل (٣) بـاهـتًـا
أخـــا كـلَفٍ (٤) ضــاقت علىّ رباعُــهــا (٥)

فقال له الرجل: أبشر فإن الصبر معول المؤمن، وإنى لأرجو أن لا يحرمك الله الأجر على مصيبتك، فقلت له: من هذا الشيخ؟ فقال: رجل منا من الأنصار، فقلت: وما قصته؟ قال: أصيب بابنه وكان به بارًّا قد كفاه جميع ما يعنيه، ومنيته عجب، قلت: وما كانت؟ قال: أحبته امرأة فأرسلت إليه تشكو حبه وتسأله الزيارة، وكان لها زوج فألحت عليه، فأفشى ذلك إلى صديق له، فقال له: لو بعثت إليها بعض أهلك فوعظتها وزجرتها رجوت أن تكف عنك، فأمسك، وأرسلت إليه إما أن تزورنى وإما أن أزورك فأبى، فلما يئست منه ذهبت إلى امرأة كانت تعمل السحر فجعلت لها الرغائب (٦) فى تهييجه (٧)، فعملت لها فى ذلك، فبينا هو ذات ليلة مع أبيه إذ خطر ذكرها بقلبه وهاج منه أمر لم يكن يعرفه واختلط (٨)، فقام مسرعًا فصلى واستعاذ والأمر يشتد، فقال: يا أبه أدركنى بقيد، فقال: يا بنى ما قصتك؟ فحدثه بالقصة، فقام وقيده وأدخله بيتًا، فجعل يضطرب ويخور كما يخور الثور، ثم هدأ فإذا هو ميت والدم يسيل من منخره.

---

(١) أشرف: بدا وطلع.
(٢) الوغى: الحرب.
(٣) الثكل: الفقد والموت.
(٤) كلف: سواد يعلو الوجه.
(٥) رباعها: ديارها وأركانها.
(٦) الرغائب: ما يرغبه فيها.
(٧) تهييجه: تثيره.
(٨) اختلط: ضل وفسد عقله.

وهذا ليس بعجيب من الرجال ولكنه من النساء أعجب. قال أبو إدريس الأودى: كان رجلان فى بنى إسرائيل عابدان، وكانت جارية جميلة فأحباها وكتم كل منهما صاحبه، واختبأ كل منهما خلف شجرة ينظر إليها، فبصر كل منهما سره إلى صاحبه، فاتفقا على أن يراوداها، فلما قربت منهما قالا لها: قد عرفت منزلتنا فى بنى إسرائيل، وإنك إن لم تؤاتينا وإلا قلنا إذا أصبحنا: إنا أصبنا معك رجلاً، وإنه أفلتنا، وإنا أخذناك، فقالت: ما كنت لأطيعكما فى معصية الله، فأخذاها وقالا: إنا أصبنا معها رجلاً فأفلتنا، وأقبل نبى من أنبيائهم فوضعوا له كرسيًا فجلس عليه وقال: أقضى بينكم؟ قالا: نعم اقض بيننا، ففرق بين الرجلين وقال لأحدهما: خلف أى شجرة رأيتها؟ قال: شجرة كذا وكذا، وقال للآخر، فقال: شجرة كذا وكذا غير التى ذكر صاحبه، ونزلت نار من السماء فأحرقتهما وأفلتت المرأة.

وقال عبد الله بن المبارك: عشق هارون الرشيد جارية من جواريه فأرادها فقالت: إن أباك مَسَّنى، فشغف بها وقال فيها:

أرى مـاءً وبى عطـشٌ شـديـدٌ	ولكن لا سـبيـلَ إلى الـورودِ[١]
أمـا يكفـيكِ أنـكِ تملكينى	وأن الناس عندى كـالعـبيـدِ
وأنـك لـو قـطـعـتِ يـدى ورجـلى	لقلت من الرضـا أحسنت زيدى

فسأل أبا يوسف عن ذلك فقال: أوكلما قالت جارية شيئًا تصدق؟ قال: ابن المبارك: فلا أدرى ممن أعجب، من هارون الرشيد حيث رغب فيها، أو منها حيث رغبت عنه، أو من أبى يوسف حيث سوغ[٢] له إتيانها، وقال أبو عثمان التيمى: مر رجل براهبة من أجمل النساء فافتتن بها، فتلطف فى الصعود إليها فراودها عن نفسها فأبت عليه وقالت: لا تغتر بما ترى وليس وراءه شىء، فأبى حتى غلبها على نفسها وكان إلى جانبها مجمرة[٣] فوضعت يدها فيها حتى احترقت، فقال لها بعد أن قضى حاجته منها: ما دعاك إلى ما صنعت؟ قالت: إنك لما قهرتنى على نفسى خفت أن أشاركك فى اللذة فأشاركك فى المعصية ففعلت ما رأيت، فقال الرجل: والله لا أعصى الله أبدًا وتاب مما كان عليه.

وذكر الحسين محمد الدامغانى أن بعض الملوك خرج يتصيد وانفرد عن أصحابه، فمر

---

(١) الورود: الورد: المجىء إلى مكان الماء.

(٢) سوغ: جمَّل وزين.

(٣) مجمرة: إناء يوضع فيه الجمر، والجمر: النار.

بقرية فرأى امرأة جميلة فراودها عن نفسها، فقالت: إنى غير طاهرة فأتطهر وآتيك، فدخلت بيتها وخرجت إليه بكتاب فقالت: انظر فى هذا حتى آتيك، فنظر فيه فإذا فيه ما أعد الله للزانى من العقوبة فتركها وذهب، فلما جاء زوجها أخبرته الخبر، فكره أن يقربها مخافة أن يكون للملك فيها حاجة فاعتزلها، فاستعدى[١] عليه أهل الزوجة إلى الملك وقالوا: إن لنا أرضاً فى يد الرجل فلا هو يعمرها ولا هو يردها علينا وقد عطلها، فقال الملك: ما تقول؟ فقال: إنى رأيت فى هذه الأرض أُسْدًا وأنا أتخوف دخولها منه، ففهم الملك القصة فقال: اعمر أرضك فإن الأسد لا يدخلها، ونعم الأرض أرضك.

وكانت بعض النساء المتعبدات وقعت فى نفس رجل موسر وكانت جميلة وكانت تخطب فتأبى، فبلغ الرجل أنها تريد الحج، فاشترى ثلاثمائة بعير ونادى: من أراد الحج فليكتر[٢] من فلان، فاكترت منه المرأة، فلما كان فى بعض الطريق جاءها فقال: إما أن تزوجينى نفسك، وإما غير ذلك، فقالت: ويحك اتق الله! فقال: ما هو إلا ما تسمعين، والله ما أنا بجمال ولا خرجت إلا من أجلك، فلما خافت على نفسها قالت: ويحك انظر أبقى فى الرجال عين لم تنم؟ فقال: لا، ناموا كلهم، قالت: أفنامت عين رب العالمين؟ ثم شهقت شهقة خرت ميتة، وخر الرجل مغشيًا عليه، فلما أفاق قال: ويحى قتلت نفسًا ولم أبلغ شهوتى.

وقال وهب بن منبه: كان فى بنى إسرائيل رجل متعبد شديد الاجتهاد فرأى يومًا امرأة وقعت فى نفسه بأول نظرة، فقام مسرعًا حتى لحقها فقال: رويدك يا هذه، فوقفت وعرفته فقالت: ما حاجتك؟ قال: أذات زوج أنت؟ قالت: نعم فما تريد؟ قال: لو كان غير هذا لكان لنا رأى، قالت: على ذلك وما هو؟ قال: عرض بقلبى من أمرك عارض[٣]، قالت: وما يمنعك من إنفاذه؟ قال: وتتابعينى على ذلك؟ قالت: نعم، فحلت به فى موضع فلما رأته مجداً فى الذى سأل قالت: رويدك يا مسكين لا يسقط جاهك عنده، فانتبه لها وذهب عنه ما كان يجد فقال: لا حرمك الله ثواب فعلك، ثم تنحى ناحية فقال لنفسه: اختارى إما عمى العين، وإما الجب[٤]، وإما السياحة مع الوحوش، فاختارت السياحة مع الوحوش، فكان كذلك إلى أن مات.

وأحب رجل جارية من العرب وكانت ذات عقل وأدب، فما زال يحتال فى أمرها حتى

---

(١) فاستعدى: اشتكى.
(٢) فليكتر: فليستأجر ما يحمله.
(٣) عارض: هاجس وخاطر.
(٤) الجب: قطع الخصية.

اجتمع معها فى ليلة مظلمة شديدة السواد، فحادثها ساعة ثم دعته نفسه إليها فقال: يا هذه قد طال شوقى إليك، قالت: وأنا كذلك، فقال: هذا الليل قد ذهب والصبح قد اقترب، قالت: هكذا تفنى الشهوات وتنقطع اللذات، فقال لها: لو دنوت منى، فقالت: هيهات، أخاف البعد من الله، قال: فما الذى دعاك إلى الحضور معى: قالت: شقوتى وبلائى، قال لها: فمتى أراك؟ قالت: ما أنساك، وأما الاجتماع معك فما أراه يكون، ثم تولت[١]، قال: فاستحييت مما سمعت منها، وأنشد:

توقّت عذابًا لا يطاق انتقامُه ... ولم تأتِ ما تخشى به أن تُعَذَّبا
وقالت مقالاً كدتُ من شدة الحيا ... أُهيم على وجهى حيًا وتعجُّبا
ألا أفّ للحبّ الذى يورث العمى ... ويُورد نارًا لا تَمَلُّ التلهُّبا
فأقبل عَوْدى فوق بَدْنى مفكرًا ... وقد زال عن قلبى العمى فتسرّبا

وقال ابن خلف: أخبرنى أبو بكر العامرى قال: عشقت عاتكة المرية ابن عم لها، فأرادها عن نفسها فامتنعت عليه وقالت:

فما طعمُ ماءٍ من سحابٍ مُرَوَّقٍ
تحدَّر[٢] من غُرٍّ طوالِ الذوائب[٣]
بِمُنْعَرَجٍ[٤] أو بطنِ وادٍ تطلعت
عليه رياحُ الصيف من كل جانب
تَرقرق ماءُ المُزْنِ[٥] فيهن والتقت
عليهنّ أنفاس الرّياض الغَرائب
نَفَتْ جِرْيَةُ الماء القذى[٦] عن متونه[٧]
فليس به عيبٌ تراه لشارب
بأطيب مما يقصر الطّرفُ دونه
تقى الله واستحياءُ تلك العواقب

---

(١) تولت: هربت.
(٢) تحدر: نزل سريعًا.
(٣) الذوائب: أعلى كل شىء.
(٤) منعرج: مكان مرتفع.
(٥) المزن: السحب.
(٦) القذى: ما يكون فى العين من وسخ.
(٧) متونه: ظهوره.

الباب التاسع والعشرون:

في ذم الهوى، وما في مخالفته من نيل المنى

وقد تقدم ذكر الآيات في ذلك وبعض ما ورد في السنة.

الهـوى: ميل الطبع إلى ما يلائمه، وهذا الميل خلق في الإنسان لضرورة بقائه، فإنه لولا ميله إلى المطعم والمشرب والمنكح ما أكل ولا شرب ولا نكح، فالهوى مستحث[١] لها لما يريده، كما أن الغضب دافع عنه ما يؤذيه، فلا ينبغي ذم الهوى مطلقًا، ولا مدحه مطلقًا، كما أن الغضب لا يذم مطلقًا ولا يحمد مطلقًا، وإنما يذم المفرط من النوعين، وهو ما زاد على جلب المنافع ودفع المضار، ولما كان الغالب من مطيع هواه وشهوته وغضبه أنه لا يقف فيه على حد المنتفع به أطلق ذم الهوى والشهوة والغضب لعموم غلبة الضـرر، لأنه يندر[٢] من يقصد العدل في ذلك ويقف عنده، كما أنه يندر في الأمزجة المزاج المعتدل من كل وجه، بل لا بد من غلبة أحد الأخلاط[٣] والكيفيات عليه، فحرص الناصح على تعديل قوى الشهوة والغضب من كل وجه، وهذا أمر يتعذر[٤] وجوده إلا في حق أفراد من العالم، فلذلك لم يذكر الله تعالى الهوى في كتابه إلا ذمه، وكذلك في السنة لم يجئ إلا مذمومًا إلا ما جاء منه مقيدًا كقوله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئت به»[٥].

وقد قيل: الهوى كمين[٦] لا يؤمن. قال الشعبي: وسمي هوى لأنه يهوى بصاحبه، ومطلقه يدعو إلى اللذة الحاضرة من غير فكر في العاقبة، ويحث على نيل الشهوات عاجلاً وإن كانت سببًا لأعظم الآلام عاجلاً وآجلاً، فللدنيا عاقبة قبل عاقبة الآخرة، والهوى يعمي صاحبه من ملاحظتها، والمروءة والدين والعقل ينهى عن لذة تعقب ألمًا، وشهوة تورث ندمًا، فكل منها يقول للنفس إذا أرادت ذلك: لا تفعلي، والطاعة لمن غلب، ألا ترى أن الطفل يؤثر ما يهوى، وإن أداه إلى التلف لضعف ناهي العقل عنده، ومن لا دين له يؤثر ما

---

(١) مستحث: محرض ودافع.

(٢) يندر: يقل وجوده.

(٣) الأخلاط: الأمزجة التي تكون في عقل الإنسان ونفسه.

(٤) يتعذر: يثقل.

(٥) تقدم تخريجه.

(٦) كمين: مستتر لا يرى.

يهواه وإن أداه إلى هلاكه فى الآخرة لضعف ناهى الدين، ومن لا مروءة له يؤثر ما يهواه وإن ثلم(١) مروءته أو عدمها لضعف ناهى المروءة، فأين هذا من قول الشافعى رحمه الله تعالى: لو علمت أن الماء البارد يثلم مروءتى لما شربته.

ولما امتحن المكلف بالهوى من بين سائر البهائم وكان كل وقت تحدث عليه حوادث جعل فيه حاكمان: حاكم العقل وحاكم الدين؛ وأمر أن يرفع حوادث الهوى دائماً إلى هذين الحاكمين وأن ينقاد لحكمهما، وينبغى أن يتمرن على دفع الهوى المأمون العواقب ليتمرن بذلك على ترك ما تؤذى عواقبه. وليعلم اللبيب أن مدمنى الشهوات يصيرون إلى حالة لا يلتذون بها. وهم مع ذلك لا يستطيعون تركها، لأنها قد صارت عندهم بمنزلة العيش الذى لا بد لهم منه، ولهذا ترى مدمن الخمر والجماع لا يلتذ به عشر معشار التذاذ من يفعله نادراً فى الأحيان، غير أن العادة مقتضية ذلك فيلقى نفسه فى المهالك لنيل ما تطالبه به العادة، ولو زال عنه رين(٢) الهوى لعلم أنه قد شقى من حيث قدر السعادة، واغتم من حيث ظن الفرح، وألم من حيث أراد اللذة. فهو كالطائر المخدوع بحبة القمح، لا هو نال الحبة ولا هو تخلص مما وقع فيه.

فإن قيل: فكيف يتخلص من هذا من قد وقع فيه؟ قيل: يمكنه التخلص بعون الله وتوفيقه له بأمور:

أحدها: عزيمة حر يغار لنفسه وعليها.

الثانى: جرعة صبر يصبر نفسه على مرارتها تلك الساعة.

الثالث: قوة نفس تشجعه على شرب تلك الجرعة، والشجاعة كلها صبر ساعة، وخير عيش أدركه العبد بصبره.

الرابع: ملاحظته حسن موقع العاقبة والشفاء بتلك الجرعة.

الخامس: ملاحظته الألم الزائد على لذة طاعة هواه.

السادس: إبقاؤه على منزلته عند الله تعالى وفى قلوب عباده، وهو خير وأنفع له من لذة موافقة الهوى.

السابع: إيثاره لذة العفة وعزتها وحلاوتها على لذة المعصية.

الثامن: فرحه بغلبة عدوه وقهره له ورده خاسئًا بغيظه وغمه وهمه حيث لم ينل منه أمنيته، والله تعالى يحب من عبده أن يراغم(٣) عدوه ويغيظه كما قال الله تعالى فى كتابه

---

(١) ثلم: أحدث به عيبًا. (٢) رين: صدأ. (٣) يراغم: يعادى.

العـزيـز: ﴿ولا يطئون موطئًا يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلاً إلا كتب لهم به عمل صالح﴾ (التوبة: ١٢٠) وقال: ﴿ليغيظ بهم الكفار﴾ الفتح: ٢٩ وقال تعالى: ﴿ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغمًا كثيرًا وسعة﴾ (النسـاء: ١٠٠) أى مكانًا يراغم فيه أعداء الله، وعلامة المحبة الصادقة مغايظة أعداء المحبوب ومراغمتهم.

التـاسع: التفكر فى أنه لم يلق للهوى وإنما هُيِّئَ لأمر عظيم لا يناله إلا بمعصيته للهوى كما قيل:

قـد هيَّـأوك لأمـر لو فَطِـنت له فـاربأ بنفسك أن ترعى مع الهـمل

العـاشـر: أن لا يختار لنفسه أن يكون الحيوان البهيم أحسن حالاً منه، فإن الحيوان يميز بطبعه بين مواقع ما يضره وما ينفعه، فيؤثر النافع على الضار، والإنسان أعطى العقل لهذا المعنى، فإذا لم يميز به بين ما يضره وما ينفعه أو عرف ذلك وآثر ما يضره كان حال الحيوان البهيم أحسن منه، ويدل على ذلك أن البهيمة تصيب من لذة المطعم والمشرب والمنكح ما لا يناله الإنسان مع عيش هنيء خال عن الفكر والهم، ولهذا تساق إلى منحرها[1] وهى منهمكة على شهواتها لفقدان العلم بالعواقب، والآدمى لا يناله ما يناله الحيوان لقوة الفكر الشاغل، وضعف الآلة المستعملة وغير ذلك، فلو كان نيل المشتهى فضيلة لما بخس[2] منه حق الآدمى الذى هو خلاصة العالم، ووفر منه حظ البهائم، وفى توفير حظ الآدمى من العقل والعلم والمعرفة عوض عن ذلك.

الحادى عشر: أن يسير بقلبه فى عواقب الهوى، فيتأمل كم أفاتت معصيته من فضيلة، وكم أوقعت فى رذيلة، وكم أكلة منعت أكلات، وكم من لذة فوتت لذات، وكم من شهوة كسرت جاهًا، ونكست رأسًا، وقبحت ذكرًا، وأورثت ذمًا، وأعقبت ذلاً، وألزمت عارًا لا يغسله الماء، غير أن عين صاحب الهوى عمياء.

الثانى عشر: أن يتصور العاقل انقضاء غرضه ممن يهواه ثم يتصور حاله بعد قضاء الوطر[3] وما فاته وما حصل له:

فأفضل الناس من لم يرتكب سببًا حتى يميز لما تجنى عواقبه

الثالث عشر: أن يتصور ذلك فى حق غيره حق التصور، ثم ينزل نفسه تلك المنزلة، فحكم الشيء حكم نظيره.

---

(١) منحرها: مكان الذبح فى الرقبة، وهذا خاص بالإبل فقط. (٢) بخس: نقص.
(٣) الوطر: الحاجة.

الرابع عشر: أن يتفكر فيما تطالبه به نفسه من ذلك، ويسأل عنه عقله ودينه يخبرانه بأنه ليس بشيء. قال عبد الله بن مسعود ﷺ: إذا أعجب أحدكم امرأة فليذكر مناتنها[١]، وهذا أحسن من قول أحمد بن الحسين:

لو فكَّر العاشقُ فى منتهى   حسنِ الذى يسبيه[٢] لم يَسْبِه

لأن ابن مسعود ﷺ ذكر الحال الحاضرة الملازمة، والشاعر حال على أمر متأخر.

الخامس عشر: أن يأنف لنفسه من ذل طاعة الهوى، فإنه ما أطاع أحد هواه قط إلا وجد فى نفسه ذلاً، ولا يغتر بصولة[٣] أتباع الهوى وكبرهم فهم أذل الناس بواطن، قد جمعوا بين فصيلتى الكبر والذل.

السادس عشر: أن يوازن بين سلامة الدين والعرض والمال والجاه ونيل اللذة المطلوبة، فإنه لا يجد بينهما نسبة البتة، فليعلم أنه من أسفه الناس ببيعه هذا بهذا.

السابع عشر: أن يأنف لنفسه أن يكون تحت قهر عدوه، فإن الشيطان إذا رأى من العبد ضعف عزيمة وهمة وميلاً إلى هواه طمع فيه وصرعه وألجمه[٤] بلجام الهوى وساقه حيث أراد، ومتى أحس منه بقوة عزم وشرف نفس وعلو همة لم يطمع فيه إلا اختلاسًا وسرقة.

الثامن عشر: أن يعلم أن الهوى ما خالط شيئًا إلا أفسده، فإن وقع فى العلم أخرجه إلى البدعة والضلالة وصار صاحبه من جملة أهل الأهواء، وإن وقع فى الزهد أخرج صاحبه إلى الرياء ومخالفة السنة، وإن وقع فى الحكم أخرج صاحبه إلى الظلم وصده عن الحق، وإن وقع فى القسمة خرجت عن قسمة العدل إلى قسمة الجور، وإن وقع فى الولاية والعزل أخرج صاحبه إلى خيانة الله والمسلمين حيث يولى بهواه ويعزل بهواه، وإن وقع فى العبادة خرجت عن أن تكون طاعة وقربة، فما قارن شيئًا إلا أفسده.

التاسع عشر: أن يعلم أن الشيطان ليس له مدخل على ابن آدم إلا من باب هواه، فإنه يطيف به من أين يدخل عليه حتى يفسد عليه قلبه وأعماله، فلا يجد مدخلاً إلا من باب الهوى، فيسرى معه سريان السم فى الأعضاء.

العشرون: أن الله سبحانه وتعالى جعل الهوى مضادًا لما أنزله على رسوله، وجعل اتباعه مقابلاً لمتابعة رسله، وقسم الناس إلى قسمين: أتباع الوحى، وأتباع الهوى، وهذا

---

(١) مناتنها: مساوئها كرمص العين، وبولها، ومخاط أنفها.
(٢) يسبيه: يسترقه ويأسره.
(٣) صولة: سطوة.
(٤) ألجمه: وضع عليه اللجام.

كثير في القرآن كقوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ (القصص: ٥٠) وقوله تعالى: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ (البقرة: ١٢٠) ونظائره.

الحادى والعشرون: أن الله سبحانه وتعالى شبه أتباع الهوى بأخس(١) الحيوانات صورة ومعنى، فشبههم بالكلب تارة كقوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ﴾ (الأعراف: ١٧٦) وبالحمر تارة كقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ(٢) ۝٥٠ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ(٣)﴾ (المدثر: ٥٠، ٥١) وقلب صورهم إلى صورة القردة والخنازير تارة.

الثانى والعشرون: أن متبع الهوى ليس أهلاً أن يطاع، ولا يكون إمامًا ولا متبوعًا، فإن الله سبحانه وتعالى عزله عن الإمامة ونهى عن طاعته، أما عزله فإن الله سبحانه وتعالى قال لخليله إبراهيم: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ (البقرة: ١٢٤) أى لا ينال عهدى بالإمامة ظالمًا، وكل من اتبع هواه فهو ظالم، كما قال الله تعالى: ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ (الروم: ٢٩) وأما النهى عن طاعته فلقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ (الكهف: ٢٨).

الثالث والعشرون: أن الله سبحانه وتعالى جعل متبع الهوى بمنزلة عابد الوثن فقال تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ (الفرقان: ٤٣، والجاثية: ٢٣ بزيادة الفاء بعد همزة الاستفهام) فى موضعين من كتابه، قال الحسن: هو المنافق لا يهوى شيئًا إلا ركبه، وقال أيضًا: المنافق عبد هواه لا يهوى شيئًا إلا فعله(٤).

الرابع والعشرون: أن الهوى هو حظار(٥) جهنم المحيط بها حولها، فمن وقع فيه وقع فيها كما فى الصحيحين عن النبى ﷺ أنه قال: «حُفَّت(٦) الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات»(٧).

وفى الترمذى من حديث أبى هريرة رضي الله عنه يرفعه: «لما خلق الله الجنة أرسل إليها جبريل فقال: انظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها، فجاء فنظر إليها وإلى ما أعد الله لأهلها فيها،

---

(١) أخس: أحط وأقل.

(٢) مستنفرة: فزعة مذعورة.

(٣) قسورة: الأسد.

(٤) انظر تفسير الحسن البصرى (٢/ ١٦٨).

(٥) حظار: السور والسياج.

(٦) حفت: أحيطت.

(٧) صحيح: رواه البخارى (٦٤٨٧) عن أبى هريرة، ومسلم (٢٨٢٢) عن أنس، وكذا أحمد (٣/ ١٥٣).

فرجع إليه وقال: وعزتك لا يسمع بها أحد من عبادك إلا دخلها، فأمر بها فحُجبت بالمكاره وقال: ارجع إليها فانظر إليها فرجع فإذا هى قد حجبت بالمكاره، فقال: وعزتك لقد خشيت أن لا يدخلها أحد، قال: اذهب إلى النار فانظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها، فجاء فنظر إليها وإلى ما أعد الله لأهلها فيها، فإذا هى يركب بعضها بعضًا، فقال: وعزتك لا يسمع بها أحد فيدخلها، فأمر بها فحفت بالشهوات، فقال: ارجع فانظر إليها، فرجع إليها فإذا هى قد حُفت بالشهوات، فرجع إليه فقال: وعزتك لقد خشيت أن لا ينجو منها أحد»(١) قال الترمذى: هذا حديث حسن صحيح.

الخامس والعشرون: أنه يخاف على من اتبع الهوى أن ينسلخ من الإيمان، وهو لا يشعر، وقد ثبت عن النبى ﷺ أنه قال: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئت به»(٢)، وصح عنه أنه قال: «أخوف ما أخاف عليكم شهوات الغى فى بطونكم وفروجكم ومضلات الهوى»(٣).

السادس والعشرون: أن اتباع الهوى من المهلكات. قال ﷺ: «ثلاث منجيات وثلاث مهلكات: فأما المنجيات: فتقوى الله عز وجل فى السر والعلانية، والقول بالحق فى الرضا والسخط، والقصد فى الغنى والفقر، وأما المهلكات فهوى متبع، وشح مطاع، وإعجاب المرء بنفسه»(٤).

السابع والعشرون: أن مخالفة الهوى تورث العبد قوة فى بدنه وقلبه ولسانه، قال بعض السلف: الغالب لهواه أشد من الذى يفتح المدينة وحده. وفى الحديث الصحيح المرفوع: «ليس الشديد بالصرعة ولكن الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب»(٥)، وكلما تمرن على مخالفة هواه اكتسب قوة إلى قوته.

الثامن والعشرون: أن أغزر الناس مروءة أشدهم مخالفة لهواه. قال معاوية: المروءة ترك الشهوات وعصيان الهوى، فاتباع الهوى يزمن(٦) المروءة، ومخالفته تنعشها.

التاسع والعشرون: أنه ما من يوم إلا والهوى والعقل يعتلجان(٧) فى صاحبه، فأيها قوى على صاحبه طرده وتحكم وكان الحكم له.

---

(١) صحيح: رواه أحمد (٢/ ٣٣٢) وأبو داود (٢٧٤٤) والترمذى (٢٥٦٠) والنسائى (٧/ ٤٠٣) وأبو يعلى (٥٩٤٠) وابن حبان (٧٣٩٤) والحاكم (١/ ٢٦).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) تقدم تخريجه.

(٥) صحيح: رواه البخارى (٦١١٤) ومسلم (٢٦٠٩) وأحمد (٢/ ٢٦٨).

(٦) يزمن: مرض مرضًا يدوم زمانًا طويلاً.

(٧) يعتلجان: يتخاصمان ويتصارعان.

قال أبو الدرداء: إذا أصبح الرجل اجتمع هواه وعمله، فإن كان عمله تبعًا لهواه فيومه يوم سوء، وإن كان هواه تبعًا لعمله فيومه يوم صالح.

الثلاثون: أن الله سبحانه وتعالى جعل الخطأ واتباع الهوى قرينين[١]، وجعل الصواب ومخالفة الهوى قرينين، كما قال بعض السلف: إذا أشكل عليك أمران لا تدرى أيها أرشد فخالف أقربهما من هواك، فإن أقرب ما يكون الخطأ فى متابعة الهوى.

الحادى والثلاثون: أن الهوى داء ودواؤه مخالفته، قال بعض العارفين: إن شئت أخبرتك بدائك، وإن شئت أخبرتك بدوائك، داؤك هواك، ودواؤك ترك هواك ومخالفته.

وقال بشر الحافي: رحمه الله تعالى: البلاء كله فى هواك، والشفاء كله فى مخالفتك إياه.

الثاني والثلاثون: أن جهاد الهوى إن لم يكن أعظم من جهاد الكفار فليس بدونه، قال رجل للحسن البصرى رحمه الله تعالى: يا أبا سعيد، أى الجهاد أفضل؟ قال: جهادك هواك.

وسمعت شيخنا يقول: جهاد النفس والهوى أصل جهاد الكفار والمنافقين، فإنه لا يقدر على جهادهم حتى يجاهد نفسه وهواه أولاً حتى يخرج إليهم.

الثالث والثلاثون: أن الهوى تخليط[٢] ومخالفته حمية[٣]، ويخاف على من أفرط فى التخليط وجانب الحمية أن يصرعه داؤه. قال عبد الملك بن قريب: مررت بأعرابى به رمد[٤] شديد ودموعه تسيل على خديه فقلت: ألا تمسح عينيك؟ قال: نهانى الطبيب عن ذلك، ولا خير فيمن إذا زُجر[٥] لا ينزجر، وإذا أمر لا يأتمر، فقلت: ألا تشتهى شيئًا؟ فقال: بلى ولكنى أحتمى، إن أهل النار غلبت شهوتهم حِمْيَتُهُمْ فهلكوا.

الرابع والثلاثون: أن اتباع الهوى يغلق عن العبد أبواب التوفيق، ويفتح عليه أبواب الخذلان، فتراه يلهج[٦] بأن الله لو وفق لكان كذا وكذا، وقد سد على نفسه طرق التوفيق باتباعه هواه. قال الفضيل بن عياض: من استحوذ[٧] عليه الهوى واتباع الشهوات انقطعت عنه موارد التوفيق.

---

(١) قرينين: خليلين.
(٢) تخليط: ذهاب العقل.
(٣) حمية: الإمساك عما يضر البدن.
(٤) رمد: الرمد: داء التهابى يصيب العين.
(٥) زجر: نهى ونهر.
(٦) يلهج: يولع به.
(٧) استحوذ عليه: ملكه.

وقال بعض العلماء: الكفر فى أربعة أشياء: فى الغضب، والشهوة، والرغبة، والرهبة، ثم قال: رأيت منهن اثنتين: رجلاً غضب فقتل أمه، ورجلاً عشق فتنصر(١).

وكان بعض السلف يطوف بالبيت فنظر إلى امرأة جميلة فمشى إلى جانبها ثم قال:

أهوى هوى الدِّين واللذّاتُ تُعجبنى فكيف لى بهـوى اللذّاتِ والدين

فقالت: دع أحدهما تَنَل الآخر.

الخامس والثلاثون: أن من نصر هواه فسد عليه عقله ورأيه، لأنه قد خان الله فى عقله فأفسده عليه، وهذا شأنه سبحانه وتعالى فى كل من خانه فى أمر من الأمور، فإنه يفسده عليه.

وقال المعتصم يومًا لبعض أصحابه: يا فلان إذا نصر الهوى ذهب الرأى.

وسمعت رجلاً يقول لشيخنا: إذا خان الرجل فى نقد الدراهم سلبه الله معرفة النقد - أو قال نسيه - فقال الشيخ: هكذا من خان الله تعالى ورسوله فى مسائل العلم.

السادس والثلاثون: أن من فسح لنفسه فى اتباع الهوى ضيق عليها فى قبره ويوم معاده، ومن ضيق عليها بمخالفة الهوى وسع عليها فى قبره ومعاده، وقد أشار الله تعالى إلى هذا فى قوله تعالى: ﴿وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ (الإنسان: ١٢) فلما كان فى الصبر الذى هو حبس النفس عن الهوى خشونة وتضييق، جازاهم على ذلك نعومة الحرير وسعة الجنة. وقال أبو سليمان الدارانى رحمه الله تعالى فى هذه الآية جزاهم بما صبروا عن الشهوات.

السابع والثلاثون: أن اتباع الهوى يصرع العبد عن النهوش يوم القيامة عن السعى مع الناجين، كما صرع قلبه فى الدنيا عن مرافقتهم.

قال محمد بن أبى الورد: إن لله عز وجل يومًا لا ينجو من شره منقاد لهواه، وإن أبطأ الصرعى نهضة يوم القيامة صريع شهوته، وإن العقول لما جرت فى ميادين الطلب كان أوفرها حظًا من يطالبها بقدر ما صحبه من الصبر. والعقل معدن، والفكر معول.

الثامن والثلاثون: أن اتباع الهوى يحل العزائم ويوهنها، ومخالفته تشدها وتقويها. والعزائم هى مركب العبد الذى يسيره إلى الله والدار الآخرة، فمتى تعطل المركوب أوشك أن ينقطع المسافر. قيل ليحيى بن معاذ: من أصح الناس عزمًا؟ قال: الغالب لهواه.

ودخل خلف بن خليفة على سليمان بن حبيب بن المهلب وعنده جارية يقال لها

---

(١) تنصَّر: ارتد عن الإسلام، ودخل النصرانية.

البدر من أحسن الناس وجهًا، فقال له سليمان: كيف ترى هذه الجارية ؟ فقال: أصلح الله الأمير ما رأت عيناى أحسن منها قط، فقال له: خذ بيدها، فقال: ما كنت لأفجع الأمير بها وقد رأيت شدة عجبه بها، فقال: ويحك خذها على شدة عجبى بها ليعلم هواى أنى له غالب، وأخذ بيدها وخرج وهو يقول:

لقد حبانى[١] وأعطانى وفضّلنى ... عن غير مسألة منه سليمانُ
أعطانى البدرَ خَوْدًا[٢] فى محاسنها ... والبدرُ لم يُعْطه إنسٌ ولا جانُ
ولست يومًا بناسٍ فضلَه أبدًا ... حتى يغيّبنى لحدٌ وأكفانُ

التاسع والثلاثون: أن مثل راكب الهوى كمثل راكب فرس حديد صعب جموح[٣] لا لجام له فيوشك أن يصرعه فرسه فى خلال جريه به أو يسير به إلى مهلك. قال بعض العارفين: أسرع المطايا[٤] إلى الجنة الزهد فى الدنيا، وأسرع المطايا إلى النار حب الشهوات، ومن استوى على متن هواه أسرع به إلى وادى الهلكات. وقال آخر: أشرف العلماء من هرب بدينه من الدنيا، واستصعب قياده على الهوى. وقال عطاء: من غلب هواه عقله وجزعه صبره افتضح.

الأربعون: أن التوحيد واتباع الهوى متضادان، فإن الهوى صنم ولكل عبد صنم فى قلبه بحسب هواه. وإنما بعث الله رسله بكسر الأصنام وعبادته وحده لا شريك له، وليس مراد الله سبحانه كسر الأصنام المجسدة وترك الأصنام التى فى القلب، بل المراد كسرها من القلب أولاً. قال الحسن بن على المطوعى: صنم كل إنسان هواه، فمن كسره بالمخالفة استحق اسم الفتوة[٥]، وتأمل قول الخليل صلى الله عليه وسلم لقومه: ﴿**مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ**[٦]﴾ (الأنبياء: ٥٢) كيف تجده مطابقًا للتماثيل التى يهواها القلب ويعكف عليها ويعبدها من دون الله، قال الله تعالى: ﴿**أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا (٤٣) أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا**﴾ (الفرقان: ٤٣، ٤٤).

الحادى والأربعون: أن مخالفة الهوى مطردة للداء عن القلب والبدن، ومتابعته مجلبة

---

(١) حبانى: أنعم علىَّ وأعطانى.
(٢) خودًا: الفتاة الجميلة حسنة الخلق.
(٣) جموح: صعبة الترويض.
(٤) المطايا: المطية: كل ما يركب كالخيل والإبل.
(٥) الفتوة: الفحولة.
(٦) العاكفون: المقيمون.

لداء القلب والبدن، فأمراض القلب كلها من متابعة الهوى، ولو فتشت على أمراض البدن لرأيت غالبها من إيثار الهوى على ما ينبغي تركه.

الثاني والأربعون: أن أصل العداوة والشر والحسد الواقع بين الناس من اتباع الهوى، فمن خالف هواه أراح قلبه وبدنه وجوارحه فاستراح وأراح. قال أبو بكر الوراق: إذا غلب الهوى أظلم القلب، وإذا أظلم ضاق الصدر، وإذا ضاق الصدر ساء الخلق، وإذا ساء الخلق أبغضه الخلق وأبغضهم، فانظر ماذا يتولد من التباغض من الشر والعداوة وترك الحقوق وغيرها.

الثالث والأربعون: أن الله سبحانه وتعالى جعل فى العبد هوًى وعقلاً فأيهما ظهر توارى الآخر. كما قال أبو على الثقفى: من غلبه هواه توارى عنه عقله، فانظر عاقبة من استتر عنه عقله وظهر عليه خلافه. وقال على بن سهل رحمه الله: العقل والهوى يتنازعان، فالتوفيق قرين العقل، والخذلان قرين الهوى، والنفس واقفة بينهما، فأيهما غلب كانت النفس معه.

الرابع والأربعون: أن الله سبحانه وتعالى جعل القلب ملك الجوارح ومعدن معرفته ومحبته وعبوديته، وامتحنه بسلطانين وجيشين وعونين وعدتين فالحق والزهد والهدى سلطان وأعوانه الملائكة وجيشه الصدق والإخلاص ومجانبة الهوى، والباطل سلطان، وأعوانه الشياطين وجنده وعدته اتباع الهوى، والنفس واقفة بين الجيشين. ولا يقدم جيش الباطل على القلب إلا من ثغرتها وناحيتها، فهى تخامر على القلب وتصير مع عدوه عليه فتكون الدائرة عليه، فهى التى تعطى عدوها عدة من قبلها، وتفتح له باب المدينة فيدخل ويتملك ويقع الخذلان على القلب.

الخامس والأربعون: أن أعدى عدو للمرء شيطانه وهواه، وأصدق صديق له عقله والملك الناصح له، فإذا اتبع هواه أعطى بيده لعدوه واستأسر له وأشمته به وساء صديقه ووليه، وهذا هو بعينه هو جهد البلاء، ودرك الشقاء، وسوء القضاء، وشماتة الأعداء.

السادس والأربعون: أن لكل عبد بداية ونهاية، فمن كانت بدايته اتباع الهوى، كانت نهايته الذل والصغار[1] والحرمان والبلاء المتبوع بحسب ما اتبع من هواه، بل يصير له ذلك فى نهايته عذابًا يعذب به فى قلبه كما قال القائل:

---

(١) الصغار: الهوان والذل.

مآرب[١] كانت في الشباب لاهلها عذابًا فصارت في المشيب عذابا

فلو تاملت حال كل ذى حال سيئة زرية[٢] لرأيت بدايته الذهاب مع هواه وإيثاره على عقله، ومن كانت بدايته مخالفة هواه وطاعة داعى رشده كانت نهايته العز والشرف والغنى والجاه عند الله وعند الناس. قال أبو على الدقاق: من ملك شهوته فى حال شبيبته أعزه الله تعالى فى حال كهولته، وقيل للمهلب بن أبى صفرة: بم نلت ما نلت؟ قال: بطاعة الحزم وعصيان الهوى، فهذا فى بداية الدنيا ونهايتها، وأما الآخرة فقد جعل الله سبحانه الجنة نهاية من خالف هواه، والنار نهاية من اتبع هواه.

السابع والأربعون: ان الهوى رق[٣] فى القلب، وغل[٤] فى العنق، وقيد فى الرجل، ومتابعه أسير لكل سيئ الملكة، فمن خالفه عتق من رقه وصار حرًّا، وخلع الغل من عنقه والقيد من رجله وصار بمنزلة رجل سالم لرجل، بعد أن كان رجلاً فيه شركاء متشاكسون[٥].

ربّ مستور سَبَتْه شهوة فتعرى ستره فانهتكا
صاحبُ الشهوة عبدٌ فإذا غلبَ الشهوةَ أضْحى مَلِكا

وقال ابن المبارك:

ومن البلاء وللبلاء علامةٌ أن لا يُرى لك عن هواك نزوعُ[٦]
العبدُ عبدُ النفس فى شهواتها والحرُّ يشبع تارةً ويجوع

الثامن والأربعون: ان مخالفة الهوى تقيم العبد فى مقام من لو اقسم على الله لأبره[٧]، فيقضى له من الحوائج اضعاف أضعاف ما فاته من هواه، فهو كمن رغب عن بعرة[٨] فاعطى عوضها درة. ومتبع الهوى يفوته من مصالحه العاجلة والآجلة والعيش الهنيء ما لا نسبة لما ظفر به من هواه البتة، فتأمل انبساط يد يوسف الصديق عليه الصلاة والسلام ولسانه وقدمه ونفسه بعد خروجه من السجن لما قبض نفسه عن الحرام.

وقال عبد الرحمن بن مهدى: رأيت سفيان الثورى رحمه الله تعالى فى المنام فقلت له: ما فعل الله بك؟ قال: لم يكن إلا أن وضعت فى لحدى حتى وقفت بين يدى الله تبارك

---

(١) مآرب: المآرب: الحاجة.
(٢) زرية: معيبة.
(٣) رق: الرق: العبودية.
(٤) غل: قيد.
(٥) متشاكسون: متفرقون.
(٦) نزوع: ترك.
(٧) لأبره: وفى بقسمه.
(٨) بعرة: البعرة: فضلات الإبل.

وتعالى، فحاسبنى حسابًا يسيرًا ثم أمر بى إلى الجنة، فبينا أنا أدور بين أشجارها وأنهارها لا أسمع حسًا ولا حركة إذ سمعت قائلاً يقول: سفيان بن سعيد، فقلت: سفيان بن سعيد، فقال: تحفظ أنك آثرت الله عز وجل على هواك يومًا؟ قلت: إى والله، فأخذنى النثار[١] من كل جانب.

وقال عبد الرزاق: بعث أبو جعفر الخشابين حين خرج إلى مكة وقال: إن رأيتم سفيان فاصلبوه، فجاءوا ونصبوا الخشب، وطلب ورأسه فى حجر الفضيل فقال له أصحابه: اتق الله عز وجل ولا تشمت بنا الأعداء، فتقدم إلى الأستار ثم أخذها بيده وقال: برئت منه إن دخلها أبو جعفر، فمات قبل أن يدخل مكة، فتأمل عاقبة مخالفة الهوى كيف أقامه فى هذا المقام.

التاسع والأربعون: أن مخالفة الهوى توجب شرف الدنيا وشرف الآخرة، وعز الظاهر وعز الباطن، ومتابعته تضع[٢] العبد فى الدنيا والآخرة وتذله فى الظاهر وفى الباطن، وإذا جمع الله الناس فى صعيد واحد نادى مناد: ليعلمن أهل الجمع من أهل الكرم اليوم، ألا ليقم المتقون، فيقومون إلى محل الكرامة، وأتباع الهوى ناكسو رءوسهم فى الموقف فى حر الهوى وعرقه وألمه، وأولئك فى ظل العرش.

الخمسون[٣]: أنك إذا تأملت السبعة الذين يظلهم الله عز وجل فى ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله، وجدتهم إنما نالوا ذلك الظل بمخالفة الهوى، فإن الإمام المسلط القادر لا يتمكن من العدل إلا بمخالفة هواه، والشاب المؤثر لعبادة الله على داعى شبابه لولا مخالفة هواه لم يقدر على ذلك، والرجل الذى قلبه معلق بالمساجد إنما حمله على ذلك مخالفة الهوى الداعى له إلى أماكن اللذات، والمتصدق المخفى لصدقته عن شماله لولا قهره لهواه لم يقدر على ذلك، والذى دعته المرأة الجميلة الشريفة فخاف الله عز وجل وخالف هواه، والذى ذكر الله عز وجل خاليًا ففاضت عيناه من خشيته، إنما أوصله إلى ذلك مخالفة هواه، فلم يكن لحر الموقف وعرقه وشدته سبيل عليهم يوم القيامة، وأصحاب الهوى قد بلغ منهم الحر والعرق كل مبلغ وهم ينتظرون بعد هذا دخول سجن الهوى.

---

(١) النثار: ما يوزع من الهدايا فى الحفلات والمناسبات.

(٢) تضع: تحط وتخفض.

(٣) هذا هو حديث الظلال، الذى أوله: «سبعة يظلهم الله فى ظله...» رواه البخارى (٦٦٠) ومسلم (١٠٣١).

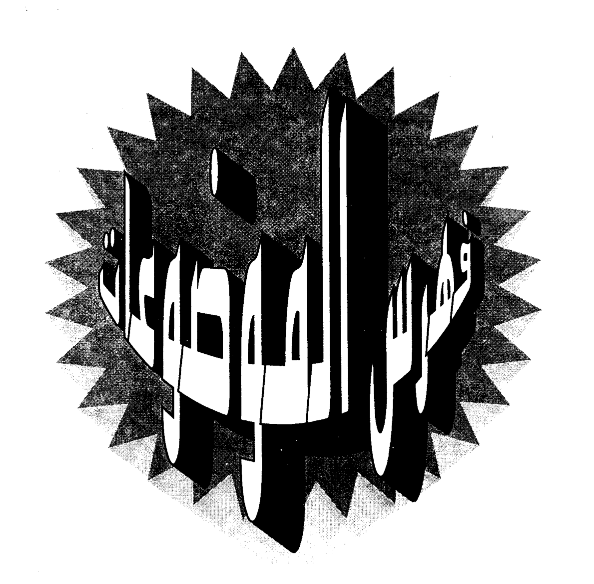
فالله سبحانه وتعالى المسئول
أن يعيذنا من أهواء نفوسنا الأمارة بالسوء
وأن يجعل هوانا تبعًا لما يحبه ويرضاه
إنه على كل شيء قدير
وبالإجابة جدير

* * *

تم الكتاب والحمد لله[١]

---

(١) إلى هنا وقف القلم في تحقيق هذا الكتاب الفريد في بابه، الممتع في قراءته على يد محققه أبي عدي أحمد سعد، مساء السبت السادس والعشرين من المحرم ١٤٢٧هـ.
والحمد لله على التمام أولاً وآخرا


فهرس الموضوعات



فهرس الموضوعات

الموضـــــوع	الصفحة